

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني
سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني
المتوفى ٧١٣ھ

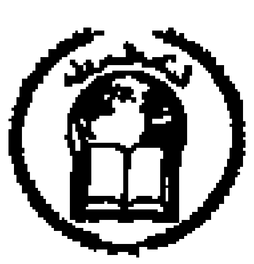
تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الخامس

المحتوى:

أول سورة الفتح - آخر سورة الناس



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈ شالدرہ کوئٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَــــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُــوْبَ هٰذَا النــَّاشِرِ

وَذُنــُوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِيْنَ

أَجْمَعِيْنَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية - كويتا - باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

فاتحة سورة الفتح

لا يخفى على أرباب السكينة والوقار من الفائزين بسرائر التوحيد، المنكشفين بأسرار الربوبية والألوهية من استقام على طريق الحق متوكلاً عليه، مفوضًا أموره كلها إليه، مخلصًا في جميع أعماله وأحواله، مستويًا على منهج العدالة المأمورة له من قبل ربه، فقد فتح عليه سبحانه أبواب الفتوحات الغيبية، وأفاض عليه أنواع الكرامات السنية القدسية، وأوصله إلى الدرجات العلية اللاهوتية، وأنقذه من الدركات الدنية الناسوتية الإمكانية الجهنمية.

لذلك منَّ سبحانه على حبيبه ﷺ بالفتح والظفر على عموم ما يسر الله له ووفقه عليه من أنواع الخيرات والكرامات المنتظرة له، وأصناف السعادات العاجلة والآجلة، فقال متيمنًا باسمه الأعظم الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي فتح على خلص عباده أبواب المعارف واليقين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضة العقل المتشعب من حضرة علمه؛ ليهديهم إلى صراط مستقيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مقر التوحيد؛ ليتمكنوا في جنة الرضا وروضة التسليم.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾
لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: 1-9].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]

---

(1) قال سيدي محمد البيطار في وارده على الآية بالفتح المدرار ما نصه: اعلم - رحمك الله - أن الجوهر الفرد الأصلي للعالم العقل المحمدي، وهو نور ذاتي مفاض إفاضة ذاتية من الحقيقة الكلية الجامعة للحق والخلق، إلا أن الحقيقة الكلية برزخ بين الوجود والعدم، وهي العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق ما فوقه هواء وما تحته هواء، المراد بالهواء الأول: حقيقة الحق. وبالهواء الثاني: الخلق، فالعماء حقيقة برزخية، ولا يخفى أن البرزخ إذا انتهى حكمه آل إلى أحد الطرفين مع عدم المنافاة لمقامه الأول العمائي، فتجلى الحق تعالى من اسمه الباطن تجليًا أحديًا من نفسه لنفسه في نفسه، فانفتح من غيب ذاته النور المحمدي، وهو جوهر العالم وحقيقته، فكان مرآة وجود الحق وهو العقل الأول الوجودي، ولولا هذا العقل لم يتقيّد تعالى باسم الوجود، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: من ذاتنا المطلقة التي لا تختص بالوجود ولا بالعدم، ولا تعلم لا من اسم ولا من صفة، وقد حجر الشرع المطهّر التفكير فيها؛ لأنها لا ترتبط بأمر، وتظهر بنقيض ذلك الأمر، فالعلم بالذات عبارة عن الجهل بها وأنها لا تعلم، ففتح الله من ذاته جوهر الوجود المحمدي لأجل وجود محمد ﷺ؛ لأنه تعالى هو المحب لأن يعرف، ولا يعرف إلا بظهوره بصورة محبوبه؛ لأنه هو الجميل، فأحب نفسه فكانت نفسه عين الحقيقة المحمدية، فكان هذا الفتح لأجل المحبوب الجميل وهو يحب الجمال، فأحب أن يظهر جماله بمحمد وأن يعرف بأن الجوهر المحمدي عينه لا غيره، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: لأجلك حتى نريك نفسك عيننا، وأنك المسمى بأسمائنا، فهذا الفتح من حقيقة اسمنا (الفتاح) يبين لك ذاتك، وأنك حقيقة حياتنا الذي منها كل شيء حي.

فالحقيقة المحمدية مستوى الرحمانية وعرشها، وبالرحمة كان الوجود فهو عين الرحمة، ولذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:17]، فكان هذا الفتح مبيّنًا له حقيقة نفسه بأنه نور الوجود المقدّس الطيب الطاهر، كما قال ﷺ: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس» فتبين من هذا أنه المسمى بالأسماء الحسنى؛ لأنه باطن الكنز المخفي، فقوله أي لأجل ظهور أحديتنا لك في نفسك، وأحديتنا تغفر ما تقدّم من ذنب الكثرة المتقدمة والمتأخرة الملهية عن تلك الأحدية، ولذا أخبره بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]، وليس

ذنبه إلا الكون جميعه مع جميع ما يصدر منه، فالمقصود: ستر جميع ذلك بأحدية الذات الوجودية المطلقة؛ ليظهر تقديس تلك الحقيقة المحمدية بمحو كون شرك الأغيار، وتجلي وجود أحدية الغفار، فالذنب لتلك الحقيقة المحمدية حقيقي أصلي لا مجازي، بل نسبته الذنب الكوني لغير الجوهر المحمدي بطريق المجاز عند المحققين، ومع كون الحقيقة المحمدية جوهرًا وجوديًا ذاتيًا عينيًا فلا توجد إلا بالصور الكونية، فالصور الكونية هي ذنبه ﷺ المستور بحقيقة الأحدية، والعجب أن هذا الذنب لا عين له حقيقية، وإنما هو أمر وهمي يظهر أنه عيني من ظلمة الحجاب، ومع ذلك فلولا هذا العدم الوهمي ما ظهر الوجود، فالوجود لا مظهر له إلا العدم وبالعكس. فلذا فتح الله لمحمد ﷺ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:1]، ليغفر له، أي: لأجل أنه يبين هذا الفتح المبين له، مغفرة ما تقدّم من صور حقيقته، وما تأخر بوجود حقيقته، وسُميت هذه الصورة الكونية ذنبًا باعتبار نسبة الوجود إليها؛ لأن ذلك من أعظم الذنوب .. فلمابدا هذا الفتح المبين لمحمد ﷺ أبان له أن الكون كله مغفور بحقيقته، وحقيقته مغفورة بوجود الله الغافر بوجوده كل أول وآخر وظاهر وباطن، فالكل هو وهذه هي مغفرة الذنب الكوني ما تقدّم منه وما تأخر، فلذلك قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:2]، فأتمّ نعمته بتجلي ذاته وأسمائه وصفاته وشئونه ووجوهه واعتباراته، وهذا هو الصراط المستقيم الذي قال في حقه: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]، ولمّا اقتضى إتمام النعمة عليه بما ذكرنا أن يكون مظهر الاسم الأعظم الجامع قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:3]، أي: بكونه إياك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:3]، إذ لا أعز من الله تعالى، وقد أحبّه فكان سمعه وبصره كما في الحديث.

واعلم - رحمك الله - أن من فتح الله له فتحًا مبينًا وكشف له عن حقيقة نفسه لا يرى في الوجود غير نفسه، وأهل الفتح متفاوتون في هذا المشهد، وقد قال فيه ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» أي: أوتيت الكلم الجوامع، والكلم الجوامع هي أسماء الحق وأوصافه.

ألا ترى أن الاسم الله الأول مثلاً يجمع كل أولية، واسمه الآخر يجمع كل آخرية، واسمه الباطن يجمع كل باطنية، واسمه الظاهر يجمع كل ظاهرية، فهذه هي جوامع الكلم التي أوتيها، ومعنى أوتيها أنه مدلولها ومعناها، فمن تحقق بهذا المعنى فتحًا وكشفًا كان ذنب الوجود كله ذنبه، وأعظم الذنوب دعوى الوجود مع الله تعالى، فمن فتح له وشاهد مقام واحديته فقد غفر له ذنب شهود كونيته وأثنينيته، ولذلك علل سبحانه الفتح المبين بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:2]، فبهذا الغفران انمحى من الوجود سواه وبهذه الحال سماه الله بالفؤاد فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:11]، لأن الفؤاد قلب القلب وسره وباطنه، وأشار لذلك ﷺ بقوله: «قلب القرآن يس» فالقرآن بلسان الإشارة وجود الله الجامع لكل شيء، فهو قلب كل شيء، وقلب هذا القلب هو الفؤاد وهو ياسين ﷺ، ولما اقتضى الفتح المبين أن يغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر بأن

يكون هو عين جميع من تقدم أو تأخر، كما قال: «نحن الآخرون الأولون» بشرْه الله تعالى ببشارة مؤكدة لهذا المعنى بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1]، أي طاهر الذات يا مرجع الأسماء والصفات ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه:2]، أي: ما تجلينا عليك بمقتضى واحديتنا ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:2]، يعني أن هذه الحقيقة لا يلحقها الشقاء الذاتي، وإنما الشقاء عارض نسبي.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4]؛ لأنه خلقنا منه كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:13]، أي: من ذاته، ولو كان المراد من فعله لاكتفى بقوله سخّر لكم، فأفاد بقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ إنه عين المسخر، كما أنه عين المسخر، فليس الشقاء إلا الحجاب، والحجاب عارض فداوى جلّ وعلا علة، فمنهم شقي وسعيد بدواء آية طه، فكان الشقاء من هذه العلة هو العاقبة، ولاسيما وقد قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] فمن فهم هذا المعنى فقد فهم الفتح المبين وأدرك حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:17] فنزلت السكينة في قلبه فسكن إليها؛ لأنه يؤمن بأن محمدًا ﷺ حقيقته وعينه وذاته، وأي شيء نسكن إليه أعظم من ذلك، فمن أدرك هذا السر فقد شرب وسقي وطرب، ألا ترى من دخل هذه الحان وهو أبو تراب ﷺ كيف شرب وطرب وعربد من سماع هاتيك الألحان، فقال: أنا العرش أنا الكرسي أنا القلم أنا اللوح أنا جنب الله الذي فرطتم فيه، فبهذه السكينة التي نزلت في قلبه من إفاضة قلب القلوب وفؤاد كل محب ومحبوب حصل له كما قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:4]، فمن ازداد إيمانًا مع إيمانه الأول أيقن بأن جنود الأسماء والصفات ومظاهرها في الأرض والسماوات هي لله الذي سكن إليه، فكان هو المسكن وكان الله إلى وجودنا الذي نسكن إليه ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4] أي: بناء؛ إذ نحن مظاهره، وهو الظاهر بنا فثبتت جنود السماوات والأرض إلينا، ولذا قال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح:5]، وهي اللطائف المحمدية المشتملة على الأسرار الربانية تجري من تحتها الأنهار التي هي العلوم الإلهية، وهي من تحت هذه اللطائف؛ لأن الأسماء في الرتبة هي تحت الذات؛ إذ العلم والسمع والبصر وأمثال ذلك في قبضة حياة الذات، والذات التي هي الجنات، وهي المظاهر الحق من تحتها تجري أنهار الأسماء والصفات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح:5] يعني أن الذات التي يدخلونها بالكشف والتحقق هي خالدة وهم فيها خالدون فلهم بذلك البقاء الدائم ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح:5]، فلا يسوءهم شيء بعد ما عرفوا فيهن الخلود بل يفوزون فوز الأبد كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:5] الذين هم عنده بالعندية الذاتية فوزًا

[الفتح: 1] ظاهرًا عظيمًا بأن ألهمنا عليك، وأوضحنا لك طريق الخروج من مضيق الإمكان إلى فضاء الوجوب، ويسرنا لك الترقي والعروج من حضيض الجهل وأودية الضلال على ذروة العلم وأوج الوصال.

وإنما فتحنا لك ما فتحنا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ ويستر عليك ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالك وشئونك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾[1] الذي عرض عليك بمقتضى بشريتك وإمكانك قبل انكشافك بوحدة الحق ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعده من تلويناتك في بعض الأحوال المسرة والمؤلمة حسب النشأة البشرية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ الموعودة لك حسب استعدادك ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2] موصلاً على مقصد التوحيد الذاتي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ الوكيل الكفيل لك في عروجك وترقيك عن بقعة الإمكان ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾[2] [الفتح: 3] منيعًا غالبًا حيث لم يغلب عليك بعد انكشافك

عظيمًا، أي: به هذا الفوز العظيم، فإذا سرت بهذا المعنى في هذه السورة فأنت الطائر في الأفق الأعلى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:1] وهي صورته المحترمة إلى المسجد الأقصى، أي: باطن ذاته الذي هو أقصى عن أن تدركه الأبصار، وفي هذه السورة من البشارات واللطائف ما لا تدركه العقول، وقد مهدنا لك الطريق إلى سلوك تلك المسالك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(1) قال المحقق البقلي: نبّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

(2) قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه. وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في

بسرائر التوحيد جنود أمارتك وشياطين بشريتك مطلقًا.

وكيف لا ينصرك ربك؟ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مقتبسين من مشكاة نبوتك نور الولاية اللامعة المتشعشعة من شمس الذات ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ بهدايتك وإرشادك ﴿مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بأنك على الحق المبين ﴿وَ﴾ كيف لا يزدادون إيمانًا يا أكمل الرسل، مع أنك فزت بالفوز العظيم من الوحدة الذاتية وصرت مصونًا محفوظًا في كنف الحق وجواره، منصورًا على عموم أعدائه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة قدرته الغالبة ﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: مدبرات الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ جنود ﴿الأَرْضِ﴾ أي: قوابل الأركان والطبائع التي هي حوامل آثار العلويات والمأثورات منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لعموم ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿عَلِيمًا﴾ بحوائجهم لدى الحاجة ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4] في تدبيرات أمورهم على وفق الحكمة المتقنة والمصالحة المستحكمة.

كل ذلك ﴿لِيُدْخِلَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من أمة حبيبه وصفيِّه المستخلف منه سبحانه في بريته وعموم خليقته ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تلوين وتحويل ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يمحو عن عيون بصائرهم أشباح أنانياتهم، وأمواج هوياتهم المستحدثة على بحر الوجود، ومن نكبات التعينات وحرص الإضافات ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال والإيصال والتكفير ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 5] وأجرًا جميلاً، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَ﴾ كما يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات في روضات الجنات تفضلاً وإحسانًا ﴿يُعَذِّبَ﴾ أيضًا ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وهم الذين أخرجوا أعناقهم عن عروة العبودية بمتابعة الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة، وأظهروا الإيمان على طرف اللسان بلا إخلاص وإذعان ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين جحدوا في الله الواحد الأحد الصمد، المنزَّه عن الشرك مطلقًا، وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو أنه لا ينصر أولياءه الباذلين

المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحًا بعد أن قوّاه لذلك وأكرمه به.

مهجهم في طريق توحيدهم، بل تدور ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ ويحيط بهم وَبَال ما تظنونه على أولياء الله، كيف ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ بل ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾ أي: طردهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿وَسَآءَتۡ﴾ لهم جهنم ﴿مَصِيرٗا﴾ [الفتح: 6] أي: مقرًا ومنقلبًا ومرجعًا ومآبًا.

﴿وَ﴾ كيف لا يلعنهم سبحانه ولا يغضب عليهم مع أنهم يظنون بالله ظن السوء، ويعتقدونه عاجزًا عن نصر أوليائه، مع أنه ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة قدرته وتحت تصرفه ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وله أن يأمرهم ما يشاء، ويغلبهم على من يريد إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ المتوحد بالعظمة والكبرياء ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مراداته ومقدوراته بلا معاونة أحدٍ ومظاهرته ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 7] في أفعاله المتقنة، يدبرها بالاستقلال وفق حكمته البالغة.

ثم قال سبحانه في مقام الامتنان لحبيبه ﷺ؛ إظهارًا لكمال قدرته الشاملة وحكمته الكاملة: ﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَٰهِدٗا﴾ على عموم عبادنا، يشهد لهم عندنا عموم ما صدر عنهم من الصالحات الجالبة لأنواع المثوبات والكرامات ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ بهم، يبشرهم برفع الدرجات والفوز بالسعادات ﴿وَنَذِيرٗا﴾(1) [الفتح: 8] ينذرهم عن الدركات العائقة عن الوصول إلى جنة الذات التي دونها تجرى بحر الحياة.

كل ذلك ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وتذعنوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تصدقوا برسوله الذي أرسل إليهم من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بعد اتصافهم بكمال الإيمان والإذعان ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه؛ أي: تعتقدوا أن الحول والقوة بالله جميعًا، لا حول ولا قوة لسواه مطلقًا ﴿وَ﴾

---

(1) قال البقلي: أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشرًا يبشرهم بالوصال ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا امن مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمحبين، يبشرهم بالوصال إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لئلا يميلوا إلى غيره.

قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأمناء؛ فإنك الأمين حق أمين.

بعدما اعتقدتم كذلك ﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه حق تعظيمه ﴿وَ﴾ بعدما وقرتموه وعظمتموه كما ينبغي ويليق بشأنه ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: 9] أي: في عموم أوقاتهم وحالاتهم؛ إذ لا يتأتى منهم بالنسبة إلى جنابه سبحانه إلا التفويض والتعظيم والتنزيه والتقديس، وإلا فما للعباد ورب الأرباب أن يتكلموا عن ذاته وصفاته، سوى أن يخوضوا في لجة بحر توحيده، ويتيهوا في بيداء ألوهيته حتى يفنوا في فضاء صمديته؛ إذ لا إله إلا هو ولا شيء سواه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: 10-15].

ثم قال سبحانه بلسان الجمع على سبيل الإرشاد والتكميل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويختارون متابعتك، ويستهدون من هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾الذي استخلفك عليهم وجعلك نائبا عن ذاته فيما بينهم، فعليهم ألا ينقضوا العهد والبيعة التي عهدوا معك؛ بل وكيف يسع لهم النقض مع أن ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ وقبضة قدرته الغالبة ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ﴾ ونقض البيعة والعهد مع رسوله ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ما يعود وبال نقضه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾ وحفظ ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ وهو معاهدتهم مع الرسول الله ﷺ بخلافته ﷺ عنه سبحانه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ جزاءً﴾

للوفاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] [الفتح: 10] هو الفوز بشرف اللقاء والتحقيق لدى المولى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل الاعتذار ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المنافقون الناقضون للعهود، المتخلفون عن الجهاد ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المجبولين على الكفر والنفاق: ﴿شَغَلَتْنَا﴾ عن متابعتك ومشايعتك ﴿أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا متعهد سوانا؛ لذلك حرمنا عن صحبتك وعن أجر الجهاد ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يا رسول الله عند الله حتى يغفر ما صدر عنا من التخلف، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وباعتذارهم واستغفارهم هذا، فإنه من شدة شكيمتهم وغيظهم وضعف عقيدتهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تغريرًا وتلبيسًا ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التفضيح والتبكيت: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أي: يدفع ويمنع ﴿لَكُم مِّنَ اللهِ﴾ القادر المقتدر ﴿شَيْئًا﴾ من غضب الله إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ﴾ شيئًا من لطفه ورحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ وبالجملة: لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أيها المتخلفون المثقلون ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ ويرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بل يستأصلهم العدو، فلن يرجع منهم أحد من سفرهم هذا، بل ﴿وَزُيِّنَ﴾ أي: حُبب وحُسِّن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاستئصال وعدم الرجوع، وتمكن ﴿فِي قُلُوبِكُمْ وَ﴾ قد ﴿ظَنَنتُمْ﴾ بزعمكم هذا ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بالله ورسوله والمؤمنين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قد كُنتُمْ﴾ أزلاً ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: 12] هالكين في تيه الجهل والعناد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لم يجمع بين الإيمان بالله وتصديق الرسول المستخلف منه سبحانه ﴿فَإِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والتكذيب ﴿سَعِيرًا﴾ [الفتح: 13] نارًا مسعرة ملتهبة تحيط بهم؛ جزاء ما أوقدوا في نفوسهم نار الفتن والطغيان لأولياء الله.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم عنهم سبحانه مع أنه ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله

---

(1) قال الإمام الحسين- عليه السلام-: أسقط الوسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها، وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

- قال القاسم النصر آبادي: في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة.

التصرف فيهما بالاستقلال والاختيار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ فضلاً وإنعامًا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ عدلاً وانتقامًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المتصف بكمال اللطف والمرحمة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴿ رَّحِيمًا﴾ [الفتح: 14] يقبل توبة التائبين، ويعفو عن زلاتهم.

ثم لما سمع المخلفون من الأعراب يوم الحديبية أن الله قد وعد المؤمنين فتح خيبر، وخص لهم الغنائم، قصدوا الخروج نحوها طامعين الغنائم؛ لذلك أخبر الله سبحانه حبيبه بقصدهم هذا، فقال: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون وقت ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ الموعودة لكم خاصة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ بفضل الله إياكم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ بغزوتكم هذه وننصركم، مع أنهم لا يقصدون الرفاقة والوفاق في نفوسهم ونياتهم، بل ﴿يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون بقولهم هذا أن ﴿يُبَدِّلُوا﴾ ويغيروا ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ الدال على تخصيص غنائم خيبر لمنْ حضر الحديبية بدل غنائم مكة.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التأبيد في النفي: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ﴾ أي: مثلما سمعتم ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في نفوسهم من النفاق والشقاق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل تهيئاتكم أيها المؤمنون للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعدما سمعوا النهى على وجه التأبيد في نفوسهم: ما أمرهم الله هذا ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على أخذ الغنيمة؛ أي: ما حملهم على هذا النهي المؤكد المؤبد إلا الحسد والشح ﴿بَلْ﴾ هم قوم جاهلون ﴿كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله العليم الحكيم عن منعهم هذا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: 15] منهم، وهم المصدقون بالله ورسوله في سرائرهم ونجواهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 16-23].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ بعدما أيسوا من الخروج إلى خيبر: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى﴾ غزوة ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وشوكة عظيمة ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: مآل أمرهم إمَّا القتل وعزته، وإمَّا الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ حينئذٍ، ولم تتخلفوا كما تخلفتم يوم الحديبية ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ﴾ المطلع بنياتكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 16] لتضاعف جرمكم، وشدة شقاقكم ونفاقكم.

ثم أخذ سبحانه في تعداد ما يرخص لهم التخلف والقعود على سبيل الاضطرار فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: ليس لهؤلاء وزر مؤاخذة إن تخلفوا عن القتال بأمثال هذه الأعذار إن كانوا من أهل الطاعة والإيمان ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ على وجه الإخلاص والوفاق بلا بطانة ونفاق ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله وسعة رحمته وجوده ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات الكشوف والشهود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ من المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية، المنتشئة من النفسات الرحمانية ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض وينصرف عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة الآراء الفاسدة والأهوية الباطلة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بمقتضى قهره ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 17] في نيران الإمكان، لا عذاب أشد إيلامًا منه.

ثم قال سبحانه على وجه التحريض والترغيب للمؤمنين: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين في الإطاعة والانقياد ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يوم الحديبية بيعة الرضوان، والشجرة هي: السمرة أو السدرة ﴿فَعَلِمَ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الرغبة والإخلاص ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ﴾ بعدما أيسوا عن فتح مكة، ورجعوا من الحديبية ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] هو فتح خيبر بعد رجوعهم منها.

﴿وَ﴾ رزق لهم خاصة ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من خيبر بعد غنائم مكة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مقدوراته

﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 19] مراعيًا مقتضى الحكمة البالغة.

إنه ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون المخلصون في إطاعة الله ورسوله ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ من أيدي الكفرة إلى قيام الساعة؛ إذ يظهر دينكم على الأديان كلها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أهل خيبر وأوليائهم، وكفى مؤنة عموم من قصد السوء على أموالكم وذراريكم ﴿وَ﴾ إنما فعل بكم سبحانه ذلك ﴿لِتَكُونَ﴾ هذه الكفة والغنيمة ﴿آيَةً﴾ علامة وأمارة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يأتون بعدكم، ويقتفون أثركم بأن المؤمن المخلص في جوار الله وكنف حفظه وحضانته ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 20] هو الثقة بالله وبكرامته ونصره لأوليائه.

﴿وَ﴾ كذا عجل لكم عناية من الله إياكم مغانم ﴿أُخْرَى﴾ مع أنكم ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لشوكة الأعداء وكثرة عددهم وعددهم، بل فررتم أنتم منهم مرارًا ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ وأباحها عليكم بالنصر والغلبة عليهم مع أنكم خائفون وجلون منهم، وهي مغانم هوازن وفارس﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح: 21] لا يعجز عنه ولا يفتر دونه؛ إذ القدرة من جملة الأوصاف الغالبة الذاتية الإلهية، التي لا تفتر به ولا تضعف بحال.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ونصره لأوليائه: إنه ﴿لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما فررتم منهم وجبنتم عنهم ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ عنكم بنصر الله إياكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ولوا ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: 22] ينصرهم وينقذهم من أيديكم.

ولا تستبعد يا أكمل الرسل من قدرة الله أمثال هذا؛ لكونها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت واستمرت ﴿مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ أَبَدًا لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ التي جرت منه سبحانه بمقتضى حكمته ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] ولا لحكمه الصادر عنه بالإرادة والاختيار تغييرًا وتحويلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم

مِنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: 24-29].

﴿وَ﴾ كيف تبدل سنة الله وتغير حكمته مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِي كَفَّ﴾ وضع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أيدي كفار مكة ﴿عَنكُمْ﴾ حين استيلاءهم عليكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ حين غلبتم عليهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وأظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج مع خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم قال: ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرًا﴾ [الفتح: 24] خبيرًا، لا يعزب عنه شيء مما جرى عليكم، يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

وكيف لا يجازي الكفرة سبحانه بأسوء الجزاء؟ إذ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظلمًا وعدوانًا ﴿وَ﴾ لم يقتصروا على الكفر فقط، بل ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: حصروكم وصرفوكم ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عام الحديبية ﴿وَ﴾ الحال أنه قد صار ﴿ٱلْهَدْيَ﴾ أي: الذبائح

والقرابين التي ساقها رسول الله ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوسًا قريبًا أن ﴿يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[1] أي: مذبحه الذي عينه الله لذبح الضحايا، وهو المنى.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ بينهم وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ في خلالهم، لم يكف سبحانه أيديكم عنهم، بل نصركم عليهم واستأصلتموهم بالمرة، لكن لما كان بينهم من المؤمنين والمؤمنات كف سبحانه أيديكم عنهم مخافة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: المؤمنين المخلوطين بهم، ولم يميزوهم من الكفار ﴿أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ تدوسوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من أجل المؤمنين المخلوطين بالكافرين وجهلهم ﴿مَّعَرَّةٌ﴾ أي: مضرة وكروه من لزوم دية وكفارة، وإثم عظيم وتعيير شديد، وغير ذلك من المنكرات مع أنه إنما صدر عنكم الوطاءة والدوس لو صدر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وخبرة، وإنما كف أيديكم عنهم حين أظفركم عليهم ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ﴾ المطلع بما في استعدادات عباده من الإيمان والكفر ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي هي التوحيد والإسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ منهم حتى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ وتفرقوا أي: المؤمنين من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25] في غاية الإيلام من السبي والجلاء وأنواع المصيبة والبلاء.

اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغيرة لا على وجه الحق بل ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك أنه ﷺ لما نزل الحديبية، فهمّ بقتال أهل مكة، بعثوا سهيل بن عمر وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص؛ ليرجع من عامه، وتُخلى لِه مكة من العام القابل ثلاثة أيام.

فقال ﷺ لعلي ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة»، فقالوا: ما نعرف هذا، اكتب: بسمك اللهم، هذا ما صالح محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون»[2] فكتب، فهمّ المؤمنون أن يبطشوا ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾ ووقاره ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ هم أحقاء بالطمأنينة والوقار وكظم

---

(1) قال في التأويلات: ومحله الصدق والإخلاص يعني: من خاصة النفس أن تصد وجه الطالب عن الله، وبنشوب الخيرات والصدقات التي يتقرب بها إلى الله بالرياء والسمعة والعجب؛ لئلا يبلغ محل الإخلاص والقبول.

(2) ذكره القرطبي في «تفسيره» (9/318).

الغيظ وتوطين النفس بالمكاره ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَلْزَمَهُمْ﴾ سبحانه ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ واختار لهم صون النفس عن التهور والغلظة ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرها ﴿وَأَهْلَهَا﴾[1] أي: كانوا أهلاً لحفظها ورعايتها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللهُ﴾ المراقب لعموم أحوالهم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يليق بهم وينبغي لهم ﴿عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26] يوفقهم عليه ويسهل عليهم الاتصاف به.

ثم لما رأى ﷺ في منامه أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص ﷺ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وظنوا أن ذلك في عامهم هذا، فلما تأخر بالصلح والمعاهدة، قال بعضهم: والله ما حلقنا وما قصرنا وما رأينا البيت، فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: جعله سبحانه صادقًا في ما رأى ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والله أيها المؤمنون ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ من العدو؛ إذ ما أريناه ما أريناه إلا بالحق ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ على الوجه المتعارف ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ كما هو عادة الحجاج يحلق بعضهم ويقصر بعضهم، وبالجملة: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾[2] بعد ذلك؛ إذ الله معكم ﴿فَعَلِمَ منكم مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من أنفسكم، ولا تستعجلوا إلى الفتح؛ إذ هو

---

(1) قال في التأويلات: مع جميع الأمم؛ لأن النبي ﷺ كان خلاصة الموجودات وأصلها، وهو الحبيب الذي خلقت الموجودات بتبعيته، والكلمة هي صورة الجذبة التي توصل الحبيب بالحبيب والمحب بالمحبوب، فهي بالنبي أحب؟ لأنه هو الحبيب لتوسله إلى حبيبه، وأمته أحق بها من الأمم؛ لأنهم المحبون لتوصل المحب بالمحبوب، وهم أهلها لأن أهل هذه الكلمة من يفدي بذاته وصفاته من حقيقة الكلمة، فينتفي بنفيها عن ذاته وصفاته، ويبقى بإثباتها معها بلا أنانية، وما بلغ هذا المبلغ بالكمال إلا النبي ﷺ، فيقول: «أما أنا فلا أقول أنا وأمتي»؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110].

(2) إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستثار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوحدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستثار يورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة، سئل بن عبد الله: ما هذا الاستثار من الله؟ قال: تأكيدًا في الافتقار إليه، وتأديبًا لعباده في كل حال ووقت تنبيهًا أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

مرهون بوقته ﴿فَجَعَلَ﴾ لكم ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27] هو فتح خيبر؛ ليطمئن به قلوبكم إلى أن يتيسر لكم الفتح الموعود الذي أخبر به نبيكم الصادق المصدوق.

وكيف لا يصدق سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ والإرشاد إلى سبيل توحيده ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الفاروق بين الباطل والضلال، ووعد له ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الأديان النازلة من عنده بأن نسخ الجميع به ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28] على صدقه في رؤياه وفي دعوته ونبوته، وإظهار أنواع المعجزة بيده.

إنه قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ حق، مرسل من عنده، مبعوث إلى كافة البرايا؛ ليهديهم إلى توحيده الذاتي ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين له، المصدقين لدعوته، المتعطشين بزلال مشربه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[1] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هوية الحق الظاهر في الآفاق والأنفس، يدفعون مؤنة كثراتهم الوهمية بترويج الحق على الباطل، وإعلاء كلمة التوحيد، وتقويم الدين القويم وإظهاره على سائر الأديان ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فيما بينهم متواضعون مع أهل الحق وأرباب التوحيد؛ لذلك ﴿تَرَاهُمْ﴾ في عموم أوقاتهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: راكعين، ساجدين، متذللين، خاضعين، خاشعين، بلا رعونة ولا رياء ولا سمعة ولا هوىً، بل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بتذللهم هذا ﴿فَضْلًا مِّنَ

(1) اعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدوركم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية حوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولمّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه سبحانه، وبالجملة: ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سمتهم وعلاماتهم الدالة على نجابة طينتهم وكرامة فطرتهم ظاهرة ﴿فِي وُجُوهِهِم وجباههم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وكثرة التذلل والخشوع نحو الحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أوصافهم ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وصفتهم العجيبة المذكورة ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ﴾ هكذا أيضا ﴿فِي الْإِنجِيلِ﴾.

وبالجملة: مثلهم في بدء ظهورهم وخروجهم أولاً في غاية الضعف والنحافة، واشتدادهم وغلظهم على الأعداء، ووفور رأفتهم ورحمتهم على الأولياء ثانيًا ﴿كَزَرْعٍ﴾ أي: كمثل زرع وقع على الأرض ضعيفًا وبرز منها نحيفًا، ثم ظهر عليها ونبت قويًا يومًا فيومًا إلى حيث ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: أفراخه وأغصانه دقيقًا دقيقًا ﴿فَآزَرَهُ﴾ قومه بالمعاونة ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ وعاد غليظًا بعدما رباه وأحسن تربيته ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ واستقام بعد ذلك ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي: قصبه وساقه على وجه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ عند رؤيته بكمال كثافة وغلظته ونضارته ولطافته.

وإنما رباهم سبحانه وقواهم على أبلغ وجه وأحسنه ﴿لِيَغِيظَ﴾ ويتحسر ﴿بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ المخالفون المخاصمون لهم من كمال تشددهم وترقبهم، وبالجملة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من الإخلاص والتفويض ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكمال المحبة والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿مِنْهُم﴾ أي: من جنسهم ﴿مَّغْفِرَةً﴾ سترًا ومحوًا لأنانياتهم الباطلة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29] هو الفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى، وليس وراء الله مرمى.

رزقنا الله الوصول إليه، والوقوف بين يديه.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - مكنك الله في مقعد الصدق، ووطنك في مقر التوحيد - أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك وأعمالك، مجتنبًا عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، معرضًا عن قصور مطلق التخمين والتقليد، مقتصدًا في جميع أطوارك وشئونك، مقتفيًا في جميع أخلاقك وأطوارك أثر نبيك الهادي إلى سواء السبيل حتى ينفتح لك أبواب عموم الكرامات والسعادات، وينغلق دونك مداخل أنواع المكروهات والمنكرات، وإياك إياك أن تختلط مع أهل الغفلة وأصحاب

الجهالات المترددين في أودية الغي والضلالات؛ ليتيسر لك التحقق إلى فضائل الوصال.

جعلنا الله من زمرة أوليائه المقتصدين، الذين ثبتوا على الصراط المستقيم.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجرات

لا يخفى على أرباب المحبة والولاء، المتحققين بمقام التسليم والتأديب مع الله في عموم أحوالهم وأفعالهم أن كمال العبودية والإخلاص إنما يظهر بحسن الأدب والمحافظة على أداء حقوق الربوبية والوفاء على مقتضيات عهود الألوهية، وذلك إنما يحصل برعاية حقوق من اختاره الله لرسالته واصطفاه لخلته وخلافته؛ إذ هو الوسيلة الموصلة لعباد الله إلى الله والهادي لهم إلى جناب قدسه.

لذلك أوصى سبحانه خلّص عباده بمحافظة الأدب مع الله ورسوله، فقال بعدما تيمن باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بتعليم الأدب إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بتلقين الرضا والتسليم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: مراعاة الأدب مع الله ورسوله، فعليكم أن ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ ولا تتقدموا في أمر من الأمور وحكم من الأحكام ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تبادروا بإمضاء الأحكام ما لم تشاوروا بكتاب الله وسنة رسوله ولم تعرضوها عليهما ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ الغيور المطلع على ما في ضمائركم ونياتكم، واحذروا عن المسابقة والمبادرة في الأقوال والأحكام بمقتضى آرائكم وأهوائكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المراقب عليكم في عموم أحوالكم ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1] بنياتكم فيها.

السنية، الموروثة له من ربه بعد مماته، فعليكم الإطاعة والمراجعة إليه حين حياته، وإلى سننه وشرعه في مطلق الأمور والعرض عليه وعليهما والمشاورة معه، فعليكم ألا تكلفوه إلى قبول ما حسّنت لكم نفوسكم من الأمور، فإنه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ويقبل قولكم ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أثممتم وهلكتم في الإثم ألبتة، واستغرقتم فيه؛ إذ من مقتضى إيمانكم وانقيادكم له أن تفوضوا أموركم كلها إليه، وتستصوبوها منه، فإن صوّب بعضها فبها، وإلا فلا تكلفوه؛ إذ منصب النبوة ومقتضى الحكمة يأبى عن ذلك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ يعني: لا تعتذروا في إصابة البريء بمجرد القول الباطل والظن الفاسد بمحبة الإيمان وكراهة الكفر، فإنه سبحانه وإن حبب إليكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ المؤدي إليه ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ المستلزم له، لكنه إنما حبب الإيمان على مقتضى الصدق والعدالة، وكرّه الكفر الناشئ عن قصدٍ واختيار، لا أن ينسب إلى من ينسب عن بهتان وزور، فإنه سبحانه لا يرضى لعباده أمثاله، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون، المجتنبون عن الزور والتهمة ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7] المقصرون على الرشد والهداية إلى صراط مستقيم، هو صراط التوحيد المشتمل المعتدل بين كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وإنما صار رشادهم هذا ﴿فَضْلاً﴾ ناشئًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿وَنِعْمَةً﴾ موهوبة لهم من عنده ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ لحوائجهم المصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 8] في إفاضتها حسب المصلحة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم أيها المؤمنون المعتدلون في مقتضى الإيمان: ﴿إِن﴾ كان ﴿طَائِفَتَانِ﴾ كلتاهما ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ عند ثوران القوة الغضبية، وهيجان الحمية الجاهلية من كلا الجانبين بسبب الخصومة المستمرة ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[1]

---

(1) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة

مهما أمكن الصلح على وفق الحكمة والعدالة ﴿فَإِن بَغَتْ﴾ أي: غوت وغلبت ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ بحيث أدت بغيها إلى الإفراط والظلم الخارج عن مقتضى العدالة الإلهية ﴿فَقَاتِلُوا﴾ بأمر الله، مظاهرين مع الطائفة المغلوبة على الطائفة الغالبة ﴿الَّتِي تَبْغِي﴾ وتغوي ﴿حَتَّى تَفِيءَ﴾ وترجع ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه المترتب على القسط والعدالة ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ ورجعت عن بغيها وطغيانها ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿بِالْعَدْلِ﴾ المنبئ عن الحكمة ورعاية الغبطة بين الجانبين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَقْسِطُوا﴾ واعتدلوا أيها المؤمنون في عموم أحوالكم وأحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9] من عباده.

وكيف لا تصلحون بينهما أيها المؤمنون المصلحون؟ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بوحدة الحق، المصدقون لرسوله المبيّن لطريق توحيده ﴿إِخْوَةٌ﴾ في الدين القويم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالعدل والإنصاف ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في صلاحكم هذا عن الميل والانحراف ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] لأجل عدالتكم وتقواكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترك المراء والاستهزاء بحيث ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ منكم أيها الرجال القوامون المقيمون لحدود الله ﴿مِّن قَوْمٍ﴾ أمثالكم في القيام والتقويم؛ أي: أقوياؤكم ورؤساؤكم من أراذلكم وضعفائكم ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا﴾ أي: المسخورون المرذولون ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من الرؤساء الساخرين عند الله، كذا ﴿وَلَا﴾ لا تسخر منكم ﴿نِسَاءٌ﴾ عاليات متعززات ﴿مِّن نِّسَاءٍ﴾ سافلات مستضعفات ﴿عَسَى أَن يَكُنَّ﴾ أي: المستضعفات ﴿خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: من العاليات عند الله، وكن أقرب إلى رحمته سبحانه منهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا تَلْمِزُوا﴾ أيها المؤمنين ولا تعيبوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بعضكم بعضًا؛ إذ المؤمنون كنفس واحدة، فما لحق لهم وعليهم إنما لحق بهم وعليهم جميعًا ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضًا باللقب السوء الدال على الذم والقبح، فإن النبذ إنما يستعمل في اللقب السوء، وإنما نهيتم عما نهيتم؛ لأنه من جملة الفسوق والعصيان المستلزم لأنواع الخيبة والحرمان، المسقط

= والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينهما؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

للمروءة والعدالة المترتبة على الحكمة الإلهية.

وبالجملة: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ﴾ المنبئ عن الخروج والانحراف عن صراط الحق سيما ﴿بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أي: بعد الاتصاف بالإيمان المنبئ عن كمال الاعتدال بالجملة: ﴿وَمَن لَمْ يَتُبْ﴾ ولم يرجع إلى الله بعدما صدر عنه أمثال هذه الجرائم المذكورة هفوة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء المصرون على الغواية والطغيان ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11] المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحجرات: 12-18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: متابعة اليقين في عموم الأحوال والمقامات، وترك الظنون والجهالات في جميع الحالات إلا ظن الخير بالله ويخلص عباده من الأنبياء والأولياء، المستبعدين بمراحل عن التهمة والتغرير ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ المورث لكم المراء والمجادلة مع الله ورسوله وعموم المؤمنين، وبالجملة: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ هو الملقى إليكم من قبل الشيطان المزور المغوي ﴿إِثْمٌ﴾ خروج وفسوق عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: من جملة أخلاقكم المحمودة ترك التجسس والتفحص عن خلائل بني نوعكم قطعًا عليكم ألا تبحثوا عن عورات المسلمين وغيرهم، سيما بما يوجب هتك حرماتهن من المفتريات الباطلة الشنيعة

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: من جملة أخلاقكم، بل من معظمها أيها المؤمنون القاصدون لسلوك طريق التوحيد: ترك الغيبة، وهي: أن يذكر بعضكم بعضًا منكم في غيبته بشيء لو كان حاضرًا عندكم، ليشق عليه ويكرهه.

وسئل ﷺ عن الغيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه، فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته»[1] وكلاهما خارجان عن اعتدال أهل الإيمان.

ثم أكد سبحانه هذا النهي على وجه المبالغة في التوبيخ، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ وترضى نفسه ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ سيما حال كونه ﴿مَيْتًا﴾ لو فرض عرض هذا عليكم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ألبتة؛ إذ لا يمكنكم إنكار كراهته، وغيبة الأخ المؤمن أكرهه وأقبح من هذا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور عن ارتكاب الغيبة المحرمة، وتوبوا إليه عنها وعن أمثالها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائركم من الندم والإخلاص ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل منكم توبتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12] يمحو عنكم زلتكم بعدما تبتم ورجعتم نادمين عما فعلتم.

ثم أكد سبحانه أيضًا هذا الحكم على وجه التفصيل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون للمنشأ الأصلي والفطرة الجبلية ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أي: أوجدناكم وأخرجناكم جميعًا ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ هو: آدم المصور بصورتنا اللاهوتية، المجبول على خلافتنا ﴿وَأُنثَىٰ﴾ هي: حواء المتشعبة من آدم باعتبار ناسوته ﴿وَ﴾ بعدما صيرناهما زوجين ممتزجين، مزدوجين من حصة اللاهوت والناسوت ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ متكثرة من أصل واحد هو آدم ﴿وَقَبَائِلَ﴾ مختلفة متجزئة من تلك الشعوب.

الشعب: هي الجمع المتكثر المنشعب عن أصل واحد.

والقبيلة: هي الفرق المختلفة الحاصلة من الشعب.

والعمارة: هي الطائفة المتفرعة على القبيلة.

والبطن: الجمع المتفرع على العمارة.

والفخذ: جمع متفرع على البطن.

والفصيل: على الفخذ.

فخزيمة مثلاً شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ،

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (5/215).

وعباس فصيل.

وإنما جعلناكم كذلك ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: يعرف بعضكم بعضًا، وأدى تعارفكم إلى التلاحق في المنشأ لا للتفاخر والتغالب؛ إذ لا تفاخر بينكم إلا بالكرامة والنجابة المترتبة على حقية اللاهوت[1]، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ عن لوازم الناسوت وشواغل الهيولي ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] بما في ظواهرهم وبواطنهم، يوفقهم على مقتضى علمه وخبرته.

ومن عدم امتثالهم وانقيادهم بأمر التعارف والتلاحق الموصى إليهم من قِبل الحق ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ﴾ التي هي المثل في اللدد والعناد على سبيل التغالب والتفاخر حين قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين لا عن عزيمة خالصةٍ وقصدٍ صادقٍ، بل على سبيل الخداع والنفاق، ولهذا كانوا يقولون لرسول الله ﷺ على سبيل الامتنان: أتيناك بالأحمال والأثقال، ولم نقاتل معك كما قاتل بنو فلان ﴿آمَنَّا﴾ بك بلا سبق خصومةٍ منا معك، وبالجملة: يمنون عليك يا أكمل الرسل بإيمانهم الواهي وصدقاتهم الغير وافية ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا ما أضمروا في ضمائرهم من المنة والغلول المنافي للإخلاص والإيمان ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ أيها الأعراب بمجرد قولكم آمنا؛ إذ الإيمان إنما هو من أفعال القلوب الصافية عن كدر المن والأذى مطلقًا ﴿وَلَكِن قُولُوا﴾ بدل قولكم «آمنَّا»: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في السلم، وصالحنا على ألَّا تخاصم بيننا وبينكم ولا نزاع، وكيف تقولون: آمنَّا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ﴾ والإذعان ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ التي هي وعاؤه وهو من أفعالها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: حق إطاعتهما وانقيادهما مخلصين ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ ولا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: من أجورها وجزائها إن أخلصتم فيها، وجئتم بها بلا منّ وأذى ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بنيات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن فرطاته ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14] يرحم عليه ويقبل توبته.

---

(1) قال في التأويلات: (لتعارفوا) أي: أصحاب القلوب وأرباب النفوس، لا ليتكاثروا ويتنافسوا ويتشابهوا بالعقول والأخلاق الروحانية الطبيعية، فإنها ظلمانية لا يصلح شيء منها للتفاخر به ما لم يقرن به الإيمان والتقوى، فإن تنورت الأفعال والأخلاق والأحوال بنور الإيمان والتقوى، ولم تكن الأفعال منسوبة بالرياء، ولا الأخلاق مصحوبة بالأهواء، ولا الأحوال منسوبة إلى الإعجاب؛ فعند ذلك تصلح للتفاخر والمباهات بها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم وإذعانهم؛ ليصلوا إلى مرتبة التوحيد المسقط لعوم الإضافات ﴿ثُمَّ﴾ بعدما آمنوا وأيقنوا ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ولم يشكوا قط فيما آمنوا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع أعداء الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15] المقصورون على الصدق والإخلاص، الفائزون عند ربهم بأنواع الفوز والفلاح، المتمكنون في مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا الإيمان الجعلي بألسنتهم، ولم تواطئ عليه قلوبهم: ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ وتخبرون أيها الجاهلون ﴿اللهَ﴾ المطلع لعموم السرائر والخفايا ﴿بِدِينِكُمْ﴾ وإيمانكم هذا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿اللهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الغيوب والشهادات﴿وَ﴾ جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: الله المحيط بالكل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 16] لا يعزب عن علمه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

ثم قال سبحانه تعليمًا لحبيبه ﷺ وإرشادًا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إسلامهم، ودخولهم في السلم مع أنهم ليسوا مؤمنين مذعنين ﴿ قُل﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي: بإسلامكم هذا، ولا تعدوا أنفسكم من جملة الموقنين بمجرد ما تفوهتم بالإيمان ﴿بَلِ اللهُ﴾ العالم لعموم السرائر والخفايا ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾ أي: يهديكم وأرشدكم ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ المثمر للعرفان، المستلزم للتوحيد وعلى العيان ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17] في إيمانكم، موافقين قلوبكم بألسنتكم، مطابقين لجامع أنكم لستم كذلك.

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع في ضمائر عباده من الثقة والإخلاص ﴿يَعْلَمُ﴾ بحضرة علمه الحضوري ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المراقب بعموم أحوالكم وأطواركم ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] [الحجرات: 18] من الأعمال خيرًا

(1) قال في التأويلات: في الظاهر أنه من نتائج ما أودعته في باطنهم، فمن لاحظ شيئًا من أعماله وأحواله، فإن رآها من نفسه كان شركًا، وإن رآها لنفسه كان مكرًا، وإن رآها من ربه لربه كان توحيدًا، وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه وجوده.

كان أو شرًا، يجازيكم بمقتضى بصارته وعلمه.

جعلنا الله من زمرة المؤمنين الموقنين المخلصين الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتمكن المتحقق في مقام التوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن تترفع بنفسك عن مطلق الرذائل المتعلقة بالأهوية الفاسدة والأماني الكاسدة، سيما عن المنّ والأذى في الإنفاق، ورعونات السمعة والرياء في مطلق الطاعات، وإياك إياك أن تتفوق على أحد من بني نوعك وإخوانك في عموم حالاتك وأزمانك، فإنه من شيم أصحاب النخوة والكفران المورث لهم أنواع الخيبة والخسران وأصناف الخذلان والحرمان، ولك أن تلازم التواضع والانكسار مع عموم المظاهر والمجالي، والاعتزال عن مطلق أصحاب الجاه والاعتبار، والقناعة مع الكفاف والعزلة.

جعلنا الله ممن تنبه على منهج الصدق والصواب، واجتنب عما ينافيه بتوفيق الحق وتيسيره.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ق

لا يخفى على من تنور قلبه بأنوار الوحدة الذاتية، المتشعشعة عن مشكاتي النبوة والولاية، المترتبتين على صورة الإنسان المصور بصور الرحمن أن أكمل المظاهر وأولاها لقبول التجليات الإلهية، وأليقها لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه، وأحراها للتخلق بأخلاق الحق هو الإنسان الكامل، القابل لانعكاس أشعة شمس الذات الأحدية المستهلكة دونها عموم الكثرات والإضافات.

فظهر ألا مظهر أجمع من الإنسان وأكمل منه، وأشرف هذا النوع وأكمله، وأتمه علمًا وعينًا وكشفًا وشهودًا، هو نبينا - صلوات الله عليه وسلامه - فمن تعجب عن رسالته وخلافته عتوًا، وأنكر إرشاده لبني نوعه عنادًا، وإنزال الوحي استكبارًا، فقد ضل وغوى، ولم يهتدِ إلى ما هو الرشد والهدى، لذلك أنزل سبحانه على حبيبه ما أنزل، وأقسم ما أقسم تأكيدًا ومبالغة؛ لإثبات هدايته وإرشاده ﷺ وكمال لياقته لخلاقة الحق ونيابته.

فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب؛ لتبيين طريق توحيده ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بعموم عباده، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى أعلى المقام بأنواع الإنعام والإكرام.

﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ
عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ
حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا

لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: 1-15].

﴿ق﴾[1] أيها الإنسان الكامل، القابل لخلعة الخلافة والنيابة الإلهية والقيم، القائم

---

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الأخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلمّا قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ

فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشُخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن تجري العادة كما تـ... أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد؛ لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يحْيِي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل عليه السلام فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحيهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على

لتبليغ الوحي والإلهام المنزل عليك من عنده سبحانه على عموم الأنام، القائد لهم إلى

القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿بِأَيَّامِ وَذَكِّرْهُم اللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17،18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بِوَادِي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن.

توحيد الملك العلّام القدوس السلام، ذي القدرة والقوة الكاملة الشاملة على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] [ق: 1] العظيم المنزل من المجيد العظيم أنك يا أكمل الرسل لمرسل إلى كافة الخلق من الحق على الحق بالحق؛ لتبيين طريق الحق وتوحيده، وبعدما لم يجد المنكرون فيك يا أكمل الرسل شيئًا شيئًا يدعوهم ويبعثهم إلى إنكارك وتكذيبك صريحًا، اضطروا إلى العناد والمكابرة.

﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ واستبعدوا أولئك الحمقى الجاهلون ﴿أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بعث إليهم رسول من جنسهم وبني نوعهم، ينذرهم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعها مع أنهم منكرون للحشر وإرسال البشر جميعًا ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المستكبرون بعدما سمعوا منك الدعوة والإنذار من شدة إنكارهم واستبعادهم: ﴿هَذَا﴾ أي: إرسال البشر إلى البشر، والإنذار من الحشر المحال كلاهما ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 2] وأمر بديع، ما

---

(1) الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرّبهم مني حتى يشتاقوا إليّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب. [العرائس].

سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

ثم فصّلوا ما أجملوا على سبيل التعجب والإنكار، فقالوا مستفهمين، مستفيدين فيما بينهم، مستعيذين: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ أي: أنرجع ونعود أحياء كما كنا إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وهباء منبثًا ﴿ذَلِكَ﴾ العود والرجوع ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3] عن الوقوع وقبول العقول.

ثم قال سبحانه ردعًا لهم وردًّا عليهم: وكيف تستبعدون وتنكرون عنا قدرتنا على بعث الموتى وإعادتهم أحياء كما كانوا ؟! مع أنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ على التفصيل والتحقيق ﴿مَا تَنقُصُ﴾ تأكل وتضمحل ﴿الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: من أجزائهم وأوصالهم، وكيف لا نعلم ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4] حاصر لتفاصيل الأشياء، حافظ لها، ألا وهو حضرة علمنا الحضوري ولوح قضائنا.

﴿بَلْ﴾ هو من غاية عمههم وسكرتهم، وكمال غيهم وغفلتهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، المؤيد بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وهو نبوة محمد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحين بعث إليهم على الحق؛ لتبيين الحق وتمييزه عن الباطل؛ لذلك أنكروا البعث الذي جاء ﷺ لتبيينه وللإنذار بما فيه من أنواع العقاب والعقوبات، وبالجملة: ﴿فَهُمْ﴾ بمقتضى أحلامهم السخيفة مغمورون ﴿فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: 5] مضطرب، مخلوط، يلتبس عليهم حقيته ﷺ وحقيّة ما جاء به من عند ربه؛ لذلك يضطربون في شأنه ويقولون تارة: إنه شاعر، وتارة: إنه ساحر وكاهن، وتارة: إنه مجنون مخبط، مختل العقل، يتكلم بكلام المجانين، إلى غير ذلك من المفتريات الباطلة.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ولم يتفكروا حين أنكروا الحشر والبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ المطبقة المعلقة ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها بلا أعمدة وأساطين ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب المتفاوتة في الإضاءة والتنوير ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6] نتوء وفتوق، بل خلقناها ملساء متوازية السطوح متلاصقة الطباق.

﴿وَ﴾ لم ينظروا أيضًا ﴿الْأَرْضَ﴾ ولم يدبروا فيها كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهدناها وبسطناها بكمال قدرتنا وحكمتنا ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾ وعليها ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت شامخات ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] حسن كريم، تبهج بها عيون الناظرين وتسر قلوبهم.

وإنما خلقنا ما خلقنا من العجائب والغرائب؛ ليكون ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ أي: عظة

وعبرة دالة على كمال قدرتنا ومتانة حكمتنا وحكمنا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[1] [ق: 8] راجع إلينا، متوجهٍ نحونا بكمال التبتل والتفويض؛ ليتبصروا ويتذكروا بها كمال اقتدارنا واختيارنا في خلق عموم المرادات والمقدورات، ومن جملتها حشر الأموات، وبعثهم من قبورهم أحياء.

﴿وَ﴾ كيف يسع لأولئك الحمقى إنكار قدرتنا على الإعادة مع أنا ﴿نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ كثير الخير والبركة ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ بعد تنزيله على الأرض اليابسة الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق ذات بهجةٍ وبهاءٍ ونزاهةٍ وصفاءٍ ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿حَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: 9] من البر والشعير وسائر الحبوب المحصودة للتقوت والتعيش.

﴿وَ﴾ أنبتنا به خصوصًا ﴿النَّخْلَ﴾ وجعلناها ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالٍ متحملاتٍ ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ ثمر ذو عنقود ﴿نَّضِيدٌ﴾ [ق: 10] منضود منضدٍ بعضه فوق بعض من كمال كثرته.

وإنما أنبتنا ما أنبتنا؛ ليكون ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ يرتزقون بها ويشكرون منعمها ومبدعها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء المنزل من السماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يابسة جدبة، لا كلأ فيها ولا نماء ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: 11] أي: خروجهم من قبورهم أحياء بقدرتنا مثل ذلك، فمن أين ينكرون ويستبعدون أولئك الحمقى الجاهلون بقدرة العليم الحكيم؟!

وليس هذا التكذيب والإنكار ببدع من هؤلاء المكذبين المنكرين يا أكمل الرسل، بل قد ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ مثل تكذيبهم وإنكارهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا عليه السلام

---

(1) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن مَن قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمَزقٍ، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (126/5).

حين بعث إليهم وأنذرهم، ونهاهم عما هم عليه من الكفر والجحود والخروج عن مقتضى الحدود ﴿وَ﴾ كذا ﴿كذب أَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ وهو بئر كانوا يسكنون حوله أخاك حنظلة بن صفوان عليه السلام ﴿وَ﴾ كذب ﴿ثَمُودُ﴾ [ق: 12] أخاك صالحًا عليه السلام، فعقروا الناقة المقترحة.

﴿وَعَادٌ﴾أخاك هودًا عليه السلام ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ وملؤه أخاك موسى الكليم ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق: 13] سماهم إخوانه؛ لأنهم أصهاره، أخاك لوطًا عليه السلام.

﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ أخاك شعيبًا عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كريب، كذبوا علماءهم وأئمتهم المصلحين لمفاسدهم، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم لإهدائهم وإرشادهم أمثال هؤلاء المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿فَحَقَّ﴾ أي: حل ولحق عليهم ﴿وَعِيدِ﴾ [ق: 14] الموعود لهم بتكذيبهم وإصرارهم، فهلكوا واستؤصلوا، فكذا هؤلاء المكذبون المسرفون سيهلكون ويستأصلون عن قريب، فاصبر يا أكمل الرسل على أذاهم ولا تستعجل لهم فسيرون ما يوعدون.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنكار والاستبعاد على المنكرين المستبعدين بالحشر والبعث: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي: ينكرون قدرتنا على الإعادة، وتظنون أن صرنا عاجزين ﴿بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أي: الإبداء الإبداعي عن الخلق الثاني الإعادي، ويزعمون أن قدرتنا تفتر وتضعف عند الخلق الأول، بل ينتهي دونه، ولم يعلموا أن قدرتنا لا تتصف بالانتهاء والفتور، ولا بالانقضاء والقصور، ليفهموا أن تعلق قدرتنا لكل مقدور من المقدورات في كل آن من الآناء على شأنٍ من الشئون الكمالية، بحيث لم يمض مثله، ولا يتأتى شبهه ﴿بَلْ﴾ يتفطن بمقتضى الفطرة الأصلية أن ﴿هُمْ﴾ في أنفسهم دائما ﴿فِي لَبْسٍ﴾ وخلع ﴿مِنْ﴾ توارد ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15] منا، وإيجادٍ متجدد من قبلنا في كل آن وزمان حسب قدرتنا واختيارنا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: 16-35].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ وأظهرناه من كتم العدم ﴿وَ﴾ نحن ﴿نَعْلَمُ﴾ منه حينئذ ﴿مَا تُوَسْوِسُ﴾ وتحدث ﴿بِهِ نَفْسُهُ﴾ وتخطر بباله الآن من أمثال هذه الأوهام والخيالات الباطلة، المترتبة على حصة ناسوته، المقيدة بسلاسل الرسوم وأغلال العادات الموروثة له من العقل الفضول، الممتزج بالوهم الجهول ﴿وَ﴾ كيف لا نعلم منه هواجس نفسه؛ إذ ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] أي: وريده، وهو مثل في القرب المفرط، كما قال: الموت أدنى لي من الوريد، وإضافة الحبل إليه للبيان، وبالجملة: نحن أقرب إليه منه.

الوريدان: هما العرقان المنبثان من مقدم الرأس، المتنازلان من طرفي العنق، المتلاصقان عند القفا، المنتهيان إلى آخر البدن، وهما قوام البدن ومداره عليهما؛ إذ هما أقوى عالم هيكل الإنسان.

وبالجملة: نحن حسب روحنا المنفوخ فيه من عالم اللاهوت أقرب إليه من ناسوته، لا على توهم المسافة، ولا على طريق التركب والاتحاد والحلول والامتزاج، بل على وجه الظلية والانعكاس، ومع غاية قرب الحق إليه وكمال إحاطته إياه، وكَّل عليه الحفظة من الملائكة؛ ليراقبوا أحواله إلزامًا للحجة عليه لدى الحاجة يوم القيامة.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ويتحفظ ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان عليه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17] أي: قاعد كل من الموكلين عن يمنه وشماله، مترقبين على أحواله وأعماله وأقواله، بحيث

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ ويتلفظ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ يرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حفيظ عليه ﴿عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] مهيأ، معد، حاضر عنده، غير مغيب على وجه لا يفوت عنه شيئًا من

ملتقطاته.

﴿وَ﴾ هما يحفظانه ويرقبان عليه وقت؛ إذ ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ شدته وغمراته ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحقيقة وظهرت علاماته، وانكشفت عليه أهواله وأمارته، قيل له حينئذ من قبل الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الموت الذي ينزل عليك الآن ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19] أي: الموت الذي أنت تميل، وتفر عنه فيما مضى.

﴿وَ﴾ بعدما ذاق مرارة العذاب وقت سكرات الموت ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث والحشر، فإذا هو حينئذٍ قائم، هائم ينظر، قيل له من قبل الحق على سبيل التهويل: ألست تنظر وتتحير يا مسكين؟! ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي أنت فيه الآن ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20] الموعود لك في دار الدنيا، وأنت حينئذ لم تؤمن به ولم تخف من أهواله حتى وقعت فيه، وذقت من عذابه.

﴿وَ﴾ بعدما بعث الأموات من أجداثهم للحشر والجزاء ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الطيبة والخبيثة ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ﴾ موكل، يسوقها إلى المحشر للعرض والجزاء ﴿وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21] من حفظة أعمالها وأحوالها، يشهد لها وعليها.

وبعدما حضر كل منهم بين يدي الله، قيل لكل منهم من قِبل الحق على سبيل الخطاب والعتاب: ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أيها المغرور ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم، وانكسار عظيم من وقوعه؛ لذلك كذبت بالرسل والكتب، واستهزأت بالهداة الثقات، واستكبرت عليهم ﴿فَكَشَفْنَا﴾ اليوم ﴿عَنكَ غِطَاءَكَ﴾[1] الذي هو سبب غفلتك وإنكارك، وتعاميك

---

(1) قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ﴾ أي: عن ذاتك، وهو الصورة، وبكشف هذا الغطاء تدرك حقيقة الغطاء، وإنه عين الذات؛ إذ لا غطاء للذات إلا عين الذات، جلّت الذات أن يسترها شيء غيرها، فسبحان الذي ما أبطنه إلا ظهوره، وما ظهر إلا الصورة، فالصورة عين الباطن المستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [الإسراء:45] أي: الصورة المحمدية التي هي عين غيب الحقيقة ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:45].
فالحجاب المستور عين الصورة المحمدية؛ إذ هي حقيقة الحق ولا يعرفونه، فليس هذا الحجاب ساترًا بل هو مستور عنهم، فالحجاب عين المحجوب، فهو مستور مع أنه مكشوف، فما حجبه إلا كشفه فعلمنا أن الغطاء ليس إلا الجهل، لا أنه من قبيل القشر على اللب أو من قبيل الساتر على المستور، بل أن المستور بنفسه هو الساتر، فهذا الكشف كشف معنوي لا حسي، وإنما هو كشف الجهل بالعلم، والجهل ظلمة معنوية، والعلم نور معنوي أيضًا، فمن

كشف له غطاء ذاته فأبصر ذاته وأدركها أدرك أنها جميع ما يراه في آخرته، فكان بصره حديدًا، أي: قويًا؛ لأن بصره حينئذ هو الله تعالى، فالبصر عين المبصر، كما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وإذا كان الحق بصره فهو القوي؛ إذ لا أقوى منه جلّ وعلا.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بأن محمدًا ﷺ هو الاسم الآخر لله من جهة صورته، كما أنه الاسم الأول لله من جهة حقيقته ومعناه، فجعل الله بينه وبينهم حجابًا مستورًا، والحجاب المستور هو الرسول محمد ﷺ بعينه، فهو مكشوف لهم مع أنه مستور عنهم بلا ستر، فهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي صورته الكريمة مع أنها هي الحق الناطق بالقرآن، وأن الكلام الظاهر من تلك الصورة هو كلام الله بعينه، وقد أعلمهم الله بحقيقة الأمر لو علموا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، وقد أخبرهم الله أن الكلام الظاهر منه هو كلام الله بعينه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ﴾ [التوبة:6] أي: حتى يسمع كلام الله من صورة الله، فيعلمون أن الله هو الظاهر المتكلم بكلام نفسه في صورة تسمى محمدًا ﷺ وهي آخرة الله تعالى؛ لأنها مجلى اسمه (الآخر) المنطوي فيه الأول، فالحجاب المستور الذي جعله الله بينه وبينهم حين يقرأ عليهم القرآن هو محمد ﷺ بعينه، فهو حجاب الله وليس حجاب الله إلا هو؛ لأنه الأول الآخر الظاهر الباطن، فقدّم الظاهر على الباطن ليكون هذا الظاهر هو الموصوف بالبطون، فإذن لا بطون، فالحجاب المستور عين المحجوب وعين الساتر، فلا حجاب ولا محجوب ولا ساتر ولا مستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام:25]، الضمير في قوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ راجع للحجاب المستور، فلو فقهوه لعلموا أن الداعي - وهو الحق تعالى - ما دعاهم إليه إلا بنفسه بلا واسطة، فإذن لا رسالة بل الأمر أصالة، فما كان رسوله إليهم إلا عينه لا سواه، فمن لم يؤمن بآية المبايعة صراحة على ظاهرها بدون تأويل وحيادة عن اللفظ الظاهر فليس عندنا من الذين لا يؤمنون بالآخرة ولو سميناه مسلمًا؛ إذ ليس كل مسلم بمؤمن حق الإيمان، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]. فالإيمان متعلقه القلب، والإسلام متعلقه اللسان، وكذلك نقول: طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها بلا واسطة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾) [النساء:80]، ولا يقال: يلزم من ذلك التشبيه والتجسيم؛ لأننا نقول: ليس عندنا مشبه ومشبه به، ولا حجاب جسمي، فإن الحجاب الجسمي إنما هو من الوهم فقط بسبب تقيد البصر بالأوهام.

ألا ترى أن بصر أهل الله لا تحجبه الجدران، ولا بعد البلدان، بل الكون كله مكشوف لهم كأنه ذرّة في كفهم، حتى قال بعضهم: لو دبّت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم أعلم بها لقلت إني مخدوع، ومن تحقق بحقيقة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

عن الآيات والنذر، وهو ألفك بالمحسوسات العادية وإنكارك على الأمور الغيبية الخارجة عن حيازة حواسك وقواك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] [ق: 22] أي: صار

[النور:35].

فقد انفك عن قيد الجسمانية، وتحقق بالحقائق الروحانية، ثم يترقى إلى المعاني القدسية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فيكون الكثيف عنده عين اللطيف، بل يرى الوجود كله عينًا واحدة، فيتحقق أن الأمر الواحد يظهر بعدة صور، كالقبر مثلاً فإنه عند البعض حفرة تراب، وعند الشقي حفرة نار، وعند السعيد روضة من رياض الجنة، وقد صح في الحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي رواية: «ما بين قبري ومنبري» وقد صح أيضًا: «منبري على حوضي»(1) مع أنه عندنا على الأرض، وبالجملة فمن كُشف غطاؤه خرق له حجاب الزمان، وبعث ودخل الجنان، ومن لم يكشف غطاؤه فهو محبوس في قفص التراب، مشغول بمشاهدة العذاب.

أقول: من كشف عنه الغطاء علم يقينًا أن الذات المحمدية - عليها صلوات الله وسلامه - أحق وأولى باسم الله الجامع من اسم محمد أو أحمد أو محمود؛ لأن التسمية لها بالاسم الله تسمية إلهية قرآنية لم يشبها ولم يخالطها كون من الأكوان، فهي منزلة في القرآن من الكريم المنان، وذلك محقق عند أهل الإيمان.

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته

بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الآخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق:3]، فلمّا قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن تجري العادة كما كانت، أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور

إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد، لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يحْيي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل عليه السلام: فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحيهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه

بصرك بعد انكشافك بهذا اليوم حادًا حديدًا نافذًا، إلا أنه لا ينفعك حينئذ حدة بصرك وانكشافك بعد انقراض نشأة الاختبار والاعتبار.

﴿وَقَالَ﴾ له حينئذ ﴿قَرِينُهُ﴾ من الحفظة المراقب عليه في النشأة الأولى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: 23] أي: هذا الذي سمعت الآن من الخطاب والعتاب، هو الذي حفظته لك عندي، وكتبته في صحيفة عملك قبل وقوعك فيه.

وبعدما جرى بين كل من العصاة وبين قرينهم ما جرى، أمر من قِبل الحق للسائق والشهيد أمرًا وجوبيًا حتمًا: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ واطرحا فيها ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مبالغ في الكفر والإنكار ﴿عَنِيدٍ﴾ [ق: 24] مبالغ متناه في العناد والاستكبار.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ متبالغ في المنع عن الإنفاق المأمور ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحق، مائل نحو الباطل ﴿مُّرِيبٍ﴾ [ق: 25] موقع لعباد الله في الشك والشبهة في دينه القويم والصراط المستقيم الذي أنزله على رسوله المتصف بالخلق العظيم، وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشرك مطلقًا ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾ واعتقده موجدًا مثله، شريكًا في أفعاله وآثاره، وبالجملة: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: 26] بدل ما تجاوز عن التوحيد الإلهي، وأصر على التشريك والتعديد.

وبعدما أراد الموكلان أن يبطشا به ويجراه نحو النار، أخذ يصرخ وينسب شركه وضلاله إلى الشيطان المضل المغوي، وهو حاضر عنده، وبعدما سمع الشيطان منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ له حينئذٍ ﴿قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان، متضرعًا إلى الله، مناجيًا معه: ﴿رَبَّنَا مَا

في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17،18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بوادي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن. [كشف الواردات الإلهية].

﴿أَطْغَيْتُهُ﴾ وأضللته ﴿وَلَكِن كَانَ﴾ في نفسه ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: 27] بمراحل عن الهداية بمقتضى أهويته وأمانيه الفاسدة.

وبعدما اختصم الكافر وقرينه عند الله ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ولا تتنازعوا عندي؛ إذ لا نفع لكم الآن في الخصومة والنزاع ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ في كتبي وعلى ألسنة رسلي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: 28] الهائل، والعذاب الشديد على أهل الشرك والطغيان والكفر والكفران، فالحكم على ما جرى بلا تبديل وتغيير.

إذ ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿لَدَيَّ﴾ بل المقدر في علمي كائن على ما ثبت وكان على مقتضى العدالة والقسط الحقيقي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29] أي: ليس من شأني الظلم والتعدي على عبيدي، بل هم يظلمون أنفسهم، فيستحقون العقوبة على قدر عصيانهم.

اذكر يا أكمل الرسل للعصاة والكفرة المشركين، المصرين على العناد والإنكار ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ المعدة لجزائهم، سؤال تخييل وتصوير حين طرحت عليها أفواج الكفرة والعصاة: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ﴾ جهنم من شدة تلهبها وتسعرها بإنطاق الله إياها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] من المطروحين حتى يطرح ما بقي من أهلها إلى أن تمتلئ إنجازًا لما وعد لها الحق، نقول لجهنم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119].

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا للمؤمنين المطيعين يوم ﴿أُزْلِفَتِ﴾ وقربت ﴿الْجَنَّةُ﴾ الموعودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31] بل بحيث يرون منازلهم فيها قبل دخولهم من غاية قربها، ويتمنون الوصول إليها.

فيقال لهم حينئذ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع، تواب إلى الله عن عموم زلاته ومطلق فرطاته في نشأة الاختبار ﴿حَفِيظٍ﴾ [ق: 32] لتوبته على وجه الندم والإخلاص، بلا توهم عودٍ ورجوع عليها أصلاً.

وبالجملة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ واجتنب عن محارمه ومنهياته، خائفًا من سخطه، راجيًا من سعة رحمته في نشأة الاعتبار والاختيار قبل انكشاف السرائر والأستار وحلول النشأة الأخرى، ورضي بالتكاليف الإلهية، ووطن نفسه بامتثال عموم الأوامر والنواهي ومطلق الأحكام الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ﴾ [ق: 33] إلى الله، مخلصًا في إطاعة الله وإطاعة رسوله.

قيل لهم حينئذ من قبل الحق على وجه التبشير: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة المعدة لأرباب التقوى ﴿بِسَلامٍ﴾ حال كونكم سالمين آمنين من العذاب ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49] ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي أنتم فيه الآن ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: 34] في الجنة الموعودة لأرباب العناية والشهود.

جعلنا الله من زمرتهم بمنّه وجوده.

وبالجملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ من اللذات الحسية والعقلية المحاطة بمداركهم وآلاتهم، بل ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35] على ما يسألون حسب استعداداتهم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ
(٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ
خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ
عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ
الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ
الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ
فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق: 36-45].

ثم قال سبحانه تهديدًا على من أعرض عن دينه ونبيه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أهله، مع أنه ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوة وقدرة، وأكثر أموالاً وأولادًا، كعاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿فَنَقَّبُوا﴾ أي: انصرفوا وانقلبوا وساروا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ متمنين ﴿هَلْ﴾ يجدون ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: 36] مهرب ومخلص من بطش الله وحلول عذابه عليهم، فلم يجدوا بعدما استحقوا التعذيب والإهلاك، وبالآخرة هلكوا واستؤصلوا حتمًا، فكذا هؤلاء المسرفون المعاندون سيهلكون كما هلكوا، وبالجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القرآن العظيم، الذي نزل عليك يا

أكمل الرسل ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ عظة وتذكيرًا وعبرة وتنبيهًا ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يتفطن من تقلبات الأحوال وتطوراتها إلى شئون الحق وتجلياته الجمالية والجلالية حسب اقتضاء الذات بالإرادة والاختيار، وكمالات الأسماء والصفات ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: يكون من أرباب الإرادة الصادقة الخالصة عن شوب السمعة ورعونات الرياء، ألقى سمعه إلى استماع كلمة الحق من أهله ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿شَهِيدٌ﴾[1] [ق: 37] حاضر القلب، فارغ الهم، حديد الفطنة، صحيح الإرادة، خالص العزيمة.

ثم لما قال اليهود: إن الله خلق العالم في ستة أيام من الأسبوع، وبعدما عيّ من الخلق والإيجاد استلقى على العرش في يوم السبت للاستراحة، رد الله عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات الممتزجة منهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا مَسَّنَا﴾ ولحقنا ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38] وصب وتعب وإعياء وفتور؛ إذ ذاتنا منزهة عن طريان أمثال هذه النقائص الإمكانية.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وينسبون إلى الله الصمد القدوس من أمثال هذه المفتريات الباطلة، الناشئة من جهلهم المفرط بالله وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بمقتضى توحيدك وتمجيدك إياه، ونزّه ذاته عما يقول

(1) قال الورتجبي: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السرّ، والقلب عبارةٌ عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، ووراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، ألبس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسرمدٌ، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغولٌ بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقرابة، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا لهيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرّ عيوننا بأنوار الغيوب.

الظالمون الجاحدون، الجاهلون بقدره وعلو شأنه، وتوجه نحوه سبحانه في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق: 39] يعني: كلا طرفي النهار؛ إذ هما أوان الفراغ من مطلق الأشغال.

﴿وَمِنَ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ في خلال تهجداتك ﴿وَ﴾ بالجملة: سبّحه ﴿أَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: 40] أي: في عقب كل صلاة ذات ركوع وسجود.

ثم قال سبحانه آمرًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا أكمل الرسل النداء الهائل ﴿يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ﴾ من قبل الحق؛ لقيام الساعة والبعث ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41] بكل أحد، بحيث يسمعه بلا كلفة وشبهة، فيقول: أيتها العظام البالية والحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ملبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ تحققوا حينئذٍ أن ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ [ق: 42] من القبور والبعث والنشور.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من كمال قدرتنا وحكمتنا ﴿نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في النشأة الأولى بالإرادة ﴿وَإِلَيْنَا المَصِيرُ﴾ [ق: 43] أي: مصير الكل ومرجعهم إلينا في النشأة الأخرى.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر الحشر والميعاد ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي: تنشق وتتخرق ﴿الأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ويخرجون منها ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين﴿ذَلِكَ﴾ أي: إخراجهم وخروجهم كذلك ﴿حَشْرٌ﴾ وبعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44] سهل.

لا تستبعدوا ولا تستعسروا عن قدرتنا الكاملة أمثال هذا؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ وأحفظ ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المنكرون، المشركون في سرائرهم ونجواهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِجَبَّارٍ﴾ تردعهم وتزجرهم عما هم عليه من الإنكار والإصرار، بل ما أنت إلا مذكر.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي: بوعيداته وإنذاراته ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45] إذ لا ينفع تذكيرك إلا للخائف منهم، ومن لم يخف ليس لك عليهم سلطان ليزعجهم إلى الإيمان، ويلجئهم إلى قبول الإسلام؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتذكير، والتوفيق من الله العليم الخبير.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب لتوفيق الحق في عموم أحوالك - وفقك الله على سلوك طريق توحيده - أن تفرغ همك عما سوى الحق، وتصفي سرك عن مطلق الشواغل المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وكن في نفسك خائفًا من غضب ربك، راجيًا من عفوه وغفرانه في عموم أعمالك التي جئت بها تقربًا إليه، مفوضًا أمورك كلها إلى مشيئته، وبالجملة: عليك أن تتذكر بوعيدات القرآن ومواعيده المستلزمة لصلاح الدارين، وفلاح النشأتين.

وإياك الإعراض عن الحق وأهله، والانصراف عن معالم الدين المنزل من عنده سبحانه، لتبيين مسالك توحيده.

جعلنا الله من زمرة الراسخين، المتمكنين في معالم الدين القويم بمنِّه وجوده.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الذاريات

لا يخفى على الموحدين المنكشفين بظهور الحق في مطلق المظاهر بوحدته الذاتية، المتصفة بجميع الأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة، المحيطة كل منها بعموم ما ظهر وبطن، أن كل مظهر من مظاهر الحق باعتبار ظهور الحق فيه بذاته قابل لأن يقسم به ويتيمن منه، كما أقسم سبحانه في هذه السورة بما أقسم تنبيهًا وتعليمًا لعباده بظهوره في عموم مظاهره.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي في الرياح المروحة لنفوس أرباب الطلب والإرادة شوقًا إلى لقائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم يوقظهم من سنة الغفلة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ
هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ
(١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ
دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ
إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: 1-30].

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ يعني: وحق النسمات الروحانية من النفسات الرحمانية على وفق العناية الأزلية؛ بحيث تذرو والبعث النفوس الخيرة الموفقة المجبولة على نشأة التوحيد ﴿ذَرْوًا﴾[1] [الذاريات: 1] نوعًا من الذرو والبعث على سبيل الشوق، والتحنن نحو المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي.

﴿فَالْحَامِلاتِ﴾ من القوى، والآلات الحاملة كل واحد منها ﴿وِقْرًا﴾ [الذاريات: 2] حملاً ثقيلاً خطيرًا من أعباء الوحي، والإلهامات الإلهية من العلوم اللدنية والإدراكات الكشفية، المنشعبة من حضرة العلم ولوح القضاء، المتعلقة بالمعارف والحقائق الإلهية.

﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ أي: سفن النفوس المشتملة على أنواع المدارك، والمشاعر الجارية في بحر الوجود ﴿يُسْرًا﴾ [الذاريات: 3] سهلاً بلا تثاقل وتكاسل.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ﴾ من الأسماء والصفات الإلهية، الموسومات بالملائكة، المقسمة لقوابل المظاهر ﴿أَمْرًا﴾ [الذاريات: 4] أي: أمور أرزاقهم، ومطلق حظوظهم وأبصارهم من الفيوضات والفتوحات الصورية والمعنوية، الموهوبة لهم من قبل الحق حسب استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أنتم أيها المكلفون، المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان من البعث والحشر والحساب والجزاء، وغير ذلك من المعتقدات الأخروية، المترتبة على العالم المحيط الإلهي، وقدرته الغالبة وإرادته الشاملة ﴿لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: 5] ثابت محقق وقوعه بلا شك وشبهة.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ والجزاء الموعود لكم في النشأة الأخرى، المتفرع على أعمالكم

(1) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثرا؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت.

وأفعالكم في النشأة الأولى ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: 6] محقق وقوعه، كائن إتيانه ألبتة، بلا تردد وارتياب.

ثم لما أقسم سبحانه بما يتعلق بعالم الأمر، أراد أن يقسم بما يتعلق بعالم الخلق تتميمًا للتأكيد والمبالغة بالقسم باعتبار كلا العالمين، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق السماء الرفيعة، البديعة النظم، العجيبة التركيب ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: 7] أي: الحسن والزينة، وكمال الصفاء، والبهجة والبهاء؛ لاشتمالها على الكواكب المشيرة إلى الطرق الموصلة إلى قدرة الصانع القديم، ومتانة حكمة الحكيم العليم.

إن اليوم الموعود لبعثكم وجزائكم لآت ألبتة ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الشاكون في شأنه، وشأن من أخبر به بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي، وشأن ما أنزل لبيانه من الكتاب المبين لإعداد الزاد له، وطريق النجاة عن أهواله وأفزاعه ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: 8] تنكرون له، وتكذبون المخبر الصادق، وتنسبون له وإلى الكتاب المبين المعجز من المفتريات الباطلة؛ حيث تقولون تارة: إنه سحر، أو من أساطير الأولين أو كهانة اختلقها الشاعر، أو كلام المجانين يتكلم به هذا المجنون.

وبالجملة: ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف ﴿عَنْهُ﴾ وعن دينه وكتابه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾[1] [الذاريات: 9] وصرف عن الحق وقبوله، ومال إلى الباطل، وسعى نحوه.

وبسبب إفكهم، وذبّهم عن طريق الحق والامتثال به ﴿قُتِلَ﴾ أي: طرد ولعن على ألسنة عموم أهل الحق ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: 10] المنكرون الكاذبون، المكذبون من أصحاب القول المختلق، وهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من شدة انصرافهم عن الحق وأهله ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ وغفلة عظيمة، وجهل متناهٍ ﴿سَاهُونَ﴾ [الذاريات: 11] غافلون عن الله وقدر ألوهيته وحقوق ربوبيته.

ومن كمال غفلتهم، وشدة عمههم في سكرتهم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: 12] أي: يقولون: متى يوم الجزاء والقيامة

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن في قطاع الطريق على أرباب الطلب للكثرة، فمن يصرفه طلبه قاطع من القطاع من النفس والهوى والدنيا وزينتها وشهواتها وجاهها ونعيمها فَصُرِف؛ فقد حرم عن متمناه وأهلكه هواه، كما قيل نعوذ بالله من الحور بعد الكور، وينادي عليه منادي العزة: وكم مثلها فارقتها وهي تصغر..

يا محمد؟! وفي أي آن يأتينا عذاب الساعة وأهوالها؟!

قال تعالى في جوابهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13] أي: يوم يقع عليه الجزاء والعقاب والعذاب، وهم يحرقون فيه في النار، ويطرحون عليها صاغرين مهانين.

ويقول لهم الموكلون حين طرحهم فيها توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المجرمون المسرفون ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ التي أنتم تستعجلون بها في دار الدنيا على سبيل الاستهزاء والمراء، وبالجملة: ﴿هَذَا الَّذِي﴾ وقعتم فيه، وحبستم عليه الآن من العذاب ﴿كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 14] في سالف الزمان على سبيل الإنكار والاستكبار.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِن الْمُتَّقِينَ﴾ الممتثلين لأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه الموردة في كتبه الجارية على ألسنة رسله، الحافظين لنفوسهم عن الإفراط في الرخص والمباحات، فكيف عن تفريط المحظورات والمحرمات! متلذذون باللذات الروحانية ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: متنزهات العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: 15] جاريات من الحكم، والمعارف اللدنية المستخرجة من ينابيع قلوبهم، المترشحة إليها من بحر الوجود على مقتضى الحفظ الإلهي، حسب استعداداتهم واستفاضتهم بمقتضاها.

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ وأعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ تفضلاً عليهم، وتكريمًا على وجه الرضاء بجميع ما جرى عليهم من مقتضيات قضائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الفضل واللطف في النشأة الأولى ﴿مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: 16] الأدب مع الله ورسله، وخُلَّص عباده العاكفين ببابه.

ومن جملة إحسانهم: إنهم ﴿كَانُوا﴾ في دار الابتلاء ﴿قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17] أي: يرقدون قليلاً من ساعات الليل، وذلك أيضًا بسبب ألا يعرضهم الكلال العائق من المواظبة على الطاعات.

﴿وَ﴾ هم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم وخشوعهم ﴿بِالأَسْحَارِ﴾ المعدة

للتوجه والاستغفار ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] [الذاريات: 18] دائمًا، كأنهم يرون أنفسهم قاصرة عن رعاية حقوق العبودية على ما ينبغي، لذلك يبالغون في الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ كان ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ وأرزاقهم المسروقة إليهم من قبل الحق ﴿حَقٌّ﴾ حظ ونصيب مفروض مقدر، يستوجبونه على أنفسهم ﴿لِلسَّائِلِ﴾ السائر في سبيل الله، المتعرض للسؤال مقدار ما يحتاج إليه ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 19] المتعفف عن ذلِ السؤال، المتمكن في زاوية التوكل والتفويض.

ثم أشار سبحانه إلى حيطة وحدته الذاتية، وشمولها على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس بالاستقلال والانفراد، وسر سريان هويته الذاتية على ذرائر الكائنات، تنبيهًا للمريد المستبصر، وإيقاظًا لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان، فقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾ أي: عالم المسببات، والاستعدادات المعبرة بالآفاق المعدة لظهور آثار القدرة الكاملة الإلهية من العجائب والغرائب، المتفرعة على كمال العلم، ووفور الحكمة المتقنة آيَاتٌ دلائل واضحات وشواهد لائحات دالة على قدرة الصانع الحكيم، ووحدة ذاته، واختياره في مطلق تصرفاته، واستقلاله في حكمة ومصالحه ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20] المنكشفين باليقين العلمي والعيني والحق.

بل ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ أيضًا أيها المستبصرون، المستكشفون عن سرائر الألوهية وأسرار الربوبية شواهد ظاهرة تشهد على حقية الحق، وتوحّده في ظهوره ووجوده ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] أيها المجبولون على فطرة الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء، والأسباب المعبرة عنها بالأعيان الثابتة ﴿رِزْقُكُمْ﴾ أي: أرزاقكم الصورية والمعنوية، المبقية لأشباحكم وأرواحكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] [الذاريات: 22] من الآجال المقدرة، والجزاء المترتب على الأعمال

(1) قال في التأويلات: أي: يستغفرون عن رؤية عبادات يعلمونها في سهرهم إلى الأسحار بمنزلة العاصين، يستغفرون استصغارًا لقدرهم واستحقارًا لفعلهم، والليل إما للأحباب في أنس المناجاة وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم؛ لفرط أسف أو لشدة لهف، وإما للاشتياق أو للفراق.

(2) أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإنا نرزقكم، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السماء رِزْقُكُمْ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (67/2).

والأفعال الصادرة عن هوياتكم الباطلة في نشأكم الأولى، وحالاتكم الواقعة فيها.

ثم أقسم سبحانه تأكيدًا لما أومأ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وحق موجدهما، ومربيهما على هذا النمط البديع والنظم الغريب ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما يستدل بإيجادهما، وإظهارهما على وجوده سبحانه وكمال وقدرته، ووفور حكمته، ومتانة حكمه ﴿لَحَقٌّ﴾ ثابت محقق حقيق بالحقية، وحيد بالقيومية، فريد بالديمومية، لا يعرضها زمان، ولا يعتريها كلال.

وهو في حقيته وتحققه ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] أي: كمال لا شبهة لكم في تنطقكم، وتلفظكم بالكمالات المنطوقة، كذلك لا شبهة في حقية الحق وظهوره، بل هو أظهر من كل شيء ظاهر، وأجلى من كل جلي، بل الكل إنما يظهر به وبظهوره، إلا إنكم بغيوم تعيناتكم الباطلة وظلام هوياتكم العاطلة، تسترون شمس الحق الظاهر في الآفاق بكمال الكرامة والاستحقاق.

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم الخليل، المتحقق بمقام الكشف والشهود، النازلة من عنده سبحانه من كمال المحبة والإخلاص والخلة والاختصاص مع ضيفه من الملائكة المكرمين، فقال مستفهمًا لحبيبه ﷺ على سبيل العبرة والتذكير: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقصة إلمام الملائكة ونزولهم عنده على صورة الأضياف ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] لكرامتهم، وحسن صورتهم وسيرتهم.

ومن كمال كرامتهم ونجابتهم: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وحضروا عنده بلا استئذان ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم سلامًا عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام في جوابهم ظاهرًا، وإن أنكر عليهم خفية بدخولهم بلا استئذان: ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، عدل إلى الرفع لقصد الدوام والثبات؛ ليكون رده أكمل من تسليمهم، وهو عليه السلام، وإن بادر إلى رد تسليمهم، إلا أنه أضمر في نفسه الإنكار عليهم، فقال في سره: هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: 25] لا أعرف نفسهم ولا أمرهم.

﴿فَرَاغَ﴾ أي: عدل، ومال عنهم فجأة خفية منهم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: 26] إذ كان أغلب مواشيه البقر، فذبحه وطبخه ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ نزلاً، فأبوا عن أكله، فعرض عليهم، وحثهم على الأكل كما هو عادة أرباب الضيافة؛ حيث ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: 27] منه، فلم يأكلوا بعد العرض والإذن أيضًا.

ثم لما رأى منهم ما رأى من الامتناع عن طعامه ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وأضمر الخليل في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا ورعبًا منه، ظنًا منه أنه إنما امتنعوا من طعامه؛ ليقصدوا له سوءًا، ثم لما تحسسوا منه ما تحسسوا من الرعب المفرط ﴿قَالُوا﴾ له إزالةً لرعبه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منَّا، ولا تحزن عن امتناعنا من الأكل، إنا لسنا ببشر، بل نحن ملائكة منزهون عن الأكل، مرسلون من عند ربك لأمرٍ عظيم.

قيل: مسح جبريل العجل المشوي فحيي، فقام يدرج ويدب حتى لحق بأمه، وبعدما رأى منهم إبراهيم ما رأى، وسمع ما سمع، أمن منهم ﴿وَ﴾ بعدما أمنوه وأزالوا رعبه ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ إذ لم يكن له ابن يخلف عنه، وكانت امرأته عجوز عقيمة ﴿عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28] في كمال الرشد والفطنة، وهو إسحاق عليه السلام.

وبعدما سمع إبراهيم منهم البشرى أخبر به امرأته، ثم لما سمعت ما سمعت استحالت واستبعدت ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إليهم ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ صرير وضجة ﴿فَصَكَّتْ﴾ ولطمت ﴿وَجْهَهَا﴾ بأطراف أصابعها ﴿وَقَالَتْ﴾ مشتكية: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29] عاقر، كيف ألد ابنًا سيما بعد انقضاء أوانه وانصرام زمانه؟!

ثم لما شاهدوا منها ما شاهدوا ﴿قَالُوا﴾ لها: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: مثل ذلك الذي نخبرك ونبشرك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وما علينا إلا البلاغ، والأمر بيد الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في عموم أفعاله وآثاره ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30] بمطلق تدابيره وتقاديره.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي
مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ
أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: 31-51].

وبعدما جرى منهم ما جرى، أخذ إبراهيم عليه السلام يسأل عن سبب نزولهم وارسالهم، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وشأنكم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: 31].

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: 32] أقبح الجرائم وأفحش المنكرات؛ يعنون: قوم لوط عليه السلام المبالغين في الفعلة الشنيعة، والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والفحش.

وإنما أرسلنا ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ متحجرة ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: 33] يريد منه السجيل المركب من الحجر المسحوق مع الطين، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة كل منها باسم من رُمي بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لتكون جزاء ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: 34] الذين أسرفوا في الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، وعن الطريقة المعتادة لحكمة الإيلاد والاستيلاد.

ثم لما أردنا رجمهم وإهلاكهم، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بإذن ربنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في تلك القرية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 35] المصدقين بنبوة لوط عليه السلام ودينه، الممتثلين بالأوامر والنواهي الجارية على لسانه.

﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك القرى بعدما فتشناها، وكشفنا عن أهلها ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: سوى أهل بيت فقط ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 36] المتصفين المجتمعين بين الإيمان والتسليم، وهو أهل بيت لوط عليه السلام.

وبالجملة: أهلكنا الكل ﴿وَتَرَكْنَا﴾ آثار هلاكهم واستئصالهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض التي تلك القرى فيها ﴿آيَةً﴾ علامة، وأمارة مستمرة إلى يوم القيامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: 37] النازل على أهل الجرائم والآثام، فيمتنعون عنها ويعتبرون بها.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا ﴿فِي﴾ إهلاك مكذبي ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم آية للمُتذكرين المعتبرين، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ أصالة وأخاه معه تبعًا ﴿إِلَىٰ

﴿فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي، المبالغ في العتو والعناد وأيدناه ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: 38] وحجة واضحة ودليل لائح.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن دعوته إلى الإيمان مستظهرًا ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: ملئه وجنوده الذين يتقوى بهم، ويركن إليهم في الخطوب والملمات ﴿وَقَالَ﴾ في جوابه من كمال بطره وعناده: هو ﴿سَاحِرٌ﴾ فيما أتى من الخوارق ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 39] يعمل له الجن جميع ما يظهر منه الإرهاصات.

وبالجملة: كذبه، وأنكر عليه ونسب معجزاته إلى السحر وأعمال الجن ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ غيرة منًا وتقوية لرسولنا ﴿وَجُنُودَهُ﴾ المظاهرين له ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ وأغرقناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: 40] نفسه بما يلام عليه من الكفر والعناد وأنواع العتو والفساد، نادم عن جميع ما صدر عنه وما ينفعه من الندم.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا آية عظيمة للمعتبرين ﴿فِي﴾ إهلاك قوم ﴿عَادٍ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: 41] لا يثمر نفعًا سوى العقم والهلاك على وجه الاستئصال، مع أنهم أملوا نفعًا عظيمًا فيها.

إذ ﴿مَا تَذَرُ﴾ وتترك ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ﴾ وهبت ﴿عَلَيْهِ﴾ من الأنفس والمواشي ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ﴾ وصيرته ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 42] أي: اليابس البالي من النبات وأوراق الأشجار، وبالجملة: صيّرتهم هباء منثورًا تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِي ثَمُودَ﴾ وإهلاكهم آية عظيمة لأجل العبرة، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم حين أردنا أخذهم وإهلاكهم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: 43] أي: تمتعوا وترفهوا ثلاثة أيام، فكذبوا المخبر، وأنكروا عليه خبره.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وما تندموا وتضرعوا، مع أن المناسب لهم هذا حينئذ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الهائلة المهولة صبيحة اليوم الرابع ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: 44] إتيانها عيانًا، ولا يقدرون على دفعها.

بل ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ وما قدروا ﴿مِن قِيَامٍ﴾ نهوض، وحركة عن أمكنتهم التي كانوا فيها عند ظهورها﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45] ممتنعين من عذابنا منتقمين منا.

﴿وَ﴾ مثل ما أهلكنا المذكورين، أهلكنا﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل إهلاك هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضًا أمثال هؤلاء الطغاة البغاة الهالكين في تيه العتو والعناد ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: 46] خارجين عن مقتضى الحدود والإلهية بأنواع الكفر والفسوق والعصيان، لذلك أهلكناهم بالطوفان،﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45].

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: كيف يسع لهم الإباء والامتناع عن مقتضيات قدرتنا، والخروج عن ربقة إطاعتنا وعبوديتنا، مع أنّا بنينا السماء المرفوعة المحفوظة ﴿بِأَيْدٍ﴾ غالبة وقدرة كاملة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47] قادرون غالبون بالاستقلال والاختيار، لا يعارض فعلنا، ولا ينازع أمرنا وحكمنا.

﴿وَالأَرْضَ﴾ أيضًا ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ ومهدناها بالاستقلال والاستيلاء التام ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48] الباسطون نحن بلا مشاركة.

﴿وَ﴾ مثل ما خلقنا العلويات فواعل مؤثرات، والسفليات قوابل متأثرات ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء الكائنة في بقعة الإمكان، وعرصة الزمان والمكان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين مزدوجين﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، المؤيدون بالعقل المفاض المتشعب من العقل الكل﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49] فتعلمون أن الكل منه بدأ وإليه يعود، ولا شيء سواه موجود.

وبعدما ثبت أن ظهور الكل منه ورجوعه إليه سبحانه: ﴿فَفِرُّوا﴾ أيها العارفون الموحدون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المسقط لعموم الإضافات من مقتضيات عالم الناسوت، وانخلعوا عن لوازم هوياتكم الباطلة وأنانياتكم العاطلة﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يعوقكم من سلوك طريق توحيده﴿مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 50] مظهر لكم آداب الطريقة الموصلة إلى مقصد الحقيقة، التي هي الوحدة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ ولا تتخذوا، ولا تعتقدوا﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المنزه عن التعدد مطلقًا ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مستحقا للإطاعة والرجوع، مستقلاً في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 51] أنذركم عن الوعيدان الهائلة العاجلة والآجلة، اللاحقة عليكم بالشرك والإشراك وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ [الذاريات: 52-60].

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر والحكم مثل ذلك أنذرهم، وبلغهم بلا مبالاة بإعراضهم واستهزائهم؛ إذ ﴿مَا أَتَى﴾ الضالين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ من الرسل الكرام ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ حين دعوتهم إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 52] مثل ما يقول هؤلاء الحمقى في شأنك يا أكمل الرسل.

ثم قال على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا؛ أي: أسلافهم لأخلاقهم بهذا القول والتكذيب، فتواطئوا عليه جميعًا، مع أنه لا يمكنهم هذه التوصية في الأزمنة الطويلة ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53] مشاركون في الغي والضلال والعدوان مع أسلافهم في أهل فطرتهم وجبلتهم؛ لذلك اتصفوا بما اتصفوا لاشتراك السبب بينهم.

وبعدما أصروا على ما هم عليه من العناد، ولم تنفعهم الآيات والنذر: ﴿فَتَوَلَّ﴾ واعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بذلت وسعك في إرشادهم وإهدائهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: 54] على إعراضك عنهم، وانصرافك عن إرشادهم ودعوتهم بعد المبالغة.

﴿وَذَكِّرْ﴾ للقوابل المستحقين ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ والعظة ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] الموفقين من لدنًا على الإيمان، المجبولين على فطرة اليقين والعرفان.

﴿وَ﴾ اعلم أني ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ وما أظهرت أشباحهم وأظلالهم على هذه الهياكل والهويات، وما صوَّرتهم على هذه الصور البديعة، وما أودعت فيهم ما أودعت من جوهر العقل المفاض ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ويعرفوني، ويتحققوا بوحدتي واستقلالي في وجودي، وفي عموم تصرفاتي، وباستحقاقي للإطاعة والعبودية مطلقًا بلا شوب شركة ومظاهرة من أحد.

وإلا ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم﴾ وبخلقهم وإظهارهم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: تحصيل رزق صوري أو معنوي أرزق به عبادي؛ إذ خزائن أرزاقي مملوءة، وذخائر رحمتي متسعة ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا أُرِيدُ منهم أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: 57] أي: على الفقراء الذين هم عيالي طلبًا لمرضاتي.

كما جاء في الحديث صلوات الله على قائله: «**يقول الله ﷻ: استطعمتك فلم تطعمني**»[1] أي: لم تطعم عبدي الجائع.

وكيف أريد منهم أمثال هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ المنحصر المخصوص في ترزيق عموم العباد، لا رازق لهم سواه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2] [الذاريات: 58] والطول العظيم المقتدر الحاكم، الغالب على عموم مراداته ومقدوراته على وجه الإحكام من الإنعام والانتقام.

وبالجملة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الرسول الله ﷺ بأنواع التكذيب والإنكار والاستهزاء والاستحقار ﴿ذَنُوبًا﴾ حظًا وافرًا ونصيبًا كاملاً من العذاب الآجل والعاجل ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب أسلافهم من الكفرة المكذبين للرسل الماضين، وسيلحقهم مثل ما لحقهم، بل بأضعافه وآلافه ﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: 59] لحوقه وحلوله.

وبالجملة: ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد هائل نازل ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل، وأصروا عليه ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ الفظيع الفجيع ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 60] في النشأة الأخرى، وهو يوم القيامة المعدة لتعذيب العصاة والغواة وتفضيحهم فيه.

جعلنا الله من الآمنين فيه، الناجين من عذابه بفضله ولطفه.

---

(1) رواه مسلم (1990/4، رقم 2569)، وابن حبان (503/1، رقم 269).

(2) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسُهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (156/6).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المجبول على فطرة المعرفة واليقين، أن تتفكر في حكمة ظهورك ومصلحة بروزك من كتم العدم في معرفة نفسك في عموم أحوالك؛ لينكشف لك من التأمل فيها الإطلاع على موجدها ومظهرها واتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة.

ثم منها إلى توحيده واستقلاله في الوجود، وعموم الآثار المترتبة عليها، حتى تفوز إلى غاية قصواك ومبتغاك من اليقين والإيمان، ونهاية ما يترتب على ظهورك من التوحيد والعرفان، والله المستعان وعليه التكلان.

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الطور

لا يُخفى على من تحقق بمقام القلب، وتمكن في مقعد صدق المعرفة والتوحيد أن ذات الحق، وحيطة حضرة علمه، وسعة لوح قضائه وشمول قلم تقديره وتدبيره مما لا يكتنه ذاته ولا أوصافه، بل لا نهاية لحيطتها ولا غاية لحصرها.

لذلك أقسم بذاته العظيم، وعلمه العميم وأوصافه القديم، تعليمًا لعباده، وتنبيهًا لهم نحو مبدأهم ومعادهم، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى حسب أسمائه الحسنى وأوصافه العليا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى سدرة المنتهى.

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: 1-14].

﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: 1] أي: وحق الذات المقدس عن الظهور والبطون، المنزه عن البروز والكمون.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: 2] هو حضرة العلم الإلهي الذي سطر بالقلم.

﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: 3] هو لوح القضاء المحفوظ من التباهي والانقضاء، المحروس عن مطلق التغير ومطلق الانمحاء.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: 4] الإلهي الذي هو قلب العارف المحقق، المتحقق بمقام الفناء عن الفناء، وبالبقاء ببقاء العظمة والكبرياء، المعبر بها عن عالم العمى اللاهوتي الذي هو سواد أعظم الفقر، وبيت المعمور الأكبر.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5] الذي هو سماء الأسماء والصفات عن مطلق التعدد الأصفياء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[1] [الطور: 6] الذي هو مطلق الوجود المحيط بالكل

---

(1) قال روزبهان: أقسم الله هاهنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال، والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام.

والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كناية عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءً من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع

بمقتضى الجود.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل لعصاة عباده ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: 7] نازل لهم في يوم الجزاء. ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: 8] لأن من قدر على أمثال هذه المقدورات، واتصف بهذه الأسماء والصفات بالأصالة والاستحقاق، لا يعارض حكمه ولا يدفع قضاؤه.

اذكر يا أكمل الرسل للمكذبين المنكرين للحشر والنشر كيف حالهم ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: 9] اضطرابًا غريبًا وتحركًا لا على وجه المعتاد إلى حيث طويت ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104].

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ الرواسي الرواسخ ﴿سَيْرًا﴾ [الطور: 10] فتصير الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 106-107].

﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ واقع ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: 11] المسرفين المصرين.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ في الأباطيل الزائغة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: 12] بآيات الله الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته، وكذا يلحقهم أيضًا ويل عظيم.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يطرحون ويدفعون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: 13] طرحًا على وجه العنف، مشدودين بالسلاسل والأغلال.

فيقال لهم حينئذ تفضيحًا وتوبيخًا: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الطور:

أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى مصاعا الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان وضياء الا ما: وأنوار الإسلام.

(1) قال في عين الحياة: أي: تكذبون اللطائف المرسلة إليكم الداعية لكم إلى الحق، فهذه نار التي

14] وتنكرون الآيات والنذر الواردة في شأنها، وتنسبونها إلى السحر والكهانة، وغير ذلك من الخرافات والجزافات.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ
مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ
(٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ
(٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)
فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ
(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور: 15-31].

وأنتم أيها المنهمكون في الطغيان وأنواع الكفران في سالف الزمان، كنتم نسبتم الوحي والإلهام إلى السحر والأوهام تأملوا الآن: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ الذي أنتم تطرحون فيها، وتعذبون بها كما زعمتم فيما مضى﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: 15] ولا تشعرون بها، كما كنتم لا تشعرون بالآيات الواردة في شأنها حينئذ.

وبالجملة: ﴿اصْلَوْهَا﴾ وادخلوا فيها، وبعد دخولكم ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾

كانت فيكم، وأنتم أشعلتموها في وجودكم، وأوقدتموها بنيران الحسد والحقد والكبر والغضب والبغض، وجمعتم لها حطب الحطام الدنيوي من الدراهم والدنانير والأموال والأملاك والمواشي، فصار المجموع حطمتكم مما تكوي بها جباهكم وجنوبكم.

وعلى أي وجه تصيروا وتكونوا، لا مخلص لكم عنها، ولا مخرج لكم منها، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر، وعدمه في عدم النفع والدفع ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 16] أي: ما تجزون إلا بما كسبتم لأنفسكم، وأعددتم لأجلها، فيلحقكم الآن وبال ما اقترفتم فيما مضى حتمًا على مقتضى العدل الإلهي، فلا ينفعكم الصبر والاضطراب.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن محارم الله، المتحرزين عن إنكار آيات الله الواردة في الوعد والوعيد، متلذذون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: 17] أية جنات وأيُ نعيم: رياض الرضا ونعيم التسليم.

﴿فَاكِهِينَ﴾ متنعمين مسرورين فيها، مطمئنين راضين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بمقتضى فضله وسعة جوده ولطفه ﴿وَ﴾ بما ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: 18] أي: أهوالهم وأفزاعها.

فيقال لهم فيها على سبيل التبشير والتفريح: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من الرزق الصوري والمعنوي ﴿هَنِيئًا﴾ بلا تنقيص وتكليف ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19] أي: بسبب صالحات أعمالكم وحسنات أفعالكم.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ معدة لهم ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ منضودة مرتبة وفق أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم.

﴿وَ﴾ بعدما تمكنوا على السرر مسرورين ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرناهم استئناسًا منا إياهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: 20] مصورة من المعارف والحقائق المنكشفة لهم، المشهودة بعيون بصائرهم.

﴿وَ﴾ قرناهم أيضًا مع إخوانهم ورفقائهم من الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وانكشفوا بتوحيده ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ ولحقتهم معهم ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أي: جميع ما انشعب، وتفرع منهم من أولادهم وأعمالهم الصادرة عنهم حال كونهم متصفين ﴿بِإِيمَانٍ﴾ يقين علمي وتصديق قلبي قبل وصولهم إلى اليقين العيني والحقي، بل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ أيضًا ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾أي: مشاهداتهم، ومكاشفاتهم الواردة عليهم حسب مقاماتهم وحالاتهم بعد

اتصافهم باليقين العيني والحقي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَلَتْنَاهُم﴾ ونقصنا عليهم ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ الناشئ منهم في طريق الهداية والرشاد ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ نزر يسير، بل وفينا ووفرنا عليهم جزاء الكل مع مزيد عليها تفضلاً منّا وإحسانًا؛ إذ ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ ذي هوية شخصية مجبولة لحكمة المعرفة، ومصلحة التوحيد ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الأسباب ﴿رَهِينٌ﴾ [الطور: 21] مرهون مقرون لا ينفصل عنها.

بل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ تفضلاً وامتنانًا منا إياهم، وتكريمًا لهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ من المعارف والحقائق الواردة المتجددة آنًا فآنًا، حسب الشئون الإلهية وتجلياته الجمالية والجلالية ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: 22] أي: يتقوت ويقوى به أشباحهم وأرواحهم.

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ويتجاذبون ﴿فِيهَا كَأْسًا﴾ من رحيق التحقيق، مع أنه ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ من فضول الكلام ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: 23] من قبح الأفعال المستلزمة للآثام كما هو عادة الشاربين في الدنيا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ بكؤوس التحقيق ورحيق اليقين ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مصورة من قواهم المدركة المملوكة لهم، المسخرة لنفوسهم المطمئنة، الراضية بمقتضيات القضاء الإلهي ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من غاية الصفاء عن كدر الهواء ورعونات الرياء ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: 24] مصون محفوظ في أصداف أشباحهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا الدنية.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بطريق المسرة والانبساط ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: 25] عن أعمالهم وأحوالهم ومواجيدهم ومقاماتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم في جواب بعض على وجه المذاكرة والمواساة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: قبل انكشافنا بسرائر التوحيد ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: 26] خائفين عن بطشه وسخطه وسطوة سلطنة قهره وجلاله، راجين من سعة رحمته وموائد جوده وكرمه.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وهدانا إلى طريق التوحيد، ووفقنا للعروج إلى معارج العناية

والتحقيق ﴿وَوَقَانَا﴾ بلطفه ﴿عَذَابَ السَّمُومِ﴾[1] [الطور: 27] أي: من عذاب النار المحرق النافذ في عموم المساقاة مثل السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا قبل حلول الساعة وقيام القيامة ﴿نَدْعُوهُ﴾ سبحانه، ونسأل منه الحفظ والوقاية من عذابه ونكاله في هذا اليوم الموعود، وكيف لا نسأل منه؟! إنه سبحانه ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن المخصوص المنحصر على الإحسان والإنعام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28] كثير الرحمة والامتنان على السائلين المؤمنين المستحقين، فاستجاب سبحانه بلطفه سؤالنا، وأنجح آمالنا بمقتضى سعة جوده ورحمته.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت من فضل الله، ولطفه، وسعة رحمته، وجوده مع أوليائه ﴿فَذَكِّرْ﴾ واثبت على العظة والتذكير لعموم عباد الله، ولا تبالِ بقولهم الباطل في حقك﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ التي هي الآيات المنزلة إليك، الملهمة من ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ مبتدع مفتر مجترئ على الإخبار عن المغيبات بلا وحي من قبل الحق وإلهام من جانبه ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29] مختل العقل، مخبط الرأي كما يزعم في شأنك المسرفون المفترون. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ فصيح بليغ بلغ على حد من البلاغة، عجز عن معارضته أقرانه من البلغاء، فنحن ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: 30] أي: من الأيام وكرّ الأعوام إلى أن يموت، فنخلص من فتنته وشرته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا لمقتي وموتي ﴿فَإِنِّي﴾ أيضًا ﴿مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 31] المنتظرين لمقتكم وهلاككم، والأمر بيد الله، والحكم مفوض إلى مشيئته، موكول إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أهم يكابرون في هذه الأحكام المتناقضة مجادلة ومراءً وينسبونك مرة إلى

---

(1) قال في عين الحياة: يعني منّ الله علينا بالتوفيق في دار الكسب للإشفاق على الأهل والتوخي عن متاع الزور وادخار هذه النعمة في دار الجزاء، بأعمالنا الصالحة التي عملناها بتوفيقه، ووقانا أيضًا من عذاب السموم، الذي هو نتيجة ريح الهوى ونار الشهوة بمنّه وتوفيقه، الذي أعطاناه لتسكين ريح الهوى وإخماد نار الشهوة في الدنيا.

الكهانة المتضمنة لكمال الفطانة، ومرة إلى الجنون المنبئ عن نهاية البلادة، وتارة إلى الشعر المستلزم للوزن والقافية، مع أن ما جئت به من الكلام عارٍ عن الوزن، خالٍ عن القافية مطلقًا.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ
خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي
عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ
النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 32-49].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم﴾ السخيفة المستمدة من أوهامهم الضعيفة ﴿بِهَٰذَا﴾ القول الباطل الزاهق الزائل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: 32] باغون متناهون في العتو والعناد، صدر عنهم أمثال هذا، بلا تأمل وتدبر على مقتضى عتوهم وثروتهم وكبرهم وخيلائهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي والإلهام تغيرًا وترويجًا ﴿بَل﴾ معظم أمرهم وقصارى رأيهم أنهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: 33] به وبك، فيتفوهون بأمثال هذه المطاعن والقوادح من شدة شكيمتهم، وغلظ غيظهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل.

وبعدما بالغوا في القدح والطعن، وبلغوا غاية الإنكار والإصرار، قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتبكيت: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34] في زعمهم ومفترياتهم مع أنهم لم يأتوا بمثله، ولا يتأتى منهم الإتيان أيضًا، وإن يتظاهروا ويتعاونوا بجميع ما في الأرض؛ إذ هو خارج عن طور البشر ومشاعره.

أيصرون على إنكار الخالق مع أنهم مخلوقون ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ وبلا فاعل موجد ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا نفوسهم أنهم ﴿هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35] المستقلون على إيجاد هياكلهم بلا مؤثر خارجي هو الله، أيحصرون حينئذ خالقيتهم لأنفسهم فقط؟!

﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات والممتزجات؟! وبالجملة: لا ينكرون حدوث الأشياء، واستنادها المحدث المؤثر ﴿بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 36] ولا يتصفون باليقين في إثبات الموجد القديم وتوحيده.

أهم يثبتون مرتبة النبوة من تلقاء أنفسهم، ويختارون لها من يريدون ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيطِرُونَ﴾ [الطور: 37] الغالبون المقتدرون على عموم مقاصدهم ومطالبهم، فيفعلون جميع ما يأملون ويشاءون، بالإرادة والاختيار؟!

﴿أَمْ﴾ ادعوا علم الغيب بالاستماع من الملأ الأعلى؟! إذ ﴿لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرقاة يصعدون بها إلى مكان من السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ من الملائكة ما يظهرون من تكذيب الرسول، وقدح القرآن ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: 38] أي: بحجة واضحة ومعجزة ساطعة، كما أتى بها الرسول ﷺ.

أأنتم العقلاء المتصفون بكمال الرشد والرزانة أيها المسرفون المفرطون ﴿أَمْ﴾ سفهاء منحطون عن زمرة العقلاء مع أن دعواكم بأن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ﴾ [الطور: 39] تدل على سفاهتكم وانحطاطكم عن مقتضى العقل؟! إذ إثبات الولد مطلقًا للواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد بعيد بمراحل عن مقتضى

العقل، فكيف إثبات أخس الأولاد له سبحانه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا[1].

• فثبت أن أولئك الحمقى سفهاء ساقطون عن رتبة العقلاء وأهل العبرة، فلا يسمع منهم مطلق الدعوى، سيما الأمور المتعلقة بالمعارف الإلهية.

فكيف إنكارهم بك يا أكمل الرسل هذا، أينكرون رسالتك يا أكمل الرسل، ويظنون لحوق الضرر إياهم منك ﴿أَمْ﴾ أيظنون إنك بسبب تبليغك إياهم ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جعلاً عظيمًا ﴿فَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ والتزام غرامة عظيمة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: 40] متحملون الثقل، لذلك شق عليهم الأمر إلى حيث أنكروا لك، وانصرفوا عن تصديقك.

وبالجملة: أينكرون رسالتك بمقتضى قرائحهم، ومن تلقاء أنفسهم ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء المثبت فيها جميع الأشياء ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: 41] المغيبات منها؟!

﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون ﴿كَيْدًا﴾ لرسول الله ﷺ في دار الندوة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مكروا عليه ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] المقصورون على كيدهم، لا يتعدى عنهم وباله.

أينكرون توحيد الحق مكابرة ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعبدونه كعبادته، ويطيعونه على نحو إطاعته، ويستعينون منه في الخطوب والملمات، وبالجملة: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: 43] لهم من أدون مخلوقاته.

﴿وَ﴾ بعدما ألحقوا، واقترحوا بقولهم: فأسقط علينا كسفًا من السماء ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ عليهم وبمقتضى اقتراحهم ﴿يَقُولُوا﴾ من شدة

(1) قال في عين الحياة: يعني: تقول القوى الروحية الأنسية بالهوى المدنية بالنفس أن القوى الفاعلة منهم والقوى القابلة من اللطائف، لا يعرفون أن جميع القوى من اللطيفة الفائضية من الحق صدرت، ووصلت إلى كل ذرة من ذرات الموجودات وقت مد بحرها في عالم المتفرقة، ثم جمعتها عند الحرز في عالم الجمع، فالقوى التي أنتم تجدون في نفوسكم هي القوى المودعة فيكم وقت المد الذي أنتم بها قائمون باقون.

عنادهم، وفرط إنكارهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: 44] تراكم بعضه على بعض فيسقط.

وبالجملة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واتركهم على ما هم عليه من العدوان والطغيان ﴿حَتَّى يُلاقُوا﴾ ويصلوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: 45] يموتون، ويهلكون بالمرة، وهو عند النفخة الأولى، ثم يحشرون ويعذبون.

﴿يَوْمَ﴾ أي: يومئذ ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ الذي أتوا به في دار الندوة والابتلاء ﴿شَيْئًا﴾ من الدفع والإغناء في رد عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: 46] ويمنعون حينئذ من بطشه وعذابه.

وهم مع ذلك لا يمهلون إلى العذاب الآجل، بل يعذبون في العاجل والبرزخ أيضًا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ العذاب الأخروي الموعود لهم، وهو وقوعهم في نيران الإمكان بأنواع الخيبة والخسران، وتقيدهم بسلاسل الآمال وأغلال الأماني ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 47] ولا يفهمون ألمها، مع أنها من أشد العذاب إيلامًا، وأصعب الوبال والنكال انتقامًا، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى قيام الساعة، وإبقائك فيما بينهم بأنواع التعب والعناء، ولا تستعجل لمقتهم وهلاكهم، ولا تخف من مكرهم معك وغدرهم عليك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1] وكنف حفظنا وحوزة

(1) أي: بأعيننا ترانا. قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين. وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا ويشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا. وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

حراستنا وحضانتنا، نكفيك ونكف عنك مؤنة شرورهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تبالِ بمكرهم وكيدهم، ولا تشتغل عنا بهم وبمخاصمتهم ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزه ربك عن أن يعجز عن أخذهم وانتقامهم أو عن إنجاز ما وعد لك من عذابهم ملتبسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك سيما ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: 48] من منامك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ حين تستريح فيه للنوم ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ لتكون على ذكر من ربك حين رقودك، وغفلتك عن حواسك؛ ليكون ذكرك حينئذ توصية منك بمتخيلتك وإرشادًا لها وتعليمًا إياها ﴿وَ﴾ سبحه أيضًا ﴿إِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 49] وقت دبور النجم، وظهور ضياء الشمس، فإن كلا الوقتين وقت فراغ البال عن مطلق التشتت والأشغال العائقة عن التوجه، جعلنا الله ممن خفف أثقاله وقلل آماله بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو المقام المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود - هداك الله إلى سواء السبيل، ووقاك عن مطلق التغيير والتبديل - أن تخلي خلدك عن الركون إلى ما سوى الحق، والالتفات إلى عموم ما يشغلك عن التوجه إليه، والتحنن نحوه.

ولك الاشتغال بالتسبيح والتقديس في جميع أوقاتك، وحالاتك سيما في أثناء صلواتك في خلال خلواتك، وإياك إياك الميل إلى مزخرفات الدنيا ولذاتها وشهواتها، والاختلاط مع أبنائها المنغمسين بقاذوراتها، فإن التلطخ بمزخرفات الدنيا يكلُّ الأبصار ويعمي القلوب التي في الصدور.

خفف عنًّا بلطفك ثقل الأوزار، وارزقنا بفضلك عيشة الأبرار، واصرف عنا بكرمك شر الأشرار.

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النجم

لا يخفى على المحققين المتحققين بمقام الكشف والشهود، المنجذبين نحو الحق بسرائرهم تلعثم وتلوين، أن من تمكن في مرتبة المعرفة، وتقرر في مقر التوحيد وصفا سره عن مكدرات التخمين والتقليد، صار فانيًا في الله ببقائه، متكلمًا بكلامه، متخلقًا بأخلاقه، متصفًا بأوصافه سبحانه، حسب ما يسر الله له ويفيض عليه ويظهرها منه.

ومن كان شأنه هذا وأمره هكذا، كان صادقًا صدوقًا، هاديًا مهديًا، مترصدًا في طريق الحق، مترقبًا للوحي والإلهام دائمًا، ومستنشقًا من نسمات نفسات الرحمن، متعرضًا لنفحات الروح والريحان من رياض الجنان، متشوقًا إلى لقاء الحنان المنان، منسلخًا عن لوازم الناسوت، منجذبًا نحو فضاء اللاهوت، فجرى عليه عموم ما جرى على وفق التسليم والرضا.

لذلك أخبر سبحانه عن استغراق حبيبه ﷺ، وانجذابه بالمرة إلى مبدئه، واتصاله بعالم اللاهوت بعد كمال انخلاعه عن كسوة الناسوت، وأقسم سبحانه بما أقسم تأييدًا لأمره وتعظيمًا لشأنه، فقال بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على حبيبه ﷺ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ فيما بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، المهتدين بهدايته وإرشاده، يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ

﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ
﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن
يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: 1-26].

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[1] [النجم: 1] أي: وحق النجوم الثواقل الهاوية، النازلة بقلوب أرباب الإرادة من عالم اللاهوت؛ ليهتدوا بها في ظلمات التعينات إلى فضاء التوحيد وشمس الوحدة الذاتية الحقيقية.

﴿مَا ضَلَّ﴾ أي: ما انحرف وعدل ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ الرسول المؤيد من عند الله،

(1) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط.

المستوي على صراط العدالة الإلهية عن طريق التوحيد والتحقيق ﴿وَمَا غَوَى﴾ [النجم: 2] أي: ما ضلَّ وانصرف في سلوك سبيل الحق نحو الباطل الزاهق الزائغ.

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ ويتكلم بالقرآن المعجز ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: 3] الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن الذي ينزل إليه ﷺ ويتكلم هو به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4] إليه من عند ربه، بلا تصنع له فيه، وتكلف من جانبه.

بل ﴿عَلَّمَهُ﴾ عناية عليه وتكريمًا، وتأييدًا بشأنه وتعظيمًا ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: 5] الذي لا حول ولا قوة في الوجود إلا منه وبه وله؛ إذ لا موجود سواه.

هو سبحانه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة وقدرة ذاتية محيطة لعموم ما ظهر وبطن من المظاهر، وبعد تعليم الحق إياه ﷺ وتقويته وتأييده ﴿فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 6] تمكن واعتدل ﷺ على صراط العدالة، وتمكن على مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَهُوَ﴾ حينئذ من كمال التربية والتأييد تمكن ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾[1] [النجم: 7] الذي هو أفق عالم اللاهوت، ومطلع شمس الذات من مشرق عالم العمى، الذي هو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35].

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ وتقرب إلى ربه ﴿فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 8] وتعلق به سبحانه نوع تعلق ولحوق إلى حيث ﴿فَكَانَ﴾ قرب ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدار قوسي الوجوب

---

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: محمد كان بالأفق الأعلى حين ذي قوة استواء جبرائيل والأفق الأعلى كان لمحمد ولروحانيته؛ لأن أفقه كان أعلى الأفق، ولكل لطيفة أفق إلى ما فوقه وأفق إلى ما تحته، فلمحمد أفقان:
أفق الفوق إلى الحق: وهو الأفق المبين. وأفق التحت إلى الخلق، والأفق الأعلى؛ أي: أفقه أعلى الأفق ومنتهى وصول اللطائف إليه، فكذلك للطيفتك الخفية أفقان فاطلب أفقها، واجتهد أن تأخذ من الحق في الأفق المبين؛ يعني: بلا واسطة ولا تقنع بالستور؛ لئلا تكون ممن أكل من تحته، وكن عالي الهمة لتأكل من الفوق والتحت ومن جميع الجهات، ثم لا تقنع بهذا حتى تصل إلى مقام تأكل منه، ولا يمكن لأحد أن يأكل من ذاته إلا بعد وصوله إلى الذات الواحدة وهلاكه فيها، وبيان سر الهلاك في الذات يقرع باب الطلع، وأما مأمور شدة فاعبر واعتبر.

والإمكان، الحافظين لمرتبتي الألوهية والعبودية ﴿أَوْ أَدْنَى﴾[1] [النجم: 9] وأقرب منهما لفناء حصة الناسوت مطلقًا في حصة اللاهوت.

وبعدما صار ﷺ ما صار وقرب إلى حيث قرب ﴿فَأَوْحَى﴾ وألهم سبحانه ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ الذي هو سبحانه أقرب إليه من نفسه ﴿مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 10] من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليه من لدنه سبحانه، الخارجة عن طور ناسوته وبشريته، فرأى ﷺ ما رأى، وانكشف بما انكشف.

وبالجملة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاده ﷺ الذي هو من منهيات عالم اللاهوت، المتمكن في قلوب ذوي العناية، وأولي الألباب على سبيل الوديعة من قِبل الحق ﴿مَا رَأَى﴾ [النجم: 11] وشهد حين وصوله ولحوقه بالأفق الأعلى.

﴿أَ﴾ تنكرون انكشافه وشهوده ﷺ أيها المحجوبون المحرومون ﴿فَتُمَارُونَهُ﴾ وتجادلون معه على سبيل المراء والمكابرة ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: 12] من الذوقيات

(1) قال البقلي: أي: بيني وبينه قوس الحدوثية وقوس الأفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن هذه العلل، فبيَّن له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيدٌ مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنزيهه أبعده بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ؛ فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد. قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه. وقال القاسم: وقعت المواصلة فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد. وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة، إنما التدلي أنه كلما قربه من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسئًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.
وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهده إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهده. وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدَّ له، والدنو من العبد بالحدود.

والوجدانيات التي تأبى عنها عقولكم، وتعمي أبصاركم، ولا يمكن إلقاؤها وكشفها لكم.

وكيف تستبعدون وتنكرون له ﷺ أمثال هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ ما رآه من الشهودات التي تدهش منها عقول العقلاء، وتتحير أوهامهم وخيالاتهم ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾[1] [النجم: 13] مرة أخرى قبل عروجه ووصوله إلى الأفق الأعلى، والمقام الأدنى الذي هو اليقين الحقي، وذلك ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 14] التي ينتهي إليها ودونها اليقين العلمي والعيني.

إذ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: 15] التي يأوى إليها أرباب العناية شوقًا إلى لقاء الله، وهو موعد الرؤيا والعيان، ومقام التوحيد والعرفان.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ﴾ المعهودة؛ أي: يغطي الموعد الموعود، ويحيط بها ﴿مَا يَغْشَى﴾ [النجم: 16] من التجليات الإلهية المتشعشعة حسب الشئون المتجددة، المحيرة لعيون النواظر من أرباب الولاء، الوالهين بمطالعة وجه الله الكريم.

---

(1) قال البقلي: ما الرؤية الثانية أقل كشفًا من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضًا في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدرة المنتهى كان واحدًا لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منزّهٌ عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيما لا مكان، وهذا غاية كمال تنزيهه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل هاهنا مضمحلٌ، والعلم متلاشٍ، والأفهام عاجزةٌ، والأوهام متحيرةٌ، والقلوب والهةٌ، والأرواح حائرةٌ، والأسرار فانيةٌ، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ إذ رآه نزله أخرى عند سدرة المنتهى، ظن عليه الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنزيه الحق، فلما رآه ثانيًا علم أنه لا يحجبه شيءٌ من الحدثان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحدٌ يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريمًا، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدرة المنتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيبه عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

وبالجملة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما مال وانحرف بصر رسول الله ﷺ عند تعاقب التجليات الإلهية، وترادف شئونه الغيبية، وتطوراته الجمالية والجلالية حسب أسمائه وصفاته العلية، عن وحدة ذاته، وما يشغله شيء منه عنه سبحانه ﴿وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] خرج نفسه ﷺ عند رؤية ما رأى من العجائب والغرائب عن ربقة الرقية ﷺ، وعروة العبودية، بل التزم حينئذ بقيام ما لزم من آداب العبودية ولوازم الإطاعة والانقياد أكثر مما التزمها قبل انكشافه.

والله ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ ﷺ في ليلة الإسراء ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1] [النجم: 18] أي: الآيات الكبرى التي هي آيات ربه الذي رباه على رؤية آياته الكبرى، ما لا يراه أحد من المكاشفين، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل من بني نوعه.

﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاحدون وحدة الحق عز شأنه وجل برهانه، وانكشاف حبيبه ﷺ بوحدته وبلوازم ألوهيته وربوبيته، ورسالته من عنده سبحانه على عموم بريته وكافة خليقته؛ ليرشدهم إلى الإيمان به، ويهديهم إلى توحيده ﴿فَرَأَيْتُمُ﴾ أثبتم وأخذتم الأصنام شركاء له، مشاركين معه في ألوهيته وربوبيته؛ يعني: الأولى ﴿اللاَّتَ وَ﴾ الثانية ﴿الْعُزَّى﴾ [النجم: 19] ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: 20] مع أنها جمادات لا شعور لها ولا يصدر شيء منها.

وأعظم من ذلك أنكم أثبتهم له سبحانه الأولاد بل أخسها وأدونها، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ﴾ الأشرف الأكرم أيها الحمقى ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه مع كمال تنزهه عن نقيصه، اتخاذ الوالد المترتب على القوة الشهوية ﴿الأُنْثَى﴾ [النجم: 21] المرذولة المستهجنة.

والله ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي جئتم بها مع استحالتها في حقه سبحانه ﴿إِذًا قِسْمَةٌ

(1) يعني ما يبدي من صفاته من آياته رآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعق عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً ببصر قلبه، فثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (2/ 86).

ﮋﺿِﻴﺰَﻯﮊ [النجم: 22] أي: لو فرض في شأنه سبحانه هذه، لكانت قسمتكم قسمة عوجاء جائرة مائلة عن العدالة؛ إذ أنتم أيها الحمقى تستنكفون عن الأنثى، وتثبتونها لله المنزه عن الأهل والولد، المقدس عن مطلق أمارات الحدوث وعلامات النقصان.

وبالجملة: ﮋإِنْ هِيَﮊ أي: ما آلهتكم التي أنتم أثبتموها، واعتقدتم شركتها مع الله ﮋإِلَّا أَسْمَاءٌﮊ لا مسميات لها أصلاً بل ﮋسَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْﮊ تبعًا ﮋوَآبَاؤُكُمْﮊ أصالة من تلقاء أنفسكم؛ إذ ﮋمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍﮊ برهان واضح، وحجة قاطعة بل ﮋإِنْ يَتَّبِعُونَﮊ أي: ما يتبع أسلافكم الحمقى ﮋإِلَّا الظَّنَّﮊ والخيال الناشئ من أوهامهم وأحلامهم السخيفة أمثالكم أيها الجاهلون ﮋوَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُﮊ أي: ما تهويه وتشتهيه نفوسهم ﮋوَلَقَدْ جَاءَهُمْﮊ ونزل عليهم حينئذ أيضًا على ألسنة رسلهم ﮋمِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىﮊ [النجم: 23] الموصل إلى مرتبة التوحيد، فتركوها ظلمًا وعدوانًا، ولم يتبعوها أمثالكم أيها الحمقى.

أتطمعون الشفاعة من تلك الآلهة الهلكى، وتأملون معاونتهم ومظاهرتهم إياكم أيها الحمقى؟! ﮋأَمْﮊ تعتقدون أن يحصل ﮋلِلْإِنْسَانِﮊ جميع ﮋمَا تَمَنَّىﮊ [النجم: 24] وتأمل من اللذات والشهوات.

بل ﮋفَلِلَّهِﮊ وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه ﮋالْآخِرَةُ وَالْأُولَىﮊ [النجم: 25] أي: ما جرى في النشأة الأولى والأخرى من الكرامات، يمنُّ بها على من يشاء، ويصرفها عمن يشاء إرادة واختيارًا، لا يحكم عليه ولا ينازع في سلطانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم قال سبحانه تسجيلاً على غاية غباوتهم، ونهاية بلادتهم وحماقتهم في اتخاذهم الأصنام آلهة، واعتقادهم شفعاء: ﮋوَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِﮊ أي: كثير من الملائكة المقبولين عند الله، المهيمين بمطالعة وجهه الكريم، ومع ذلك القرب والشرف ﮋلَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًاﮊ من الإغناء ﮋإِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُﮊ لهم ليشفعوا عنده سبحانه ﮋلِمَنْ يَشَاءُﮊ سبحانه خلاصهم من عباده ﮋوَيَرْضَىﮊ [النجم: 26] بشفاعة الشفعاء عندهم لاستخلاصهم بإذن منه سبحانه.

وهؤلاء الحمقى يدعون الشفاعة لأولئك الهلكى، ويعتقدونها آلهة متشاركين مع الله في الألوهية والربوبية ظلمًا وعدوانًا، بلا حجة وبرهان، ومن غاية عدوانهم وطغيانهم: يهينون الملائكة المكرمين المقربين، ويستحقرونهم حيث ينسبونهم إلى الأنوثة المستلزمة لغاية النقصان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: 27-44].

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ﴾ كل واحد منهم ظلمًا وزورًا ﴿تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ [النجم: 27] أي: يسمونهم بنات الله، ظلمًا على الله، بإثبات الولد له وعليهم نقص الأنوثة إياهم.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ أي: بقولهم هذا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ لا يقين ولا ظن، ولا سند من عقل ونقل، بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في قولهم هذا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من تقليد آبائهم، المتسبين إلى الجهل والعناد ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾ المستند

إلى الجهل والتقليد ﴿لَا يُغْنِي﴾ ويفيد ﴿مِنَ الحَقِّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿شَيْئًا﴾[1] [النجم: 28] من الإغناء والإفادة.

وبعدما سمعت حالهم وقولهم: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل وانصرف ﴿عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ الصارف له عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة، ولا تبالِ بشأنه، ولا تبالغ في دعوته من غاية إعراضه وانصرافه ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ من السعادات المنتظرة، والكرامات الموعودة للإنسان ﴿إِلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29] ولذاتها وشهواتها، ولم يهتم إلا بشأنها، واقتصر على مزخرفاتها مع كمال غفلة، وذهول تام عن الكرامات الروحانية، واللذات الأخروية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت يا أكمل الرسل من ميلهم إلى الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ اللدني الفائض لهم من حضرة العلم الإلهي، فعليك يا أكمل الرسل أن تعرض عنهم وعن دعوتهم وإرشادهم، بعدما أمرت به حسب العقل الفطري الموهوب لهم من المبدأ الفياض، وبالغت في تبليغ المأمور.

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بكمال كرامته، واصطفاك لرسالته ونيابته ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ من عباده، ومال عن جادة توحيده ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ أيضًا ﴿بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: 30] منهم بهدايتك وإرشادك.

---

(1) قال في عين الحياة: يعني: لا يصل الظن إلى حد يحكم عليه بخفية الشيء الظنون؛ لأن فوق الظن العلم، وفوق العلم الصحيح السماعي علم اليقين المكاشفي، وفوق علم اليقين المكاشفي عين اليقين وهو العلم المشاهدي، وفوق عين اليقين المشاهدي حق اليقين مما يتعلق بالوصول، وفوقه حقيقة حق اليقين مما يتعلق بالذوق، ومثاله في عالم الشهادة علمك بأن هذه الشجرة تحمل رمانًا فيه حياة مثل العسل، ولكل حبة نبت خاص وطعم حلو كأنه سكر معقود وشراب مروق، والشجرة كانت شجرة رمان، فاعتقادك بما يخرج عن هذه كما سمعت عن الدهقان؛ هو اعتقاد صحيح علمي، فإذا أخضرت الشجرة وأزهرت فشاهدتها زاد علمك السماعي وتبدل بعلم اليقين، وإذا انتشرت الزهرات خرج منها درج الرمان، وشاهدته تبدل علمك علم اليقين الكشفي بعين اليقين، كمال حده واقتطفته وشققته وشاهدت حباته، والبيوت التي وصفها الدهقان لكل حبة صار عين اليقين، فإذا أكلته وذقته ووصل إلى حلقك حلاوته، واختلط بوجودك شرابه، وصار هو أنت ولطيفتك المدركة هو، فصار حق اليقين في هذا المقام حقيقة حق اليقين.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه المضلين والمهتدين من عباده؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ ملكًا وتصرفًا، وإحاطة وشمولاً مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وما بينهما من الكوائن والفواسد ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا﴾ بأعمالهم وأقوالهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بمقتضى عملهم على مقتضى عدله سبحانه، بلا زيادة ولا نقصان ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أيضًا كذلك ﴿بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31] أي: أزيد مما استحقوا بصوالح أعمالهم وحسنات أخلاقهم، تفضلاً عليهم وامتنانًا.

والمحسنون هم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ أي: يحترزون عن الآثام الكبيرة، المستجلبة لغضب الله، المستتبعة لعذابه ونكاله في النشأة الأخرى، المستلزمة للحدود والكفارات بحسب الشرع الشريف ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: يحفظون نفوسهم أيضًا عن الفواحش المسقطة للمروءات الجالبة لأنواع النكبات، والوعيدات الهائلة الإلهية المقتضية للخلود في دركات النيران ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ الطارئ عليهم من صغائر الذنوب هفوة، فجبروه بالتوبة دفعة، فإنه معفو عن مجتنبي الكبائر والفواحش، قبل التوبة أيضًا.

وكيف لا يغفر سبحانه لأصحاب اللمم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ سريع العفو، شامل الرحمة ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منكم، وبعموم أحوالكم وأطواركم أيها المجبولون على فطرة التكليف، وكيف لا يعلم سبحانه أحوالكم! ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ بمقتضى سعة علمه وجوده ﴿وَإِذْ أَنتُمْ حينئذ أَجِنَّةٌ﴾ لا شعور لكم محبوسون ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعلم سبحانه منكم جميع أحوالكم، وأطواركم وعموم حوائجكم الماضية والآتية، وبالجملة: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا﴾ ولا تنزهوا وتطهروا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ إذ لا علم لكم بتفاصيل أحوالكم وأعمالكم مطلقًا، بل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32] وحفظ نفسه عن مساخطه سبحانه، واحترز عن منهياته.

ثم قال سبحانه عبرة على المستبصرين وتوبيخًا على المستكبرين: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الطاغي ﴿الَّذِي تَوَلَّى﴾ [النجم: 33] وأعرض عن اتباع الحق، وأصر على الباطل عنادًا ومكابرةً، بعدما وعد الحق التصدق من ماله كفارة لذنوبه، ﴿وَأَعْطَى

قَلِيلاً﴾ من سمعة ورياء ﴿وَأَكْدَى﴾ [النجم: 34] وقطع عطاء الباقي بعد ذلك، فما وفّى ووفر جميع ما وعد، ثم ارتد - العياذ بالله - وندم عما تصدق قبل، فأصر على ما كان من الكفر والجحود، ومع ذلك يزعم أنه قد برئ من الذنوب بتصدقه.

نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ فعيَّره بعض المشركين، وقال: تركت دين الأشياخ، وضللتهم، فقال: أخشى عذاب الله، فضمن أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطى بعض ماله من المشروط، ولم يتم ومع ذلك يزعم البراءة عن الذنوب لذلك، ثم بخل بالباقي، وبعدما أعطى بعض المشروط، ارتد - العياذ بالله - عن الدين ومتابعة الرسول الأمين.

عيره سبحانه بقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم: 35] بأن التصدق وتحمل الغير وتضمنه يدفع عنه العذاب.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ ولم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: 36] وهي ألواح التوراة المنصوصة فيها بخلاف ذلك.

﴿وَ﴾ لم ينبأ أيضًا بما في صحف ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي يدعي متابعته والتدين بدينه، مع أن إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّى﴾[1] [النجم: 37] ووفر وأتم بجميع ما التزمه وأمر به، وبالغ في وفاء ما عاهد والتزم طلبًا لمرضاة ربه، وهو يدعي متابعته، ولم يوفِ بما التزم من العهود.

وكيف يحمل الغير عنه وزره أو يسقطه الصدقة، مع أن مضمون ما في عموم كلتا الصحفين هو هذا ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي: أنه لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: نفس آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: 38] أي: ذنبها، ولا يؤخذ هي عليها، بل كل نفس من النفوس الخيرة

(1) إشارة إلى أن في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة وذلك لان الله تعالى ذرأ ذريات بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (ألست بربكم) فأسمعهم خطابه وعرفهم ربوبيته وفقههم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالقية الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه الله تعالى بجذبات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (145/13).

والشريرة، رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَ﴾ كذا منصوص في الصحفين أن ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ المجبول على فطرة العرفان؛ أي: لكل واحد من أشخاصه ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39] واقترف لنفسه وأعد لمعاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ كذا ثبت فيهما ﴿أَنَّ سَعْيَهُ﴾ أي: سعي كل واحد من أفراد الإنسان خيرًا كان أو شرًا ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 40] في النشأة الأخرى، مصورة بالصور الحسنة والقبيحة من الدرجات العلية الجنانية، أو الدركات الهوية النيرانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما حوسب عليه عموم مساعيه أعماله ﴿يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: 41] أي: يوفر عليه من الجزاء على مقتضى سعيه في أعمالها، خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَ﴾ أيضًا مثبتًا فيهما ﴿أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42] أي: منتهى الكل إلى الله، كما أن مبدأه منه؛ إذ ليس وراءه مرمى ومنتهى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ﴾ من أضحك ﴿وَأَبْكَىٰ﴾[1] [النجم: 43] من أبكى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: 44] إذ لا قادر على الإماتة والإحياء غيره سبحانه.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ

(1) وصف نفسه تعالى بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يبكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضًا في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وياسمين قربته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمته وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحيى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرون بقوا به، وأيضًا أمات المريدين بالحجاب، وأحيى المحبين بكشف النقاب.

﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن
دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: 45-62].

﴿وَأَنَّهُ﴾ من كمال قدرته ووفور حكمته ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: 45] من صنف ونوع وجنس، وقدر وجود الزوجين ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة حاصلة منهما ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 46] أي: تصب وتراق في الرحم على وجه الدفق، أو تقدر وتخلق منها.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: 47] أي: عليه سبحانه إعادة الأموات أحياء في النشأة الأخرى، كما أن عليه الإبداء في النشأة الأولى.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ بذاته لا بالوسائل والوسائط؛ إذ الكل راجع إليه ﴿أَغْنَىٰ﴾ من أغنى بإعطاء الأموال له ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: 48] من أقنى بإلهام القنية والادخار.

وإنما فعل معهم ما فعل من الإغماء والإقناء ليشكروا له، ولم يعبدوا غيره، ومع ذلك أشركوا له، فعبدوا الشِّعرى، ﴿وَ﴾ لا شك أنه سبحانه ﴿هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: 49] وهي كواكب قد عبدها بعض الصابئين، منهم أبو كبشة، أحد أجداد الرسول ﷺ لذلك يكنى بكنيته.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: 50] لشركهم بالله، وصفهم بالأولى؛ لأنهم أول قوم أهلكهم الله بعد نوح، ﴿وَ﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿ثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: 51] أحدًا من كلا الفريقين.

﴿وَ﴾ أهلك أيضًا بمقتضى قدرته الكاملة ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل إهلاك عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: قوم نوح ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: أظلم الناس على أهل الله، وأطغاهم عن طريق الهداية والرشاد.

﴿وَ﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: أهل القرى المنقلبة، وهي قوم لوط عليه السلام إلى حيث ﴿أَهْوَىٰ﴾ [النجم: 53] أي: أسقط عليهم دورهم وأماكنهم، بعدما رفعها نحو السماء، وقلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، ﴿فَغَشَّاهَا﴾ حينئذ ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: 54] من أمطار الحجارة، وأنواع المصيبات والعاهات، والنكبات.

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ وأصناف نعمائه المتوالية المترادفة من انتقام الأعداء وإنعام الأولياء ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: 55] وتتدافع على وجه الجدال والمراء، أيها المحجوب الجاحد لوحدة الحق واستقلاله في عموم تصرفاته الجارية في ملكه وملكوته، بكمال الإرادة والاختيار.

وبالجملة: اعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف المثمر للمعرفة والتوحيد أن ﴿هَٰذَا﴾ أي: رسولكم الذي أرسل إليكم من لدنا؛ ليرشدكم إلى توحيد الذات، مؤيدًا بالكتاب المبين لمقدمات التوحيد، مشتملاً على الأوامر المؤدية إليه والنواهي العائلة عنه، والعبر والتذكيرات المصفية لنفوسكم عن الركون إلى ما ينافيه من المزخرفات الدنية الجالبة لأنواع اللذات، والشهوات الجسمانية الموروثة لكم من شياطين نفوسكم، وقواكم البهيمية الظلمانية المتفرعة على الطبيعة، والهيولي التي هي من نتائج التعينات العدمية الناسوتية المانعة من الوصول لصفاء عالم اللاهوت ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم أكمل ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: 56] إذ هم منذرون عن الشواغل المنافية؛ لتوحيد الصفات والأفعال، ونذيركم هذا ﷺ ينذركم عن موانع توحيد الذات.

واعلموا أنه بعد بعثته ﷺ: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾[1] [النجم: 57] أي: دنت القيامة واقتربت الساعة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: 58] أي: نفس قادرة على كشفها وتعيينها، ووقت وقوعها وقيامها؛ إذ هي من جملة المغيبات التي استأثر الله بها،

(1) أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدتَ مَن يُدخلك بحرَ الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي منَّ عليك بصحبة مَن يدلك عليه. البحر المديد (186/6).

ولم يطلع أحدًا عليها.

ثم وبخ سبحانه على المنكرين ليوم القيامة المستكبرين عن قبولها فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الصحيح، والحق الصريح الذي هو القرآن المعجز ﴿تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: 59] تعنتًا وإنكارًا. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء ومراء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: 60] بما فيه من الوعيدات الهائلة، تلهفًا وتأسفًا على ما فرطتم لأنفسكم وأفرطتم عليها.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها الحمقى الجاهلون ﴿سَامِدُونَ﴾ [النجم: 61] لاهون ساهون، مستكبرون على ما فيه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، مكابرون عليها عتوًا وعنادًا.

وإن أردتم التلافي والتدارك ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وتذللوا له حق تذلله، وعظموه حق تعظيمه وتكريمه ﴿وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62] له حق عبادته كي تصلوا إلى زلال معرفته وتوحيده.

جعلنا الله من زمرة عباده العابدين المتذللين الخاضعين الخاشعين بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد - عصمك الله عن آفات التخمين والتقليد، وأعانك على التوكل والتجريد - أن تلازم على المجاهدة، والانكسار والتذلل، والافتقار بدوام العزلة والفرار عن أصحاب النخوة والاستكبار، صارفًا عنان عزمك لإسقاط عموم الإضافات والاعتبار، طالبًا الانخلاع عن ملابس الحياة المستعار، ملازمًا لسبيل الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة الأزلية السرمدية حتى تتخلص من أودية الضلال، وتصل إلى فضاء الوصال.

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة القمر

لا يخفى على من ترقى من حضيض الإمكان، ووصل إلى ذروة وجوب الوجود، وتمكن بمقام الكشف والشهود، مجردًا عن جميع القيود المنافية لصرافة الوحدة الذاتية أن ظهور عموم الخوارق من المعجزات والكرامات، وأنواع الإرهاصات الصادرة من النفوس القدسية الواصلة إلى المبدأ الحقيقي، الفانية فيه، المضمحلة دونه، إنما هو بمقتضى الشئون الإلهية المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية.

ولا شك أن أفضل أرباب الوصول، وأكملهم إنما هو نبينا المتحقق بمرتبة الخلة والخلافة - صلوات الله عليه وسلامه - ولهذا صدر بشارته ﷺ ما صدر من المعجزات، سيما انشقاق القمر ليلة البدر بعد اقتراح المنكرين عليه بالآيات، وصار انشقاقه هذا أمارة من اقتراب الساعة الموعودة، كما أخبر سبحانه عنه بعدما تيمن باسمه العظيم، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بالقدرة الكاملة على عموم مقدوراته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بجميع مخلوقاته في النشأة الأولى بإفاضة الوجود عليهم بمقتضى الجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان، ينقذهم من منام الغفلة، ويوصلهم إلى مقام الوحدة، ويطلعهم على قيام الساعة والطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس الأغيار والسّوي مطلقًا.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ
ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ
يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ
۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا
وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: 1–10].

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ودنت القيامة الموعودة قيامها، ومن علاماتها: انشقاق القمر﴿وَ﴾ قد ﴿انشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1] بإشارة الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، هذا وتواتر وقوعه.

﴿وَ﴾ المنكرون المصرون على الإنكار والتكذيب، المقيدون بعقال العقل الفضولي، المغلولون بأغلال الأحلام المشوبة بالخيالات والأوهام ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ معاينة دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، والقادر العليم، يُعْرِضُوا عنها؛ لعدم مطابقتها بعاداتهم، ومقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿وَيَقُولُوا﴾ من شدة إنكارهم وعنادهم: هذا الذي صدر منه على خلاف العادة ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 2] في الزمان، وقوعه لا مختلق منه فقط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَذَّبُوا﴾ الآية الخارقة للعادة ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ المعتادة الفاسدة، وآراءهم الباطلة الكاسدة ﴿وَ﴾ هكذا ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ رسخ، تمكن في نفوسهم، سواء كان خيرًا أو شرًا، طاعة أو معصية، ولاية أو عداوة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: 3] ثابت في مكانه بعدما تقرر وتمرن، لا يتعداه أصلاً.

﴿وَ﴾ من نهاية تمكنهم ورسوخهم في الكفر والعناد، وتمرنهم على الغيّ والفساد، لَقَدْ جَاءَهُم في القرآن المرشد لهم إلى الهداية والعرفان ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ والأخبار الجارية على القرون الماضية، المصرة على العتو والعناد أمثالهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: 4] أي: وعيدات هائلة موجبة للانزجار الكامل، والارتداع المبالغ لأصحاب الغيرة والاستبصار.

إذ هي كلها ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ نهايتها في الإحكام والإتقان، ومع ذلك ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: 5] وما تفيدهم إنذاراتهم أصلاً؛ إذ هم مجبولون على الغواية المتناهية، أمثال هؤلاء الغاوين المصرين على العتو والعناد معك، وبالجملة: ﴿فَتَوَلَّ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن دعوتهم وإرشادهم، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ وينادي ﴿الدَّاعِ﴾ المنادي هو إسرافيل - ودعاؤه كناية عن نفخه في الصور للبعث أو الحشر ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: 6] فظيع فجيع، تنكره النفوس؛ إذ لم يعهد مثله، وهو هول يوم القيامة المعدّة للحساب والجزاء.

وبعدما سمعوا النداء الهائل، والصداء المهول ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: شاخصة ذليلة، كالتائه الهائب الهائل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: قبورهم التي هم مدفونون

فيها في عالم البرزخ، ويتحركون على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] في الكثرة والانتشار إلى الأماكن.

فيتوجهون ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ المنادي، مادين أعناقهم نحوه، ومن شدة خوفهم وهولهم، ليعلموا لما يدعوهم، ومن شدة تلك الساعة، ونهاية أهوالها وفظاعتها ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ في نجواهم، وهواجس نفوسهم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1] [القمر: 8] صعب في غاية الصعوبة والفظاعة.

ثمّ قال سبحانه تسليةً لحبيبه ﷺ حين كذبه قومه، حاكيًا إياه ﷺ عن أحوال الماضين تسليةً وإزالةً لحزنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: لا تحزن يا أكمل الرسل من تكذيب هؤلاء المكذبين بك، ولا تغتم من أذياتهم؛ إذ ما هي ببدع منهم بالنسبة إليك، بل تذكر تكذيب قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: كيف كذبوا أخاك نوحًا ﴿وَقَالُوا﴾ له حين دعوتهم إلى الإيمان: هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ مخبط، مختل العقل والرأي ﴿وَازْدُجِرَ﴾[2] [القمر: 9] وزجر؛ لأجل دعوته وتبليغه إياهم إلى حيث لطمه

---

(1) قال في عين الحياة: صعب شديد، لا قدرة لنا على دفع الداعي المسلطة علينا، ولا يسمع منا عذر ولا تنفعنا شفاعة، والله ما ذلك اليوم إلا يوم عسر عبوس، فالسعيد من أيقظ بهذه المواعظ وأقبل على الحق وأدبر عن الباطل، وترك الهوى واشتغل بعبادة المولى، وعلم أن الخروج من الدنيا والدخول في العقبى حتى كتبه الله على اللطيفة الإنسانية وتنعمها وتأملها أبد الآباد، سبب كسب البدن المكتسب الباقي في هذا البدن المجعول الفاني من جواهر المفردات السفلية، ولطائف المفردات العلوية الحقيقة فيها وقت الإيجاد صدق لا شك فيه، كما أن الفرخ المستكن في البيضة إذا تمت مودته الفرخية كيف يُقَشِّر قشر البيضة، والمجعول بتربية دجاجة الروح الإنسية ويطير في هوى الهوية، ويسرح في رياض الجنة القلبية، ويأكل من ثمار معرفة الربوبية، ويشرب من شراب الألوهية، وكل هذا يحصل للسالك في الدنيا بالموت الاختياري.

(2) قال في عين الحياة: يعني: ازدجر بين عشيرته القريبة؛ وهي القوى النفسية، فصار مجنونًا، وشاهدت هذا الحال في بداية أمري؛ إذ نسبني إلى الجنون والدي وعمى وجميع أقربائي وأحبائي، فلما اشتغلت بالذكر الخفي القوي ظهرت لي في الليلة الأولى شرارات نيران منورة من صدري حتى لحقت بالسماء، فلما فتحت العين وأبصرتهما معاينة قلت في نفسي: إن الذين يقولونه في حقي صدق، ما هذه المعاينة للشرارات في ظلمة الليل في جوف البيت المظلم إلا من فساد جذب في الدماغ؟ والقوى المكذبة النفسية يخوفون ويمنعونني عن الذكر، والقوى الشيطانية يشككونني في مشاهدة الآية البينة وقلبي كان غير ملتفت إلى أقوالهم، مشتغلاً بالذكر حتى طلع الفبح، فلما خرجت من البيت ودخلت المسجد لصلاة الجماعة ظهر فوق سجادتي

وعن يميني، وعن قبلتي كواكب درّية لا تحصى، فخفت عنها في الظاهر وأنست بها في الباطن، والقوى المشكلة الشيطانية والقوى المكذبة النفسية أيضًا يشوشونني ويأمرونني بترك الذكر، وأنا روعان من ألسن الناس أن أقفوه بما أشهده وأعاينه، وهذه المشاهدة حصلت لي أول ليلة اشتغالي بالذكر الخفي القوي، على وفق مذهب مشايخنا - قدس الله أرواحهم - وكنت قبل هذه الليلة مشتغلاً بكثرة الأوراد المأثورة، والأذكار اللسانية من أنواع التسبيحات والتهليلات، والتكبيرات والتحميدات، والصلاة والسلام، وكثرة الركعات والسجدات في الصلاة، وبالمجاهدات والرياضات، على وفق ما يعجبني مما حكي من المشايخ المتقدمة، ففي هذه الآية أخذت هذا الذكر القوي الخفي بشرط النفي والإثبات من أخ لي في الدين - رحمة الله - وكان من مريدي شيخنا - أطال الله بقاءه - فلما اشتغلت بالذكر ظهرت لي هذه الحالات، وما قلت له معه لخوفي عما يقولون، فلما ظننت الإشراق وظهرت لي الكواكب الدرّية، بحيث لا يحصى عددها ولا يوصف ضياؤها، قلت مع أخي شرف الدين هذه الأقوال، فاستبشر وتبسّم وقال: الحمد الله الذي هداك إلى هذه المشاهدة الغيبية والآيات الأنفسية، وإنا قد سلكنا سنة واحدة في حرم بيت الله الحرام، فبعد ذلك حصلت لنا هذه الشرارات على جبل عرفات، فأحسن الله إليك ووفقك لمشاهدة هذه الآيات في مدة قريبة، فالواجب عليك القيام بشكر الحق، والقيام بشكره هو أن تعتزل الناس وتشتغل بهذا الذكر على هذه الشريطة، فيفتح عليك باب القلب إن شاء الله تعالى، فاسترحت من القوى المكذبة والمتفككة، واشتغلت بعد ذلك بالذكر، واخترت العزلة والخلوة سنتين متابعتين حتى جلت بعد هذه المدة في خلق الأربعين الموسوية، وفتح الله بلفظ على قلبي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلكت الطريق على الترتيب من العبور على قوى القالبية على وفق دعوة اللطيفة الآدمية، ثم على القوى النفسية على وقف دعوة اللطيفة النوحية، ثم على القوى القلبية على وفق اللطيفة الإبراهيمية، ثم على القوى السرية على وفق دعوة اللطيفة الموسوية، ثم على القوى الروحية على وفق دعوة اللطيفة الداودية، ثم على القوى الخفية على وفق دعوة اللطيفة العيسوية، ثم على القوة الخفية المودعة في جميع القوى على وفق دعوة اللطيفة الخفية؛ وهي الدعوة المحمدية، دعا الناس بها ﷺ وسمعت من جميع القوى من التكذيب والتشكيك في أمر اللطائف وإنكارهم دعوتهم وكفرهم بربهم ما لا يمكن كتابة عشر عشره في المجلدات، ومقصودي من كتابة هذه الحالة الواحدة التي تظهر في البداية للسالك؛ هو أن يعلم الرجل المطالع هذا الكتاب المسمى بـ«نجم القرآن»؛ وهو المزيل للتفسير النجمي الذي كتبه الموفق نجم الدين داية الأسدي الرازي - شكر الله سعيه - من أول القرآن إلى سورة النجم، فلما وصل إلى سورة النجم قال: يكون عجب أن يأذن الله لي في الشروع في النجم وإتمامه، فإذا وصل إلى النجم وشرع ومرض وعرج بنجمه المنير من أرض البشرية إلى سماء الربوبية وألهمنا الله تعالى إتمام تفسيره، والتفسير المكتب بخطه الشريف تسع مجلدات، وهذا المزيل مجلد واحد؛ ليكون معشرة كاملة خفية، ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا...»، ويؤمن ببطنه كما أمن بظهره، ولا يشك فيما أشرنا إلى

كلُّ من يصل إليه، ورماه بالحجارة كل من يمر عليه، فصبر على أذاهم، وبالغ في دعوته إياهم.

وبعدما بلغت الأذية غايتها ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ دعاء مؤمل ضريع فجيع: ﴿أَنِّي﴾ أي: بأني - على قراءة الفتح - أو قال: إني بالكسر ﴿مَغۡلُوبٞ﴾ غلبني قومي، ولم يقبلوا مني دعوتي وهدايتي ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: 10] عليَّ يا ربي، وانتقم لي منهم، وما دعا عليهم إلَّا بعد يأسه عن إيمانهم.

رُوي أنه يدعو كل واحد منهم جمعًا وفرادى، فيضربونه ويخنقونه حتى خر مغشيًا عليه، ثمّ لما أفاق قال: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون»[1].

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر: 11-27].

وبعدما قنط، وبلغ الزجر غايته تضرع نحونا، مشتكيًا من قومه ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾

تكذيب القوى للآيات الأنفسية وإنكارهم اللطائف المرسلة وآياتهم الخفية؛ لئلا يشقى عند مطالعة هذا الكتاب بإنكاره الآيات البينات التي شاهدها كاتبها مرارًا، غير معدودة من بداية اشتغاله بالسلوك إلى هذا الوقت الذي ألهم كتابة هذه الآيات ومقدار زمان اشتغاله بالذكر، هذا الذي وصفته لك، فقس بواقي الآيات عليها؛ لأن الخبير يقنعه القليل من الكثير، ولا يزيد للبليد إظهار الآيات إلا الإنكار بالتقليد.

(1) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/164، رقم 1447) وقال: مرسل.

لانتقامهم وهلاكهم ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: 11] منصب، كأنه يجري من جانب السماء.

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: فجرنا عيون الأرض، وصيرناها كأنها عيونًا كلها ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ الحاصل من كلا الجانبين، وبلغا ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ حال واحد ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12] أي: قدره الله في حضرة علمه وقضائه؛ لإهلاك أولئك الطغاة البغاة.

﴿وَ﴾ بعدما طغى الماء، وطاف حول الأرض ﴿حَمَلْنَاهُ﴾ أي: نوحًا ومن تبعه ﴿عَلَى﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أخشاب عراض ﴿وَدُسُرٍ﴾ [القمر: 13] مسامير طوال ﴿تَجْرِي﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وكنف حفظنا وحضانتنا.

وإنما فعلنا مع نوح وقومه ما فعلنا؛ ليكون ﴿جَزَاءً﴾ حسنًا له ولمن آمن به، وسيئًا ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: 14] بنعمة هدايته وإرشاده، ولم يؤمن بدينه، ولم يصدقه في تبليغه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة والفعلة التي فعلناها مع المكذبين لرسلنا، المجترئين علينا بالإنكار والكفران ﴿آيَةً﴾ دالة على قدرتنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 15] يتذكر بها، ويعتبر منها.

وبالجملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ للمنكرين المصرين على الإنكار والتكذيب ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16] أي: إنذاري وتخويفي على من يعتبر منهم، ومما جرى عليهم من العقوبات.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ وسهلناه ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: لأنواع التذكيرات والمواعظ، والعبر والأمثال ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17] يتعظ به، ويتذكر مما فيه ويعتبر.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ كذلك هودًا عليه السلام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 18] وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى عظيم قهرنا وجلالنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردًا، شديد الجري والصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾[1] شؤم

(1) قال في عين الحياة: منقطع من مكانه ساقط أرض البشرية لميلانه إلى الهوى، وإشارته إلى النخل في هذا المقام كانت لحكمه؛ وهي أن النخل أفق النباتات القريبة إلى حد الحيوان، واعلم أن الأيام سبعه، فبإزاء كل مفردة سفلية وعلوية، فالسبت يوم التراب، والأحد يوم الماء، والإثنين

منحوس ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19] شؤمه ونحوسه عليهم إلى أن يستأصلوا بالمرة.

ومن شدة جريها وحركتها ﴿تَنزِعُ﴾ وتقلع ﴿النَّاسَ﴾ عن أماكنهم، مع أنهم دخلوا في الحفر، وتشبثوا بالأثقال ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخل ﴿مُنقَعِرٍ﴾ [القمر: 20] منقلب عن مغارسه، ساقط على الأرض، موتى بلا روح.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 21] أي: بمن بعدهم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي: سهلنا وأنزلنا ﴿الْقُرْآنَ﴾ المعجز ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 22] متذكر، يتعظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23] أي: الإنذارات الصادرة من لسان صالح عليه السلام بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَقَالُوا﴾ في تعليل تكذيبهم على الرسول: ﴿أَبَشَرًا﴾ ناشئًا ﴿مِّنَّا﴾ أي: من جنسنا ﴿وَاحِدًا﴾ منفردًا، لا تبع له ولا رهط ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ نؤمن به ونقاد له، مع أنه لا مزية له علينا، لا بالحسب ولا بالنسب، والله ﴿إِنَّا﴾ إن فعلنا هكذا ﴿إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ﴾ عظيم، وغواية بعيدة عن مقتضى العقل والدراية ﴿وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 24] أي: كنا في جنون عظيم بمتابعة هذا المرذول المفضول.

ثمَّ استفهموا على شدة سبيل الإنكار والإستهزاء، والاستبعاد والمراء: ﴿أَؤُلْقِيَ

يوم الهواء، والثلاثاء يوم النار، والأربعاء يوم النور، والخميس يوم الحياة، والجمعة يوم الوجود، وبياضية جوهرية صور هذه المفردات يومها، وسوادية مادية قابلية هذه المفردات إليها، وكشف سر أيامها ولياليها بتعلق بحد القرآن، واعلم لطيفة أخرى في خصوصية كل يوم من الأيام بلطيفة من اللطائف السبع، فالسبت مختص باللطيفة القالبية الآدمية، والأحد مختص باللطيفة النفسية النوحية، والإثنين مخصوص باللطيفة القلبية الإبراهيمية، والثلاثاء مخصوص باللطيفة السرية الموسوية، والأربعاء مخصوص باللطيفة الروحية الداودية، والخميس مخصوص باللطيفة الخفية العيسوية، والجمعة مخصوص باللطيفة الخفية المحمدية؛ ولأجل هذا استوى الرحمن على عرش الجمعة، واستوت الأيام الستة على عرش الجمعة، كما أشار إلى هذا السر في كلامه المجيد، حيث قال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:54]، واعلم أن عرش حكمته القالب الشهادي، وعرش قدرته اللطيفة القالبية، وعرش إرادته اللطيفة النفسية، وعرش علمه اللطيفة القلبية، وعرش كلامه اللطيفة السرية، وعرش بصره اللطيفة الروحية، وعرش علمه اللطيفة الخفية، وعرش حياته اللطيفة الخفية التي كانت اللطائف بها قائمة.

﴿الذِّكْرُ﴾ الوحي والكتاب من السماء ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ من كمال رذالته ورداءته، والحال أن فينا من هو أحق به، وأولى منه، وبالجملة: ما هو بمقتضى حلمه إلّا مجنون مخبط، مختل العقل والرأي ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ متبالغ في الكذب والافتراء، غايته ﴿أَشِرٌ﴾ [القمر: 25] بطر، متناه في الشرارة، يريد بافترائه واختلافه هذا أن يتكبر علينا، ويتفوق بنا، مع كمال تناهيه في الرثاثة والرذالة، وبالجملة: ما هو إلّا من كمال بطره وشرارته.

وهم يقولون في حقه ما يقولون من أمثال هذه الهذيانات والمفتريات الباطلة، إلّا أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين نزول العذاب العاجل والآجل ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: 26] البطر المباهي ببطره، حيث أعرض عن الحق، وأصرَّ على الباطل اغترارًا، أصالح هو أم من كذبه، وأنكر عليه قوله؟!

ثمّ قال سبحانه لنبيه صالح ﷺ بعدما بالغوا في العتو والعناد، واقترحوا منه بإخراج الناقة من الصخرة تهكمًا وتعجيزًا: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال قدرتنا وقوتنا ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ ومخرجوها من الصخرة، وباعثوها ﴿فِتْنَةً﴾ عظيمة، واختبارًا ﴿لَّهُمْ﴾ وأوصاهم في شأنها ما لأوصاهم ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يا صالح، وانتظر ماذا يفعلون بها ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: 27] على أذياتهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۝٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ [القمر: 28-44].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبرهم وأعلمهم بوحي منا ﴿أَنَّ الْمَاءَ﴾ الذي به معاشهم ومعاش مواشيهم ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مقسومة بين الناقة وبينهم، ومواشيهم لها يوم، ولهم يوم

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: 28] أي: كل صاحب شرب، يحضر الماء في يومه، ولا يحضره غيره فيه.

ثمّ لما صاروا على هذه القسمة زمانًا، اضطروا وتضجروا ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف، فتشاوروا معه في أمر الناقة، واضطرارهم ومواشيهم في هذه القسمة ﴿فَتَعَاطَى﴾ وأخذ سيفه قدار مغاضبًا، وكان من أجرأهم على الخطوب، وأشجعهم على الوقائع ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29] أي: قدار، الناقة.

ولم يبال بالقسمة الإلهية ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ يعني: انظر كيف وقع ﴿عَذَابِي﴾ عليهم ﴿وَ﴾ لحق ﴿نُذُرِ﴾ [القمر: 30] إياهم، بعدما عقروا الناقة.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة مهولة ﴿فَكَانُوا﴾ إثر سماع تلك الصيحة الهائلة ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: 31] أي: مثل الأشجار اليابسة البالية في حظائر الأموات، تتناثر أجسامهم كالتراب.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ المشتمل على أنواع الرشد والهداية ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والعظة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 32] يتذكر ويهتدي بهدايته وتذكيره.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ أيضًا أمثال أولئك المذكورين ﴿بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 33] أي: الإنذارات الواردة عليهم بلسان نبيهم لوط عليه السلام.

وبعد إصرارهم على تكذيبه وإنكاره ﴿إِنَّا﴾ من شدة قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من جانب السماء ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا شديدًا صرصرًا عظيمة، ترميهم بالحصباء؛ أي: الأحجار الصغار إلى أن هلكوا بالمرة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ هو لوط عليه السلام وبنتاه ﴿نَّجَّيْنَاهُم﴾ من هذه الواقعة الهائلة، والكرب العظيم ﴿بِسَحَرٍ﴾ [القمر: 34] وقت الصبح.

وإنما نجيناهم ﴿نِّعْمَةً﴾ واصلة ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ إياهم، ورحمة شاملة من لدنا عليهم؛ بسبب إيمانهم وعرفانهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا مع آل لوط ﴿نَجْزِي﴾ بمقتضى جودنا عموم ﴿مَن شَكَرَ﴾ [القمر: 35] لنعمنا، ولم يكفر بموائد كرمنا.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط عليه السلام بوحي منا إياه ﴿بَطْشَتَنَا﴾[1] وأخذنا إياهم؛

(1) قال علاء الدولة: البطشة ثلاث بطشات، مثل الطامة، والنار كبرى ووسطى وصغرى، فالبطشة

بسبب فعلتهم القبيحة، وديدنتهم الشنيعة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 36] أي: كذبوه على إنذاراته ووعيداته مراءً ومجادلة، واستهزاءً معه وبعموم ما أوحينا إليه من الوعيدات والإنذارات.

﴿وَ﴾ من شدة مرائهم معه، واجترائهم ﴿لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وترددوا حول بيته، وقصدوا فجور أضيافه، ويمموا على تفضيحهم ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ومسخناها، وصيرناها مستوية مع وجوههم، فصاروا ممسوحي العيون.

رُوي أنهم لما دخلوا عنوة في داره، صفقهم جبريل صفقة، فأعماهم دفعة ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فقلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 37] المنذر به على لسان نبينا لوط عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ ولحق بهم ﴿بُكْرَةً﴾ قريبة من الصبح ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: 38] مستمر عليهم إلى أن يستأصلهم ويسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ أي: قلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا عذابي أيها المفسدون المسرفون﴿وَ﴾ ذوقوا ﴿نُذُرِ﴾ [القمر: 39] أي: أيها المنكرون المكذبون.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ المبين أنواع الوعيدات الهائلة، الجارية على أصحاب السرف والعناد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للعبرة والعظة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 40] معتبر متعظ متيقظ، يعتبر من وعيدات القرآن وإنذاراته، وما ذكر فيه من الحكايات.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: 41] أي: الإنذارات الواردة منا على كليمنا موسى المؤيَّد من لدنا بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

وبالجملة: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا كلها بعد اقتراحهم بها، وإلحاحهم عليها، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وأنواع الخرافات الباطلة، البعيدة عن شأنها

الكبرى، والطامة الكبرى، والنار الكبرى، إذا أخذت المرء فلا يمكن الخلاص منها، وأما الوسطى فيمكن بالشفاعة وبعض الأعمال الصالحة وإن كانت مغلوبة، وأما الصغرى فإذا ظهرت للسالك يزيد إيقانه ويظهر له نشاطًا في سلوك الطريقة، وتحرضه على التوجه الكلي إلى الله يشرف بالتجليات بعد هذه الحالات، ولله بطشة خفية في كل لمحة، وطامة جلية في كل بطشة، ونار مضيئة مشرقة في كل طامة، وساعة وقائمة في كل نار، وواقعة خافضة في كل ساعة لا يشاهدها إلا الأقطاب الأربعة؛ وهم: العالم العلوي والسفلي.

﴿كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وانتقمنا عنهم بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب لا يغالب مطلقا ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 42] كامل في القدرة، بحيث لا يعجز عن مقدور قط، واستأصلناهم إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

ثمَّ خاطب سبحانه كفار مكة على سبيل التوبيخ والتهديد، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل مطلقًا ﴿مِنْ أُوْلَائِكُمْ﴾ الكفار المعدودين المذكورين وجاهة وثروة، مالاً ومظاهرة، مكنة ومكانة، ثمَّ إنكم لستم أمثالهم، وهم من شدة قوتهم وشوكتهم، ما نجوا من عذاب الله، أتنجون أنتم ﴿أَمْ﴾ نزل ﴿لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 43] السماوية والكتب الإلهية، إن من كفر منكم، وخرج عن مقتضى الحدود الإلهية، فهو ناج من عذاب الله، بريء عن انتقامه؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ من كمال حماقتهم، وركاكة رأيهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: 44] أي: نحن جماعة مجتمعون متفقون، أمرنا واحد، رأينا متفق، ننصر وننتصر بعضنا ببعض، بحيث لا نغالب ولا نرام أصلاً.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: 45-55].

ومن كمال بطرهم وغرورهم يقولون هذا، ولم يعلموا أنه ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: يفرق جنس الجموع على وجه الهزيمة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45] أي: ينصرف كلٌّ منهم عن عدوه مستدبرًا إياه في الدنيا.

﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ العظيم؛ لتعذيبهم وتفضيحهم الحقيقي الأصلي، المعنوي والصوري، وما عرض عليهم في الدنيا، فمن مقدمات ما سيلحقهم من العقبى ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿السَّاعَةُ﴾ والعذاب الموعود فيها، والساعة ﴿أَدْهَى﴾ أشد وأفظع، ودواهيها لا دواء لها، ولا نجاة منها ﴿وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 46] مذاقًا من عذاب الدنيا، بل بأضعافه وآلافه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المتصفين بالجرائم المستلزمة للخروج عن الحدود الإلهية، وعن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة من عنده ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق وأهله في العاجل ﴿وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 47] نيران مسعرة لهم، معدّة لهم في الآجل.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ صاغرين مهانين، فيقال لهم حينئذٍ: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفسدون ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48] أي: مساس جهنم، وشدة حرها وُحرقها، بدل ما يتنعمون في دار الدنيا بلذاتها الشهية، وشهواتها البهية البهيمية.

وكيف لا نُدخل المجرمين في دار القطيعة، ولا نسحبهم نحوها مهانين، فإنهم قد خرجوا عن مقتضى تدابيرنا وأوضاعنا الناشئة منا على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة المعتدلة؟! ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال علمنا، وشمول قدرتنا وإرادتنا المقتضية للحكم والمصالح، خلقنا وأظهرنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ وأظهرناه من كتم العدو مقرونًا ﴿بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] أي: بمقدار نقدره في حضرة علمنا، ولوح قضائنا، ونرتب على المقدار المقدر وجود المقدور المخلوق، فنظهره على وفقه.

﴿وَ﴾ تستبعدوا من حيطة حضرة علمنا، وقدرتنا الكاملة، تفاصيل عموم المظاهر والمخلوقات، وترتب وجوداتها على مقاديرها المقدرة لها في لوح قضائنا، إذ ﴿مَا أَمْرُنَا﴾ وحكمنا الصادر المبرم منا في السرعة والمضاء، بالنسبة إلى عموم الكوائن والفواسد الواقعة في عموم الأزمة والآناء، بل بالنسبة إلى جميع الخواطر والخواطف الواردة على القلوب، وإلى جميع الاختلافات الواقعة في حركات العروق الضوارب في هياكل الهويات، بل بالنسبة إلى ما في الاستعدادات والقابليات ﴿إِلَّا﴾ فعلة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بلا ترتب وتراخ، وتوقف ومهلة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] أي: كنظرة سريعة بالطرف، هيهات هيهات، والله ما هذا التمثيل لسرعة نفوذ القضاء الإلهي إلّا بحسب أحلام الأنام، وبمقتضى أفهامهم وأوهامهم السخيفة، وإلّا فلا يكتنه سرعة قضائه أصلاً، حتى يمثل ويشبه.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: وكيف لا تخافون أيها المسرفون المفرطون عن شدة بطشنا وانتقامنا ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ واستأصلنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم وأمثالكم في الكفر والعناد، وأنواع الفسوق والفساد، بأصناف العقوبات والبليات الهائلة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 51] متذكر، يتعظ بإهلاكهم وهلاكهم، وبما جرى

عليهم من الشدائد؟!

﴿وَ﴾ كما عذبناهم بجرائمهم وآثامهم في النشأة الأولى كذلك، بل بأضعافها وآلافها، نعذبهم في النشأة الأخرى أيضًا بها؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ فيما مضى، وصدر عنهم في النشأة الأولى محفوظ مثبت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 52] أي: في مكاتب الحفظة المراقبين عليهم في عموم أحوالهم وأطوارهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يحفظ؛ إذ ﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ وقليل وكثير على التفصيل ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: 53] مسطور على التفصيل في اللوح المحفوظ أولاً، وفي صحائف أعمالهم ثانيًا، وبالجملة: لا يعزب عن حيطة علمه شيء من أعمالهم وأقوالهم، وأطوارهم وأحوالهم مطلقًا. ثمّ عقب سبحانه وعيد المجرمين بوعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن المحرمات والمنهيات، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿وَنَهَرٍ﴾ [القمر: 54] جداول جاريات، متشئات من بحر الحياة اللدنية المتجددة حسب تجددات دار التجليات الإلهية، متمكنون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ هو مقام التسليم والرضا بمقتضيات القضاء ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ يملكهم ويتكفل بأمورهم، وجميع حوائجهم ﴿مُقْتَدِرٍ﴾[1] [القمر: 55] على تدابيرها بمقتضى

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: موضع الحكمة عند القدرة وفيه أسرار رحمته، أشرح لك نبذة نستفيد منها ما يهز به عطف إرادتك لطلب، اعلم أن مفاتيح الغيب، ومقعد الصدق، وأم الكتاب عنده في عالم الجبروت، وهي مظاهر جبروتية لصفات لاهوتية؛ وهي: الحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والعلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، وجواهر الملائكة الأربع، والعناصر الأربعة في الملكوت، مظاهر لمظاهر الصفات الجبروتية، وقال الإنسان المنفوخ فيه الروح مظهر لمظاهر الصفات الملكوتية؛ التي هي مظهر لمظاهر الصفات الجبروتية؛ التي مظاهر الصفات اللاهوتية، وقال الإنسان ناسوتي، وبه يتم أمر الحكمة وهو أنت، فانظر إلى نفسك لترى آيات أفعال الحق، وادخل في نفسك تشاهد آيات صفات الحق، وأصقل مرآة نفسك لتشرف بمشاهدة جمال الحق، وارحم لنفسك بنفسك في نفسك ولا تضع قدمك خارجًا من حرم نفسك؛ لأنها بيت الحرام وكعبة الأمان ودار السلام، وفيها الجنة والرضوان والروح والريحان؛ لئلا تضل في بادية الجريان بالخيبة والخسران، فالعالم بأسره ملكه وملكوته، وغيبته وشهادته، وأنفسه وآفاقه إنسان صغير، والإنسان عالم كبير، فالويل لمن ترك الكبير للصغير، وحقير من يقنع بالقليل من الكثير، اللهم ارفع همتنا بطلب الملك القدير، ووفقنا لمتابعة حبيبك المنير، البشير النذير للخير والشر به ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحكمة المتقنة.

جعلنا الله من زمرة المتقين، المتمكنين في مقعد الصدق عند المليك المقتدر، العليم الحكيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد للتمكن في مقعد الصدق، والمتحقق في مرتبة اليقين الحقي - وفقك الله الوصول إلى غاية مقصدك ومرامك - أن تنقي نفسك عن مطلق المحظورات والمنهيات، المنافية لسلوك طريق الحق والتوحيد من الرياء والرعونات، المنتشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي المتفرعة على التعينات العدمية، المستلزمة للكثرة الوهمية المنافية لصرافة الوحدة الذاتية الإلهية، وتلازم العزلة والفرار عن الدنيا الدنيّة وأمانيها مطلقًا، وتقنع منها بضرورياتها المقومة لهيكل هويتك الظاهرة لمصلحة المعرفة والتوحيد، حتى يتيسر لك الوقوف بين يدي ملك مقتدر، موحد في الوجود والقيومية.

ثبتنا بلطفك على نهج اليقين والتمكين، وجنبنا بجودك عن أمارات التخمين والتلوين، يا ذا القوة المتين.

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الرحمن

لا يخفى على من تحقق بفسحة قلب الإنسان المصور على وسعة عرش الرحمن أن حكمة خلق الإنسان على فطرة المعرفة والإيمان، وتعلم القرآن عليه، إنما هو للتبيان والبرهان على ثبوت خلافته ونيابته للحق، وتنبيهه برفعة درجة علو شأنه ومكانته بين عموم الأكوان الكائنات.

لذلك قال سبحانه في مقام الإنعام والامتنان عليه تنبيهًا له وتعليمًا بعدما تيمن باسمه الأعز الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلب الإنسان؛ لينكشف له ذاته سبحانه، وكمال أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بترجمان اللسان والبيان المعرب عما في قلبه؛ ليرشد غيره بما هو عنده، ويسترشد منه ﴿الرَّحِيمِ﴾ المنزل عليه القرآن المبين له طريق توحيد الحق وعرفانه.

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرحمن: 1-16].

﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: 1] أي: الذات المحيطة بعموم الأعيان بالرحمة العامة الواسعة، وبمقتضى سعة رحمته، ووفور لطفه ورأفته.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 2] لنوع الإنسان، ونزّل على خاصة خلقه، ليكون

مبينًا لهم سبيل الكشف والعيان، ونهج التوحيد والعرفان.

مع أنه لما ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن: 3] سبحانه؛ لأجل هذا الشأن البديع البرهان، ولهذه الحكمة والمصلحة أيضًا بعينه.

﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: 4] أي: التنطق والتكلم بلغات شتَّى، وعبارات لا تُحصى؛ ليستفيد من منطوقات الألفاظ ما هو معناها، ويتفطن منها إلى ما هو مغزاها ومرماها، وغاية قصواها، ألا وهي المعارف والحقائق، والحكم والأسرار الإلهية المودعة المكنونة في مطاوي حروف المصاحف، والكلمات الحاصلة من مقاطع الأصوات المتكونة من لوازم الحياة الحقيقية المترتبة على النفسات الرحمانية، والنفثات اللاهوتية الثابتة للوجود المطلق حسب تجليات الذات الإلهية، وعلى مقتضى الأسماء والصفات الذاتية الكامنة فيها، المتجلية عليها بمقتضى الشئون والكمالات الغير المتكررة إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبدًا؛ ليظهر للإنسان سر الظهور والبطون، والغيب والشهادة الواردة على الوحدة الذاتية الإلهية.

ولهذه المصلحة أيضًا ظهر في العلويات ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[1] [الرحمن: 5] أي: يجريان ويدوران بحساب مقدر من عنده سبحانه، معلوم في حضرة علمه؛ ليكونا دليلين شاهدين على ظهور مرتبتي النبوة والولاية المقتبسة من مشكاة النبوة، المتفرعة على العدالة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ أيضًا أظهر في السفليات لتلك المصلحة العليّة ﴿النَّجْمُ﴾ أي: النبات الذي لا ساق له ﴿وَالشَّجَرُ﴾ وهو الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] يخضعان ويتذللان له سبحانه دائمًا من كمال الإطاعة والانقياد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿السَّمَاءَ﴾ أي: عالم الأسباب والأقدار ﴿رَفَعَهَا﴾ في أعلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: شمس النبوة وقمر الولاية على فلك وجود الإنسان، يدور بالحساب في الدائرة الأزلية والأبدية على قطب نقطة نون الرحمن، ولا يكشف هذا السر حتى يفهم قوسيته صورة في البياض والسواد، وإيصال دائرة الأزل إلى الأبد عند نزعة بواسطة وتروا، والولاية القائمة بألف الاسم الأعظم، وسر سين السهم الأسمى الذي لأجله ظهر قوس النون، ووتر الواو، وألف الاسم؛ وهو آخر حروف القوس وبه تتصل دائرة الأزل بالأبد، وبه يتم التدبير وحكمه الرجوع وحصول الصيد المقصود من إيجاد وجود كل موجود، والشروع في تحقيقه يلزم الشروع في بيان حد القرآن مما لست مأذونًا في إفشائه.

المكان والمكانة ﴿وَوَضَعَ﴾ فيها ﴿الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7] المعتدل المنبئ عن القسطاس المستقيم الإلهي الواقع بين الأسماء والصفات الذاتية، وعين المقادير والآجال المقدرة لجريها، ورتبها على دورها وانقلاباتها الواقعة فيها على وفق الحكمة المترتبة على العدالة الإلهية.

وإنما رتبها على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ أي: لئلا تعتدوا وتتجاوزوا أيها المجبولون لمصلحة التكليف والعرفان، على مقتضى الوحي الإلهي المترتب على الحكمة البالغة المتقنة في الأرض ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: 8] الموضوع بمقتضاها، ألا وهي الشرع الشريف.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم حال العلويات والسفليات، وما فيهما من الموازين المعتدلة الموضوعة بالوضع الإلهي ﴿أَقِيمُوا﴾ أيها المكلفون فيما بينكم ﴿الْوَزْنَ﴾ واعتدلوه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والإنصاف ﴿وَلاَ تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9] إذ هو موضوع على العدل السوي.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿الأَرْضَ﴾ إنما ﴿وَضَعَهَا﴾ ومهدها سبحانه ﴿لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10] ليعتدلوا عليها، ويستقيموا عموم أخلاقهم وأطوارهم فيها، حتى يستعدوا لأن يفيض عليهم طلائع سلطان الكشف والشهود، فيفوزوا بمقر التوحيد، ويتمكنوا في مقعد الصدق والتفريد.

لذلك أعدَّ لهم سبحانه تفضلاً عليهم وتكريمًا: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة يتفكهون بها، من أنواع الفواكه تقويمًا لأمزجتهم، وتقويةً لها ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿النَّخْلُ﴾ التي هي ﴿ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: 11] والأوعية المشتملة على التفكه والتقوت لسائر الأغراض الحاصلة منها.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ «والحبُّ» أي: وكذا أعدَّ لهم فيها جنس الحبوب التي يتقوت بها نوع الإنسان منها «ذُو العصف»: ذا العصف؛ أي: التين والقشور؛ إذ هو محفوظ فيها، مربي معها إلى أن يستوي وينضج، فيتقوت بحبّه الإنسانُ، وبعصفه المواشي ﴿وَ﴾ كذا ظهر لهم فيها بمقتضى جوده ﴿الرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: 12] أي: جنس الرياحين المشمومة المقوية لدماغ الإنسان، المصفية له عن الروائح الخبيثة، والنفحات الكريهة.

ثمَّ لما عدَّ سبحانه نبذًا من نعمه الشاملة على عموم الأنام، خاطب المكلفين

منهم على سبيل الامتنان، وهم الثقلان المجبولان على فطرة التوحيد، واستعداد الإيمان والعرفان، فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا﴾ ونعماء موجدكما ومربيكما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 13] أيها المغموران في نعمه، المستغرقان في بحار جوده وكرمه.

وكيف يسع لكما الكفران لنعم الله، والطغيان عليه سبحانه، مع أنه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ المصور بصورة الرحمن، وقد خلقه ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس له صلصلة وصوت ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14] أي: الخزف المتخذ من التراب، الموقد بالنار، ومع دناءة منشئه ومادته، رفعه إلى حيث جعله خليفةً للحق، نائبًا عنه، ومرآة مجلوة قابلة لفيضان كمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَخَلَقَ الجَانَّ﴾ أي: الجن، وقدر وجودهم ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من دخان صاف حاصل ﴿مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15] موقدة ملتهبة مشتعلة على وجه الحركة والاضطراب، ومع رداءة مادتها وكثافتها، جعله شبيهًا بالملأ الأعلى، متصفًا بها في كمال اللطافة والصفاء إلى حيث لا يرى أشبحهم كالملائكة.

وإذ كان شأن الحق معكما هكذا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 16] وتنكران أيها الثقلان.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)
يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ
أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ
أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا
ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن

ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ [الرحمن: 17-40].

وكيف يليق بشأنه سبحانه الإنكار والتكذيب، مع أنه سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مشرقي الظهور والبروز من عالم العماء واللاهوت إلى فضاء الأوصاف والأسماء المسمى: بالغيب والأعيان الثابتة، ثمّ منها إلى عالم الشهادة في السير الهابط ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] أي: مغربي الخفاء والبطون عن عالم الناسوت إلى برزخ الأعيان الثابتة، ثمّ عنها إلى عالم اللاهوت في السير الصاعد؛ إذ يتوالد دائمًا على شمس الحقيقية الحقية الذاتية، باعتبار تجلياتها حسب أسمائها وصفاتها، شروق وأفول، وطروق طلوع وغروب؟!

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 18] أيها المظهران الكاملان المجبولان على فطرة الشعور والعرفان.

ومن أنى يتأتى التكذيب في شأنه سبحانه؛ إذ هو بمقتضى قدرته ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل وأطلق بحر الوجود والعدم إلى حيث ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: 19] أي: يتمازجان ويختلطان، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عن الكشف والشهود؟!

ويبقى ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عنايةً منه سبحانه ﴿بَرْزَخٌ﴾ هو الإنسان الكامل المنكشف بكيفية انبساط بحر الوجود العذب على بحر العدم المالح، وامتداده عليه وانطباق سطوحهما، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عين العبرة، وبصر البصيرة، وجعل سبحانه برزخ الإنسان الكامل على مقتضى الحكمة المعتدلة، بحيث ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 20] أي: لا يبغي ويغلب كلّ من يجري الوجود والعدم على صاحبه في مرتبته ونشأنه، حتى يبطل حكمة الظهور والبطون، والجلاء والخفاء، والإلوهية والعبودية، وسائر المتقابلات المترتبة على الشئون الإلهية المتفرعة على الأسماء الذاتية.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 21] أيها المكلفان المعتبران.

وكيف لا تعتبران، ولا تشكران نعمه، مع أنه ﴿يَخْرُجُ﴾ حسب عنايته الأزلية ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين المذكورين ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22] أي: يخرج لكما أيها الثقلان المجبولان على فطرة الإيمان، من امتزاج البحرين المذكورين، لآلئ المعارف والحقائق، ومرجان الشهود والإيقان؟!

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 23] أيها الممنونان المغموران، المستغرقان في موائد كرمه.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه تفضلاً على عباده، وامتنانًا لهم ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: سفن الملل والأديان المنزلة من عنده سبحانه على عموم الرسل والأنبياء؛ ليرشدوا بها أممهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿الْمُنشَآتُ﴾ المصنوعات المستحدثات ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحر الوجود ﴿كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن: 24] أي: كالرواسي العظام التي يعلم ويشار بها للتائهين في بيداء الوجود، الضالين في صحراء الجحود، إلى جادة اليقين والعيان.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 25] أيها المكلفان.

وبالجملة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على أرض القوابل والهيولى من التعينات المستتبعة لأنواع الإضافات، الحاصلة من تموجات بحر الوجود وتجلياته بمقتضى الكرم والجود، إنما هو ﴿فَانٍ﴾ [الرحمن: 26] لا وجود، ولا تحقق لها في ذواتها أصلاً، سوى أنها انبسط عليها أظلال الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَ﴾ بعد فناء نقوش الأمواج والأظلال بأسرها ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمقتضى صرافة وحدته، مستغنيًا في ذاته عن عموم مظاهره ومخلوقاته؛ إذ هو سبحانه ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1] [الرحمن: 27] لا يشارك في وجوده، ولا ينازع في سلطانه، فمآل الكل إليه، كما أن مبدأه منه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وإذ كان شأنه سبحانه هذا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 28] أيها الأظلال الهلكى.

وبالجملة: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ ويستمد منه في كل زمان وآن، ويستظل تحت ظل جود وجوده كلُّ ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من فواعل المظاهر وقوابلها؛ إذ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب تجلي الجمال والجلال؛ يعني: بتجلي الجلال الصوب الكثيفة، ويبقى بتجلي الجمال المعاني المكتسبة اللطيفة من الصورة الكثيفة، والفرق بين الهلاك والفناء بين فناء نور القمر عند حجاب الأرض له عن أخذ النور من الشمس وهلاك أنوار الكواكب عند طلوع الشمس، وأبين لك فرق أظهر من هذا في صورة النبات، إذا وضعته في قدح فيه ماء يفني تركيب الصورة النباتية القائمة ثلاثة قوائم، ويهلك معنى حلاوة في الماء؛ لغلبة الماء عليه، وفي الهلاك والفناء أسرار سوى هذا يتعلق بعضها بحد القرآن وبعضها بمطلع القرآن.

وآن ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] لا يسبقه شأن، ولا يلحقه شأن مثله، فكلّ من المظاهر الإلهية في كل آن وطرفة في خلع صورة، ولبس أخرى حسب شئون الحق، وسرعة نفوذ قضائه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 30] أيها المجبولان على فطرة الدراية والشعور.

ثمّ لما عدّ سبحانه على عموم المكلفين نبذًا من نعمه العظام، على سبيل التنبيه والامتنان، أراد أن يشير إليه، ويبينه عليهم بالقيام على أداء حقوقها، ومواظبة شكرها؛ لئلا يغفلوا من الله، ولا يستحيوا عند الحساب في يوم الحشر والجزاء، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ نتجرد ونخلو لحسابكم، وتنقيد أعمالكم وجزائكم على مقتضاها ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ المثقلان بشكر نعمنا، وأداء حقوق كرمنا، ومتى سألناكما عن أعمالكما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 32] وتنكران، مع أنّا ما خفي علينا شيء من أعمالكم مطلقًا، لا من كفرانكم وعصيانكم، ولا من شكركم وإيمانكم.

ثمّ قال سبحانه مناديًا لهم على وجه التوعيد والتوبيخ والتهديد: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ المجبولين على فطرة التكليف بمقتضى الحكمة البالغة، عليكم أن تنقادوا وتطيعوا بعموم ما كلفتم به، المثمر لحكمة المعرفة واليقين، إلّا ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقدرتهم ﴿أَن تَنفُذُوا﴾ وتخرجوا فارين عن مقتضيات قهرنا وغضبنا ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من جهة العلويات والسفليات ﴿فَانفُذُوا﴾ واخرجوا، مع أنكم ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ولا تقدرون على الخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: 33] أي: بقدرة واقتدار موهوبة لكم من قِبَل ربكم؛ إذ لا يصدر منكم مطلق الأفعال والحركات إلّا بإقداره وتمكينه سبحانه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 34].

وكيف تنفذون وتفرون من حيطة قدرته وجلاله؛ إذ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ في النشأة الأخرى جزاءً لأعمالكما ﴿شُوَاظٌ﴾ لهب مشتعل ﴿مِّن نَّارٍ﴾ موقدة مسعرة ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان مظلم حاصل منها، وبالجملة: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: 35] ولا تمتنعان عنهما، ولا تدفعانهما بحولكما إلّا بعناية ناشئة من الله، وفضل يدرككم من لدنه[1].

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: يرسل عليكما أيتها القوتان شواظ من نار علوية، وهو لهب النار الأخضر

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 36] وعليكم أن تشكروا آلاء الله، وتواظبوا على أداء حقوق نعمائه قبل حلول يوم الجزاء وبعده يوم الحشر.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ واندكت الأرض من خشية الله، ورهبته ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء من كمال غضب الله ﴿وَرْدَةً﴾ حمراء مذابة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: 37] أي: تذوب كالدهن المذاب من شدة الخشية الإلهية، فلا يمكنكم حينئذ التدارك والتلافي.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 38] حيث يخبركم بالتهيئة والتدارك قبل حلول الساعة.

بل ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين انشقاق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: 39] أي: لا يُسأل حينئذ لا عن ذنب الإنس ولا على عن ذنب الجان، ولا يلتفت إلى أعمالهما وأفعالهما، بل يبعثون من قبورهم، ويساقون نحوِ المحشر حيارى تائهين للحساب والجزاء، فاعتنى سبحانه بشأنكم، ونبهكم على إعداد الزاد قبل يوم المعاد.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 40] وكيف لا تعتادون، ولا تتزودون ليومكم هذا؟!

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾

واستعداد النحاسية من العناصر السفلية، فلا يمنعان صاحبهما عن العذاب إن يشأ عذابهما، وفي هذا أسرار رحمة أشير إلى بعضها لك يفطن له الخبير، اعلم أن الله تعالى خلق قالب إنسان مستعدًا مثل النحاس المستعد للتربية والتصعيد إلى حد يطرح عليه الكيمياء ويقلبه عينًا روحانيًا، وخلق فيه من نار القوة الفاعلية قوة إذا زكى النحاس من الظلمة المنطبعة فيه من أركان الأرضيات، وطهر النار من لهب الهوى، وقيل صاحب التزكية والتطهير كثير الإيمان وطرح على نحاس القالب واشتغل فيه النار المطهرة عن لهب الهوى، فجعل قالبية الظلماني نورانيًا، ويصير نحاسية الجسماني عينًا باقيًا روحانيًا، وإن لم تزكِ النحاس من ظلمات الطبيعة ولم تطهر النار نورانيًا من لهب الهوى، تذيب النار التي هي ذات لهب هوائية نحاس استعداد القوة المكدرة الجسمانية في جحيم قالبه التي عمرها في دار الكسب، وتغذيه أبد الآباد تارة بالإذابة والإحراق في جحيم اغتراره بنور النار، وتارة بإدخاله النحاس المذاب في زمهرير إنكاره؛ ليحمد ويصلح للإذابة تارة أخرى في دار القرار؛ لإعراضه عن طاعة الملك الواحد القهّار.

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ
﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ
﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾﴾ [الرحمن: 41-65].

إذ ﴿يُعْرَفُ﴾ ويعلم يومئذ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المهملون لأمر الزاد، المتصفون بالجرائم المستلزمة للانتقام ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ إذ يظهر حينئذ آثار الكآبة والحزن على وجوههم ﴿فَيُؤْخَذُ﴾ بعد الخطاب والحساب ﴿بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] أي: يشد أعناقهم مع أرجلهم بالسلاسل، ثم يطرحون في النار بأنواع الهوان والصغار، فيخبركم ربكم بالخلاص عنها قبل حلول أوانها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 42].

فيقال لهم حين إلقاءهم إليها مشدودين مهانين، زجرًا لهم وتوبيخًا: ﴿هَٰذِهِ﴾ النار التي تصلون فيها ﴿جَهَنَّمُ﴾ الموعودة المعدة ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: 43] وقت إخبار الله إياهم على ألسنة رسله وكتبه.

فالآن ﴿يَطُوفُونَ﴾ ويترددون ﴿بَيْنَهَا﴾ أي: بين النار ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿آنٍ﴾ [الرحمن: 44] متناهٍ في الحرارة إلى حيث يغلب إحراقه وحرارته على النار المسعرة، فأراد سبحانه إنقاذكم منها بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 45] أيها المجبولان على الكفران والنسيان.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ من كلا الفريقين؛ أي: من مكلفي الجن والإنس في النشأة الأولى ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي ربه في النشأة الأخرى للعرض والجزاء، واشتغل في هذه النشأة إعداد ذلك اليوم، وتهيئة أسبابه من اكتساب الحسنات وترك السيئات من الأخلاق والاعتقادات، وصوالح العبادات والطاعات المقبولة يومئذ عند الله على مقتضى ما أمرهم الحق، ونهاهم عنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46] معدتان لكل خائف عند ربه جنة جسمانية، يتلذذ فيها بدل ما ترك من اللذات الدنيوية وشهواتها الفانية اتقاء عن الله، وجنة روحانية عناية من الله وفضلاً من «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت...الحديث»[1].

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 47] أيها المكلفان!

والجنتان المذكورتان ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: 48] أنواع وأصناف من الأشجار المثمرة بالأثمار البهية والفواكه الشهية، وأنواع من المعارف والحقائق المثمرة للحالات العلية والمقامات السنية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 49].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ﴾ منتشئتان من بحر الحياة الإلهي، المتفرعتان على أسمائه وأوصافه الجمالية والجلالية ﴿تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: 50] بين يدي الخائف الملتجئ إلى الله على مقتضى التجليات الحبية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 51].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: 52] صنفان من المعارف والحقائق على مقتضى تربية العينان المذكورتان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 53] أيها المسخران تحت لطفه وقهره وجلاله وجماله.

ثم إنهم يتنعمون بما ذكر من النعم العظام حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ متمكنين راسخين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ من الاعتقادات الراسخة ﴿بَطَائِنُهَا﴾ أي: وجوهها التي تلي قلوبهم وأرواحهم ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الغيظ الصلب من الديباج، بحيث لا تخلل فيه.

---

(1) رواه الطبراني (122/6، رقم 5706)، وابن أبي شيبة (30/7، رقم 33973)، وأحمد (334/5، رقم 22877)، ومسلم (2175/4، رقم 2825)، والحاكم (448/2، رقم 3549)، وقال: صحيح الإسناد.

ولا فرج، ألا وهو المثال لليقين الحقي الذي لا يطرأ عليه التردد والتذبذب مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: التلذذ والتنعم بثمارهما ﴿دَانٍ﴾ [الرحمن: 54] قريب؛ إذ لا ترقب ولا انتظار في اليقين الحقي، بل أقرب إلى العارف منه بعدما وصل إليه، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 55].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجنان المعدة لأرباب العناية والامتنان، مخدرات المعارف والحقائق الواردة على قلوبهم حسب استعداداتهم المتفاوتة ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: كل منهن منحصرة الطرف، مقصورة النظر على كل من هي ترد عليه؛ بحيث لا تتعدى إلى غيره؛ لاختلاف قابلياتهم حسب الفطرة الأصلية بمقتضى اختلاف تجليات الحق وشئونه بحيث ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يتلذذ معهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ ولا بعدهم ﴿وَلَا جَانٌّ﴾[1] [الرحمن: 56] كذلك؛ إذ مراتب الشهود على مقتضى تجليات الوجود وتطوراته، فكما لا تكرر ولا اتحاد بين اثنين في التجليات الإلهية، كذلك في مراتب أرباب الشهود القابلة لها، المستعدة إياها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 57].

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ من كمال الصفاء الشفاء والجلاء ﴿الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 58] المسرتان لأرباب النظر والعيان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 59].

وبالجملة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ في الأعمال والأخلاق، وعموم الشيم والأحوال ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] من الله، والرضوان منه سبحانه على سبيل التفضل والامتنان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 61].

---

(1) قال في التأويلات: يعني: هل جزاء من يقول: لا إله إلا الله من صدق القلب إلى الجنة المضافة إلى الرب، والجنان التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هي صور الأعمال الحسنة، فاجتهدوا في تطهير مجاري ذكركم الكريم، وفي نفي الخواطر عند اشتغالكم بالذكر لتدخلوا جنانكم، وتجالسوا رضوانكم، وتشاهدوا رحمانكم، وتعرفوا إنسانكم، وتطلعوا على سر ما قال نبيكم ﷺ: «أن الله تعالى خلق الإنسان على صورة الرحمن»، ومن قرأ سورة الرحمن وعرفها حق المعرفة اطلع على كمال معرفة ﷺ، وإشاراته اللطيفة المدرجة في كلماته الشريفة، وعلم أنه صدوق فيما قال: «أوتيت بجوامع الكلام» ﷺ اللهم ثبتنا على متابعته، وعرفنا إشاراته، ولا تحرمنا من بركاته، ووفقنا للصلاة عليه، وأشركنا في تحياته وصلاته بحقه ﷺ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يفرق بين المسيء والمحسن، يسوق المسيء على جهنم بسوط سيئاته، ويسوق المحسن إلى الجنة بسوط حسناته.

وهاتان الجنتان المذكورتان مع ما فيهما من المقامات العلية والدرجات السنية للخائفين من الله، ومن سطوة قهره وجلاله في عموم أحوالهم وأطوارهم، المفوضين المتوكلين عليه سبحانه عموم أمورهم في مطلق شئونهم وتقليداتهم، الراجين منه رضاه عنهم بمقتضى لطفه وجماله ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: من دون الجنتين المذكورتين، وأدون منهما وأنزل رتبة ﴿جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 62] أخريان أيضًا للأبرار المحسنين بالأخلاق والعمال المتشبثين بأذيال الأماني والآمال حيث الحوائج والأغراض، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 63].

فهاتان الجنتان، وإن لم تكونا كتلك الجنتين المذكورتين في الأثمار والأشجار والمعارف والأسرار، إلا أنهما ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: 64] خضراوان نضارتان بمياه الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة الصادرة من الأبرار الأخيار، المتمسكين بشعائر الشرع ومعالم الدين المستبين، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 65].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: 66–78].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في جنتي الأبرار ﴿عَيْنَانِ﴾ متنشئتان من الاعتقاد الصادق، والإيمان الكامل ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: 66] فوارتان، منتهيتان إلى بحر الحكمة المتقنة الإلهية، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 67].

﴿فِيهِمَا﴾ أيضًا ﴿فَاكِهَةٌ﴾ يتفكه بها أهلها ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: 68] عطفهما على الفاكهة عطف الخاص على العام للاعتناء والاهتمام، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 69].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جنان هؤلاء الأبرار أيضًا ﴿خَيْرَاتٌ﴾ أزواج مصورة من مثوبات الأعمال والطاعات ﴿حِسَانٌ﴾ [الرحمن: 70] لا قبح معهن بوجه من الوجوه، ﴿فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 71].

ومثوبات أعمال الأبرار وأخلاقهم، وما يترتب عليها، وإن لم تكن في الصفاء واللطافة كمخدرات الخائفين إلا أنهم ﴿حُورٌ﴾ حسنة الوجوه ﴿مَّقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ﴾ [الرحمن: 72] أي: مقصور كل منهن على من أتى بالأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، لا يتعدى إلى الغير؛ إذ كل نفس رهينة ما كسبت خيرًا كان أو شرًا.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 73] أيها المكلفان الممنونان، وهؤلاء أيضًا ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: 74] إذ كل منهن، إنما هي مقصورة على أعمال كل منهم بلا شركة.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 75] أيها المعتبران المستبصران.

ثم إنهم أيضا يتنعمون بما ذكر لهم من النعم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ متقررين ﴿عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وسائد وبسط ﴿خُضْرٍ﴾ مخضرة بماء إيمانهم الخالص، واعتقادهم الحق ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ عجيب معجب، يتعجبون من ترتبها على أعمالهم وحسناتهم ﴿حِسَانٍ﴾ [الرحمن: 76] لا يتبعها قبح وخذلان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 77].

فعليك يا أكمل الرسل ألَّا تستبعد عن الله القادر، المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام أمثال هذه الكرامات العلية على أرباب العناية والغفران، وتلك الدركات الهوية على أصحاب الغفلة والكفران.

إذ ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: جلَّ وتعاظم وتعالى ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: عموم أسماء مربيك الذي رباك يا أكمل الرسل محيطًا لعموم المراتب والمقامات عن أن ينتهي أو يتصف بالانتهاء والانقضاء، أو يغتر ويضعف دون مقدور، بل لا نهاية لأسمائه الفعالة ومقتضياتها ﴿ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78] أي: ذي العظمة والكبرياء، الغالب على عموم الانتقام، وذي الجمال القادر المقتدر على وجوه الإكرام والإنعام.

خاتمة السورة

عليك أيها العارف المتحقق بعظمة الحق وجلاله، المتعطش بزلال وصاله ألَّا تعزم في مطلق أحوالك إلى الكذب والإنكار بالنسبة إلى الله، ولا تنسب الحوادث الجارية في عموم الأقطار والأطوار إلا إلى الملك الجبار العزيز الغفار، ذي العظمة

وكمال الاقتدار لأصناف الإنعام والإفضال، وأنواع العذاب والنكال.

فلك أن تلازم على شكر نعمه، وأداء حقوق كرمه في عموم الأحوال، وإياك إياك الغفلة عن الله، والاشتغال إلى ما سواه.

وكن في عموم أوقاتك وحالاتك بين يدي الله بين الخوف والرجاء، ولا تيأس من روح الله، أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

جعلنا الله من زمرة الخائفين من بطشه، الراجين من عفوه بمنّه وجوده.

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الواقعة

لا يخفى على أرباب التحقيق والوصول إلى المبدأ الحقيقي من المنكشفين بوحدة الحق الحقيق بالحقية والتحقيق أن مراتب عموم العباد في الرجوع نحو المبدأ والمعاد على أنحاء مختلفة وطرق شتى لا تخلو عن ثلاثة:

* بعضهم محجوبون بالحجب الظلمانية الإمكانية المعبرة عنها، وإن كانوا بالدنيا مغمورون مستغرقون بلذاتها وشهواتها، محرومون عن لذة الوصول والحضور مطلقًا، وهم أصحاب الشمال والشآمة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم محجوبون بالحجب النورانية المسماة بالآخرة، وما فيها من أنواع النعم وأصناف الكرم من اللذات الروحانية والجسمانية الموعودة لهم فيها تفضلاً وتكريمًا، وهم أصحاب اليمين ذو اليمن والبركة والكرامة السرمدية والسعادة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم منجذبون عن الحق بالكلية، منخلعون عن جلباب هوياتهم الناسوتية مطلقًا، فانون في الهوية الحقية اللاهوتية، باقون ببقائه، مستغرقون بمطالعة لقائه، وهم الشطار السابقون إلى الله، السائرون نحوه، المنخلعون عن جلباب ناسوتهم بالمرة بلا التفات منهم أصلاً باللذات الدنيوية ولا بالأخروية .

وإلى هذه الفرق الثلاث أشار سبحانه في هذه السورة، وأخبر بها حبيبه ﷺ؛ ليكون على ذكر منهم، ويبلغها على من تبعه من أهل المعرفة والإيمان إرشادًا لهم وتنبيهًا.

ثم لما كان امتياز هذه الفرق إنما هو في يوم القيامة والطامة الكبرى، أشار سبحانه أولاً إلى تحقق وقوعها بعدما تيمن باسمه الكريم:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إبداء عموم ما بدأ في النشأة الأولى ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بإظهاره من كتم العدم فيها برش أنواره، ومد أظلاله ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإعادته

في النشأة الأخرى بقبض أظلال أسمائه وصفاته نحو ذاته.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: 1-17].

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: 1] العظمى الموعودة، وحديث الطامة الكبرى المعهودة من لدنه سبحانه، مع أنه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ حين وقوعها نفس ﴿كَاذِبَةٌ﴾[1] [الواقعة: 2] تكذبها، كما تكذب بها الآن.

وليس أيضًا لوقوعها حين وقوعها نفس ﴿خَافِضَةٌ﴾ تخفضها بالتردد فيها ولا نفس ﴿رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3] ترفعهم بالجزم بها، بل وقعت حين وقعت حتمًا بلا ريب

(1) قال في التأويلات: بل هي صادقة؛ لأن الشيطان يفر من ظل الواقعة، ولا تقدر النفس أن تشكل صاحب الواقعة أصلاً؛ لأنها أظهر من أن يمكن للنفس والشيطان أن يلبسا حالها على السالك، وعندي أنها حالة حقيقة؛ وهي النقطة الحقيقية، والذي تشاهده في عالم الشهادة بالنسبة إليها حالة النوم، وفي الحقيقة كل ما يشاهده في العالم الخيالي لا حقيقة له؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»، فكن أيها النائم في نومك على حذر من حقائق الحيات والعقارب الملبسة بصور أفلاكك لكن تنتبه فتشكر الله على أنك خلصت من النوم، ولا تتنعم بصورها المزينة المزخرفة الدنيوية، لكن تنتبه بحزنك الانتباه لما رأيت الصور المزينة الملتبسة في النوم، ولا بدَّ من الانتباه من مشاهدة حقائق الصور المكتسبة بالأخلاق والصفات، فاجتهد في أن تجد بصرك وتكشف غطائك في اليوم لتشاهد حقائق الصور؛ لئلا تلتفت إلى الصور المزخرفة، وتشاهد وراء الصور حقائق المعاني العقربية والنارية، والحطمة في صورة مزينة بالشهوات؛ ليتيقن بها أطفال الطبيعة وجهال قوى القالبية والنفسية، ويعاين في الصور الهائلة المزخرفة الدنيوية حقائق الحورية والخلدية والنعيم الباقية، لكن يتنبه بشكر الله على خلاصك من الصور الهائلة، ووصولك إلى حقائقها وتنعمك بها أبد الآباد؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «إن الجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات».

وتردد، وبلا خفض أحد ورفع آخر.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر وقوعها، وتردد فيها نبذا من أماراتها وأشراطها وقت: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ وحركت ﴿الأَرْضُ رَجاً﴾ [الواقعة: 4] تحريكًا شديدًا عنيفًا بحيث انهدمت ما عليها من الأبنية المحكمة والبقاع المشيدة.

﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ﴾ أي: تشتت وتفتت أجزاؤها ﴿بَساًّ﴾ [الواقعة: 5] تفتتًا تامًا وتشتتًا كاملاً بحيث اضمحلت أجزاؤها، وتلاشت وصارت كالسويق الملتوت.

وبالجملة: ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبال التي عليها ﴿هَبَاءً﴾ هشيمًا غبارًا ﴿مُّنبَثاًّ﴾ [الواقعة: 6] منتثرًا منتشرًا متفرقًا، بحيث تلاشت هويات ما عليها مطلقًا.

﴿وَكُنتُمْ﴾ حينئذ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَزْوَاجاً﴾ وأصنافًا ﴿ثَلاثَةً﴾ [الواقعة: 7] حسب معاشكم في النشأة الأولى .

﴿فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ أي: اليمن والكرامة من الأخيار الأبرار المحسنين بصوالح الأعمال والأحوال ومحامد الأخلاق والأطوار ﴿مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: 8] أي: ما أعظم شأنهم وإكرامهم، وأحسن حالهم بيمنهم وسعادتهم الشاملة لهم حسب اتصافهم بصالحات الأعمال، وبالاعتقادات الصحيحة والأخلاق المرضية.

﴿وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ﴾ والشمال؛ أي: ملازمو الشآمة والملامة، وأنواع الندامة والخذلان، من المفسدين المسرفين، المصرين على أنواع الكفر والفسوق وأصناف العصيان والآثام من مفاسد العقائد، ومقابح الشيم والأخلاق ﴿مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: 9] أي: ما أقبح حالهم وأشد عذابهم، ونكالهم وشآمتهم وشقاوتهم المستمرة عليهم بشؤم مكاسبهم ومفاسدهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ المبادرون نحو الحق من طريق الفناء، الباذلون مهجهم في سبيله إلى الدرجات الإرادية شوقًا إلى لقائه هم ﴿السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10] المقصورون على السبق والحضور مع الله بلا توجه منهم إلى لوازم هوياتهم الباطلة وهياكلهم العاطلة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المقبولون هم ﴿المُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 11] عند الله المتنعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 12] أي: منتزهات الوحدة الذاتية التي هي اليقين العلمي والعيني والحقي.

وهؤلاء المقربون الواصلون إلى مقر الوحدة متفاوتون في القلة والكثرة،

والدرجات العلية والمقدمات السنية بالنسبة إلى مسالكهم ومعارجهم لذلك ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة عظيمة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 13] أي: من الأمم السالفة، وهم الأبرار الذين تقربوا نحو الحق بتوحيد الصفات والأفعال.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 14] أي: جمع قليل بالنسبة إلى الأولين من أمة محمد ﷺ، وهم الذين وصلوا بل اتصلوا إلى الله سبحانه من طريق توحيد الذات، المسقط لعموم الإضافات والكثرات، وهؤلاء أعزك، وأقل وجودًا بالنسبة؛ أي: الأمم السالفة، لذلك وصفوا بالقلة، وبالجملة: كلهم على تفاوت طبقاتهم في منتزهات الوحدة متنعمون متمكنون: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: 15] منسوجة مشبكة حسب درجاتهم العلية ومقاماتهم السنية.

﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أعلى تلك السرر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: 16] مع عموم كمالاتهم ومقاماتهم وحالاتهم بلا ترقب منهم وانتظار لهم، ومع ذلك ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للمؤانسة ﴿وِلْدَانٌ﴾ صباح ملاح مصورون من حسنات أعمالهم وأخلاقهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: 17] دائمون مستمرون على تلك الصور الصبيحة المليحة، لا يتغيرون، ولا يتحولون منها أصلاً كتغير ملاح الدنيا .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا
يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا
أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ
الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ

ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: 18–50].

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ يعني: يطوفون عليهم بكؤوس، وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وهي التي لها عرى مملوء من الماء القراح، المثمر للعلوم اللدنية لشاربيها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: 18] أي: من رحيق التحقيق واليقين الذي ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا﴾ ولا يشوشون في تحصليها كالعلوم المكتسبة ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: 19] ولا يسكرون منها، إلى حيث ينقطع تلذذهم بها من غاية سكرهم.

﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ كثيرة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: 20] أي: يختارون وينتخبون لأنفسهم من أنواع المعارف والحقائق والأحوال والمقامات التي تتلذذ بها أرواحهم من آثار الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ يتقوت به أشباحهم ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: 21].

﴿وَ﴾ لهم أيضًا للخدمة والمؤانسة ﴿حُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: 22] مصورة من اعتقاداتهم الصحيحة الراسخة.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: 23] المصون في أصداف أشباحهم.

وإنما يعطون فيها ما يعطون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: 24] من العمال الصالحة والأخلاق المرضية.

ومن كمال تنعمهم فيها وأمنهم وترفههم ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ باطلاً من الكلام بلا طائل ﴿وَلاَ تَأْثِيماً﴾ [الواقعة: 25] على سبيل الإلزام والإفحام.

﴿إِلاَّ قِيلاً﴾ وقولاً من كل جانب ﴿سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة: 26] على وجه الترحيب والإكرام، هذا للمقربين السابقين.

﴿وَ﴾ أمَّا ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 27] أي أصحاب اليمن والكرامة وأنواع التعظيم والتكريم.

فهم أيضًا متنعمون ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: 28] أي: نبق لا شوك له؛ لخلوص أعمالهم وحسناتهم عن شوك المنّ والأذى، والسمعة والرياء.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: 29] أي: شجر موز منضد موفور الثمر، مرتب من أسفله إلى أعلاه؛ لإيفائهم وتوفيرهم في كسب الحسنات وفعل الخيرات.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: 30] إلهي لا يتقلص ولا يتفاوت؛ لدوامهم على مواظبة الطاعات، وملازمة العبادات.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: 31] مصبوب لهم أين شاءوا، وكيف شاءوا، بلا تعب وترقب؛ لأنهم صاروا في إتيان الأعمال كذلك؛ طلبا لمرضاته.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: 32] مما يتفكه بها أرواحهم وأشباحهم ﴿لاَّ مَقْطُوعَةٍ﴾ منتهية كفواكه الدنيا.

﴿وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 33] لتساوي نسبتها إلى الكل بلا تفاوت وتمانع؛ لإتيانهم بصوالح الأعمال والأخلاق على الدوام، بلا قطع ومنع.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 34] ممهدة منضدة بعضها فوق بعض؛ لرسوخهم وتمكنهم على الأحكام الإلهية المرتفعة بحسب الحكم والأسرار المودعة فيها.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظم جودنا إياهم ﴿أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أنشأنا لهم أزواجهم اللاتي كن في حجورهم في النشأة الأولى من صالحات النسوان والأعمال والأخلاق ﴿إِنشَاءً﴾ [الواقعة: 35] بديعًا عجيبًا.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾ فيها ﴿أَبْكَاراً﴾ [الواقعة: 36] بحيث لم يمسهن بشر، ولم يتصف بهن أحد.

﴿عُرُباً﴾ متحننات لأزواجهن ﴿أَتْرَاباً﴾ [الواقعة: 37] مسويات السن مع أزواجهن في كمال سن الشباب .

كل ذلك ﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 38] من الأبرار المحسنين بالأعمال والأخلاق، المخلصين فيها.

ومن هؤلاء في الجنات: ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة عظيمة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 39] أي: الأمم الماضين.

﴿وَثُلَّةٌ﴾ عظيمة أيضًا ﴿مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 40] أي: من أمة سيد المرسلين؛ إذ طرق الأعمال والأخلاق مشتركة بين الأولين والآخرين، بخلاف طرق الأحوال والمواجيد والمشارب والأذواق .

﴿وَ﴾ أمّا ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ والشآمة المتصفون بالشقاوة الأزلية، المنهمكون بالقاذورات الإمكانية ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾[الواقعة: 41] وما حالهم القبيحة الفضيحة

هم مخلدون ﴿فِي سَمُومٍ﴾ نار حارة مسعرة في غاية الحرقة والحرارة، بحيث تنفذ في مسامات أشباحهم كالريح السموم؛ لنفوذ لوازم الإمكان النافذة من مسامات أصحاب الغفلة والضلال، المنهمكين في اللذات والشهوات البهيمية الموهمة الموقعة لأنواع الفتن والطغيان ﴿وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 42] أي: ماء متناهٍ في الحرارة بحيث يقطع أمعاءهم، لو شربوا منه شربة بدل ما تلذذوا في النشأة الأولى بمقتضيات الأماني النفسانية والآمال الهيولانية الحاصلة من الجهل المفرط بسرائر التوحيد واليقين في النشأة الأولى.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: 43] حاصل من دخان أسود صاعد من نار الجحيم.

﴿لاَّ بَارِدٍ﴾ كسائر الأظلال ﴿وَلاَ كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 44] نافع أمثالها.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة سكرتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى ﴿مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: 45] منهمكين في الضلال والشهوات.

﴿وَكَانُوا﴾ حينئذ ﴿يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة: 46] والذنب الكبير الذي هو الشرك بالله والإنكار لتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم بمقتضيات الوحي الإلهي المتعلق بقيام الساعة ووقوع الطامة الكبرى ﴿كَانُوا يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم على وجه الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ بالية ﴿أَئِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: 47] مخرجون من قبورنا أحياء كما كنا.

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: 48] الأقدمون يخرجون من قبورهم، مع أن بعثهم وإخراجهم أشد استحالة وامتناعا من بعثنا!

كلا وحاشا؛ إذ لم يعهد فيما مضى من الأزمنة أمثال هذا، بل ما هي إلا زيغ زائل، وزور باطل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الإنكار والعناد: ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 49] أي: الأسلاف والأخلاف ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ مجتمعون بكمال قدرة الله وحكمته ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 50] أي: إلى وقت معين، ويوم موعود معهود، عينه الله سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا بدَّ وأن يقع في ذلك الوقت

ألبتة، بلا خلف.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
(٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا
تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ
(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة: 51- 76].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد اجتماعكم وحشركم ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 51] المصرون على التكذيب والإنكار.

﴿لَآكِلُونَ﴾ من شدة جوعكم في جهنم البعد والخذلان بعد خلودكم فيها ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: 52] أي: شجر مسمى بهذا الاسم، فيكون لفظة «من» الثانية للبيان، والأولى للابتداء.

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ أي: من تلك الشجرة ﴿الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: 53] أي: بطونكم، مع أنه لا يدفع الجوع بل يزيده، وبعد أكلكم منها ملء بطونكم.

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزقوم ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: 54] لشدة الحرقة وغلبة العطش، وبالجملة: ﴿فَشَارِبُونَ﴾ من الحميم ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: 55] مثل شرب الإبل، الذي له داء الهيام، وهو مرض في الإبل شبيه باستسقاء الإنسان.

﴿هَٰذَا﴾ الذي سمعت أيها الفطن المعتبر ﴿نُزُلُهُمْ﴾ المعدة لهم حين نزولهم في جهنم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: 56] والجزاء.

وإذا كان نزلهم فيها هذا، فما ظنك بعذابهم فيها، وزجرهم بعد حساب أعمالهم.

ثم خاطبهم سبحانه إظهارًا للاستيلاء التام والبسطة الغالبة الكاملة توبيخًا لهم وتقريعًا فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم بمقتضى حولنا وقوتنا ﴿فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: 57] بقدرتنا على الإعادة والبعث أيها الجاهلون المكابرون.

﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أخبروني أيها المنكرون للبعث والجزاء أن ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: 58] وتصبون في الأرحام من النطف؟.

﴿أَأَنتُم تَخْلُقُونَهُ﴾ وتجعلونه بشرًا سويًا صالحًا لأنواع العلوم والإدراكات الكلية والجزئية ﴿أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: 59] المقصورون على الخلق والتسوية ؟!

ومع شهود هذه المقدورات العجيبة البديعة، كيف تنكرون قدرتنا على البعث والحشر .

مع أنا ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى علمنا وقدرتنا ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ والأجل بأن عينًا لموت كل أحد منكم وقتًا معينًا، وأجلاً معهودًا، بحيث لا يسع لكم وقت حلوله لا التقديم منه، ولا التأخير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[1] [الواقعة: 60] مغلوبين من أحد منكم أصلاً، بأن يغلب علينا أحد بتقديم الأجل المعين المقدر من عندنا، أو تأخيره.

وإذا قدرنا على تقدير الأجل للموت على الوجه المذكور قدرنا أيضًا ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ﴾ ونحيي ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: أسلافكم الذين ماتوا وانقرضوا أحياء أمثالكم من العدم؛ يعني: كما قدرنا على إنشاءكم من العدم إنشاء إبداعيًا قدرنا أيضًا على إحياء أسلافكم من القبور بعدما ماتوا على سبيل إعادة، بل إعادة أهون من الإبداع ﴿وَ﴾ بالجملة: قدرنا على أن ﴿نُنشِئَكُمْ﴾ بعد موتكم في ﴿فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] [الواقعة:

(1) قال في التأويلات: يعني: موت الجهل في بداية الأمر؛ ليكسب القوة الفاعلة العلوية من القوى القابلة السفلية استعدادًا؛ فإما كاملاً لتستعمله في التزود لدار المعاد، ويجعل له مطية ليركبها يوم الرجوع إلى رب الأرباب، وبعبارة أخرى؛ يعني: نحن قدرنا الموت اللطيفة الحاصلة مَني الإرادة بأنها تبلغ مبلغ الرجال، أو تموت صبية.

(2) قال في التأويلات: من تبديل قواكم، وصفاتكم الحاصلة من تلك القوى، كما يشاهد الرجل أنه يتورط في أمر الدنيا تورطًا عظيمًا، بحيث لا يذكر الله تعالى طرفة عين مشتغلاً بهواه مقبلاً على

61] أي: في نشأة وعالم، لا يحيطون به علمًا، ولا تفهمونه لخروجه عن طور عقولكم ومقتضاه.

﴿وَ﴾ كيف يتأتى لكم إنكار الإعادة مع أنكم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ جزمتم وأيقنتم ﴿النَّشْأَةَ الأُولَى﴾ أي: قدرنا على الخلق والإيجاد فيها ﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 62] منها قدرتنا على الإعادة في النشأة الأخرى، مع أن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة بالطريق الأولى.

﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أخبروني أيها المسرفون المفرطون أن ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] أي: تبذرون وتطرحون حبة في التراب.

﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ وتنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: 64] المقصورون على الإنبات بالاستقلال والاختيار بلا مشاركة ومظاهرة.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ ونختار عدم إنباتها ونمائها ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ أي: الزرع الثابت حطامًا يابسًا، هباء هشيمًا ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[1] [الواقعة: 65] أي: صرتم حينئذ تتعجبون وتتأسفون من يبسها وضياعها، وليس لكم سوى الحسرة والأسف شيء، بل تقولون حينئذ من شدة التضجر والتحزن.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: 66] ملزمون بتضييع البذور وإهلاك النفقة.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: 67] حرمنا عن بذورنا وأعمالنا وريعنا بالكلية.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ﴾ العذب القراح الفرات السائغ ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: 68] وتستروحون نفوسكم به، وتبردون أكبادكم منه؟.

شهواته مربيًا قوى سبعية وبهيمية، فيبدل الله قواه وصفاته بحيث لا يفتر عن ذكر الله ساعة، ولا يشتغل بالدنيا ولو يضربونها ضربًا شديدًا، ويترك هواه ويقبل على مولاه ويعرض عن شهواته، ويستمر في مجاهداته ورياضاته، أليس هذه نشأة معينة وتبديلاً مبينًا ظاهرًا؟ فمالكم أيها العمي لا تؤمنون بخالقكم، ومنشأكم وباعثكم من قبول أقوالكم.

(1) قال في التأويلات: أي: تتعجبون مما تنبت من بذوركم لا حب فيه، وهذا يكون من شؤم الغفلة عن الإخلاص في النية وقت العمل، فاحذروا أيها السالكون من الأذكار المصحوبة للغفلة والأعمال الغير الخالصة؛ لئلا تكون أعمالكم وأذكاركم حطمتكم في دار الجزاء - نعوذ بالله من تلك الحالة - بل نحن محرومون من كسبنا وزرعنا.

﴿أَأَنتُم أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: السحاب الهامر الهاطل ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: 69] بكمال قوتنا وقدرتنا.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: صيرناه وبدلناه ﴿أُجَاجًا﴾ مرًا مالحًا ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 70] وهلا تواظبون على أداء حقوق أمثال هذه النعم العظام أيها المجبولون على الكفران والنسيان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: 71] تقدحون ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي: الشجرة التي يتخذ منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: 72] المستقلون بإنشائها.

﴿نَحْنُ﴾ اليوم ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ وتبصرة لأمر البعث والنشر وأنموذجًا من نار القطيعة الجهنمية وعظة للمتقين منها؛ ليتزودوا بالتقوى، ويتخلصوا من نيران الهوى ودركات اللظى ﴿وَ﴾ جعلناها أيضًا ﴿مَتَاعًا﴾ منفعة عظيمة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾[1] [الواقعة: 73] المنزلين في القفراء والبيداء جائعين، خالية بطونهم عن الطعام، فيطبخون بها، ويشبعون فيها.

وبالجملة: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74] الذي هو أعز وأجل من أن يطرأ عليه شيء من النقائص، أو يحوم حول حماء قدسه شائبة العجز والقصور، وإذا كان شأن الحق هذا ﴿فَلاَ﴾ حاجة إلى القسم لإثبات عظمته سبحانه وجلالة قدره وقدرته، بل ﴿أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75] أي: بموارد وقوع نجوم القرآن، ونزولها في قلوب الكمل من أرباب العزائم والعرفان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القسم بالقرآن وموارده ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون قدره ﴿عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76] شأنه عال خطره رفيع قدره.

---

(1) قال في التأويلات: يعني: استعدادًا للمسافرين الذين دخلوا دار القرية؛ ليتاجروا برأس مالهم ويربحوا أضعاف ما في أيديهم، لكن يأخذ صاحب المال منهم ماله، فيبقى لهم ما اكتسبوا برأس مالهم وتنعموا بمكاسبهم إذا رجعوا إلى مواطنهم الأصلية، فمن خسر برأس ماله فقد أورى من زند ذكره الدنيوي نار الشهوة؛ التي هي تذكرة للنار الكبرى، التي هي الموقدة في صدور أهل الهوى، وإذا رجع إلى وطنه يأخذ صاحب المال رأس ماله ويبقي معه مكتسباته، وتكون مكتسباته حطمه تتصرف فيها النار الموقدة المطلعة على الأفئدة، ويحرق الحطمة ويشتعل النار الكبرى من إحراق الحطمة، وتعذب صاحبها في دار الجزاء أبد الآباد بالنار الموقدة، وحطمته المجتمعة في دار الكسب نعوذ بالله منه.

وكيف لا يكون القرآن عظيم الشأن رفيع القدر والمكان ؟!

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ فَلَوْلَآ
إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥
فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨
فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة: 77-96].

﴿وَ﴾ إنه ﴿لَقُرْآنٌ﴾ موضح مبين لطريق الإيمان والعرفان ﴿كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77] كثير الخير والنفع لحامليه، وممتثلي ما فيه من الأوامر والنواهي، مصون مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 78] محفوظ مستور عن نظر المحجوبين، الا وهو حضرة العلم المحيط الإلهي، ولوح قضائه.

لذلك ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾ ولا يتصف بمقتضاه ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] عن أوساخ التقليدات والتخمينات، وأكدار الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى صفاء مشرب التوحيد، المسقط لعموم الإضافات .

وكيف يمسه غير أهل الكشف والطهارة الحقيقية؟ مع أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: 80] [1] الذي هو في ذاته مقدس عن شوائب النقص وسماته مطلقًا ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ العظيم الشأن، المنبئ عن محض الحكمة والإيقان ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: 81] متهاونون متساهلون أيها المسرفون المفرطون؟

(1) قال في التأويلات: يعني: ينزل من عند رب العالمين نزول الفعل الصادر عن الصفة الفاعلية لظهر الأثر لا من قبيل نزول الشيء من الأعلى إلى الأسفل، تعالت حضرة الملك المتعال من أن ينزل منها شيء أو يصعد إليها شيء، كنزول الجسمانيات وصعودها، وكشف هذا السر يتعلق بحد القرآن.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حظكم ونصيبكم من هدايته وإرشاده ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82] جهلاً وعنادًا، أتسرفون وتفرطون في الاجتراء على الله وتكذيب كلامه ورسوله المرسل من عنده أيها المفسدون المفرطون ؟!

﴿فَلَوْلَا﴾ تتذكرون، وهلا تتعظون به، أما تخافون وقت ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: 83] أي: لكل منكم بأمر الله.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ﴾ أيها الحاضرون حول المحتضر ﴿حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: 84] له، ولا تعلمون لحاله، ولا تفهمون ما جرى عليه من سكرات الموت وأفزاعه وأهواله .

﴿وَنَحْنُ﴾ حينئذ ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المحتضر ﴿مِنْكُمْ﴾ وأعلم بحاله وشغله، لا قرب الحلول فيه، ولا الاتحاد معه، بل قرب ذي الظل إلى الظل، وذي الصورة إلى الصورة المنعكس والمرآة ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85] وتدركون قربيًا لا إليه ولا إليكم، أيها المحجوبون المحرومون، ولا تدركون أيضًا ما يجري عليه من الأهوال.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: 86] أي: مضطرين مملوكين مجبورين ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: فهلا ترجعون النفس المخرجة البالغة إلى الحلقوم إلى محلها ولا تمنعونها عن الخروج ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] [الواقعة: 87] في دعوى الاستيلاء

---

(1) قال في التأويلات: بأنكم قادرون غير عاجزين، مالكون غير مملوكين، فإذا أعلمتم عجزكم فاعلموا أن الله الذي خلقكم بقدرته وأحياكم بإرادته وأماتكم بحكمته، قادر على أن يبعثكم من قبر قالبكم بعد موتكم، محط للسالك أن يتعين في حالة القبض، أن الله هو القابض لا يقدر على ترديد حياة البسط إذا نزعها الله عنه وتفوض أمره إلى مالكه الذي في قبضته متردد، كما يقول النبي ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإن شاء أماته بالقبض، وإن شاء أحياه بالبسط، وإن شاء أماته بالنكرة، وإن شاء أحياه بالمعرفة»، بترك اختيار نفسه إلى مسلكه ليوصله إلى مرتبة، بترك اختياره للحق ويكون كالميت بين يدي الغسال في الحضرة يمشون على وجه الأرض مقصورين، كما قال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الآخرة يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى هذا»، وأشار إلى أبي بكر ﷺ؛ لأنه شاهد في هذا اليوم أن الأمر لله، كما يشاهد الآخرون في الآخرة، ويقولون: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19]، ولو لم يترك السالك اختياره بالتفويض جميع أموره إليه لم يصل إلى مطلوبه البتة.

والاستقلال وعدم المبالاة بالصانع القديم الحكيم العليم، فهلا تدفعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم؟! ﴿فَأَمَّا﴾ بعد خروج الروح من البدن ﴿إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: 88] السابقين من الفرق المشار إليها في أول السورة.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: موته له راحة ورحمة، وإيصال له إلى عالم اللاهوت، وإزاحة زحمة عنه، عارضة عليه، متعلقة إياه من كسوة الناسوت ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يشمه من فوائح الرحمن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: 89] دائم التنعم والترفه في المقام المحمود والحوض المورود في جوار الخلّاق الودود.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 90] أي: من الأبرار الموصوفين باليمن والكرامة الموروثة له من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية.

﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ يا ذا اليمن والكرامة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 91] أمثالك، ترحيبًا لك وتكريمًا.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى من أصحاب الشمال والشآمة الأزلية والشقاق الجبلية ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم الدين ﴿الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: 92] المنحرفين عن منهج الاستقامة، الموصلة إلى دار المقامة والكرامة.

﴿فَنُزُلٌ﴾ فله نزل ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 93] بدل ما لا يتعطش في النشأة الأولى إلى زلال برد اليقين، ولا يشرب رشحة وجرعة من رحيق المعرفة والتوحيد.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 94] أي: إدخال نار عظيمة، بدل ما يتلذذ بالشهوات وبالميل إلى المحرمات والمكروهات، وبالجملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في حق هؤلاء الفرق الثلاث ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[1] [الواقعة: 95] بالنسبة إلى أرباب الكشف والشهود،

---

(1) قال في التأويلات: يعني: إن هذا البيان لهو الحق؛ لأنه كلام الحق وبيانه عن عالم اليقين، وإما تخرب قواك بثلاثة أخراب، وجزاءهم بما كسبوا في دار الكسب من الأعمال الصالحة والفاسدة المدخرة لهم في دار الجزاء، فاعلم أن للطائف المرسلة والحقائق الحقوقية المسكنة في جميع القوى العلوية والسفلية؛ هم المقربون السابقون، والقوى المؤمنة باللطائف المرسلة من القوى القالبية والنفسية، والقلبية والسرية، والروحية والخفية والحقية؛ هي من أصحاب اليمين السالمين من العقاب يوم المآب، المتنعمين بأعمالهم الصالحة الباقية لهم في دار الثواب، والقوى الكافرة القالبية والمشركة النفسية والمنافقة والقلبية والجاحدة السرية والمستكبرة الروحية والضالة الخفية ممن لم يؤمنوا باللطيفة الخفية؛ هي من أصحاب المشأمة المشئومين المكذبون الضالون،

المطلعين بمراتب الوجود باليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1] [الواقعة: 96] أي: نزه يا أكمل أرباب الشهود والحضور ذات ربك عن شوب الريب والتخمين، بذكر اسمه العظيم، المستجمع لعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فإنك على الحق اليقين في مطلق أسمائه وصفاته.

جعلنا الله ممن اتصف بحق اليقين، وخلص! عن أمارات الريب والتخمين، بمنه

فأبشر أيها المحمدي إنك لست من أصحاب المشأمة إن كنت دخلت في دار التصديق وهو شهادتك بأن «لا إله إلا الله وإن محمدًا رسول الله» ومن وفق لهذه الشهادة من إخلاص وتصديق يكون من أصحاب اليمين ويكون رفيقه التوفيق، ولا يمكن للشيطان أن يقطع عليه الطريق، وإلى هذا أشار النبي الصادق الصدوق: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»، وهذا التشريف يصل إلى أمة الحبيب الشريف صاحب الخلق اللطيف، والخلق الظريف، والقلب النظيف - عليه أفضل التحية والسلام - لشرفه فطوبى لمن تبعه في الشريعة، وطوبى ثم طوبى لمن تبعه في الشريعة والطريقة، وطوبى ثم طوبى لمن تبعه في الشريعة ووصل إلى عالم اليقين بصورة الذكر، ثم تبعه في الطريقة ووصل إلى عين اليقين؛ يعني: الذكر، ثم تبعه في الحقيقة ووصل إلى حق اليقين بحقيقة الذكر، ثم نزه مجاري ذكر الخفي عن صورة الذكر ومعناه وحقيقته؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي ويكون محلاً للقسم.

(1) قال في التأويلات: يعني: نزه باسم ربك العظيم مجاري الذكر الخفي عن صورة الذكر الموصل إلى علم اليقين؛ ومعنى: الذكر الموصل إلى عين اليقين وحقيقة الذكر الموصل إلى الحق اليقين؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي الموصل للذاكر إلى حقيقة حق اليقين؛ ليصير الذاكر مذكورًا ويصل القاصد إلى المقصود، ويكون الشاهد هو المشهود، وسر هذه اللطيفة في حد القرآن فاقتصر على رَمز رُمز به إليه واجتهد في الذكر الصوري برعاية شرائطه، وهو أن يذكر الله بالقوة الخفية بالشرط والإثبات؛ ليصل إلى الذكر المعنوي، ثم اجتهد في الذكر المعنوي برعاية المتحد في الذكر مع الذاكر؛ لتصل إلى الذكر الحقيقي، ثم اجتهد في الذكر الحقيقي بنفي قوة ذاكرتيك وإثبات القوة المذكورية؛ لتصل إلى الذكر الخفي، فإذا وصلت إليه وقت ما في ذاتك بذاتك لذاتك، وصرت ملكًا حيًا باقيًا، ويكون عنوان منشور ملكيتك في دار البقاء من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت، فاجتهد في ألّا تفوت هذه المرتبة في الحال ولا تغرنك الآمال الصادقة لك عن الاجتهاد بالإرجاء بأنك تصل إليها في المال؛ لأن ترك النقد بالوعد للوصل إلى الفقد المتروك لا يكون إلا في قلة العقل وهي من أقبح الخصال.

اللهم ارزقنا الوصال في الحال وأذقنا بكأس مشاهدة الجمال زلال رحيق الجلال بحق صاحب الكمال ﷺ وعلى آله وصحبه خير صحب وآل التابعين لهم بإحسان من أهل اللطف والنوال.

وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لانكشاف مراتب الوجود بطريق الكشف والشهود والاطلاع على ما فيها من الكفر والجحود والانحراف عن الطريق المعهود الذي نزل بتبيينه الكتب والرسل أن تتأمل في عموم أوقاتك وحالاتك في هذه السورة العظيمة الشأن، وتعرض على نفسك دائمًا أحوال الفرق الثلاث المذكورة فيها، وتذكرها عليك، حتى يظهر لك أنك مع من أنت من هؤلاء الفرق ؟.

من السابقين المقربين المقبولين ؟.

أم من أصحاب اليمين الموفقين المحسنين ؟.

أم من المكذبين الضالين المعذبين ؟.

وبالجملة: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

سورة الحديد

فاتحة سورة الحديد

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وانكشف بفضاء صمديته وسعة مملكته، واستيلاء سلطنته العالية أن عموم ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هي من شئونه الذاتية، وتجلياته الجمالية والجلالية المترتبة على أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية؛ لذلك نطقت بوحدته ألسنة عموم مظاهره ومصنوعاته، ونزهته عما لا يليق بشأنه، كما أخبر سبحانه عن تسبيحهم تنبيهًا وإرشادًا لعباده، وحثًا لهم إلى التوجه والرجوع نحوه، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بمقتضى التجلي الحبي ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها؛ لسعة رحمته ووفور جوده وإحسانه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده، يوصلهم إلى فضاء توحيده.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد: 1- 4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالبقاء والقيومية، المتفرد بالتحقق والثبوت على وجه الديمومية، الحي الحقيق بالألوهية والربوبية، مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الكوائن العلوية والسفلية، الغيبية والشهادية، ونزهه عن مطلق النقائص المنافية لصرافة وحدته الذاتية بعدما اعترفت ألسنة استعدادات الكل بربوبيته طوعًا، واشتغلوا بلوازم عبوديته رغبةً ﴿وَ﴾ كيف لا يسبحونه ولا يعظمونه، والحال أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 1] المتقن في إيجادها وإظهارها على وفق الإرادة والاختيار؟!

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مؤثرات الأسماء والصفات العلوية، المعتبرة

بالأعيان الثابتة ومتأثرات القوابل السفلية، واستعدادات الطبائع والهيولى المنفعلة منها؛ إذ هو سبحانه باستقلاله وتوحده ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يتصرف فيها بالإحياء والإماتة، والخلع واللبس حسب إرادته ومشيئته بالاختيار، وبالجملة: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة حضرة علمه، ولوح قضائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2] بالقدرة التامة الكاملة، مع أنه لا يعزب عن حيطة علمه الحضوري ذرة مما لمع عليه برق وجوده الوحداني الفرداني.

وكيف لا يقدر سبحانه على التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته؛ إذ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الأزلي السرمدي السابق في الوجود ﴿وَالْآخِرُ﴾ الأبدي الدائم، المستمر فيه بمقتضى الجود حق ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ المتحقق في العيان ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ المكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجود ولسواه عين وشهود؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نور وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾[1] [الحديد: 3] بذاته وحضوره، غير مغيب عنه مطلقًا.

---

(1) قال الشيخ البيطار: قال أبو يزيد البسطامي ﷺ: حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] وكل فريق له اسم منها، فمن فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر، وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره. انتهى كلامه ﷺ، واعلم - رحمك الله - أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الآخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجهًا باطنًا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكنز المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونًا كباطن رحم الأنثى، فظهر العالم بحكم الاسم الظاهر، فهو المولود، فلهذا السر ما صدر كل أمر في العالم إلا عن تثليث، ألا ترى أن محبته تعالى أن يعرف اقتضت محبًا ومحبوبًا ومحبة، وهكذا كل أمر في الوجود، ولذا قالوا: إن ظهور العالم عن الاسم الفرد وأول الأفراد الثلاثة فكانت البسملة فاتحة الفاتحة وإنما كان هذا النكاح إلهيًا لسر «فأحببت أن أعرف»، فتوجّه توجهًا نفسيًا من نفسه لنفسه في نفسه، فظهر العالم على صورته، فكان هو المظهر اسم فاعل، والظاهر والمعروف العارف، وهذا التوجه مقدّس الحضرة عن الزمان «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:6]، فهو عليم بنفسه؛ لأنه العليم

ومن كمال علمه وإرادته، ووفور حكمته وقدرته ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ظهور ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المتطابقة المتعلقة ﴿وَالأَرْضَ﴾ المفترشة الممهدة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حسب الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما كمل الكل ﴿اسْتَوَى﴾ وتمكن ﴿عَلَى العَرْشِ﴾ أي: على عروش مطلق المظاهر بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل، بحيث ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الأَرْضِ﴾ من الحبات أو في أراضي الاستعدادات من بذور المعارف والحقائق ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات أو المكاشفات والمشاهدات المترتبة على بذور المعارف، والأعمال الصالحات ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسباب من الأمطار، أو من سماء الأسماء من مياه العلوم اللدنية والإدراكات المحيية لأراضي الاستعدادات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأبخرة والأدخنة، أو الكلمات الطيبة الصاعدة الجالبة لفيضان اليقين والعرفان من المبدأ الفياض.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ أيتها المظاهر ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لا معية ذاتية ولا زمانية، ولا بطريق المقارنة والمخالطة، ولا بطريق الحلول والاتحاد، بل بطريق الظهور والظلية، والحضور ورش النور ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المحيط بكم، المظهر لأشباحكم بمد ظله عليكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مطلق الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4] فيجازيكم عليها على مقتضى بصارته وعلمه في يوم الجزاء.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

والعلم والمعلوم ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:63]، ومن سر التثليث صدر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:12]، فالسماء أب كجبريل، والأرض أم كمريم، والإمداد السماوي للأرض بمنزلة النفخ الجبريلي في مريم عليها السلام، والأمر المتنزل بينهما كالمولود وهو عيسى عليه السلام، فلو فسّرها ابن عباس وتكلم على سر التثليث فلربما يُنسب إليه ما نسب لأصحاب الإنجيل، ولولا أن أخي في الله أحمد بن بكري الفواخيري - فتح الله عليه - سألني عن سبب قول ابن عباس رضي الله عنه في حق هذه الآية: لو فسرتها لقلتم: إني كافر أو لرجمتموني، ما كشفت هذا السر، وهذا السر من حكم الأسماء الإلهية، ونكاحها المعنوي المقدّس لا من حكم الذات، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، فالذات لها سورة الإخلاص؛ يعني: إن الأحدية له تعالى خالصة من شرك السوى، فلله الأمر من قبل ومن بعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فِي ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: 5 - 9].

إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إيجادًا وخلقًا أولاً، وإعدامًا ثانيًا، وإعادة ثالثًا ﴿وَ﴾ بعد الإعادة ﴿إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(1) [الحديد: 5] أي: رجوع مطلق الأمور إليه سبحانه في المعاد والمآل، كما أن ظهوره منه في المبدأ والمنشأ؛ إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

ومن تصرفاته المتقنة في ملكه على وفق حكمته أنه ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: بعض أجزائه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ في فصل الربيع والصيف ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: بعض أجزائه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ في فصل الخريف والشتاء؛ مصلحةً لمعاش عموم الحيوانات، ومحافظةً لها من كلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: 6] أي: بمكنونات ضمائركم، ومقتضيات استعداداتكم.

وبعدما علم واطلع سبحانه منكم ومن استعداداتكم وقابلياتكم ﴿مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: 15]، ﴿آمِنُوا﴾ أي: انقادوا وأطيعوا ﴿بِاللهِ﴾ المطلع على عموم مصالحكم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المبعوث من لدنه؛ لإرشادكم وتكميلكم ﴿وَأَنفِقُوا﴾ بمقتضى الأمر الإلهي المنبئ عن محض الحكمة والمصلحة ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: من أموالكم التي استخلفكم الله عليها؛ إذ هي كلها لله حقيقة، لا لكم كما زعمتم.

فعليكم أن تمتثلوا بأوامر الله سبحانه بالإنفاق والإيثار الذي يزكي أنفسكم من الميل إلى مزخرفات الدنيا، العائقة عن الوصول إلى جنة المأوى التي هي مقام التسليم والرضا ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وأكدوا إيمانهم بالإخلاص في عموم الأعمال والأفعال

---

(1) قال السمناني: الروحانية بعد النزول إلى الأرض وجذب اللطائف الأمرية المستكنة في الأرض، وعروجه سماء الروحانية ليكتسب المعارف العلوية بالاستعداد الحاصل من جذب اللطائف الأرضية، ويرجع إلى حضرة ربه مع حصول المعارف التفصيلية من العلوية والسفلية والصفاتية.

والأخلاق ﴿وَأَنفَقُوا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، وشين السمعة والرياء ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وإنفاقهم على وجه الإخلاص ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7] لا أجر أكبر منه وأعلى.

ثمّ قال على طريق الحث والإلزام المشعر بالوعيد: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيّ شيء عرض لكم، وطرأ عليكم ﴿لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق للإطاعة والإيمان ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿الرَّسُولُ﴾ المبلغ الكامل في الهداية والتكميل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل من عنده ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ مع تأييده بالمعجزات الساطعة، والحجج القاطعة الدالة على صدقه في دعوته للإيمان، ورسالته إلى كافة الأنام ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ أَخَذَ﴾ الله العليم العلام باستعداداتكم ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ وعهدكم بالإيمان والعرفان في مبدأ فطرتكم، ومنشأ جبلتكم، مع أنه جبلكم حين قدر خلقكم، وأنشأ فطرتكم على جبلة التوحيد والإيمان، فماذا يمنعكم عنه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: 8] بسبب وموجب، فهذا موجب لا مزيد عليه؟!

إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه الحكيم العليم ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ من مقام فضله وجوده ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ مبينات واضحات ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ الله ورسوله ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتكاثفة من لوازم الطبيعة، ولواحق الحصول ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور الوجود البحت، الخالص عن مطلق القيود ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ بإرادة إخراجكم من ظلمات الجهل إلى نور اليقين ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 9] متناهٍ في الرحمة.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الحديد: 10 - 12].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا﴾ أي: أيّ شيء يمنعكم عن الإنفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تقربًا إليه، وطلبًا لمرضاته، وامتثالاً لأوامره ﴿وَلِلَّهِ﴾ الغني بذاته، المستغني عن مطلق مظاهره

ومصنوعاته ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] أي: العلويات والسفليات والممتزجات، وهو في ذاته غني عن إنفاقكم وبذلكم، إلّا أنه ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ﴾ أي: أنفق قبل فتح مكة ممتثلاً لأمر الله، مجهدًا في تقوية دين الإسلام وترويجه وظهوره على الأديان الباطلة، وتكثير أهل الحق وتغليبه ﴿وَ﴾ مع إنفاقه على المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة توحيده ﴿قَاتَلَ﴾ أيضًا بنفسه، وسعى ببذل المال والروح في طريق الحق وترويجه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المنفقون المقاتلون لهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأكرم مثوبة ومقامًا عند الله ﴿مِّنَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ﴾ أي: بعد فتح مكة وغلبة المسلمين، وظهور دين الإسلام ﴿وَقَاتَلُوا﴾ بعده مع كثرة المقاتلين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ أي: وعد الله كلًّا من المسلمين المبادرين، أو المبطئين الوعد الحسنى، والدرجة العليا، والمثوبة العظمى حسب سعيهم واجتهادهم في تقوية الشرع، وترويج الدين القويم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع بسرائر عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعموم أعمالكم وأحوالكم خالصها ومشوبها، صالحها وفاسدها ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10] بصير لا يعزب عن حضرته شيء منها، يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ﴾ وينفق في سبيله من أكرم أمواله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، وشين السمعة والرياء طلبًا لمرضاته سبحانه ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي: يضاعف له إخلافه وإعواضه في الدنيا كرامةً عليه، وفضلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 11] وفوز عظيم لا فوز أعظم منه وأكرم، وهو التحقيق بمقام الرضا والتسليم، والاستغراق بمطالعة وجه الله الكريم.

اذكر يا أكرم الرسل على سبيل التبشير ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي

---

(1) قال علاء الدولة: أي: تعلمون أن لله ميراث السماوات الروحانية والأرض البشرية، يتحلون باستعدادكم الذي هو أعطاكم من القوى العلوية والسفلية، ولا تنفقون في طاعة من يرث الاستعدادات بعد إفنائكم وتفديكم بتركتكم المكدرة، وإن تنفقوا يرث هو أيضًا استعداداتكم العلوية ويدخلكم في جنات تركاتكم المطهرة المزكاة عن الكدورات بالنفقة، فيما يغركم إلى خالق الأرض ووارث التركات والمعذب لتارك التركات المزكاة بنعيم الجنان الموصل له إلى أعلى الدرجات.

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين الموقنين، المخلصين ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿يَسْعَى نُورُهُم﴾ أي: نور يقينهم وعرفانهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم وقدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ إذ إتيان الكرامة إنما هو من هاتين الجهتين، فيقول لهم حينئذٍ من يتلقاهم من الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ دخول ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق لا بحسب وقت دون وقت، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود في الجنة الموعودة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12] لا فوز أعظم منه عند المكاشفين.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحديد: 13 - 15].

ثمّ عقب سبحانه وعد المؤمنين بوعيد المنافقين فقال أيضًا على وجه التذكير: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المبطلون المستمرون على النفاق مع أهل الحق ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ أيضًا كذلك ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين يرونهم ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: 12]: ﴿انظُرُونَا﴾ أيها السعداء المحقون، والتفتوا نحونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إذ نحن في ظلمة شديدة ﴿قِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: إلى دار الاعتبار والاختبار ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ واقتبسوا من مشكاة النبوة والولاية بامتثال الأوامر والنواهي الموردة من عنده سبحانه على رسله، وبالحكم والأسرار الصادرة من ألسنة أولي العزائم الصحيحة، المنجذبين نحو الحق من طريق الفناء فيه بالموت الإرادي، واعلموا أن اقترافه واقتباسه إنما هو في دار العبرة والغرور، لا في دار الحضور والسرور.

وبعدما جرى ما جرى ﴿فَضُرِبَ﴾ وحيل حينئذٍ ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائط حائل ﴿لَّهُ﴾ أي: للسور ﴿بَابٌ﴾ مفتوح يدخل منه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُ﴾ أي: باطن الباب ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ النازلة من قِبَل الحق بمقتضى اسم الرحمن

على أهل الإيمان والعرفان ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ أي: ظاهر الباب ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ سبحانه بمقتضى اسمه المنتقم ﴿الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] النازل على أهل النفاق والطغيان.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: المنافقون المؤمنين حين ستروا عن أعينهم، وبقوا في الظلمة والعذاب محرومين قائلين متضرعين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أيها الرفقاء في دار الدنيا مسلمين منقادين لأحكام الإسلام، ممتثلين لأوامر الكلام ونواهيه أمثالكم ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون في جوابهم من وراء الحائل: ﴿بَلَى﴾ أنتم معنا ظاهرًا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق والشقاق حسب باطنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ وانتظرتم بالمؤمنين المقت والدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ ترددتم وشككتم في حقية الدين القويم، وظهوره على الأديان كلها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ والأهوية الفاسدة، والآراء الباطلة مدى العمر، فانتظرتم بالمؤمنين ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: 30]، وكنتم على أمانيكم هذه وتطيراتكم ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذي هو الموت، فمتم منافقين مخادعين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: 14] الذي هو شياطين أمارتكم وأمانيكم، وتسويلات نفوسكم وقواكم.

وبعدما وقع ما وقع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي تبلى السرائر فيه ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون المخادعون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها؛ لتخليصكم من العذاب لا منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ﴾ إخوانكم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] مجاهرين مصرين على ما هم عليه بلا مبالاة إلى الدين والدعوة، وبالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ أي: محل رجوعكم وقراركم اليوم جميعًا؛ أي: ﴿النَّارُ﴾ المعدة المسعرة لكم أيها المنافقون بالكفر، والمجاهرون به ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: النار أولى بكم، وأليق بحالكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: 15] والمرجع النار المعدة للكفار الأشرار.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ

(1) قال السمناني: لأن الأمر بيد غيركم، والآلات والأدوات بها يمكن الكسب متنزعة عنكم، وهي كانت عادية عنكم والعادية مردودة لا محالة، وما كسبتم بتلك الآلات لأنفسكم قالوا: ما لكم بتضييع الأوقات ونزع الآلات والأدوات، ثم ويل بعد ويل بكسب الشقاوة الأبدية بتلك الاستعدادات.

اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: 16 - 19].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب، والتمنن والتشويق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: لم يقرب الوقت، ولم يحضر الأوان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وبكمالات أسمائه وصفاته ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ وتخضع وتلين وترق ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ التي هي وعاء الإيمان والعرفان ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ المستجمع لعموم الأسماء والصفات، المسقط لجميع الإضافات ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ سبحانه في كتابه المبين لطريق توحيده ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالامتثال والاتباع من الأوامر والنواهي الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن، والرموز والإشارات المصفية للسر عن التفات إلى ما سوى الحق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَكُونُوا﴾ - التفسير جرى على رواية رويس - ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في الإعراض عن كتاب الله، والانصراف عما فيه من الحكم والمصالح ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: مضى الزمان بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن الإيمان، مع أن الكتب بين أظهرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16] خارجون عن دينهم، تاركون ما في كتابهم من الأحكام من فرط قساوتهم وغفلتهم، فلكم ألّا تكونوا أمثالهم مع نبيكم ودينكم وكتابكم.

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على قابليات عباده واستعداداتهم الفطرية ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ أي: أراضي استعداداتكم بماء المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل والغفلة الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى، وبالجملة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على هدايتكم وتكميلكم في القرآن العظيم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17] رجاء أن تتأملوا فيها، وتتعظوا بها، وتفهموا إشاراتها، وتعتبروا منها، وتتفطنوا بما فيها من السرائر المرموزة والحكم المكنونة.

ومن علامات تعقلكم واتعاظكم: الصدق بمزخرفات الدنيا، والتقرب بها نحو

المولى ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ أي: المتصدقين ﴿وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي: المتصدقات ﴿وَ﴾ هم الذين ﴿أَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالصًا عن شوب المن والأذى، طالبًا لمرضاته سبحانه ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ صدقاتهم في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 18] في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم، وأكدوه بصوالح أعمالهم وإحسانهم ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ المتبالغون في الصدق، المقصورون على الإخلاص، المتمكنون في منهج حق اليقين ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ الكاشفون المشاهدون، الحاضرون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الموعود لهم من قِبل الحق على وجه لا مزيد عليه ﴿وَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة ذاتنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في تصرفاتنا عتوًا وعنادًا ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: 19] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد: 20، 21].

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة المستعارة الدنيوية، وما حاصلها وجلّ متاعها إلّا ﴿لَعِبٌ﴾ مزخرف باطل في نفسها، يلعب بها أهل الغفلة والحجاب، ويتعبون بها أنفسهم بلا طائل ﴿وَلَهْوٌ﴾ يلهيهم عما يهمهم ويعينهم من الحياة الأزلية الأبدية ولوازمها ﴿وَزِينَةٌ﴾ زيّنها لهم شياطين قواهم وأمانيهم من المطاعم الشهية، والملابس البهية، واللذات الوهمية، والشهوات البهيمية ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالمال والجاه والثروة، والسيادة بالأنساب والأحساب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بالمظاهرة والمعاونة، وتكثير العدد والعَدد والعُدد، والعقارات والتجارات، والمواشي والزراعات إلى غير ذلك من المزخرفات الفانية التي لا قرار لها

ولا مدار، بل مَثَلُها ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ نزل وأنبت إنباتًا ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الزرَّاع ﴿نَبَاتُهُ﴾ من كثرته ونضارته وكثافته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف وييبس بآفة وعاهة ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعدما كان مخضرًا في كمال البهجة والنضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ هشيمًا تذروه الرياح حيث شاءت بلا فائدة ولا عائدة.

﴿وَ﴾ مع هذه الخسارة والحرمان في النشأة الأولى لأهل الغفلة والخذلان يكون لهم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وما فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ سترٌ ومحوٌ لذنوب أصحاب المعاملات، ناشئة ﴿مِّنَ اللهِ﴾ الغفور الرحيم بمقتضى لطفه، وسعة رحمته وجوده ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه سبحانه لأرباب القلوب والمكاشفات خير من الدنيا وما فيها بأضعافها وآلافها عند من تحقق تربية الإنسان، وسعة قلبه المصور على صور عرش الرحمن ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ عند الأحرار البالغين بدرجة الاعتبار والاستبصار ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1] [الحديد: 20] ومخائل الخديعة والزور، ومن اغتر بها ولعب بما فيها فقد استحق الويل والثبور، وحرم عليه الحضور والسرور.

ومتى سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون حال الدنيا ومآلها، وحال العقبى وما يترتب عليها ﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا، وبادروا بوفور الرغبة والرضا ﴿إِلَى﴾ تحصيل أسباب ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ مرجوة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم على فطرة الهداية والتوحيد ﴿وَ﴾ وسائل دخول ﴿جَنَّةٍ﴾ وسيعة فسيحة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بحسب متفاهم العرف، وإلَّا فلا يكاد سعة الجنة وعرش الرحمن قلب الإنسان الكامل، كما يشهد به قلب العارف المحقق، المتحقق بمقام القلب الذي هو وعاء الحق، المنزه عن مطلق المقادير والتقادير ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ على وجه الإخلاص، وأكدوا إيمانهم وإخلاصهم بالرضا والتسليم بعموم ما جرى عليهم من القضاء، وفوضوا أمورهم كلها إلى المولى حتى صار علمهم منتهيًا إلى العين، وعينهم إلى الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التحقق والانتهاء ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ بلا سبق شيء يوجبه ويجلبه، وعبودية

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: حياة الدنيا مدرجة في إناء الماضي والمستقبل مثل: متاع الذي يبقى على حواشي الإناء بعد أكل صاحبه وإضافته إلى الغرور، إشارة إلى سرعة نفادها لا يتوقف نفس إلا وقد يخرج، فالنفس الذي يخرج ولا يرجع؛ فهو ميت، والنفس الداخل لو لم يخرج؛ فهو ميت فليس له حظ في الحياة إلا القليل الذي يصحب النفس الداخل والخارج.

يستحقه، بل ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ عنايةً منه سبحانه، وإحسانًا ناشئًا عن محض الإرادة والاختيار، كيف ﴿وَاللَّهُ﴾ الغني في ذاته، المستغني مطلقًا عن عبادة مظاهره وأظلاله ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21] [1] والكرم العميم، يمن على من يشاء من عباده بمقتضى سعة رحمته وجوده حسب علمه المحيط باستعداداتهم وقابلياتهم.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 22ـ 25].

إذ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: ما حدث من حادثة مفرحة أو موحشة، كائنة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: في أقطار الآفاق من الخصب والرخاء، والزلزلة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء ﴿وَلَا﴾ كائنة ﴿فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من العوارض المسرة، والشهوات الملذة، أو من الأمراض والملمات المؤلمة ﴿إِلَّا﴾ ثبت حدوثها في ساعة كذا، في آن كذا، على وجه كذا ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نخلقها ونظهرها؛ أي: ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا قبل أن تخلق الحادثة بزمان لا يعلم أحد مقداره إلَّا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الثبت والتقدير السابق، وإن كان عندكم عسير ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر، الغالب على عموم المقدورات ﴿يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22] سهل في جانب قدرته وإرادته.

---

(1) يقول القشيري في تفسيره: وفي ذلك ردٌّ على من يقول: « إن الجنة مُستَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها»؛ لأن الفضلَ لا يكون واجباً. ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبة، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقِّ سبحانه. تفسير القشيري (7/391).

والسر في ثبتها قبل خلقها: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ولا تحزنوا أيها المجبولون على فطرة الكفران ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من اللذات والشهوات المرغوبة ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها؛ ليكون فرحكم سببًا لكبركم وخيلائكم على ضعفاء الأنام، وفقراء الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من النخوة والاستكبار ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ذو كبر وخيلاء منهم ﴿فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23] مفاخر مَباهٍ؛ بسبب المال والجاه والثروة، والسيادة على أقرانه وأبناء زمانه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تسندوا الأمور إلى أنفسكم، بل فوضوا أموركم كلها إلى الله، وأسندوها إليه سبحانه بالأصالة، فلا تفرحوا ولا تحزنوا، بل افنوا في الله وابقوا؛ لتتمكنوا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

والمختالون المفتخرون هم ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ويمسكون أنفسهم عن التصدق والإنفاق، ويجمعون من حطام الدنيا مقدار ما يفتخرون بها، ويتفوقون على أقرانهم بسببها ﴿وَ﴾ من غاية بخلهم وإمساكهم: ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضًا ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصة؛ وليعرضوا ويصرفوا ضعفاء الأنام عن امتثال أمر الله بالإنفاق؛ حتى لا ينالوا بالمثوبة العظمى، والكرامة الكبرى في النشأة الأخرى من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يشكر لنعمه، ولم يواظب على أداء حقوق كرمه فلا يضره سبحانه، ولا ينقص من علو شأنه وسمو برهانه ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن إطاعة عباده، وإنفاقهم وشكرهم وكفرانهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: 24] حسب أسمائه وصفاته الذاتية بلا افتقار له إلى محامد مظاهره ومصنوعاته.

ثُمَّ قال سبحانه على سبيل الامتنان لعموم عباده، وإرشادًا لهم إلى سبل السلامة والسلام، وحثًا لهم إلى الطاعات والعبادات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿رُسُلَنَا﴾ المبعوثين إلى هداية العباد وإرشادهم إلى سبيل الرشاد، وأيدناهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المشتمل على الآيات الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿وَ﴾ أنزلنا معهم ﴿الْمِيزَانَ﴾ الموضوع؛ للقسط والعدالة، كل ذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿بِالْقِسْطِ﴾[1] والعدل فيصيرون مستقيمين على صراط الله الأعدل الأقوم الذي هو

(1) يقول حقي في تفسيره (147/15): أي ليتعاملوا بينهم بالعدل إيفاء واستيفاء ولا يظلم أحد أحدا في ذلك، وإنزاله إنزال أسبابه والأمر بإعداده وإلا فالميزان من مصنوعات البشر وليس بمنزل من

الشرع القويم، والدين المستقيم المنزَّل على الرسول المبعوث بالخلق العظيم ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ لزجر المنحرف العنيد؛ إذ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ للمائلين عن جادة الشريعة، والمتمردين عن الدين القويم.

﴿وَ﴾ إن كان أيضًا فيه ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوقف عموم الحِرف والصنائع عليه ﴿وَ﴾ إنما أرسل سبحانه من أرسل، وأنزل معه ما أنزل ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يظهر ويميز من عباده ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ سبحانه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُ﴾ المرسلين من لدنه؛ أي: من ينصر دينه المنزل على كل واحد من رسله المبعوثين من عنده؛ لإظهاره وترويجه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل قيام الساعة وانكشاف السرائر؛ وما ذلك الإرسال والإنزال منه سبحانه إلَّا لابتلاء العباد واختبارهم، وإلَّا فهو منزه في ذاته عن إعانتهم ونصرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25] غالب على عموم مقدوراته بلا مظاهرة ومعاونة.

وإنما أمر سبحانه عباده بالجهاد؛ لينالوا بامتثاله أعظم المثوبات.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا

السماء روي) أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مر قومك يزنوا به، وقال الإمام الغزالي رحمه الله أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيار والقبان ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان فاتق الله ولا تتعسف في التأويل واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته كتبه ورسله وملكه وملكوته ليتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا من ملائكته فالله هو المعلم الأول والثاني جبرائيل والثالث الرسول والخلق كلهم يتعلمون من الرسول ما لهم طريق في المعرفة سواه والكل عبارته بلا تغيير وليت شعري ما دليله على ما ذهب إليه من العدول عن الظاهر كذا في بحر العلوم . يقول الفقير: لعل دليله قوله تعالى: (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) أي حاكما بالعدل أو مقيما للعدل في جميع أموره، فإذا كان الله قائما بالعدل في جميع الأمور كان الواجب على العباد أن يقوموا به أيضا ولن يقوموا به حقيقة إلا بعد العلم الشامل والمعرفة الكاملة وهى معرفة الله فهي الميزان الكلى وما عداه من جميع الأمور مبني عليه وموزون به.

كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾ [الحديد: 26 - 27].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التخصيص بعد التعميم؛ للاعتناء والاهتمام بشأن المذكورين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم، وشاع انحرافهم عن المنهج القويم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ حين ظهر الشرك وعبادة الأوثان والأصنام بين قومه ﴿وَ﴾ من كمال تعظيمنا وتكريمنا إياهما: ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أبدًا ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: بعض قليل من ذريتهما ﴿مُهْتَدٍ وَ﴾ بعض ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 26] خارجون عن جادة العدالة والقسط الإلهي.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ وعقبنا ﴿عَلَى آثَارِهِم﴾ أي: بعد انقراضهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ وأيدناهم بالكتب والصحف وأنواع الآيات والمعجزات ﴿وَ﴾ بعدما انقرضوا أيضًا ﴿قَفَّيْنَا﴾ الكل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿وَ﴾ من كمال صفوته، ونجابة عرقه وطينته: ﴿جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وآمنوا له، وتدينوا بدينه ﴿رَأْفَةً﴾ عطفًا ولينًا إلى حيث يعفون عن القاتل، ولا يضربون الشاتم والضارب ﴿وَرَحْمَةً﴾ يترحمون بها عموم عباد الله.

﴿وَ﴾ من شدة محبتهم ومودتهم بالنسبة إلى الله ابتدعوا ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ يبالغون بها في العبادات إلى حيث لا يطعمون، ولا يشربون أيامًا، ولا ينكحون قط، ولا يختلطون مع الناس، بل يوطنون نفوسهم في شعب الجبال والكهوف، وإنما ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ من تلقاء أنفسهم بلا رخصة منّا إياهم؛ إذ ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أي: الرهبانية، وما فرضناها وقدرناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في دينهم وكتابهم، بل ما اختاروها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ وطلبًا لمرضاته، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما وافقت رهبانيتهم بدينهم وكتابهم؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ، وهو من أعظم معتقدات دينهم وكتابهم فتركوه، وأنكروا عليه جهلاً وعنادًا ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] [الحديد: 27]

(1) بترك رعايتهم ما ابتدعوها من الرهبانية؛ ابتغاء لوجهه، فحفظ السالك من هذه الآيات واجب على نفسه، ويرعى حق الرعاية كل شيء أوجب على نفسه في البداية من المجاهدات أو العبادات النافلة، ولا يرخص لنفسه أن يترك شيئًا مما باشرته في بداية أمره وعنفوان حاله وشرح إراداته؛

خارجون عن مقتضى دينهم وكتابهم بإنكار محمد ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد: 28، 29].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على مقتضى دين الرسل الماضين - صلوات الرحمن عليهم وسلامه - المبعوثين؛ لتبيين طريق توحيد الصفات والأفعال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه بمخالفة أمره ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ المرسل من عنده بطريق التوحيد الذاتي ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ سبحانه، نصيبًا عظيمًا لإيمانكم بمحمد ﷺ، ونصيبًا آخر لإيمانكم لمن قبله من الرسل ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ سبحانه ببركة إيمانكم بمحمد ﷺ ﴿نُورًا﴾ مقتبسًا من مشكاة النبوة والرسالة، المخصوص بالحضرة الختمية المحمدية ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ بذلك النور إلى المحشر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ببركته ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [الحديد: 28] لذنوب عباده، يرحمهم ويقبل منهم توبتهم إن

ليكون من المحفوظين. [عين الحياة].

(1) قال النيسابوري في تفسيره (205/1): عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجران، ورجل أدّب أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران، ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران» فإن قيل: لو كان الأمر كما قلتم، فكيف يجوز من جماعتهم جحده ﷺ؟ قلنا: إما لأن هذا العلم به ﷺ كان حاصلاً عند العلماء بكتبهم ولم يكن لهم عدد كثير فجاز منهم كتمانه ﷺ، وإما لأن ذلك النص كان نصًا خفيًا لعدم تعيين الزمان والمكان بحيث يعرفه كل أحد، فجاز وقوع الشكوك والشبهات فيه. جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك لله تعالى قال لها: يا هاجر أين تريدين؟ قالت: أهرب من سيدتي سارة. فقال: ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك، وستحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل، من أجل أن الله سمع خشوعك، وهو يكون عيناً بين الناس وتكون يده فوق الجميع، ويد بجميع مبسوطة إليه بالخضوع. فقيل: هذا الكلام خرج مخرج البشارة لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في

أخلصوا فيها.

وإنما يفعل بهم سبحانه ما يفعل من الكرامات المتضاعفة ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم يقينًا ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وثوابه، بأن يجلبوه بإيمانهم وأعمالهم لو لم يرد سبحانه إتيانه إياهم تفضلاً وإحسانًا ﴿وَ﴾ يعلمون أيضًا يقينًا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ﴾ المطلق والإنعام والإحسان الكامل ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت حكمه وحكمته ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده إرادةً واختيارًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 29] والطول العميم، والكرم الجسيم على أرباب العناية من عباده.

جعلنا الله ممن تفضل علينا بمقتضى كرمه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب للفضل الإلهي وسعة لطفه وجوده أن تلازم على أداء ما افترض عليك من الطاعات والعبادات، وتداوم على الاتصاف بالآداب السنية والأخلاق المرضية المقتبسة من كتاب الله المنزل من عنده؛ لإرشاد منهج الرشاد وعموم السعادات، ومن سنن سيد السادات، وسند أرباب الولاية والكرامات، وتقتفي بآثار السلف المجتازين في مضمار المعارف والمكاشفات والمشاهدات، وإياك إياك الالتفات إلى مزخرفات الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات العائقة عن التوجه إلى المولى والوصول إلى سدرة المنتهى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: 29].

أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الخافقين بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة.

سورة المجادلة

فاتحة سورة المجادلة

لا يخفى على الموحدين المتحققين بمقام الرضا والتسليم أن كل من توكل على الله، وفوض الأمور كلها إليه، ورجع في عموم الخطوب والملمات نحوه سبحانه متضرعًا إليه، خاضعًا خاشعًا، متذللاً سائلاً منه سبحانه مطلوبه، داعيًا إليه لأجله أن يجيب له، ويصيبه إلى مطلوبه إن كان سؤاله منبعثًا عن محض العزيمة وخلوص النية؛ إذ السؤال والدعاء على هذا المنوال إنما هو من أمارات الإجابة وإنجاح المأمور؛ إذ جريان الحوادث كلها بتوفيق الله وتيسيره، وصدور السؤال عن كمال الحضور إنما هو من علامات القبول، كما صدر مثل هذا عن المرأة المجادلة مع رسول الله ﷺ حين بسطت شكواها إلى الله متضرعة راجية للإنجاح منه سبحانه، ومن غاية إخلاصها وخضوعها: أجاب الله دعاءها، فأوحى سبحانه إلى حبيبه ﷺ في شأنها ما أوحى بعدما تيمن باسمه الأعلى فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على قلوب المخلصين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يوفقهم على الإخلاص في مطلق العزائم المهمة لهم، المتعلقة بدينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى ما وفقهم عليه.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: 1 - 4].

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ السميع المجيب لمناجاة خُلَّص عباده، العليم بحاجاتهم ﴿قَوْلَ الَّتِي﴾ أي: دعاء المرأة التي ﴿تُجَادِلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي﴾ حق ﴿زَوْجِهَا﴾[1] حين وقع بينهما ظهار.

روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها أوس بن الصامت، وكان الظهار والإيلاء حينئذ من عداد الطلاق، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»[2] فكررها، فأجاب ﷺ كذلك ﴿وَ﴾ بعدما أيست أخذت ﴿تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ متضرعة خاشعة فجيعة؛ إذ لها أولاد صغار، ولا متعهد لهم سواها، فقالت مناجية إلى الله مشتكية: اللهم إني أشكو إليك، وأتضرع نحوك، فأنزل على نبيك ما يؤلف بيني وبين زوجي، وترحم على أولادي المعصومين، وهي على هذا فأوحى سبحانه إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ على ما جرى بينكما ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ وتراجعكما في الكلام، وكيف لا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العليم بالسرائر والخفايا ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1] بأحوالهم ونياتهم؟!

ثمّ بيّن سبحانه حكم الظهار فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾ والظها هو أن يقول الرجل لامرأته عند الخصومة: أنت عليّ كظهر أمي؛ أي: شبهها

(1) يقول ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 261): هي خولة، (في زوجها) أوس، أ
الكلام في شأنه، وفيما صدر منه في حقها من الظِّهار، أو تسألك وتستفتيك. وقا
سمع» أي: عَلِمَ وأجاب قولها، أي: دعاءها . وفي « قد » هنا معنى التوقُّ
الله عليه وسلم والمرأة كانا يتوقعان أن يُنزل الله في مجادلتهما ما يفرج
الفخر: هذه الواقعة تدل على أنَّ من انقطع رجاؤه من الخلق، ول
الخالق، كفاه الله ذلك المُهم . وقال القشيري: لمّا صدقت في
كشف ضرها من غير الله، أنزل الله في شأنها: (قد سمع الله .
رخصة للمؤمنين إلى يوم القيامة في قضية الظهار، ليعلم ا
ولما نزلت السورة بإثر الشكوى، قالت عائشة رضي الله
[illegible]
الإشارة: قد سمع الله قول الروح، التي تُجادل ذ
[illegible] وبعد حب الدنيا ومتابعة الهوى،
[illegible] والله يسمع تحاور
[illegible]
[illegible] (6 / 17)

المحرمة عليه، فكانت هي أيضًا محرمة على زوجها في عادة الجاهلية؛ لأن الحرمة سرت إليها بمجرد التشبيه، فصارت بمنزلة الأم، رد الله عليهم أمرهم هذا بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ بمجرد هذا القول الباطل ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا يشبه بهن في الحرمة غيرهن إلا ما ورد الشرع بتحريمهن، مثل أمهات الرضاع، وأزواج النبي ﷺ اللاتي هن أمهات المؤمنين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ من شدة إفراطهم وطغيانهم ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مردودًا في الشرع ﴿وَزُورًا﴾ باطلاً منحرفًا عن الحق في نفسه؛ إذ لا يشبه الزوجة بالأم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ونياتهم ﴿لَعَفُوٌّ﴾ لفرطات القائلين ﴿غَفُورٌ﴾ [المجادلة: 2] لذنوبهم لو تابوا واستغفروا.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتلافي والتدارك مناقضين ﴿لِمَا قَالُوا﴾ نادمين عنه، مسترجعين ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: يلزمهم في الشرع تحرير رقبة في كل مرة؛ ليكون كفارة قولهم المنكر الباطل ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: يستمتعا ويجتمعا؛ أي: المظاهِر والمظاهَر عنها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: إلزام الكفارة عليكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ وترتدعون عنه خوفًا من الغرامة؛ إذ ليس هو من شيم أهل الإيمان، بل من ديدنة
اهلية الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالكم وأعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾
دلة: 3] أي: بجميع أعمالكم ونياتكم فيها.

لَّمْ يَجِدْ﴾ ولم يقدر على تحرير الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي: كفارة
شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ متصلين، متوالي الأيام، فإن فصل وأفطر يومًا
التتابع والتوالي؛ لتنزجر نفسه وترتدع عنه، ولا يفعله قط، ولا يتكلم
ضًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ ويتجامعا ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ ولم يقدر
و شبق مفرط ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعطى كل مسكين مدًا
م الصوم والإطعام عند فقدان التجريد المذكور ﴿ذَٰلِكَ﴾
صول أحكام الشرع والأوامر والنواهي [illegible]
م والعادات الجاهلية بينكم [illegible]
كورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ [illegible]
على أنفسكم [illegible]
[illegible]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن
نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ
أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ
ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا
لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: 5 - 8].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفرطين ﴿الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ويعادون ﴿اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يضعون حدودًا مخالفة لحدود الله ورسوله، ويختارونها مراءً ومجادلةً، ومعاداة مع الله ورسوله ﴿كُبِتُوا﴾ أي: أكب وأحاط عليهم العذاب النازل من الله فهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية ﴿وَ﴾ كيف لا نهلكهم ولا نستأصلهم؛ إذ ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم وأخلاقهم، وعموم أطوارهم ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مشتملات على حكم ومصالح لا تخفى فأبوا عنها، ولم يقبلوها، بل كذبوها وأنكروا عليها، وعلى من أُنزلت عليه عتوًا وعنادًا؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المستكبرين بما عندهم من الثروة والرئاسة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: 5] [1] بحيث يبدل عزهم ذلاً، ونخوتهم لعنةً وطردًا.

---

(1) قال حقي في تفسيره (15 / 169): أي يعادونهما ويشاقونهما وكذا أولياء الله فان من عادى أولياء الله فقد عادى الله وذلك لان كلا من المتعاديين كما انه يكون في عدوة وشق غيره عدوه الآخر وشقه كذلك يكون في حد غير حد الآخر غير أن لورود المحادة في أثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه، وقال بعضهم: المحادة مفاعلة من لفظ الحديد والمراد المقابلة بالحديد سواء كان في ذلك حديد حقيقة أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد وقال بعضهم في معنى الآية (يحادُّون) أي يضعون أو يختارون حدودًا غير حدودهما ففيه وعيد عظيم للملوك والأمراء السوء الذين وضعوا أمورا خلاف ما حده الشرع وسموها القانون ونحوه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ من قبورهم ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يشذ أحد منهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بجميع أعمالهم تفضيحًا وتشهيرًا لهم على رءوس الأشهاد، بحيث ﴿أَحْصَاهُ اللهُ﴾ وفصله عليهم على وجه لا يغيب عن حيطة علمه وإحصائه سبحانه من عملهم ﴿وَ﴾ هم قد ﴿نَسُوهُ﴾ لكثرته أو تهاونهم عليه ﴿وَ﴾ كيف لا يحصي سبحانه عليهم أعمالهم؛ إذ ﴿اللهُ﴾ بمقتضى ألوهيته، وحيطة ظهوره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ﴿شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6] حاضر غير مغيب؟!

﴿أَ﴾ تستبعد شهادته سبحانه، وحضوره عند عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿لَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي، ولم تعلم ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المحيط بالكل بالألوهية والظهور ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري عموم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: الكائنات العلوية ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الكائنات السفلية كلياتها وجزئياتها، محسوساتها ومعقولاتها، بحيث ﴿مَا يَكُونُ﴾ ويقع ﴿مِن نَّجْوَى﴾ وسر معهود بين ﴿ثَلاثَةٍ﴾ يسرون بها ويضمرونها في نفوسهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿رَابِعُهُمْ﴾ بل هو أعلم منهم بنجواهم، وأعرف بما في ضمائرهم منهم، بل هو العالم حقيقة ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي: وكذا لا يقع نجوى بين خمسة مكنونة في ضمائرهم، مصونة عن غيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿سَادِسُهُمْ﴾ بل علمه بها أتم وأكمل من علمهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا﴾ يقع ﴿أَدْنَى مِن ذَلِكَ﴾ الجمع ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ منه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ بل العالم العارف هو سبحانه بذاته ووحدته، إلا أنه ظهر في أشباحهم، وهو يأتيهم لا على سبيل المقارنة الذاتية والزمانية، ولا على سبيل الحلول والإتحاد، بل على طريق معية الظل مع ذي الظل، ومعية الأمواج مع الماء، والصور مع ذي الصورة، ولا يقيد أيضًا معيته بالمكان، بل ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ كان معهم؛ لاستواء عموم الأمكنة دونه سبحانه، وتنزهه عن المكان مطلقًا.

وبالجملة: يعلم سبحانه منهم جميع ما صدر عنهم، لكن لم يطلعهم بعلمه إياهم؛ لئلا يبطل حكمة التكاليف الواقعة منه سبحانه بالنسبة إلى عموم عباده ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أوان التكليف، وانقراض نشأة الاختبار ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بجميع أعمالهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنقيد الأعمال وترتب الجزاء، الموعودة عليها تفضيحًا لهم، وتقريرًا لما يستحق ويليق بهم من العذاب والنكال؛ لئلا يكون لهم على الله حجة، ولا ينسبوه إلى الظلم؛ إذ الإنسان جبل أكثر شيء جدلاً،

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما كان ويكون، غيبًا وشهادةً، ظاهرًا وباطنًا ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق الوجود ﴿عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7][1] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حيطة علمه شيء.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ نُهُوا﴾ ومنعوا ﴿عَنِ النَّجْوَى﴾ والتغامز فيما بينهم بالعيون والحواجب، حين جلسوا في مجلس رسول الله ﷺ مع المؤمنين فمنعهم ﷺ عن ذلك ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إصرارًا ومكابرةً ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿يَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ﴾ الموجب للحد الشرعي، أو ظهروا به وأفشوه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ عن الأوضاع الشرعية ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وتكذيبه، والإعراض عنه وعن دينه مهما أمكن لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من جملة شكيمتهم وغيظهم: ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَيَّوْكَ﴾ على وجه النفاق ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون: السام عليك، أو انعم صباحًا، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: 59]، ﴿وَ﴾ بعدما حيوك على مقتضى أهويتهم، وقصدوا مقتك في تحيتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذٍ ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ ونجواهم: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلَّا ﴿يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لو كان محمد نبيًا؟! فظهر من عدم تعذيب الله إيانا أنه ليس بنبي، قيل لهم حينئذٍ من قِبَل الحق: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: 8][2] مصيرهم جهنم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ

---

(1) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً، والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء. تفسير القشيري (7 /399).

(2) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 268): ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن الوقوع في أهل الخصوصية، والتناجي بما يسوؤهم ثم يعودون لما نُهوا عنه، ويتناجون بالإثم والعدوان، وما فيه فساد البين وتشتيت القلوب، ومعصية الرسول بمخالفة سنته، وإذا جاءوك أيها العارف، الخليفة للرسول، حيّوك بما لم يُحيك به الله، أي: خاطبوك بما لم يأمر الله أن تُخاطَب به من التعظيم، ويقولون في أنفسهم، لولا يُعذبنا الله بن نفعل من تصغيرهم، حسبهم نار القطيعة والبُعد، مُخلّدون فيها، فبئس المصير .

بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة: 9 ـ 13].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ مثل مناجاة أولئك الأشقياء المردودين، بل ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ الموجب لأنواع الخيرات، الجالب لأكرم المثوبات ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ عن محارم الله، ولاسيما عن عصيان الرسول المستلزم لأنواع الحرمان والخسران ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: 9] وترجعون في يوم البعث والجزاء.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ والإسرار بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول إنما نشأ ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي، إنما يحملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ نجواهم بهذه الأوزار ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويتغمموا بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَيْسَ﴾ الشيطان، وما يلقنهم من التناجي بالسوء ﴿بِضَارِّهِمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومقتضى مشيئته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المراقب لعموم أحوال عباده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10] وأنه سبحانه يكفي لهم مؤنة شرور أعدائهم، ونجواهم بالسوء والعدوان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى أخلاقكم الحسنة، الموروثة لكم عن إيمانكم وعرفانكم: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ وقت تضيقكم وتحسبكم: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ وتوسعوا ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي: مطلق المجالس والمحافل ﴿فَافْسَحُوا﴾ ووسعوا مبادرين بلا مطل وتحرج وتضجر ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ويوسع عليكم في عموم ما تريدون الوسعة فيه، بل ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم: ﴿انْشُزُوا﴾ وانهضوا، واخرجوا من المضائق والمجالس ﴿فَانْشُزُوا﴾ طائعين راغبين، مريدين الثواب من الله بتوسيعكم على إخوانكم، ولا تتوهموا الإذلال

بالنشوز، بل ﴿يَرْفَعِ اللهُ﴾ القادر المقتدر على وجه الإنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ ونشزوا عن المضائق؛ لمصلحة إخوانه طوعًا درجات من القرب والمكانة؛ إذ المؤمن العارف المتمكن في مرتبة اليقين الحقي لا يتفاوت عنده المدح والذم، والإعزاز والإذلال، والمضرة والمسرة، والمنح والمحن مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ من حضرة العلم الإلهي ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ولا حصرها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع بضمائركم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الاستكبار والاستكراه، وتوهم الإذلال والاستنكاف عن الامتثال ﴿خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثمّ أشار سبحانه إلى تعظيم رسوله ﷺ، وتأديب من تبعه من المؤمنين المسترشدين منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم بالله، وتصديقكم برسوله: إنكم ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ وأردتم المناجاة معه، والاستفادة منه ﷺ ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم، وعرض حاجاتكم إليه ﴿صَدَقَةً﴾ تصدقًا لفقراء الله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التصدق لمحبة رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لنفوسكم من الميل إلى زخارف الدنيا ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تنفقون ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على نياتكم ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12] على من فقد وجه الصدقة.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الرخصة: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ وخفتم الفقر والفاقة من ﴿أَن تُقَدِّمُوا﴾ وتصدقوا ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم مع رسول الله ﷺ ﴿صَدَقَاتٍ﴾ أي: لكل نجوى صدقات ولو كلمة طيبة منبئة عن كمال المحبة والوداد ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تصدقوا؛ بسبب الإشفاق عن الفقر ﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قبل منكم توبتكم إن صدرت عنكم على وجه الندم والإخلاص عن جريمة الإشفاق والتحسر على ما فوتم، وبالجملة: عفا الله عنكم، وتجاوز عن جريمتكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ المؤقتة المكتوبة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة المقدرة ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في عموم الأوامر والنواهي على وجه الإخلاص ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على ضمائركم ونياتكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 13] أي: بعموم أعمالكم وإخلاصكم فيها.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: 14. 17].

ثمّ أشار سبحانه إلى تفضيح المبالغين، وتوبيخهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أي: والوا وتحابوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ يعني: اليهود، واختاروا موالاتهم، وصاحبوا معهم في خلواتهم، واغتابوا المؤمنين عندهم، مع أنهم ﴿مَّا هُم﴾ أي: المنافقون ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون حقيقةً، وإن كانوا منكم ظاهرًا ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ظاهرًا، وإن كانوا منهم حقيقةً ﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالله ﴿عَلَى الْكَذِبِ﴾ صريحًا، وهو دعوى الإسلام والإخاء مع المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: 14] كذب أنفسهم، ويزورون بحلفهم على المؤمنين تغريرًا، مع أنه لا نفع لحلفهم عند الله، ولا يدفع شيئًا من عذابه.

إذ ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ المراقب على عموم أحوالهم ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين الحالفين على الكذب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أشد من عذاب اليهود المجاهرين بالكفر بلا زور وتزوير، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أهل النفاق من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 15] من التمرن على النفاق، والإصرار بموالاة أهل الشرك والشقاق.

قيل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق؛ إذ كان رسول الله ﷺ جالسًا في حجرة من حجراته فقال لجلاسه: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، ينظر بعين شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟!»[1]، فحلف بالله ما فعل، ثمّ جاء أصحابه فحلفوا جميعًا على الكذب، وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾[2] وقاية لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا المؤمنين؛ بسبب حلفهم الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي هو غزوهم وقتلهم في

---

(1) رواه البغوي في «تفسيره» (61/1).

(2) يقول القشيري في تفسيره (7 /401): مَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَم له دنياه فإنَّ سهامَ التقدير من وراءه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُه يبقى، ولا دنياه تَسْلَم.

النشأة الأولى ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: 16] في النشأة الأخرى؛ لاستهانتهم بالله بالحلف الكاذب، ولا يدفع عنهم الإهانة والعذاب يومئذٍ أصلاً.

إذ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وتدفع يومئذٍ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ شَيْئًا﴾ بل ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن منهج الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: ملازموها وملاصقوها؛ إذ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: 17] مخلدون، لا يرجى نجاتهم منها أصلاً.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ
ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ
حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: 18 - 22].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ القادر المقتدر على الإحياء والإماتة في الإبداء والإعادة ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين، فيعاتبهم بما صدر عنهم، مثلما عاتبهم رسول الله ﷺ ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي: لله حينئذٍ على أنهم مسلمون مؤمنون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآن أيها المؤمنون ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ حينئذٍ أيضًا ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ نفع ودفع حاصل من حلفهم الكاذب، فيخيلون أنهم يروجون بالحلف الكاذب ما يدعون من الكذب على الله، كما يروجون عليكم اليوم، ولم يعلموا أن الناقد حينئذٍ بصير، والترويج إليه عسير.

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها المؤمنون المخلصون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: 18] المقصورون على الكذب والزور، والتلبيس والغرور.

إذ ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ أي: غلب واستولى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾[1] المضل المغوي ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ المنقذ عن الضلال، المرشد إلى الهداية، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المطرودون ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: جنوده وأتباعه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19] المقصورون على الخسران المؤبد، والحرمان المخلد عن ربح المعرفة واليقين؟!

أعاذنا الله وعموم عباده من متابعة الشيطان المضل المغوي.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ويعادون ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعادون ويتجاوزون عن الحدود الموضوعة في الشرع بالوضع الإلهي المنزل على رسوله بالوحي والإلهام ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجاوزون المعادون، المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: 20] أي: من جملة من أذله الله، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولهم عذاب أليم.

وكيف لا يعد المتجاوزين من الأذلين؛ إذ ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، وأثبت في لوح قضائه بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ ألبتة ﴿أَنَا وَ﴾ عموم ﴿رُسُلِي﴾ المرسلين من عندي بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة على عموم المظاهر والمخلوقات، وكيف لا يغلب سبحانه على مظاهره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿قَوِيٌّ﴾ في ذاته، لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21] مقتدر غالب، يغلب مطلقًا في عموم مراداته ومقدوراته؟!

ثمَّ قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير بعموم المؤمنين: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا

---

(1) قال البقلي: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبخة أرض النفس الأمّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنفاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان، قال شاه الكرماني: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المأكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ للحساب والجزاء ﴿يُوَادُّونَ﴾ أي: لا تجدهم أن يوادوا ويحاببوا ﴿مَنْ حَادَّ اللهَ﴾ وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: الحادون العادون المعاندون ﴿آبَاءَهُمْ﴾ أي: آباء المؤمنين ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم، وذووا أرحامهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المقبولون الممتنعون عن ودادة أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ طلبًا لمرضات الله ومرضاة رسوله ﷺ ﴿كَتَبَ﴾ أي: أثبت ومكن سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وجعله راسخًا فيها.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾ فائض ﴿مِّنْهُ﴾[1] محيي لهم أبد الآباد؛ إذ من يُحيى بالإيمان والعرفان فقد دامت حياته، ولم يمت أبدًا ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة الأزلي الأبدي الذي هو الوجود المطلق الإلهي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً؛ إذ ﴿رَضِيَ اللهُ﴾ المتجلي عليهم بالرضا ﴿عَنْهُمْ وَرَضُوا﴾ أيضًا ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بالتفويض والتسليم إليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿حِزْبُ اللهِ﴾ وحوامل آثار أوصافه وأسمائه الذاتية، وقوابل عموم كلياته وشئونه وتطوراته ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون بظلاله الممدودة من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22] [2] الفائزون من لدنه بالفوز

---

(1) هو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذر يحبهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وان كانوا يصلون ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (263/14).

(2) حزب الله أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحدٌ منهم ينهزم المبطلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيبته، وأعلى لهم أعلام عظمته، يفر منهم الأساد، وتخضع عندهم الشامخات، كلأهم بحسن رعايتهم، ونوّرهم بسنا قربه، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظّم أقدارهم، وكتم أسرارهم، قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإنْ سكنوا ظهروا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كمّلوا فكملوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فطهروا، أولئك حزب الله إلى آخره، قال أبو سعيد الخراز: حزب الله قوم علاهم البهاء والبهجة، فنعموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهمم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبدًا، وقال ابن عطاء: إن لله عبادًا اتصالهم به دائم، وأعينهم به قريرةٌ أبدًا لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر

العظيم، والفضل الجسيم، والكرم العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المترقب للفلاح، والفوز بالنجاح أن تتمكن في مقام التسليم والرضا بعموم ما جرى عليك من القضاء، وتلازم على آداب الخدمة بين يدي الله في عموم أوقاتك وحالاتك، فاغرًا همّك وسرك عن مطلق الوساوس والأشغال العائقة عن التوجه نحو المولى، وتواظب على الطاعات والعبادات في خلال الخلوات؛ لتكون مصونة عن السمعة والرياء، والميل إلى العجب والهوى، وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الأخروية، المستتبعة للسلاسل والأغلال الإمكانية، المبعدة عن الوصول إلى فضاء الوجوب وصفاء الوحدة الذاتية التي عبر بها عن النعيم الموعود، والحوض المورود، والمقام المحمود.

جعلنا الله ممن وصل إليه، وتمكن دونه بمنّه وجوده.

إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم بحياته موصولة لا موت لهم أبدًا، ولا صبر لهم عنه لا تقدس أرواحهم، فعلّقها عنده، فثمّ مأواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقت ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ، قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلقه أولئك حزب الله إلخ. [عرائس البيان].

سورة الحشر

فاتحة سورة الحشر

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وشموله على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس علمًا وعينًا، غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى أن عموم المظاهر والمجالي متوجهة إلى المبدأ الحقيقي، منجذبة نحوه طوعًا، عابدة له رغبةً، ساجدة إياه على وجه الخضوع والخشوع والانكسار التام، والتذلل المفرط، منزهة مسبحة له عن شوب النقص، وسمت الحدوث والزوال.

كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ تنبيهًا له، وتأييدًا لأمره؛ ليكون هو ومن تبعه من المؤمنين الموحِّدين على ذكر من ربهم الذي ربّاهم على الدراية والشعور بمطلق المراتب الواقعة في الوجود الإلهي، ومظاهر وحدته الذاتية المتجلية حسب الشئون والتطورات الغير المتناهية، المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الغير المحصورة، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن بالحكمة المتقنة العليّة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بجميع مظاهره بإفاضة الجود المتجلية على الصور البديعة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بالإعادة والإرجاع إلى الفطرة الأصلية والمبدأ الحقيقي.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: 1 - 4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزّهه تنزيهًا لائقًا بجنابه سبحانه مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الأَرْضِ وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ العَزِيزُ﴾ بذاته، المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿الحَكِيمُ﴾[1] [الحشر: 1] المتقن المدبّر لمصالح عباده كيف شاء؟!

وبالجملة: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بمقتضى عزته وحكمته المسرفين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبرسوله، وهو إجلاء بني النضير، مع أنهم ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة، وأوطانهم المأنوسة زجرًا عليهم، وتذليلاً لهم واقعًا إياهم ﴿لِأَوَّلِ الحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم، وإجلائهم الواقع عليهم بظهور الإسلام؛ إذ أجلى رسول الله ﷺ بني النضير أولاً من المدينة إلى الشام، ثمّ أجلى بقية الكفرة عمرُ ﷺ في خلافته، انظروا كيف أخرجهم سبحانه بكمال قدرته وعزته، مع أنكم ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون من ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدتهم وشوكتهم، واستحكام أماكنهم وقلاعهم ﴿وَ﴾ هم أيضًا ﴿ظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ أي: ظنهم لأنفسهم أن حصونهم تمنعهم ﴿مِّنَ﴾ بأس ﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور وبطشه وإن اشتد، لكن لم ينفعهم الحصون والقلاع حين نزول العذاب، بل ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ﴾ أي: القهر الهائل من لدنه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: من صوب وجهة لم يتوقعوا.

﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿قَذَفَ﴾ وألقى سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الشديد، والخوف العظيم من غير قتال، وبسبب ذلك الرعب الهائل اخذوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًا بها على المسلمين، وإخراج ما فيها من الأمتعة ﴿وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ﴾ أيضًا، فإنهم أيضًا كانوا يخربون بيوتهم إذلالاً لهم، وتوسيعًا لمضمار الحرب والقتال، وبالجملة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] واتعظوا بما جرى على هؤلاء الغواة الطغاة، يثقون بحصونهم ويشيدونها؛ ليتحصنوا بها من بأس الله، ثمّ لما اضطروا أخذوا يخربون بأيديهم ما يعتمدون عليه، ويستحفظون به؛ وذلك من كمال قدرة الله ومتانة حكمته.

---

(1) قال في عين الحياة: بعزته حذف القوة الحافظة والذاكرة والمتفكرة والمتخلية وأخواتها في سماوات الدماغ لئلا يصل إليها أبخرة المعدة وقاذوراتها وبحكمه أودع القوى الجارية والعارية والهاضمة والدافعة، وأخواتها من أرض البدن لبريتها ويدفع منها ما يضرها ويجذب إليها ما ينفعها؛ ليصل كل جزء إلى كلها، ويلحق كل فرع بأصلها في السفل والترقي وكشف هذا السر من حد القرآن.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ﴾ المصلح لأمور دنياهم، ولم يفترض ﴿عَلَيْهِمُ الجَلاءَ﴾ ولم يخرجهم من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، وأنواع الإذلال والصغار، كما جرى على الكفرة المتمكنين في أماكنهم بعدهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الإصلاح والكرامة لهم في الدنيا ﴿لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: 3] بواسطة إصرارهم على الكفر، وإنكارهم على الإسلام.

﴿ذَلِكَ﴾ الإذلال والصغار لهم في الدنيا والآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفة أمرهما، والخروج عن حكمهما ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللهَ﴾ يعاقبه ألبتة ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الحشر: 4] صعب الانتقام، أليم العذاب على عصاة عباده إرادةً واختيارًا.

ثمّ لمّا توجه رسول الله ﷺ إلى بني النضير حين نقضوا العهد الذي عهدوا مع الله ورسوله، تحصنوا بحصونهم وامتنعوا عن الإسلام، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلهم وحرق بساتينهم، قالوا: يا محمد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وحرقها؟!

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: 5 - 7].

فسمع المؤمنون منهم ذلك، وأوجسوا في نفوسهم الكراهة، وعدم اللياقة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾[1] أي: من بعض نخلة من النخلات

(1) كلُّ نوعٍ من النخيل ما عدا العجوة والبَرْنِيّ.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ بلا قطع شيء منها ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ على ما كانت ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: القطع والترك كلاهما بأمر الله وحكمه ﴿وَ﴾ إنما أمركم بالقطع والحرق ﴿لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5] [1] أي: يرديهم ويذلهم بما غاظهم، ويضيق صدرهم.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ﴾ أي: ردّ الله وأعطاه ﴿عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من يهود بني النضير من الأموال والعقار فهو لرسول الله خاصة خالصة، له أن يفعل به حيث شاء بلا حق لكم فيها، ليس مثل سائر الغنائم ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ وأجريتم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تحصيله ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ نجائب الإبل؛ إذ هم مشوا إلى بني النضير رجالاً لا فرسانًا، وكانت المسافة ميلين من المدينة، ومع ذلك لا يقاتلون معهم مقاتلتكم مع سائر الكفرة ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من المستوجبين للطرد والمقت بلا وسائل القتال والحراب، بل يقذف الرعب، وإلقاء الخوف في قلوبهم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، الموجبة للهزيمة، لا عن شيء ﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ موجب لقهر أعدائه، ونصر أوليائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6] سواء وافق العادة أو لا.

وبالجملة: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ﴾ أموال ﴿أَهْلِ الْقُرَى﴾ الهالكة بالغلبة والاستيلاء بلا مقاتلة وحراب ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهم ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ من بني هاشم وبني المطلب سهم ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سهام، وإنما قسم سبحانه مال الفيء بنفسه ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ الفيء الذي حقه أن يصل إلى الفقراء ﴿دُولَةً﴾ متداولة

(1) قال القشيري (7 / 405): لمّا أمر رسولُ الله ﷺ بقَطعِ بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟! فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضّح أنّ ذلك بإذن الله ... فانقطعَ الكلامُ . وفي هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلّلةٍ، وأنّ الأمرَ الشرعيّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ، وسَكَتَتْ الألسنةُ عن المطالبة ب «لِمَ؟» وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان . والشيوخُ . قالوا: مَنْ قال لأستاذِه وشيخه: « لِمَ؟ » لا يفلح . وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر في قلبِه جَوَلان لا يجيءُ منه شيءٌ . ومَنْ لم يتجرّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحسانَ ما يبدوا من الغيب لِسِرّه وقلبِه - فليس من الله في شيء.

﴿بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ ورؤسائكم، كما هو عادة الجاهلية الأولى. ﴿وَ﴾ بعدما قسم سبحانه في كتابه ﴿مَا آتَاكُمُ﴾ وأعطاكم ﴿الرَّسُولُ﴾ المستخلف منه سبحانه ﴿فَخُذُوهُ﴾ بلا مراء ومجادلة معه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ بإذن الله ﴿فَانتَهُوا﴾ أيضًا عنه بلا مكابرة وإصرار ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ عن مخالفة أمره، وأمر رسوله النائب عنه، واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الحشر: 7] على من خرج من ربقة عبوديته، ومقتضى ألوهيته.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 8 - 10].

ثمّ بيّن سبحانه مصارف الفيء بعد إخراج سهم الله ورسوله، وقدم منهم فقراء المهاجرين اهتمامًا بشأنهم فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: أخرجهم المشركون، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم، والحال أنهم في مصائبهم هذه ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿فَضْلاً﴾ تفضلاً وإحسانًا ﴿مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه سبحانه؛ لكمال تمكنهم ورسوخهم في مقام الرضا والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَنصُرُونَ اللهَ﴾ بترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالمعاونة والمظاهرة، وبذل المال والنفس في تقويته ونصره ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون، الباذلون مهجهم في طريق الحق، وتقوية دينه القويم وصراطه المستقيم، ونصرة رسوله الكريم ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] المقصورون على الصدق والإخلاص ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَ﴾ بعد أولئك الفقراء الأنصار، وهم ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ أي:

توطنوا وتمكنوا في المدينة، ورسخوا على الإيمان والإسلام بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هجرة المهاجرين إليها، ومع رسوخهم وتمكنهم في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ محبة خالصة ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين ﴿وَ﴾ من كمال محبتهم وإخلاصهم بإخوانهم المهاجرين: ﴿لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ ووجدانهم ﴿حَاجَةً﴾ باعثة لهم إلى أن يحسدوا ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ وأعطوا؛ أي: المهاجرين من سهام الفيء، وسائر الغنائم والصدقات؛ وذلك من غاية محبتهم ومودتهم بالنسبة إليهم، بل ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يختارون ويقدمون المهاجرين ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ حتى إن من كان له امرأتان نزل عن واحدة وزوَّجها على أحدهم.

وبالجملة: يؤثرونهم ويختارونهم؛ أي: المهاجرين على أنفسهم في آخر ما آثروا لنفوسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] أي: حاجة شديدة بليغة، ومحبة بالنسبة إلى ذلك الشيء، وما هو إلا من فرط محبتهم وإخلاصهم بالنسبة إلى إخوانهم المهاجرين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ويخالفها حتى يمنعها عن مقتضاها طلبًا لمرضاة الله، ورعايةً لجانب أخيه المسلم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السعداء المحافظون على آداب الأخوة والمروة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] المقصورون على الفوز العظيم من عنده سبحانه عاجلاً وآجلاً، في العاجل بالذكر الجميل، وفي الآجل بالجزاء الجزيل.

﴿وَ﴾ بعد فقراء الأنصار للفقراء التابعين، وهم ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ مهاجرين من بقعة الإمكان نحو فضاء الوجوب، مقتفين أثر أولئك الكرام، مريدين لهم بإحسان، مذكرين لهم بغفران، حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع ربهم في خلواتهم، وأعقاب صلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على فطرة الإسلام ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا التي

(1) تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم، والإيثار شاهد الحب. وقد حكي عن وهيب بن الورد أنه قال: يقول الله: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد آثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (136/2).

صدرت عنَّا ﴿وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في الدين، وهم ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ وسلوك طريق العرفان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا﴾ يا مولانا ﴿غِلاًّ﴾ حقدًا وحسدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مطلقًا، لا للسابقين ولا للاحقين ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على الإخلاص والتوفيق تقبل منَّا مناجاتنا، واقض لنا حاجاتنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ عطوف على عموم عبادك، سيما المخلصين منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10] تقبل توبتهم، وتغفر زلتهم إن استغفروا نحوك نادمين عما صدر عنهم.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر: 11 - 14].

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ مع المؤمنين حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في خلواتهم ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وكان بينهم صداقة الشرك وأخوة الكفر، وموالاة البغض مع المؤمنين: لا تصالحوا مع هؤلاء المدعين؛ يعنون: المؤمنين، وإنَّا معكم، والله ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم عنوةً ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ألبتة ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ ونتبع ﴿فِيكُمْ﴾ أي: في قتالكم وحرابكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من هؤلاء الأعادي ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ونعاونكم ألبتة بلا خلف منَّا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعالهم ونياتهم فيها ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11] في قولهم وعهدهم هذا مع إخوانهم.

حيث قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ ألبتة ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا

﴿يَنصُرُونَهُمْ﴾ جزمًا، وقد وقع ذلك، فإن أُبي وأصحابه عهدوا مع بني النضير على هذا، ثمَّ أخلفوهم، وهم قد خرجوا من ديارهم، وهؤلاء لم يخرجوا ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بالفرض والتقدير، ويقاتلوا معكم أيها المؤمنون من جانب عدوكم، والله ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ وقت كركم عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: 12] بعد ذلك؛ لشدة خوفكم ورعبكم في قلوبهم.

وبالجملة: ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ مرهوبية ومرعوبية راسخة ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ متمكنة في نفوسهم من قبلكم، والحال أن تلك الرهبة الشديدة الحاصلة منكم إياهم ناشئة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ إذ هو سبحانه قذفها في صدورهم من جانبكم، وأقدركم عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عدم تفطنهم بمنشئها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 13] ولا يعلمون عظمة الله، وحق قدره حتى يخشوا منه حق خشيته.

وبالجملة: لا تبالوا أيها المؤمنون بودادة المنافقين مع اليهود، واتفاقهم معهم؛ إذ ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ محصورة، مسورة بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يستحصنون بها؛ وذلك من فرط رعبهم، وشدة رهبتهم من المؤمنين، وإلَّا ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: حين حارب بعضهم بعضًا، أو مع غير المؤمنين، قتالهم شديد وحرابهم عظيم، وإذا حاربوا مع المؤمنين ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ظاهرًا في بادئ النظر ﴿وَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1] متفرقة مختلفة حقيقةً؛ لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الافتراق والاختلاف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14] ولا يفهمون ما هو صلاحهم في الدارين، وفلاحهم في النشأتين.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ

(1) وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والتفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب. قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرّقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرّقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر. [العرائس].

قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ
عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر: 15 – 20].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ﴾ أي: مثلهم كمثل اليهود الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ بزمانهم ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا من أنواع الهوان والخسار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: 15] في الآخرة التي هي دار البوار.

بل مثلهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيطَانِ﴾ أي: مثل المنافقين في إغراء اليهود على قتال المؤمنين كمثل الشيطان وقت ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ﴾ أي: كل فرد وفرد من أفراد الكفرة: ﴿اكْفُرْ﴾ حتى أعينك على عموم مقاصدك ومرامك ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان – العياذ بالله – بتغريره ﴿قَالَ﴾ له الشيطان بعدما كفر: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ لا أعينك على شيء؛ لأنك كفرت بالله، وصرت عدوًا لله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ القادر القاهر الغيور أن ينتقم عني بسبب معاونتك ومظاهرتك؛ لكونه ﴿رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16] فلا يجري التصرف في ملكه بلا إذن منه سبحانه.

وبعدما كفر الإنسان بتغرير الشيطان وتلبيسه ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ أي: عاقبة الشيطان والإنسان الذي كفر بتغريره ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ تابعًا ومتبوعًا، لا زمانًا دون زمان، بل وقعا ﴿خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ مستمرين أبدًا ﴿وَذَلِكَ﴾ الخلود في النار ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 17] الخارجين عن ربقة الرقية الإلهية، وعروة عبوديته بتلبيس الشيطان وتغريره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: التقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أي: كل واحد من

النفوس المجبولة على نظرة الدراية والشعور على وجه العبرة والاستبصار ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وما ادخرت ليوم القيامة، وتزودت للنشأة الأخرى بعدما كلفت بأنواع التكاليف، وأمرت لإعداد زاد المعاد على وجه المبالغة، وكمال الإرشاد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا عن مخالفة أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18] من خير وشر، ونفع وضر، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالغافلين الذين ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: ذكره المستلزم للإيمان، المستلزم للمحبة والعرفان ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: معرفتها المستلزمة لمعرفة الحق، وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19] المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ولوازم العبودية، الجاهلون بقدر الألوهية مطلقًا.

واعلموا أيها المكلفون أنه ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ منكم وملازموها، وهم الذين اقترفوا طول عمرهم من سيئات الأعمال، وذمائم الأخلاق والأوصاف ما يستحقون دخول النار ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين اتصفوا بمحاسن الأعمال والأحوال، ومحامد الأخلاق والأطوار المنتجة لهم أنواع المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليهم حسب استنشاقهم من نسائم عالم اللاهوت، واسترواحهم من فواتح حضرة الرحموت، وبالجملة: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20] المفلحون المقصورون في الدرجات العلية، والمقامات السنية مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 21 – 24].

ثمّ وبّخ سبحانه نوع الإنسان المجبول على فطرة الإيمان والعرفان، وقرعهم بغفلتهم عن القرآن المرشد لهم إلى طريق التوحيد والإيقان بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ المنزل عليكم أيها التائهون في تيه الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال العظام، والله ﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾ أيها المعتبر الرائي؛ أي: الجبل ﴿خَاشِعًا﴾ خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققًا ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ القادر الغيور؛ يعني: من تأثير الوعيدات الهائلة، والإنذارات الشديدة الواقعة فيه على أهل التكليف، مع عدم قابليته على التأثر، وأنتم أيها الهلكى الحمقى، الهالكون التائهون في تيه الجهل والضلال، مع كمال قابليتكم واستعدادكم لا تتأثرون من وعيداته البليغة، وإنذاراته الشديدة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين مرتبة العبودية؛ من كمال البطر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] ويتفطنون منها إلى فطرتهم الأصلية المجبولة على التذلل والخشوع، والانكسار والخضوع، فيشتغلون بما جُبلوا لأجله من الإتيان بالطاعات، وأنواع العبادات اللائقة لمرتبة الألوهية والربوبية.

وكيف لا تتذللون له سبحانه أيها الحمقى الهالكون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي: الموجود الحق الحقيق ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل الواقع في الواقع، بحيث لا يعزب عن حيطة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ومع ذلك ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ على عموم الأكوان بإفاضة الوجود عليهم وتربيتهم، وتدبير مصالحهم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22] لهم، يوصلهم إلى فضاء وحدته، وسعة جنته ورحمته في النشأة الأخرى؟!

وبالجملة: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية، المتوحد بالقيومية، المتفرد بالديمومية ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ باستقلاله وصمديته في ذاته، وقيوميته في ملكه وملكوته بحسب مقتضيات أسمائه الحسنى،

وصفاته العليا؛ إذ هو ﴿المَلِكُ﴾ المتفرد بالحكم والاستيلاء التام، والسلطنة الغالبة ﴿القُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة إلى أقصى الغاية والنهاية ﴿السَّلامُ﴾ السالم عن مطلق النقائص، ولوازم الاستكمال، ولواحق الإمكان ﴿المُؤْمِنُ﴾ ذو الأمن والأمان على عموم الأعيان والأكوان ﴿المُهَيْمِنُ﴾[1] المراقب المحافظ على مقتضيات استعدادات عموم الأنام بكمال العدل والإحسان ﴿العَزِيزُ﴾ الغالب على عموم مراداته ومقدوراته بالفضل والامتنان ﴿الجَبَّارُ﴾ على عموم من خرج عن ربقة عبوديته بالإنكار والطغيان ﴿المُتَكَبِّرُ﴾[2] المتعالي عن كل أمر يشينه من العجز والنقصان، وبالجملة: ﴿سُبْحَانَ

---

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العَليّ عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العَليّ عليه، اي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية، هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عزّ جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الخيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

(2) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: وأرى - والله أعلم - أن معنى القدس جامع لمعاني الطهارة والطيب والزكاة والعدل والحمد كله والتنزيه عن الطبع والظلم والمعايب مما لا يليق به سبحانه وتعالى، وإن الفرق بينه وبين اسم السبوح أن معنى السبوح تنزيه لوجوده العَليّ عن المثل والنظير والكفء، وبحمده عن حوادث المخلوقين ونقائص المحدثين، فآية التسبيح الأول التوبة المفروضة والطهارة، وآية التسبيح الثاني الحمد كالصلاة ﷺ، ومبالغة في المراد المقصود بالتسبيح، ثم اسم القدوس عبارة عن هذا كله مع اقترانه بالملك وتوابعه، وأنه لا يجوز في تدبيره الظلم ولا في قضائه الحيف، ولذلك - وهو أعلم- أتبع الاسمين قوله: ﴿السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ﴾ [الحشر:23]، يقال: سبحت الله وسبحت لله وقدست الله، أي: وصفته بالقدس والطهارة والطيب، وقدست لله بمعنى

اللهِ﴾ أي: تنزه وتعالى ذاته وشأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23] ويثبتون له المشركون المفرطون علوّا كبيرًا.

كيف يشركون معه غيره أولئك المسرفون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللهُ الخَالِقُ﴾ المقصور المنحصر، المستقل على خلق الأشياء وتقديرها، وإيجادها وإظهارها من كتم العدم بمقتضى حكمته بالإرادة والاختيار ﴿البَارِئُ﴾ الموجد لها بمقتضى اسمه الرحمن بلا تفاوت ونقصان ﴿المُصَوِّرُ﴾ لصور الأشياء وهياكلها وأشكالها على أبلغ نظام وأعجب شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، وبالجملة: ﴿لَهُ الاَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾[1] التي لا تُعد ولا تُحصى، يتجلى على مقتضاها في كل آن في شأن؛ لذلك ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وينزهه على الدوام عن كل ما لا يليق بشأنه؟! ﴿وَ﴾

قدست لله عباده، قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:30] أي: عبادك، وقال عزّ من قائل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ﴾ [الجمعة:1]، وقد يعبر بالتقديس عن الصلاة، ثم عن سواها من الأعمال من ذلك قولهم: إن أرضًا لا تقدس صاحبها، إنما يقدس الإنسان عمله، وهذان اسمان جمعا ذكر المحامد كلها، والله أعلم، فقول القائل: سبوح قدوس رب الملائكة والروح شبيهة بقوله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2].

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العَليّ عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العَليّ عليه، أي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية.

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عزّ جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الحيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

بالجملة: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم ما أحاط به علمه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24] المدبر المتقن على مقتضى علمه وإرادته بلا مدافعة أحد ومظاهرته.

جعلنا الله ممن تحقق بوحدة ذاته، وانكشف بكمالات أسمائه وصفاته.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقر التوحيد، المنكشف بوحدة الذات وكمالات الأسماء والصفات الذاتية الإلهية - مكنك الله في مقر عزك بلا تذبذب وتلوين - أن تطالع آثار أسمائه الحسنى، وصفاته العليا على صفحات الكائنات الغيبية والشهادية، وتعتبر منها حسب استعدادك، وقدر قابليتك المودعة فيك من قِبَل الحق.

وإياك إياك أن تنحرف عن جادة العدالة الشرعية التي هي منتخبة عن العدالة الإلهية الواقعة بين مقتضيات أسمائه الذاتية، وصفاته العليّة، فلك أن تطابق عموم أعمالك وأخلاقك وأطوارك عليها، بحيث لا تهمل شيئًا من دقائقها؛ إذ بقدر إهمالك من حدودها أحطت عن درجة التوحيد، ومرتبة أهل الوحدة الذاتية؛ إذ الشريعة إنما هي الوقاية الموضوعة بالوضع الإلهي بين الأنام؛ ليوفقهم الحق بها إلى دار السلام التي هي مقعد صدق الرضا والتسليم الذي هو أعلى مقامات العارفين، وأقصى حالات الموحدين المكاشفين.

هدانا الله وعموم عباده إلى سواء السبيل، وأعاذنا الله وإياهم عن الانحراف والتحويل بلطفه الجميل، وكرمه الجزيل.

سورة الممتحنة

فاتحة سورة الممتحنة

لا يخفى على من تمكن بمقام التوحيد، وانكشف بسرائر الوحدة الذاتية مقدار ما يسر الله له ووفقه عليه فضلاً منه سبحانه، وعنايةً أن من تقرر في مقر عز الوحدة لا بدَّ أن يجتنب عن أصحاب الغفلة والكثرات المترددين في أودية الضلالات بأنواع الحيرة والحسرات، ويعيشون في بقعة الإمكان بأنواع الخيبة والخذلان، فلا بدَّ لأرباب الرسوخ والتمكن من الموحدين المخلصين ألَّا يصاحبوا معهم، ولا يوالوهم موالاتهم مع الموحدين، ولا يلتفتوا إليهم، وإلى عموم أطوارهم وأحوالهم.

إن عدو البليد إلى الجليد سريعة، ولوازم الإمكان مشتركة، وغواشي البشرية سارية، وطلسمات الطبيعة البهيمية سارقة؛ لذلك أوصى سبحانه خُلَّص عباده المؤمنين الموحدين بما أوصى، ونهاهم عما نهاهم من محبة الأعداء وموالاتهم في السراء والضراء، فقال مناديًا لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده في كل حال ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم، يحفظهم من سوء الأخلاق والأعمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوقظهم عن منام الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوصال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: 1 – 3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى اتصافكم بالإيمان بالله وبوحدة ذاته، وكمالات أسمائه وصفاته: أن ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ وهم الذين خرجوا من عروة عبوديتي بإثبات الوجود لغيري ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ إذ عداوتهم إياي مستلزمة لعداوتهم إياكم أيضًا؛ إذ صديق

العدو كعدو الصديق ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء، توالون معهم كأرباب المحبة والولاء، وتظهرون محبتهم ومودتهم إلى حيث ﴿تُلْقُونَ﴾ ترسلون ﴿إِلَيْهِم﴾ رسالة مشعرة ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ الخالصة، المنبئة عن إفراط المحبة والإخاء ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا ﴿بِمَا جَاءَكُم﴾ أي: بعموم ما نزل على رسولكم ﴿مِّنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتِّباع، وبالغوا في الإعراض والإنكار إلى حيث ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ أصالةً ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ تبعًا بواسطة ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والإيمان، وقبول دين الإسلام من النبي المبعوث إلى كافة الأنام؛ ليرشدهم إلى دار السلام.

وبالجملة: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم، وبقاع إمكانكم ﴿جِهَادًا﴾ أي: لأجل الجهاد والقتال ﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: سبيل توحيدي، وترويج ديني، وإعلاء كلمة توحيدي ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ في امتثال أمري، وإطاعة حكمي فلزمكم ترك موالاة أعدائي والمؤاخاة معهم، مع أنكم أنتم ﴿تُسِرُّونَ﴾ وتخفون ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[1] ظنًا منكم أني لا أطلع على ما في سرائركم وضمائركم من محبة

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: يا أيتها القوى المؤمنة لا تتخذوا القوة الكافرة القالبية والمشركة المنافقة النفسية، وإن كانت عشائركم أولياء؛ لأنهم يريدون أن تشتغلوا بالشهوات العاجلة ليتمتعوا بحظوظهم من اشتغالكم بالشهوات العاجلة، ويعذبكم ربكم في الآخرة، ولا تلقوا لهم من أسرار الوارد، وأخبار اللطيفة الخفية بمودة أصلية كانت بينكم وبينهم؛ لأن السالك يريد أن يعارضهم ويدخلهم في ميدان الخلوة، ويجاهدهم ولو ألفت القوة المؤمنة إلى القوة الكافرة خير إدخالهم في الخلوة أبوا واعتدوا وجعلوا يمكرون مكرًا ويكيدون كيدًا ليضروا اللطيفة الخفية إلى حد شاهدنا أنها تمرض الوجود وتظهر الآلام الشديدة والأوجاع المؤلمة في وجود السالك، لئلا يدخل في الخلود ولا يشتغل بالعزلة، فإن كان السالك صادقًا لا يضره كيدهم، بل يحرضه ويبالغ في المجاهدة مع وجود الآلام والأوجاع، وهذا الابتلاء يتقن كثيرًا عند غيبة السالك عن حضرة مسلكه إني أردت في بداية أمري أن أدخل الخلوة في أربعين [موسوية] ففطنت القوى القالبية والنفسية الكافرة المشركة لأخيارهم القوى المؤمنة اللائمة فأمرضوني، وكان لي أخ في الدين من سلاك الطريقة رحمه الله قال لي: اترك الخلق في العشر الأول وداو نفسك حتى تصح، ثم أدخل في الخلوة على سنة المصطفى ﷺ وتمم ثلاثين يومًا، فأطعت أمره فلما دخل ليلة أول أربعين وهيئوا لي مشروبًا سهلاً لأشرب صبيحة تلك الليلة، فجاء الخادم، وقال: إن أحدًا من المغنين جاء مسافرًا من جانب خراسان، ويستأذن أن يدخل عليك، ويزمزم لكم فقلت: ائذنوا فدخل وقعد وزمزم، وقال في أول اشتغاله بالزمزمة: هذه الفارسية المهيجة، وهي شعر، فغلب علي الوقت لأني سمعت هذا الكلام من الحق زرفت ورقصت، وهيج في باطني أشواقًا

الأعداء ومودتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي: بجميع ما تسرون وما تعلنون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: الاتخاذ المذكور ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1] أي: انحرف عن جادة العدالة الإلهية، ومال عن الصراط المستقيم الموصل إلى مقصد التوحيد.

واعلموا أيها المؤمنون أنكم، وإن بالغتم في إظهار المحبة والمودة بالنسبة إليهم، وهم بمكان من العداوة وشدة الخصومة إلى حيث ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ ويظفروا منكم بالفرض والتقدير ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ألبتة، بل يظهروا العداوة ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والأسر وقطع العضو، والشتم المفرط، وأنواع الوقاحة، بل ﴿وَوَدُّوا﴾ وتمنوا في أنفسهم دائمًا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: 2] وترتدون عن دينكم، وتلتحقون بكفرهم.

فعليكم ألّا تبالوا بأقاربكم وأرحامكم من الكفرة، ولا تلتفتوا نحوهم؛ إذ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أنتم توالون المشركين لأجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنقيد الأعمال الصادرة عن كل نفس؛ إذ الله ﴿يَفْصِلُ﴾ ويفرق ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يومئذٍ، فيجازي كلاً منكم حسب ما كسبوا خيرًا كان أو شرًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: 3] يجازيكم عليه بمقتضى بصارته وخبرته.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ

عظيمة، فلما فرغت من السماع دخلت الخلوة، وجلست وما ضرني المرض، وفتح الله علي في تلك الخلوة فتوحات عظيمة لا حرمنا الله من أمثالها، فالمقصود من إيراد هذه الحكاية أن يعرف السالك كيد القوى ومكرها، ولا يلتفت إليها، ولو تمرض يقول لها: الدخول في الخلوة وقت المرض، وكثرة الطاعة في هذه الحالة أجود والمرض مبشر رسول الموت، فينبغي أن تدخل الخلوة، وتشتغل بذكر الحق لتموت فيها مستريحًا، فإذا رأت القوة الكافرة وصدق السالك خافت من صدقه وهربت عنه.

﴿ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: 4 – 6].

ولا تستنكفوا عن حكم الله إياكم بقطع أرحامكم الكفرة، وأقاربكم المشركين؛ إذ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ وقدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة لائقة يُؤتسى ويُقتدى بها، وكانت تلك القدوة نازلة ﴿فِي﴾ شأن ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ المؤمنين له، المسترشدين من المتدينين بدينه، وقد كانوا يقولون بمقتضى تلك الأسوة الحسنة وقت ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ الذين هم أقاربهم وأرحامهم الكفرة وعبدة الأوثان: ﴿إِنَّا﴾ بعدما كوشفنا بوحدة الحق ﴿بُرَآءُ﴾ بريئون ﴿مِنكُمْ﴾ لانهماكهم في الشرك أيضًا ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان الباطلة العاطلة، وبالجملة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبدينكم الباطل، ومعبوداتكم العاطلة الباطلة.

﴿وَ﴾ بعد اليوم ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ لا نصالح ولا نواسي معكم أصلاً ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ وتتبرؤوا عن معبوداتكم الباطلة مثلنا، فعليكم أيها المؤمنون اليوم أن تأتسوا وتقتدوا لجميع ما قال إبراهيم ﷺ ومن تبعه لقومهم فيما مضى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الكافر: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ من الله يا أبي، وبالجملة: اقتدوا أيها المؤمنون بجميع أطوار إبراهيم ﷺ وأقواله سوى هذا القول لأبيه معتذرًا منه بقوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ أي: ما أقدر وأدفع منك ﴿مِنَ﴾ غضب ﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿مِن شَيْءٍ﴾ نزل عليك بمقتضى قهره وسخطه سبحانه سوى الاستغفار والشفاعة إن قَبِل الملك الغفار مني هذا، وذلك قبل ورود النهي ﷺ عن ودادة أهل الكفر، أو صدر عنه هذا الموعود وعدها إياه.

وبعدما أُمرتم أيها المؤمنون بمحبة الله ومحبة رسوله والذين آمنوا معه، وتدينوا بدينه، ونُهيتم عن مودة الأعداء وموالاتهم، ومواساة أخلاقهم وأطوارهم، قولوا مسترجعين إلى الله، مناجين معه: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربّانا على فطرة التوحيد والإسلام ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في كل الأمور بلا رؤية الوسائل في البين ثقةً واعتمادًا عليك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ عدنا ورجعنا في الخطوب وعموم الملمات، لا إلى غيرك من الأسباب العادية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 4] كما أن مصدره منك؛ إذ لا موجود سواك، ولا مقصد ولا مقصود غيرك.

ويعدما وطنتنا في مقر توحيدك يا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنوا بنا، ويصيبونا بعذاب لا طاقة لنا بحمله ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ ما فرطنا بمقتضى بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: 5] المتقن في تدبير مصالح العباد، وما جرى عليهم في المعاش والمعاد.

ثمّ بالغ سبحانه في التأسي والاقتداء بملة إبراهيم عليه السلام وقدوته فقال مؤكدًا بالقسم: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ جرية صالحة يُؤتسى ويُقتدى ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ﴾ أي: التحقق برضاه، والتسليم بقضاه ﴿وَ﴾ يرجو ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ليتحقق عند مولاه بما وعد له وهيأه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يؤمن بالوقوف بين يدي الله فلن يضر الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المستغني بذاته، لا احتياج له إلى رجاء الراجين ومناجاتهم معه، ورفع حاجاتهم إياه ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: 6] حسب أسمائه وصفاته بلا افتقار له إلى حمد الحامدين، وشكر الشاكرين.

﴿ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: 7 – 9].

ثمّ لمّا ورد النهي الإلهي على وجه المبالغة والتأكيد عن موالاة ذوي الأرحام والأقارب من الكفرة تبرأ المؤمنون من أقاربهم وعشائرهم المشركين، وعادوا معهم، إلّا أنهم أضمروا في نفوسهم حزنًا وغمًا، فوعد الله سبحانه لهم إيمان أقاربهم تسليةً لهم، وإزالةً لحزنهم، فقال: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1] ومحبة خالصة جامعة بينكم وبينهم، ألا وهي الإسلام المسقط

(1) هذه إشارةٌ إلى الرفق في مجاهدة النفس، ربما تطمئن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته، قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى الممات، ومن الموت إلى النشور، قال ﷺ: «أحببْ حبيبك هونًا ما

لجميع الآنام ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلك الجمع المستلزم للمودة ﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر على جمعكم ﴿غَفُورٌ﴾ لفرطاتكم التي صدرت منكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7] يرحمكم بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثمَّ لمَّا تحرَّج المؤمنون من عدم موالاتهم مع أقربائهم الكفرة، وذوي أرحامهم المشركين إلى حيث قدمت قتيلة بنت عبد العزى مشركة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا فلم تأذن لها بالدخول، ولم تقبل هديتها، فنزلت: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ﴾ الحكيم العليم ﴿عَنِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولم ينهكم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ ولا تحسنوا إليهم؛ إذ لا سبب للنهي عن ودادة هؤلاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿تُقْسِطُوا﴾ وتفيضوا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالقسط الإلهي على مقتضى الوصلة الموضوعة بينكم بالوضع الإلهي ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] المعتدلين في عموم الأحوال، سيما على ذوي القربى.

بل ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَنِ﴾ موالاة أقربائكم ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ يعني: مكة - شرفها الله - ﴿وَ﴾ الذين ﴿ظَاهَرُوا﴾ أعانوا ونصروا ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ وإن لم يباشروا بجوارحهم، لكن أعانوا على المباشرين المخرجين بالقول والمال، وإيقاع الفتنة؛ لذلك نهاكم سبحانه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتختلطوا معهم، وتوالوهم؛ أي: المجرمين والمعاونين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم بعد ورود النهي ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9] الخارجون عن مقتضى النهي الوارد من قِبَل الحق فيستحقون العذاب الأليم؛ بسبب خروجهم عن مقتضى النهي الإلهي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ

عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».

﴿فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: 10 - 11].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ المذعنات للإيمان حال كونهن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من قِبَل الكفار ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ واختبروهن، وانظروا إليهن بنور الله المقتبس من مشكاة الإيمان، متفرسين هل تجدوهن مواطئة قلوبهن بألسنتهن، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في قلوبهن ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وبعدما تفرستم في شأنهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ وظننتموهن ﴿مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ ولا تردوهن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ حتى لا يصرن مرتدات، وبالجملة: بعد ظهور الإيمان منهن ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: للأزواج الكفار ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: الأزواج ﴿يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لاختلافهما في الدين.

﴿وَ﴾ بعدما حفظتموهن وحكمتموهن بالإيمان، إن جاء أزواجهن في طلبهن ﴿آتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ أي: مهورهن ﴿وَ﴾ بعدما آتيتم وأعطيتم مهورهن لأزواجهن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن مرة أخرى مثل مهور سائر المؤمنات، ولا تحسبوا عليهن ما أعطيتم لأزواجهن من المهور.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أنه لا رخصة لكم في دينكم أن تردوا المؤمنات المهاجرات إلى الكفار ﴿لَا تُمْسِكُوا﴾ أي: لا تبقوا أيضًا أزواجكم أيها المؤمنون ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ أي: لا تقيموا بعقود أزواجكم الكافرات الملحقات إلى الكفار، بل خلوا سبيلهن ﴿وَاسْأَلُوا﴾ منهن ﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾ لهن من المهور بعدما لحقن بالكفار ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ أي: الكفار أيضًا منكم ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ من المهور لأزواجهم المؤمنات المهاجرات، الملحقات بكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿يَحْكُمُ﴾ به ﴿بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10] يحكم بما يقتضيه علمه وحكمته.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شَيْءٌ مِّنْ﴾ مهور ﴿أَزْوَاجِكُمْ﴾ بعدما لحقن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ولم يؤدوا جميع مهورهن إليكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ بعد ذلك، وغلبتم على الكفار المتمردين على أداء مهوركم، وأخذتم الغنائم منهم ﴿فَآتُوا﴾ وأعطوا أيها المؤمنون قبل القسمة ﴿الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ إلى الكفار ﴿مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ في مهور أزواجهم

الكافرات الملحقات ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(1) [الممتحنة: 11] ولا تضيعوا حق أخيكم المؤمن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: 12 – 13].

ثمّ قال سبحانه مناديًا لنبيه على سبيل الإرشاد والتعليم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ويقبلن منك مطلق الحقوق والحدود المعتبرة في الشرع، سيما ﴿عَلَى أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿شَيْئًا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ من حرز إنسان ماله ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ سواء كن محصنات أو غير محصنات ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كإسقاط جنين، ووأد البنات وغيرها ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا تأتي المرأة بشيء فاحش إلى حيث تقذف بولدها بأنه ليس من زوجها؛ بسبب ذلك الشيء الذي صدر عنها، يبهت الناس بسببه، ووقعوا في الافتراء لأجله ﴿وَ﴾ بالجملة: يبايعنك على أن ﴿لَا يَعْصِينَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا تأمرهن بها أصلاً حالهن، وإذا بايعن معك على ترك الخصائل المذمومة ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أيضًا ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾ بما صدر منهن قبل البيعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في نياتهن من الإخلاص ﴿غَفُورٌ﴾ يغفرهن بعدما أخلصن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12] يقبل توبتهن.

ثمّ لمّا واصل بعض فقراء المسلمين اليهود؛ ليصيبوا من ثمارهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا

(1) قال السمناني: يعني: اتقوا الله من أن يبقى معكم من الأخلاق الردية التي حصلت للقوة القابلة من القوى الكافرة والمشركة أو تبقى مع القوة القابلة المرتدة من الأخلاق الشريفة التي حصلت لها من القوى الفاعلة المؤمنة لئلا يكون لهم ملك الأخلاق استعدادًا للإغواء ولأجل هذا السر من المشايخ بان لا يؤذن لسالك خرج من حباله شيخه أن يدخل في دائرة الصوفية لأنه سارق بسرق المعارف والوقائع ويدعوا الخلق إلى نفسه بتلك الاستعدادات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ترك مواصلة اليهود ومصاحبتهم ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: عامة المشركين؛ لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾ وقنطوا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لذلك لم يؤمنوا بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13] يعني: مثل يأسهم من البعث وحشر أصحاب القبور، وإخراجهم منها أحياء، ووقوفهم بين يدي الله، فعليكم ألَّا تصاحبوا معهم إن كنتم مؤمنين مصدقين بها.

جعلنا الله من المصدقين بيوم الدين، وبعموم ما فيه من المؤمنين الموقنين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي - مكنك الله في مقر عز التوحيد واليقين، وجنبك عن طريان التردد والتلوين - ألَّا تصاحب أهل الغفلة وأصحاب الجهالات، المنهمكين في بحار الأوهام والخيالات الموروثة لهم من مقتضيات الإمكان المستلزم لأنواع الخذلان والهوان، فلك أن تلازم زاوية الخمول بالعفاف قانعًا من الدنيا بالكفاف، مجتنبًا عن مخائل أصحاب الجزاف، متوكلاً على الصمد المعين، متوجهًا نحوه في كل تحريك وتسكين، راضيًا بما جرى عليك من القضاء، مطمئنًا بما وصل إليك من العطاء، شاكرًا لنعم الله في السراء والضراء، مقتصدًا بين الخوف والرجاء، مفوضًا عموم أمورك إلى المولى، متعطشًا في جميع أحوالك إلى شرف اللقاء، وما هي إلا جنة المأوى، وسدرة المنتهى.

رزقنا الله وعموم عباده الوصول إليها، والتحقق دونها بمنِّه وجوده.

سورة الصف

فاتحة سورة الصف

لا يخفى على من تحقق بمرتبة اليقين الحقي، وتمكن عليها بعد ترقيه عن اليقين العلمي والعيني وخلص عن مطلق التلوين والتخمين، وغاص في لجة بحر الوجود متصفًا بأنواع الكشف والشهود، واستغرق في الحوض المورود، ووصل إلى المقام المحمود أن ما صدر عن أمثال هؤلاء الواصلين من الأعمال والأقوال، وعموم المقامات والأحوال إنما هو على مقتضى الاعتدال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط؛ إذ الواصلون إنما هم المتخلقون بأخلاق الله، المتصفون بأوصافه المعتدلة وأسمائه الغير المتبدلة، والمؤمنون المخلصون لا بدَّ وأن يكون عموم مقاصدهم منتهية إلى الوصول بالوحدة، والتحقق بالتخلق بعموم الأوصاف الذاتية الإلهية، بل توجه جميع المظاهر إنما هو على هذا المطلب الأعلى، والمقصد الأقصى؛ لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بتوجه عموم مظاهره نحوه.

ثمّ نادى المؤمنين بما نادى إرشادًا لهم، وإصلاحًا لحالهم فقال بعد التيمن باسمه العزيز: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى بمقتضى العدالة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بوضع الميزان الموصل لهم إلى طريق الجنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى فضاء الوجوب بعد انخلاعهم عن لوازم الإمكان.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف: 1 - 5].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزهه بكمال التقديس والتنزيه جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات ﴿وَ﴾ كيف لا يتوجه نحوه عموم الموجودات؛ إذ ﴿هُوَ العَزِيزُ﴾ الغالب على مطلق المقدورات والمرادات ﴿الحَكِيمُ﴾ [الصف: 1] المتقن في جميع التدبيرات والتقديرات؟!

ثمَّ لمَّا عاهد المسلمون مع الله عند رسول الله ﷺ، وقالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فنزل: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: 4]، فولوا يوم أُحد منهزمين، ولم يوفوا بعهدهم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الوفاء بالعهد ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وقت المعاهدة والميثاق مع الله ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2] ولا توفون وقت الوفاء.

واعلموا أيها المؤمنون أنه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ وعظم جريمة وذنبًا ﴿عِندَ اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَن تَقُولُوا﴾ وتعاهدوا معه سبحانه ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3] وقت الوفاء، ولا تنجزوا المعهود الموعود.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ لترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿صَفًّا﴾ مصطفين مظاهرين، متعاونين ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1] [الصف: 4] منضد محكم، مضمم بعضها مع بعض بحيث لا فرج فيها ولا شقوق.

ثمَّ اعلموا أن عدم وفائكم بالعهود لا ينقص شيئًا من عظمته، كما أن وفاءكم لا تزيد فيها، لكن نقضكم الميثاق يؤذي النبي، وإيذاء النبي مستلزم لإيذاء الله وبغضه، وإرادته المقت والغضب على المؤذي ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمناقضين قصة تأذي أخيك موسى الكليم - صلوات الله عليه - من قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ حين

(1) قال علاء الدولة: يعني: اتقوا الله من أن يبقى معكم من الأخلاق الردية التي حصلت للقوة القابلة من القوى الكافرة والمشركة أو تبقى مع القوة القابلة المرتدة من الأخلاق الشريفة التي حصلت لها من القوى الفاعلة المؤمنة لئلا يكون لهم ملك الأخلاق استعدادًا للإغواء ولأجل هذا السر من المشايخ بان لا يؤذن لسالك خرج من حباله شيخه أن يدخل في دائرة الصوفية لأنه سارق بسرق المعارف والوقائع ويدعوا الخلق إلى نفسه بتلك الاستعدادات.

رموه بالبغية، وعيروه بالأدرة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه على مقتضى ملاينة أرباب الرسالة مع أممهم؛ لينزجروا عن سوء الأدب ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة البعيدة بمراحل عن الصدق ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿قَد تَّعْلَمُونَ﴾ يقينًا بما جئت لكم من المعجزات الساطعة، الدالة على صدقي في دعواي ﴿أَنِّي رَسُولُ اللهِ﴾ المرسل من عنده بمقتضى وحيه ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم إلى سبيل الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده، ومقتضى علمكم: ألا تؤذوني، فلم تؤذونني؟!

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالوا عن الحق، وانحرفوا عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية ﴿أَزَاغَ اللهُ﴾ المقلب للقلوب ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ وصرفها عن قبول الحق والميل إليه فضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا الويل العظيم، والعذاب الأليم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ العليم الحكيم ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5] [1] الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية التي هي الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: 6 – 9].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل أيضًا وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

---

(1) قال الورتجبي: وصف قومًا لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشد، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنةٌ أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم، قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقًا، فأزاغهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل، وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة، قال الأستاذ: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

مناديًا لقومه ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾ أرسلني؛ لإرشادكم إلى طريق الحق وصراط توحيده؛ لأكون ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ المنزلة من عنده سبحانه؛ لضبط ظواهر الأحكام والأخلاق المستتبعة لتهذيب الباطن عن مطلق الزيغ والضلال، المنافية لصفاء مشرب التوحيد ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أيضًا، أبشركم ﴿بِرَسُولٍ﴾ كامل في الرسالة، متمم لمكارم الأخلاق ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ مظهر لتوحيد الذات، خاتم لأمر الرسالة والتشريع ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سُمِّي به ﷺ؛ لكون حمده أتم وأشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل؛ إذ محامدهم لله إنما هو بمقتضى توحيد الصفات والأفعال، وحمده ﷺ بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الأفعال والصفات.

وبعدما أظهر عيسى – صلوات الله عليه – دعوته طالبوه بالبينة الدالة على صدقه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] الواضحات، والمعجزات الساطعات التي هي أكثر من معجزات موسى، وبعدما رأوا منه ما رأوا من الخوارق التي ما ظهر مثلها من الأنبياء بادروا إلى تكذيبه مكابرةً وعنادًا، حيث ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: عيسى عليه السلام، أو ما جاء به من المعجزات ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6] ظاهر كونه سحرًا، أو كماله في السحر إلى حيث كأنه تجسم منه، وليس تكذيبهم إياه – صلوات الله عليه – بعد وضوح البرهان، ونسبته إلى شيء لا يليق بشأنه إلّا خروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لأداء حقوق العبودية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد خروجًا عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْكَذِبَ﴾ ونسب ما أنزله سبحانه من المعجزات الدالة على صدق رسوله المؤيد من عنده بالنفس القدسية، المبعوث إلى الناس؛ ليرشدهم إلى

(1) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمِّل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأمجد، سماه في أهل السماوات باسمه (أحمد)، إظهارًا لمنزلته عند ربه، وعلو رفعته عند خالقه فكأنه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغُنم في تنزيهي وتقديسي وذكري، فلقد زاد على حمدكم حبيبي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمري، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسير محامدي.

طريق توحيده ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي: المفتري الظالم ﴿يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾ المتقدس عن جميع الآثام لو قَبِلَه وصدَّقه، وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي، وهو من غاية عتوه وعناده في موضع الإجابة والقبول يرده ويكذبه، وينسب معجزات الداعي إلى السحر والشعبذة مراءً وافتراءً ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: 7] الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لذلك يخرجون.

وليس غرضهم من هذا الافتراء والتكذيب بعد وضوح ظهور الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة إلّا أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفتنتهم هذه ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتشعشع من مطالع عموم الكائنات، ومشارق جميع الذرات، ألا وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لتبيين توحيد الذات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بمجرد قولهم الباطل، الزاهق الزائل بلا مستند عقلي أو نقلي، فكيف عن كشفي وشهودي ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مبالغ في إشاعته وإشراقه غايتها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8] ظهوره وشيوعه إرغامًا لهم وإذلالاً؟!

وكيف لا يتم سبحانه شيوع نور وحدته الذاتية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدًا ﷺ ولمصلحة هذا التتميم والتكميل، وأيده ﴿بِالْهُدَى﴾ والقرآن العظيم ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفية السمحة البيضاء الموروثة له من جده إبراهيم ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ويغلبه؛ أي: الدين القويم، المبين لصراط الحق وطريق توحيده الذاتي ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على عموم الملل والأديان الواردة؛ لبيان توحيد الصفات والأفعال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(1)

---

(1) قال السمناني: يعني: هو الذي خلقكم وهداكم إلى السلوك بأمر اللطائف المرسلة إليكم يرسل رسوله الكريم، وهو اللطيفة الخفية الداعية إلى الحق المعلمة أمر التقويم والتصقيل والتوجيه للمرآة التي هي منظورة الحق على وجه يمكن إكمال المرآة به، ويجعلها مستحقة لأن ينظر إليها الله تعالى بنظر جلاله وجماله ويشاهد فيها ذاته وصفاته وأفعاله وآثاره على وجه التفضيل؛ ولهذا السر أظهر هذا الدين على الأديان كلها، وسنحت الشرائع بشريعتها الزهري، ولو كره المشركون الذين أشركوا بالله بإثباتهم اللطائف بالنبوة والقوى القابلة والفاعلة بالشركاء الله تعالى، عما يقول.

[الصف: 9] ظهور توحيد الحق؛ لما فيه من قطع عرق الشرك جليًا كان أو خفيًا؟!

ثمّ قال سبحانه بعدما أشار إلى ظهور دين الإسلام، وإعلاء كلمة التوحيد حثًا على المؤمنين، وترغيبًا لهم إلى ترويج الدين القويم الذي هو الصراط المستقيم، الموصل إلى مرتبة حق اليقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10] كأنه قيل: ما التجارة المنقذة المنجية؟.

قال سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ ببذلها في الخطوب ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالاقتحام على الحروب ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي ذُكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونفعه عائد إليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 11] ما هو أصلح لكم، وأنفع في نشأتكم الأولى والأخرى.

وإن تؤمنوا بالله، وتصدقوا رسوله، وتجاهدوا في سبيله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي أتيتم بها قبل ذلك ﴿وَ﴾ بعدما نغفر ذنوبكم ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة التي هي حضرة العلم الإلهي ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ من الحالات والمقامات السنيّة، والدرجات العليّة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ التي هي المعرفة واليقين مصونة عن شوب الشرك، وريب الحسبان والتخمين ﴿ذَلِكَ﴾ الستر والإدخال هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: 12] والفضل الكريم على أرباب المعرفة واليقين من الله العزيز العليم.

﴿وَ﴾ لكم أيها المعتبرون المجاهدون عنده سبحانه نعمة ﴿أُخْرَى﴾ من النعم التي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وهي ﴿نَصْرٌ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ العزيز الحكيم عليكم، إلى حيث يغلبكم على عموم أعدائكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ في العاجل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:

المشركون والكافرون علوًا كبيرًا: هو الله الواحد الأحد الصمد لم تتخذ صاحبة ولا ولدًا خلق القوى القابلة بنظر ربوبيته، وخلق القوى الفاعلة بنظر ألوهية وأزوج بينهما بحكمته، وأخرج من بينهما ذريته ليكونوا مظاهر لطفه وقهره، وهو الغالب على أمره يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد في ملكوته.

13] المجاهدين يا أكمل الرسل بأنواع البشارات الدنيوية والأخروية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)﴾ [الصف: 14].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: نصرة دين الله، وتقوية رسوله ﴿كُونُوا﴾ بأموالكم وأنفسكم ﴿أَنصَارَ اللَّهِ﴾ وأنصار رسوله، وقولوا في مقابلة نبيكم ما قال الحواريون في مقابلة عيسى ﷺ ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ مختبرًا إخلاصهم ومحبتهم، ونهاية مرتبتهم في اليقين، ودرجتهم في أعلى عليين: ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾ وأعواني في توجهي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وانتشار توحيده بين أظلاله المستمدين من أظلال أوصافه وأسمائه؟

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ من كمال انكشافهم بالله وتوحيده، وتحققهم في مقام الشهود، وتمكنهم فيه: ﴿نَحْنُ﴾ الفانون في الله، الباقون ببقائه، المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وأحباؤه؛ إذ لا مرجع لنا سواه، ولا مقصد إلا إياه.

والحواريون هم أول من آمن بعيسى ﷺ من الحور، وهو البياض، وهم اثنا عشر، سُموا به؛ لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين، وبعدما أظهر عيسى ﷺ دعوته بين الأنام ﴿فَآمَنَت﴾ به ﷺ ﴿طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت﴾ به ﷺ ﴿طَّائِفَةٌ﴾ أخرى منهم، وبعد وقوع الخلاف والاختلاف ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وغلّبنا الطائفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ يعني: الطائفة الذين كفروا به ﷺ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا؛ أي: المؤمنون ﴿ظَاهِرِينَ﴾[1] [الصف: 14] غالبين على الكفرة بالحراب والحجة، ألا إن

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: إذا شرفوا بالتجلي الجمالي صاروا غالبين على من كفر من أمة مؤمنة باللطيفة السرية كافرة باللطيفة الخفية، فهكذا أيتها القوى المؤمنة باللطيفة الخفية إن كنتم تؤمنون باللطيفة الخفية تردكم بتجليات الجمال، بحيث تصبحون ظاهرون غالبين على عدوكم

﴿حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 56]؟!

جعلنا الله وعموم عباده من محبيهم، ومقتفي أثرهم بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المنجذب نحو الحق، المنخرط في سلوك أرباب التوحيد الملقّبين بأنصار الله، المهاجرين عن كورة بقعة الناسوت نحو مدينة الوحدة اللاهوتية، وسواد أعظم الفقر - أعانك الله إلى أن تصل أقصى مرامك، وأعلى مقامك من المعرفة والتوحيد - أن تجمع همك، وتشمر ذيلك لسلوك سبيل الفناء من طريق الموت الإرادي المثمر للفناء المطلق عن الفناء أيضًا؛ لتفوز بالبقاء الأزلي السرمدي، ألا وهي طريقة الحضرة الختمية المحمدية، المبعوث إلى كافة البرية؛ لبيان طريق التوحيد الذاتي، المسقط لجميع الكثرات؟!

فلك أن تصفي سرك وضميرك عن نقوش مطلق المعتقدات، وصور عموم الرسوم والعادات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وتقتفي أثر نبيك ﷺ أمثال الحواريين أثر نبيهم بلا شوب وريب؛ لينكشف لك طريق المعرفة واليقين بعد توفيق الله، وجذب من جانبه، وطول خدمته الشريفة النبوية، والنواميس المصطفوية، وإياك إياك الالتفات إلى الدنيا وما فيها؛ ليمكن لك التصفية والتخلية التي هي مقدمة الكشف والشهود.

هدانا الله إلى سبيل توحيده بفضله وطوله.

مع القوى الكافرة والمشركة القالبية والنفسية.

سورة الجمعة

فاتحة سورة الجمعة

لا يخفى على من انكشف له سرائر مرتبتي النبوة والولاية، المتشعبتين عن حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه المشتمل على ما كان ويكون وقلم تقديره، المصوّر لنفوس الأظلال والسوى الظاهرة على مرآة العدم حسب الإرادة الكاملة، والحكمة الباهرة الإلهية المقتضية لها أن ظهور هاتين المرتبتين إنما هو بالوهب الإلهي، بلا جريان الاكتساب بالآلات والأسباب على مقتضى جزي العادة في العلوم الرسمية الحاصلة باستعمال القوى المدركة الإنسانية.

لذلك أخبر سبحانه عن كمال قدرته على بعث الرسول الأمي الأكمل من جميع الرسل على الأميين، بلا وسائل الإملاء والإنشاء، وختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل الذي هو المقصود الأصلي من مرتبة الرسالة والنبوة، فقال سبحانه بعدما نبّه على أهل التوحيد برجوع عموم الكائنات نحوه سبحانه بكمال التوحيد والتسبيح، والتقديس عمّا لا يليق بشأنه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر جميع الأشياء بكمال قدرته من كتم العدم، بلا سبق مادة ومدة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم الأكوان ببعث الرسل من نوع الإنسان المصوّر بصورة الرحمن ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى روض الجنان، ويشوقهم بلقاء الجنان.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: 1 – 5].

لذلك ﴿يُسَبِّحُ﴾[1] ويقدس ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المنزّه عن مطلق التحديد مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيحًا وتقديسًا، مقرونًا بكمال التذلل والخضوع إلى ﴿الْمَلِكِ﴾ المتسلط بالاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة الغالبة على مملكة الوجود ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المنزّه الطاهر ذاته عن سمة الحدوث، ووصمة الإمكان ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على عموم المقدورات بكمال الاستيلاء والاستقلال ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1] المتقن في مطلق التدابير الجارية في عالم التصاوير بلا فتور وقصور.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ بمقتضى كمال قدرته وحكمته ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ المنسلخين عن مطلق الإملاء والإنشاء المشعر بالتدبر والتفكر بمقتضى العقل الفطري الموهب لهم من حضرة العليم الحكيم ﴿رَسُولاً﴾ أميًا أمثالهم، ناشئًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ وأيده بروح القدس بعدما أصفاه من دنس الجهل، واصطفاه من بين الملل، وفضّله على جميع أرباب النحل، وجعله في كمال المعارف والحقائق الإلهية، بحيث ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ عموم ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وعلى كمال أسمائه وصفاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن مطلق

---

(1) قال في «عين الحياة»: اعلم أنّ التسبيح لا يصدق من أحد من رؤية وجوده، فينبغي المسبح أن يعرف الله بصفة الملكية والقدوسية والعزيزية والحكيمية، ومعرفته صفة ملكه لا يصدق ما دام يلتجئ إلى أحد غيره، ويرى الملك لغيره متصرفًا، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي من نهيه، ويشتغل بنهر طبعه، ومعرفة صفة قدسه لا يحصل إلا بعدَ علمه بأن كل ما يخطر بباله وحسه وذكره، فالله خالق ذلك الخواطر وكل ما رأى من صور صفاته في الغيب والشهادة يتيقن بالله مصورها، ومعرفته صفة عزيزية منوطة بأنه يعرف أنه غالب على أمره، خلق الشيطان لعزته، وخلق النفس قرينة لغيرته على أن يعرفه غيره، ومعرفته حكيمية متعلقة بمعرفته النقطة المتقنة الواهية صور الأشياء بعد ظهور الصفات الثلاثة: العلمية والإرادية والقدرية؛ ليعلم حقيقة ظهور القالب الإنساني على شكل قامة الألف، ويعلم قواها السوادية، وقواها البيانية، وكيفية تداخل الحروف بعضها في البعض، وأخذ النقطات البيانية حظوظها من النقطات السوادية، وأخذ النقطات السوادية حقوقها من النقطات البياضية؛ ليظهر عليه حكمة صدور هذا الفعل من ذات سبب صفاته الملكية والقدسية والعزيزية والحكيمية، وإن الملك اسم للسر الذي أودعه الله في النقطة العلمية، والقدوس اسم للذي أودعه الله في النقطة الإرادية، والعزيز اسم للسر الذي أودعه الله في النقطة القدرية، ويطلع على ينبوع الحياة في النقطة العلمية، وعلى نهر السمع في النقطة الإرادية، وعلى بحر البصر في النقطة القدرية، وعلى مد الكلام وجوزه في النقطة المتقنة الحكمية ليجتني من شجرة روحانيته المغروسة في أرض بشريته إثمار الكلمات الطيبات في بستان بلدته الطيبة، ويضعها على طبق اللطائف ويتحف بها على يدي اللطيفة الأنانية إلى حضرة ربه الغيور، والمبالغة في هذا التقرير في هذه الآية فرعت باب مطلع القرآن.

النقائص والآثام المنافية لدين الإسلام، المبين للتوحيد الذاتي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿الكِتَابَ﴾ أي: القرآن الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والأحكام على أبلغ بيان، وأبدع نظام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الأحكام الشرعية المنزلة من عند العليم الحكيم العلّام ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] وغواية ظاهرة؛ لأنهم كانوا على فترة من الرسل.

﴿وَ﴾ لم يختص بعثته ﷺ بالأميين من الأعراب الموجودين عند بعثته ﷺ بل يعم ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: من عموم المكلفين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: حين يتبعوا بالأولين إلى يوم القيامة؛ إذ خُتم ببعثته ﷺ أمر البعثة، وكمل عند ظهوره ﷺ بنيان الدين القويم الذي هو صراط التوحيد الذاتي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿العَزِيزُ﴾ الغالب على عموم التقادير ﴿الحَكِيمُ﴾[1] [الجمعة: 3] المطلق في جميع الأفعال والتدابير.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي ظهر به ﷺ رحمةً للعالمين ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ العزيز الحكيم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بلا سبق الوسائل والأسباب العادية ﴿وَاللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4] الذي لا يُكتنه وصف فضله وطوله أصلاً.

ثمّ قال سبحانه تعريضًا على الكفرة المنكرين لنبوة محمد ﷺ، مع أنه قد ورد في كتبهم المنزلة عليهم بعثته وحليته ﷺ، وهم مؤمنون بها، مصدقون بجميع ما فيها سوى بعثته ﷺ، وما جاء فيها من أوصافه ﷺ الدالة على علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه، وبالجملة: ﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: علموها وكلِّفوا بما فيها من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ولم ينتفعوا، ولم يصدقوا بما

---

(1) قال علاء الدولة: بقدرته أرسل اللطيفة الخفية إلى الأميين من القوى الحقوقية الأمية الأصلية؛ ليعلمهم الكتاب والحكم بعد أن غابوا عن الحضرة من وقت التخمير، وصاروا ضالين في أودية البشرية، ويبدأ الشكوك والظنون مشتغلين بعمارة وكر قالبهم وتربية بيضتهم غافلين عن ذكر الله بالحكمة البالغة؛ ليتم الوكر وينتج البيضة الفرخ، ولولا غفلتهم عن الذكر ما اشتغلوا بعمارة الوكر وتربية البيضة، والمراد من إيجاد الذكر والأنثى والعلو والسفل، وعمارة الوكر وتربية البيضة هو: الفرخ الذي يحصل فيه؛ فيطير في سواء المحبة، ويأخذ طيور المعرفة ليتفرح السلطان في طيرانه، وعلمه بكيفية الأخذ ورجوعه إلى يد السلطان.

فيها، سيما نعوت الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، مثلهم في حمل التوراة عليهم، وتكليفًا لهم ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتبًا من العلم يحمل عليه، ويتعب بثقلها، ولا ينتفع بها ﴿بِئْسَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته، ومتانة حكمه وحكمته في عموم مأموراته ومنهياته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى توحيده ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] الخارجين عن مقتضى عبوديته بمتابعة شياطين أمّاراتهم بسوء.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: 6 – 11].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام نيابةً عنّا لليهود الذين يدّعون محبة الله وولايته بقولهم: نحن أولياء الله وأحباؤه مناديًا لهم، متهكمًا معهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ وتهودوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ المقرب لكم إلى الله؛ إذ الانتقال من دار الغرور إلى دار السرور تقربكم إلى الرحيم الغفور ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] في دعوى المحبة والولاء، فتمنوه.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ أي: لا يتمنى أحد منهم الموت أصلاً ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا، واقترفوا بأنفسهم من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بعموم ما في استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 7] وبما في ضمائرهم من المحبة والقساوة، يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أعرضوا عن تمني الموت وابتغائه طلبًا لمرضاة

الله، وشوقًا إليه أيضًا على وجه التبكيت والإلزام: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تمنوه بلسانكم مخافة أنه لا يلحقكم، بل تفرون عن مجرد التلفظ به، فكيف عن لحوقه ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ ملاصقكم، ولاحق بكم حتمًا؛ إذ كل نفس ذائقة كأس الموت، وكل حي لا بدّ وأن يموت سوى الحي الذي لا يموت، ولا يفوت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تموتون ﴿تُرَدُّونَ﴾ وتُحشرون نحو المحشر، وتعرضون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بعلمه الحضوري ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم حينئذٍ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8] من خير وشر، فيجازيكم عليهما.

ثمّ لمّا تهاون المسلمون في أمر الجمعة، وتكاسلوا في الاجتماع قبل الصلاة، بل انفضوا وصرفوا عن الجامع حين خطب رسول الله ﷺ، حين سمعوا صداء الملاهي المعهودة لمجيء العير على ما هو عادتهم دائمًا، عاتبهم الله سبحانه، وأنزل عليهم الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: المبادرة إلى مطلق الطاعات، سيما ﴿إِذَا نُودِيَ﴾ وأذن ﴿لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وهو الأذان المعهود قبيل الجمعة ﴿فَاسْعَوْا﴾ مسرعين مجيبين ﴿إِلَى﴾ سماع ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ في الخطبة والتذكيرات الواردة فيها ﴿وَذَرُوا﴾ واتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ بعد سماع الأذان ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ترك البيع والانصراف نحو المسجد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في عقابكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9] [1] صلاحكم وإفسادكم في أولاكم وأخراكم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ وأديت ﴿الصَّلَاةُ﴾ المكتوبة لكم يوم الجمعة مع الإمام ﴿فَانْتَشِرُوا فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ وَابْتَغُوا﴾ واطلبوا حوائجكم ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وإحسانه، وسعة جوده وإنعامه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المنعم المفضل عليكم ﴿كَثِيرًا﴾ في عموم أحوالكم وأعمالكم، ولا تحصروا ولا تقصروا ذكره في الصلوات المفروضة فقط، بل اشتغلوا بذكره في عموم الأوقات والحالات، بالقلب واللسان، وسائر

---

(1) قال الشيخ روزبهان: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق، وإلا دعا الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه. قال النصر آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمعات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون إلى ذكره سعيَ مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قربة إليه والدنو منه.

الجوارح والأركان؛ إذ ما من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا يفقهون تسبيحهم إلّا قليلاً، وواظبوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10] وتفوزون بخير الدارين.

﴿وَ﴾ هم من غاية حرصهم على مقتضيات القوى البهيمية بعدما كانوا في الجامع عند سماع الخطبة ﴿إِذَا رَأَوْا﴾ وسمعوا ﴿تِجَارَةً﴾ حاضرة تدير الناس حولها ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ طبلاً مخبرًا لهم على مجيء العير ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: مالوا وتحركوا نحوها مسرعين، فخرجوا من الجامع سوى اثني عشر من الرجال والنساء ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَائِمًا﴾ على المنبر، وما هي إلا ثلمة ظهرت في الدين المستبين، موجبة مقتضية للتهاون بأحكام الشرع المتين، حدثت فيما بينهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إزاحةً لها، وإزالةً لما يتفرع عليها: ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من المثوبات الأخروية الموجبة للدرجات العليّة، والمقامات السنيّة ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلح بحالكم، وأعظم نفعًا، وأبقى فائدة ﴿مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ إذ لا نفع لها عند أهل الحق وإن فرض، فهو متناه زائل عن قريب، بخلاف الكرامة الأخروية فإنها تدوم أبدًا ﴿وَ﴾ إن عللوا انفضاضهم بتحصيل الرزق الصوري قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لكم من كتم العدم، المدبر المربي لأشباحكم بما ليس في وسعكم ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1] [الجمعة: 11] يرزقكم من حيث لا تحتسبون إن توكلتم عليه مخلصين، وفوضتم أموركم إليه سبحانه واثقين بكرمه العميم، وجوده العظيم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد الخائض لجج بحر الوجود، المتحقق بمقام الكشف والشهود - مكنك الله في مقر عز الوحدة، وجنبك عن الزيغ والضلال - أن تتوكل على الله، وتتخذه وكيلاً، وتفوض أمورك كلها إليه، وتجعله كفيلاً، فعليك ألّا تشتغل عن الله في

(1) قال السمناني: يرزق القوى القالبية والنفسية والقلبية والسرية والروحية والخفية والحقية بالوسائط والأسباب، ويرزقهم أيضًا غير الوسائط والأسباب من عنده بلطفه وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالواجب على السالك أن يعتبر بهذه السورة، ولا يلتفت عند ورود الوارد ونزور الواقعة بالأعمال البدنية ولا بالسماع الصورية البتة حتى يسكن سلطان الوارد ويقضي بالواقعة وطرد من السالك، ثم يرجع إلى عالم الكسب وذكر اللسان ولا يترك العقل والذكر بعد انقضاء مدة الوارد والواقعة، ولو يترك لترك وصار متروكًا نعوذ بالله منه.

آن وشأن، ولا تغفل عنه في حين من الأحيان، سيما في أمر الرزق الصوري الضروري، المقدر عند الله المدبر الحكيم لكل من دخل في حيطة الوجود، وظهر على صورة الموجود، فإنه يصل على من يصل حسب إرادة الله ومشيئته.

وإياك إياك أن تطلبه بالتجارة والسؤال، بل لك أن تستعمل آلاتك الموهوبة لك من عند العليم الحكيم إلى ما جُلبت لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المتوكلين.

وبالجملة: الرزق على الله، ولا تكن من القانطين، واعبد ربك، واشكر على آلائه ونعمائه ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

ربنا اجعلنا بلطفك من زمرة الشاكرين، آمين.

سورة المنافقون

فاتحة سورة المنافقون

لا يخفى على من وصل إلى مرتبة حق اليقين، وتمكن في مقعد الصدق مع الموقنين أن الكذب والافتراء والمراء، والجدال الواقع بين أصحاب الضلال والآراء في عالم الكون والفساد دائمًا هو من عدم الوصول إلى كعبة الوجود، وقبلة الواجد والموجود، ومن عدم التحقق بمقام الرضاء والتسليم الحاصل من كمال المعرفة واليقين، وإلّا فلا يقع ويصدر من الموقنين الواصلين أمثال هذه الجرائم المنبئة عن النفاق والشقاق المستلزم للجهل والغفلة عن الله الظاهر، المتجلي في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق.

ولهذا أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بما أخبر من إخبار أهل النفاق، ونبّه عليه ما نبّه من ضلالهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أحاط علمه بما لا يتناهى من المعلومات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم عباده بأمر المعروف، ونهي المنكرات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل السلامة، وطريق النجاة.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)﴾ [المنافقون: 1 – 4].

﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ على سبيل الملاينة والخداع تغريرًا لك ولمن تبعك من المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ مبالغين في إظهار الإيمان، مؤكدين: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي: نقر ونعترف عن صميم الفؤاد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ أرسلك الحق على الحق بالحق ﴿وَ﴾ بعدما أكدوا شهادتهم تأكيدًا على تأكيد بالغوا أيضًا في التأكيد؛ لتكميل التقرير والتنوير، حيث قالوا: ﴿اللهُ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿يَعْلَمُ﴾ ويشهد ﴿إِنَّكَ

لَرَسُولُهُ﴾ هم وإن بالغوا في شهادتهم الكاذبة على سبيل التزوير والتلبيس ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من النفاق والشقاق ﴿يَشْهَدُ﴾ حتمًا ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرِّين على ما هم عليه من الكفر والإنكار ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] في شهادتهم المزورة، الصادرة منهم على وجه المبالغة والتأكيد.

وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ المغلظة الحاصلة من شهادتهم المؤكدة بها ﴿جُنَّةً﴾ جعلوها وقاية لأموالهم وأنفسهم ﴿فَصَدُّوا﴾ وصرفوا غزاة المسلمين؛ بسبب ذلك الحلف الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو قتالهم وأسرهم ونهبهم، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] [المنافقون: 2] من الصد والنفاق، والإصرار

(1) قال في «عين الحياة»: شهد الله على رسالة الرسول أولاً ثم يشهد على كذب المنافقين فيما يظهرون؛ لأن الله مطلع على ضمائرهم على أنهم أضمروا خلاف ما أظهروا، فأخبر النبي ﷺ لئلا يغتر بشهادتهم وإيمانهم، فكذلك أيتها اللطيفة المرسلة ينبغي ألا يغتر بالقوى المنافقة؛ لأنهم إذا علموا منك الصدق في المجاهدة، وثبات القدم في ترك الهوى، وجاءوك ونافقوك وداهنوك والتمسوا منك أن تلقنهم الذكر، ويأخذوا منك تلقين الذكر، وكل ذلك لشعورهم بصدقك في المجاهدة لكي توافقهم وتواسيهم بأن النفس قد صارت مؤمنة، فالواجب عليك إعطاء حقها؛ لأن الله تعالى بين للسالك ثلاث مقامات في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر:32] فالسالك المبتدئ ينبغي أن يكون ظالمًا لنفسه يأخذ منها حقها وحظها إلا مقدار ما يبقى رمقها، ويتقوى به على الطاعة وإلى هذه النفس أشار النبي ﷺ حيث قال: «أعدى أعدائك عدوك نفسك التي بين جنبيك» والمقتصد هو السالك المتوسط ينبغي أن يقصد في المجاهدة ويرفق بالنفس؛ لأنها صارت في هذه المرتبة مركب للسالك وأشار إلى هذه النفس النبي ﷺ حيث قال: «نفسك مطيتك، فأرفق بها»، والسابق هو السالك المنتهي يجب عليه أن يعطي حق النفس؛ لأن النبي ﷺ جعلها صاحبة للحق حيث قال: إن لنفسك عليك حقًا، فيا أيتها اللطيفة تيقنى أن النفس جبلت على النفاق فما دام فيها عرق من القوى السفلية الغير المستخلصة من رذائل الأخلاق باقيًا، فاحذري منها، ولا تغتري بها، وكذلك كلما وصل إليها شرب من عالم الطبيعة جدد نشاطها إلى الرجوع إلى طبيعتها، وهي كمثل القصب المقطوع إذا وجد الماء يخرج أحسن فما كان قبل القطع وقلعه لا يمكن إلا بالموت الكبير إلا خير، ولأجل هذا السر أمر الله نبيه في كلامه بالعبادة حتى الموت بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر:99] يعني: الموت الأخير الاضطراري لا الموت الاختياري، ولكن يكسر قوتها بالموت الاختياري بحيث يسكن سلطانها، ودخلت تحت أمر اللطيفة المرسلة، فكوني على حذر منها متى دامت متصرفة في أرض البشرية، ولا تغتروا بإيمانهم لأنهم اتخذوا جنة وسترًا وصدوا وأعرضوا عن سبيل الحق بالأعمال السيئة والأخلاق الردية.

على الشقاق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اجتراؤهم على تلك الشهادة على وجه المراء والنفاق، وإصرارهم على الكفر والشقاق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿آمَنُوا﴾ أولاً بالله وبرسوله، وأقروا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم على وجه النفاق صونًا لأموالهم وأنفسهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعدما آمنوا عن مكر المؤمنين ﴿فَطُبِعَ﴾ الكفر حينئذٍ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ورسخ فيها واستحكم، وبعد الطبع والتمرن ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3] ولا يفهمون حقية الإيمان ولذته وصحبته، ولا باطلية الكفر وفساده.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من غاية غفلتهم عن الله، ونهاية عرائهم وخلوهم عن نور الإيمان ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: سمتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُوا﴾ أيضًا كلامًا ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وحلاوة نظمهم، إلَّا أنهم لخلوهم عن العلم اللدني، والرشد المعنوي، والصفاء الفطري الذاتي الذي هو نفوذ أرباب المحبة والولاء ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ يابسة فانية، فاقدة للقابلية الفطرية ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ على جدار الجهل والبلادة، ومع ذلك ﴿يَحْسَبُونَ﴾ يظنون ويترقبون من شدة شكيمتهم وغيظهم مع المؤمنين ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ واقعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مسموعة لهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يصيح عليهم؛ ليهلكهم.

وبعدما صار بغضهم مع المؤمنين، ومخافتهم من العدو بهذه الحيثية ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واترك مصاحبتهم، واحترز من غيلتهم وطغيانهم؛ إذ الخائف ربما يصول بلا سبب وداعٍ عليهم، وقل في شأنهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4] وكيف يصرفون وينحرفون عن الحق الصريح إلى الباطل الغير الصحيح، مع أنه لا ضرورة تلجئهم إليه؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: 5 – 7].

﴿وَ﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم مع المؤمنين المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾

إمحاضًا للنصح: ﴿تَعَالَوْا﴾ هلمُّوا أيها المسرفون المفرطون مجلس رسول الله ﷺ ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ ﷺ، ويطلب مغفرتكم من العفو الغفور ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ وعطفوا أعناقهم عن القبول معتذرين بأعذار كاذبة مخافةً وصونًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ حينئذٍ في وجوههم التي هي عنوان بواطنهم آثار الكفر والعناد؛ إذ هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون معتذرين عن المؤمنين ﴿وَهُم﴾ في أنفسهم ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5] عن القبول والاعتذار.

وبالجملة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ من الله المنتقم الغيور ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال أبدًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويرشد إلى جادة توحيده ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6] منهم، الخارجين عن مقتضى الحدود الإسلامية.

وكيف يهديهم ويغفر لهم سبحانه، مع أنهم ﴿هُمُ﴾ المسرفون المفسدون ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار؛ من نهاية عداوتهم وبغضهم مع الرسول والمؤمنين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾ يعنون: فقراء المهاجرين ﴿حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ وينتشروا بعدما اضطروا من حوله ﴿وَ﴾ لم يعلموا هؤلاء الغفلة الضالون، والجهلة الهالكون في تيه الجهل والعناد أن ﴿لِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت ضبطه وملكيته ﴿خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الكنوز المكنونة المطلوبة في ضمن العلويات، والمدفونة في السفليات ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والعناد ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7] (1) كمال قدرة الله، وسعة خزائن كرمه وجوده؟!

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ

---

(1) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهي اليد المتعدية.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: 8 – 11].

ومن نهاية غفلتهم عن الله، وعداوتهم مع المؤمنين: ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التهور والتهديد: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا﴾ عن سفرنا هذا ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ يريدون أنفسهم ﴿مِنْهَا﴾ أي: من المدينة ﴿الْأَذَلَّ﴾ يريدون المؤمنين، وذلك أن أعرابيًا من المهاجرين نازع أنصاريًا في بعض الغزوات على ماء فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكا إلى ابن أبي وملئه، فقالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا ﴿رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]، ﴿وَ﴾ لم يعلموا أولئك الغواة الضالون في تيه العتو والعناد أنه ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ أي: القوة والغلبة أصالةً ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ تبعًا ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمتابعة الرسول ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] عزة الله وعزة أهل الله؛ لفرط جهلهم وغرورهم بأموالهم وأولادهم؛ لذلك يحصرون العزة والقوة بأنفسهم.

ثمَّ قال سبحانه تسليةً للمؤمنين مشتملة على نوع من التعريض، والحث والترغيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ألّا تلتفتوا لعزة الدنيا، ولا تغتروا بكثرة الأموال والأولاد فيها؛ حتى ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ ولا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] وعن التوجه نحوه، والركون إليه في مطلق الأحوال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ والتفت إلى مزخرفات الدنيا، وشغل بها عن الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء المشغولون بالخسيس الأدنى عن الشريف الأعلى ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9] المقصورون على الخسران الكلي؛ لاستبدالهم الباقي بالفاني، والزاهق الزائل بالقهّار القديم.

---

(1) قال البقلي: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيمًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائم بذكر الله إياه، وذلك حظه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها؛ فإن من شَغَله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم مآل أموالكم إلى ما يتفرع عليها من الحرمان والخسران ﴿أَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ وسقنا نحوكم من أموال الدنيا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني: أنفقوا قبل حلول الأجل، وظهور أمارات الموت، وعلامات الفزع ﴿فَيَقُولَ﴾ المحتضر منكم حينئذٍ متحسرًا: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ أي: هلّا أمهلتني يا رب ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد غير بعيد ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وأتصدق من مالي هذا على الوجه المأمور طلبًا لمرضاتك ﴿وَ﴾ بعد التصدق ﴿أَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10] المنفقين، الممتثلين لأمرك، المقبولين عندك.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون يقينًا أنه ﴿لَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلها أبدًا ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وحل ما قدر لها؛ لرد الأمانة فيه من الزمان والآن، وكذا لن يقدمها عليه أصلاً، فعليكم التدارك والتلافي قبل حلول الأجل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المراقب عليكم في عموم أحوالكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 11] في أيام حياتكم من خير وشر، فيجازيكم على مقتضى خبرته بلا فوت شيء من عملكم خيرًا كان أو شرًا.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المنكشف برجوع العكوس والأظلال إلى ما منه بدت وظهرت، ألا وهي شمس الوحدة الذاتية أن تعرف أن إظهار المعارف المظاهر، وبسط الظل عليها، وامتداده إياها إنما هو بغتة بلا سبق مادة ومدة، وآلة ومقدمة، كذلك القبض والإخفاء إنما يكون كذلك، فلك أن تكون في مدة ظهورك على ذكر من ربك، بحيث لا يشغلك عنه شيء ساعة، ولا تغفل عنه وعن التوجه نحوه لحظة وطرفة، فإنك ما تدري متى يحل الأجل؟ فإذا حل لا يمكنك التدارك والتلافي.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين في عموم الأحوال.

سورة التغابن

فاتحة سورة التغابن

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق، وشمول أسمائه وصفاته على عموم المظاهر والمجالي أن رجوع عموم الكوائن والفواسد الغير المحصورة في فضاء الإمكان، وتوجه الكل إليه سبحانه طوعًا ورغبةً؛ إذ ما من موجود إلا وله حب ذاتي، وميل جبلي إلى دوام نشأته التي هو عليها بمقتضى هويته، ولاشك أن له نحوًا من الشعور بحدوثه ومسبوقيته بالعدم، فثبت أن له شعورًا بفاعله المظهر لهويته، فبمقتضى حبه لنشأته يكون له رجوع إلى مبدئه، يستمد منه ويحمد له.

كما أخبر سبحانه لحبيبه ﷺ بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم المظاهر والأكوان بالإمداد عليها في كل آن وشأن ﴿الرَّحِيمِ﴾ على نوع الإنسان، حيث أطلعه على سرائر توحيده، وصوره بصورته.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)﴾ [التغابن: 1 – 5].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ويقدس ذاته عن مطلق النقائص على وجه الإطلاق بعدما لم يبلغ كنه أسمائه وصفاته حتى يعد، ويحصى بتبيان مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذرائر عموم الأكوان، وكيف لا يقدِّسه جميع الأعيان؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على سبيل التخصيص، لا مالك له سواه، ولا مستولي عليه إلَّا هو ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَهُ

الحَمْدُ﴾ على سبيل الحصر والاختصاص؛ إذ لا مستحق للحمد بالاستحقاق إلّا هو، ولا مفيض للنعم على الآفاق غيره، ولا مقدر للأرزاق إلّا هو ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة وجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1] لا ينتهي قدرته بمقدور دون مقدور.

وكيف لا يكون سبحانه قديرًا لعموم المقدورات، مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم، وقدر خلقكم من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادة ومدة، وفصّلكم بعدما أظهركم ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ ساتر للحق، موفق عليه، محجوب بغيوم هوياته الباطلة الإمكانية عن شمس الحقيقة الحقية ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ موفّق على الإيمان، مجبول على فطرة التوحيد والعرفان، ميسّر لها؛ لذلك يصير إيمانه عيانًا، وعيانه حقًا وبيانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال في جميع الشئون والأحوال ﴿بَصِيرٌ﴾ [التغابن: 2] فيعامل معكم بما يناسب أعمالكم.

واعلموا أيها المكلفون ﴿خَلَقَ﴾ سبحانه، وأظهر بكمال قدرته ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[1] أي: مظاهر ما في العلويات والسفليات ملتبسة بالحكمة المتقنة، البالغة في الإحكام والإتقان حدًا لا يبلغ كنهه أحلام الأنام، وبعدما رتبها بحكمته على هذا النظام الأبلغ الأبدع انتخب من مجموع الكائنات ما هو زبدته وخلاصته ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد والتحقيق منها ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذ خلقكم على صورته قابلاً لخلافته، لائقًا للتخلق بأخلاقه، والاتصاف بصفوة أوصافه، وجعل فطرتكم غاية وعلة غائية مرتبة على عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿وَ﴾ كيف لا

(1) قال السمناني: يعني: خلق سماوات روحانيتك اللطيفة، وأرض بشريتك الكثيفة، من لطفه وقهره بالحق؛ ليظهر منها لطيفة مستحقة لمظهرية ذاته، والمفردات ما كانت مستحقة لمظهرية ذاته؛ لأن المفردات مظاهر لطافات أفعاله، والمركبات السفلية مثل المعادن والنبات والحيوان ما كانت مستحقة لمظهرية ذاته أيضًا؛ لعدم اللطائف العلوية فيها، والمركبات العلوية قوى فاعلات، واللطائف السفلية قوى قابلات؛ فلأجل هذا جمعت في نشأة الإنسان صارت مظاهر لذاته، كما أشار إليه النبي ﷺ حيث قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، ولهذا السر قَبِلَ حمل الأمانة.

يصوركم بصورته، ولا يحسن صوركم؛ إذ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3] أي: مصير الكل نحوه، ومرجعه لديه، ومبدؤه منه، ومعاده إليه؟!

﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات من الكمالات اللائقة للظهور والبروز ﴿وَ﴾ ما في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عموم ما في استعدادات قوابل الطبائع والأركان من الماديات والمجريات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أيها المكلفون ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المحيط بالكل بمقتضى تجليه وظهوره عليه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4] إذ لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن حيطة علمه ذرة.

ثمّ قال سبحانه توبيخًا على من خرج عن ربقة عبوديته: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المكلفون المنكرون بظهور الحق وثبوته، وتحققه في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: كيف ذاقوا ضرر كفرهم وشركهم من العذاب النازل عليهم في النشأة الأولى بعدما أصرُّوا على ما هم عليه، ولم يهتدوا بإرشاد الأنبياء والرسل ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: 5] لا عذاب أشد من ذلك، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول الإلهي.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن: 6 - 9].

﴿ذَلِكَ﴾ الويل والوبال عليهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أن النشأة الأولى والأمر فيما بينهم هكذا ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من عند الله مؤيّدين

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوا﴾ بعدما عجزوا عن معارضة معجزاتهم الساطعة، وحججهم القاطعة على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَبَشَرٌ﴾ مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾؟! كلا وحاشا أن يكون البشر هادين للبشر، وبالجملة: ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسل والمرسِل، والمرسَل به جميعًا ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن التدبر والتفكر في الحجج والبينات ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن هدايتهم وطاعتهم ﴿وَاللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن مطلق مظاهره ومصنوعاته، فكيف عن إيمانهم وعبادتهم؟! ﴿حَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6] حسب أوصافه وأسمائه، مستغن عن حمد الحامدين.

ومن كمال جهلهم بالله، وإصرارهم على إنكار قدرة الله على عموم المقدورات: ﴿زَعَمَ﴾ بل ادّعى العلم المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا قدرته على البعث والنشور ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ من قبورهم، ولن يُحشروا إلى المحشر؛ للحساب والجزاء، وأصرّوا على هذا الزعم الفاسد، والجهل الظاهر، واعتقدوه حقًا، وخيلوه صدقًا مكابرةً وعنادًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث: ﴿بَلَى﴾ تبعثون أيها المنكرون الجاحدون ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني قابلاً لوحيه وإلهامه، ومهبطًا لعموم أحكامه المنزلة من عنده ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ ألبتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد البعث والحشر ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: جميع ما اقترفتم في النشأة الأولى، ولتحاسبن عليها، وتجازُنّ بمقتضاه، بحيث لا يشذ شيء منها ﴿وَذَلِكَ﴾ التفصيل والإحصاء ﴿عَلَى اللهِ﴾ العليم البصير ﴿يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] وإن كان عندكم مشكل عسير.

وبعدما سمعتم من كمال قدرة الله، وإحاطة علمه وخبرته ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ المستخلف منه ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ معه تأييدًا له، وتبيينًا لدينه؛ يعني: القرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على ما في استعداداتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمقتضى القرآن، وتمتثلون بأوامره ونواهيه، وبما تذبون عنه وتعرضون منكرين لما فيه من الأوامر والنواهي، والعبر والأحكام، والمعارف والحقائق، والرموز والإشارات ﴿خَبِيرٌ﴾ [التغابن: 8] يجازيكم على مقتضى خبرته.

اذكروا أيها المكلفون ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ الجَمْعِ﴾ والحشر؛ لأجل الحساب والجزاء؛ إذ يجتمع فيه الملائكة والثقلان ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يوم ظهور التغابن والغرور الواقع في نشأة الاختبار والابتلاء ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ ويقر بوحدانيته سبحانه ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ليزيد به الإيمان؛ حتى يصير علمه عيانًا، وعيانه حقًا وبيانًا ﴿يُكَفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويمحوها عن صحيفة أعماله ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ المملوءة بمياه المعارف والحقائق المترشحة عن بحر الحياة الأزلي الأبدي، لا يتحولون من التلذذ بها والتحقق دونها، بل يصيرون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ﴾ التفكير والإدخال لأرباب العناية والإفضال ﴿الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التغابن: 9] [1] واللطف الجسيم، وبالجملة: لا فوز أعظم منه وأكمل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

(1) الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة، قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصرٌ عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحدٍ، ومَن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازلته أو منازعته.

عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن: 10 – 13].

ثمَّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة تعقيب الوعد بالوعيد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لهم منها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 10] مصير أهل النار، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التقرير والتثبيت لأرباب المعرفة والإيقان على جادة التفويض والتكلان: ﴿مَا أَصَابَ﴾ على من أصاب وما أصاب ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: حادثة مفرحة أو مؤلمة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبمقتضى إرادته وتقديره ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ويفوّض أمره إليه، ويأخذه وكيلاً، ويجعله حسيبًا وكفيلاً ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وينور خلده، ويبصره على أمارات التوحيد وعلامات اليقين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما غاب، وشهد ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11] بعلمه الحضوري بحيث لا يعزب عنه شيء مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المبلغ لكم طريق الهداية والرشاد، المبين لكم سبيل السلام والسلامة والنجاة في يوم المعاد ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن دعوته بعد تبليغه وإرشاده فلا بأس عليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا﴾ بمقتضى وحينا وأمرنا ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: 12] الظاهر الواضح.

وبعد تبليغه على وجهه لم يبق عليه شيء، وعلينا حسابكم وعذابكم.

وكيف يتأتى منكم الإعراض أيها المعرضون المبطلون، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيده واستقلاله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13] في عموم حوائجهم ومهماتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: 14 – 18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا وحدة الحق واستقلاله في الوجود ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله، وعن التوجه نحوه، والتوكل عليه بالتقريع والتشنيع، ويردونكم في أمر المعاش وتحصيله إلى المعاطب والمهالك؛ حتى تسألوا من كل غني غبي، وشحيح دني، فتسترزقون منهم، وترزقون لهم، ولا تثقون بالله، ولا تعتمدون عليه في كفالته وترزيقه فتزل ثقتكم عن خالقكم ورازقكم، وتزل قدمكم عن التثبت في صراط التوكل والتفويض.

وبالجملة: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي: عن الأولاد والأزواج، ولا تأمنوا من مكرهم وغوائلهم ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عن جرائمهم وتشنيعاتهم، وتوصلوهم إلى ما أملوا وترقبوا منكم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ أي: تعرضوا عن إعراضهم، وعدم الالتفات إلى حالهم ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ أي: تمحوا وتستروا ما صدر عنهم من التشنيع والتقريع، فتشتغلوا إلى إنجاح أغراضهم وإيجاد أمانيهم بعدما وفقكم الحق عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من مراعاة جانب الأولاد والأزواج ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبكم التي صدرت عنكم في أمر المعاش إن كانت برخصة شرعية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14] يرحمكم ويمحو زلتكم إن كان سعيكم؛ لتحصيل مقدار الكفاف والكفاية والقناعة، لا للفضول منها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمة، واختبار شديد لكم، فعليكم ألّا تغتروا بهما فإنهما من شباك الشياطين وحبالهم، يريدون أن يصدوكم عن سبيل الله بتزيينهما إليكم، وتحبيبهما في قلوبكم؛ لتشتغلوا بهما عن الله فتحطوا عن زمرة المخلصين ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15] للمخلصين المجتنبين عن الالتفات

إلى الغير مطلقًا.

وبالجملة: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ واجعلوه وقاية لنفوسكم من تغرير الشيطان وفتنته ﴿وَاسْمَعُوا﴾ قول الله بسمع الرضا والقبول ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أمره ونهيه، ولا تخرجوا عن مقتضى حكمه وأحكامه مطلقًا ﴿وَأَنفِقُوا﴾ مما رزقكم الله، واستخلفكم عليه امتثالاً لأمره، وطلبًا لمرضاته، وافعلوا جميع ما أمركم الحق، سيما الإيثار والإنفاق؛ ليكون امتثالكم وإنفاقكم ﴿خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ﴾ في أولاكم، وذخرًا لكم في أخراكم، ومن معظم فوائد الإنفاق: صون النفس عن الشح المطاع ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ بالبذل والإنفاق ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالكرم والسخاء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16] الفائزون من الله بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا.

وبالجملة: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ﴾ المنعم المتفضل أيها المنفقون المحسنون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقرونًا بالإخلاص والرضا، ومصونًا عن وصمة المن والأذى ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ إحسانكم أضعافًا كثيرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، وإن عظُمت وكثرت ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع على إخلاص عباده في أعمالهم ونياتهم فيها ﴿شَكُورٌ﴾ يحسن المحسن جزاء إحسانه أضعافًا مضاعفة، ويزيد عليها تفضلاً وامتنانًا ﴿حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17] لا يعاجل بعقوبة المسيء رجاء أن يعود ويتوب، ويعتذر لما يصدر عنه من الذنوب.

وكيف لا وهو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم بعلمه الحضوري منهم عموم ما في استعداداتهم وقابلياتهم من الإخلاص والإنفاق وغيرهما ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾[1] [التغابن: 18] المتقن في عموم الأفعال

(1) قال في عين الحياة: يعني: يعلم ما في القوى الغيبية من الأوصاف الجيدة والردية، وما على الجوارح من الأعمال الفاسدة والصالحة، غالب على أمره أن شاء يعاقب بها وإن شاء يعفو عنها، حكيم بالعفو والعقوبة، إن يعفو فحكمته، وإن يعذب فبحكمته، فحظ السالك من تفسير بطن هذه الآيات أن لا يبخل عن المريد بأموال الظاهر والمعارف الباطنة بقدر استحقاق المريدين واحتياجهم إليها، وحظ السالك أن يعطي لكل ذي حق من قواها حقها على وفق أمر المولى من الحقوق العلوية والحظوظ السفلية. اللهم اجعلنا من أهل السخاوة والجود لوجهك الكريم بحق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

والجزاء المترتب على الأعمال؟!

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام الفناء في الله، المستخلف منه سبحانه في عموم الأفعال والآثار، الصادر منك صورة أن تمتثل بمطلق الأوامر والنواهي الواردة عليك من عند ربك بمقتضى التكاليف المنبئة عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، الجارية على وفق المصلحة المصلحة لأمور العباد في معاشهم ومعادهم، وتواظب على أداء الفرائض والواجبات الموجبة للعبودية بكمال التسليم والرضاء، وتلازم على الإتيان بالنوافل والمندوبات المقربة إلى الله، المستلزمة لمزيد الفضل والعطاء، فلك التبتل والإخلاص المقارن بالخضوع والخشوع، والتذلل التام، والانكسار المفرط في عموم ما جئت به من الطاعات والعبادات.

فاعلم أن الناقد بصير، وحبائل الشيطان في حواليك كثير، فلا تغفل عن غوائله، فإن إضلاله إياك سهل يسير، واتكل على الله في عموم أوقاتك، واستعذ به سبحانه من غوائله، فإنه سميع بصير.

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

سورة الطلاق

فاتحة سورة الطلاق

لا يخفى على من تمكن في مقام العبودية، وتقرر في محل التكاليف الإلهية من المنكشفين بسرائر الأحكام الحقيقية الحقية أن سر الزواج والازدواج الواقع في عالم الكون والفساد، المنبئ عن المناسبات المعنوية، والارتباطات الحبية الغيبية المترتبة على كمال الاعتدال والائتلاف بين الأسماء والأوصاف الذاتية الإلهية، الباعثة على الظهور والبروز في فضاء الكمال، إنما هو بمقتضى التجليات والشئون الإلهية، وتطوراته المتوافقة والمتخالفة حسب القبض والبسط، والجمال والجلال الظاهرة آثارها في الأزمان والأدوار بمقتضى الإرادة والاختيار، الصادر من الملك الجبار.

ومن جملة الآثار الواقعة في الأقطار: أمر النكاح والطلاق، المرتبين على المناسبة والمخالفة المتفرعة على القبض والبسط المتفرع على الجمال والجلال؛ لذلك نبّه سبحانه عباده، وبيَّن لهم أحكام النكاح والطلاق، ووضع لهما حدودًا وقواعد مضبوطة؛ حتى لا يتجاوزا عن الاعتدال والقسط الإلهي المتفرع على الحِكَم البالغة المتقنة.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى مناديًا لحبيبه ﷺ؛ إذ هو ﷺ لائق بالخطاب الإلهي في أمثال هذه الأحكام: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أحكم مطلق الأحكام الشرعية على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بوضع الحدود الشرعية بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، ينبههم على سرائر تكاليفه، وحِكَم حدوده المتفرعة على حِكمته البالغة، ومصلحته الكاملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا

﴿ ... (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق: 1 - 3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث إلى كافة البرايا؛ لترشدهم وتصلح أحوالهم، فلزم عليك وعليهم أصلاً وفرعًا ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وقصدتم دفع رابطة العلاقة الشرعية بالفرقة الشرعية أيضًا ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وادفعوا عنهن قيد الألفة المقتضية للزوجية ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] أي: في إتيانها ووقتها الذي هو مدة الطهر قبل وقوع الوقائع فيها ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ الكاملة أي: الأطهار الثلاثة مع المطلقات الثلاثة؛ حتى تقع كل طلقة في طهر ﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ المنتقم الغيور الذي ربَّاكم على مقتضى العدالة، فعليكم ألَّا تتجاوزوا عنها، فلا تزيدوا على عدتهن بالمراجعة عليهن، ثمَّ تطلقوهن.

فعليكم أن ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ بالتعدي بعد وقوع الطلاق ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: مساكنكم التي كن فيها قبل الفرقة؛ حتى تنقضي عدتهن فيها ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أيضًا بأنفسهن بعد الفرقة من مساكنهن بلا رضًا منكم أيها المطلِّقون، بل لا بدَّ لهن أن يعتددن فيها ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي: زنًا يشهد له شهود على الوجه المعتبر في الشرع، فحينئذٍ يخرجن؛ لإجراء الحد عليهن، فيصبح هذا الاستثناء من كلا الحكمين السابقين.

﴿وَتِلْكَ﴾ الحدود المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ العليم الحكيم، الصادرة عنه بمقتضى الحكمة البالغة المقتضية للعدالة الكاملة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ اللهِ﴾ المنتقم

---

(1) قال الشيرازي: خصَّ حبيبه بالخطاب، وجمع الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب خاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جمَع الجمع في اسمه، وفيه إشارة الاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطليق نسائهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زماني الوصلة والاهتمام بالفرقة.

الغيور ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بالعرض على عذاب الله عاجلاً وآجلاً، إنه ﴿لَا تَدْرِي﴾ وتعلم نفس المطلِّق، المجاوز عن الحد الشرعي بالتطويل في العدة، والتهاون على المرأة أو نفس المرأة المطلقة بإتيان الفاحشة في أوان العدة وغيرها ﴿لَعَلَّ اللَّهَ﴾ المقتدر ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التفريق والبينونة ﴿أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1] بأن جعل للمطلق بدل تلك الزوجة المطلقة زوجة سليطة مسلطة عليه، أو جعل للمطلَّقة زوجًا أشد إيلامًا منه.

وبالجملة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾ أي: المطلقات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارفن على انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وراجعوا إليهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا ومروءةً، نادمين على ما صدر عنكم من الطلاق، محسنين إليهن، معطين لهن من الأمتعة جبرًا لما كسرتم ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بعدما لم يبق بينكم وبينهن رابطة المحبة، وعلاقة الألفة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن مرضي لدى الشارع، مقبول عند عموم أرباب المروءات، بلا شرر ولا ضرار، وبلا أخذ شيء مما يتعلق بهن من الأمتعة المنسوبة إليهن عرفًا، بل أعطوهن شيئًا آخر معتدًا به؛ ليعترفن بثنائكم وشكركم، ويدعون لكم بدل ما يدعون عليكم.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيها المؤمنون عند اختيار الرجعة والفرقة ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قطعًا لعرق الخصومة والنزاع، وبعدًا عن التهمة ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ الموكولة لكم ﴿لِلَّهِ﴾ طلبًا لمرضاته سبحانه، وحافظوا عليها؛ كي تؤدوها لدى الحاجة ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي سمعتم من محافظة الحدود، وإقامة الشهود؛ لحفظ الحقوق والعهود من جملة المواعظ والتذكيرات التي وضعها الحق بمقتضى حكمته بين عباده؛ ليحافظوا بها آداب العبودية.

إنما ﴿يُوعَظُ﴾ ويتذكر ﴿بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدة ذاته، ويصدق برسله المبعوثين من عنده، المؤيَّدين من لدنه ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ؛ لتنقيد الأعمال، وترتب الجزاء عليها، فإن غير هؤلاء السعداء الأمناء هم التائهون في تيه الضلال بأنواع الوزر والوبال، لا تتعظون بها وبأمثالها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويتحفظ نفسه عن قهره وغضبه، ويحافظ على رعاية حدوده الموضوعة من لدنه؛ لحفظ حقوق عباده، سيما حقوق الزوجية والائتلاف من كلا الطرفين، ويتوكل عليه في عموم أحواله،

ويفوِّض أموره كلها إليه ﴿يَجْعَل لَّهُ﴾ سبحانه ﴿مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ ويسوق إليه جميع حوائجه المحتاجة إليه في معاش عياله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من مكان لا يترقبه، ولا ينتظره ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ مخلصًا له، مفوضًا أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] وكافيه، يكفيه جميع المؤنة المحتاجة إليه في النشأة الأولى والأخرى؟! وكيف لا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على عموم المقادير ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ بعدما فوَّض إليه سبحانه بالإخلاص والتسليم إلى حد قدَّر الله له في حضرة علمه، ولوح قضائه؛ إذ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾ القدير الحكيم ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء الظاهرة حسب أظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3] أي: مقدارًا معينًا من الكمال في عموم أفعاله وأحواله على مقتضى الاستعدادات الفطرية، والقابلية الجبلية؟!

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ
يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ
حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ
أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق: 4 – 7].

(1) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأصناف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

هذه المذكورات من الحدود والآداب في طلاق ذوات الأقراء من المعتدات ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾ وقنطن ﴿مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ لكبرهن ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: جهلتم وشككتم في تعيين عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ بعدما طلقتموهن ﴿ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: مضيها.

رُوي أنه لمَّا نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] قيل: فما عدة النساء اللاتي يئسن؟ فنزلت: ﴿وَ﴾ كذا أيضًا مضي ثلاثة أشهر عدة النساء ﴿اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعد؛ لصغر سنهن أو مرض ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ من المطلقات ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ ومنتهى عدتهن: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كان الوضع بعد الفرقة بزمان كثير أو قليل.

وهذا الحكم متناول للمطلقة، والمتوفي عنها زوجها، وإنما لم يعيَّن لأولات الأحمال حدّ معين من أقراء وشهود؛ لأن المقصود الأصلي من إلزام العدة: حفظ الماء، واستبراء الرحم؛ لئلا ينجر إلى خلط النسب، وبالوضع يحصل المقصود على الوجه الأتم؛ ولهذا لم يحدّ لهن سوى الوضع ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويحفظ نفسه من سخطه، وطلّق امرأته على الوجه المسنون، ولم يركن إلى الطلاق البدعي أصلاً ﴿يَجْعَل لَّهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي هو فراق زوجته ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4] يسهل إليه التزويج الآخر، ويحسنها له، ويحبلها له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أيها المكلفون؛ ليصلح مفاسدكم المتعلقة بحكم الطلاق ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، ولم يتجاوز عن مقتضى أمره المبرم، وحكمه المحكم ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ بتغليب حسناته عليها ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[1] [الطلاق: 5] بتضعيف حسناته أضعافًا كثيرة.

(1) قال علاء الدولة: بأن الله يبدل - بلطفه - سيئاتهم حسنات، وهذا مما شاهدنا في أثناء السلوك دائما يذنب السالك ويخاف من ذلك الذنب يسد عليه باب المكاشفات والمشاهدات؛ فربما يفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات أكثر مما كان قبل حدوث ذلك الذنب، ويتفق هذا لصادق إذا اعترى عليه عجب من كثرة مجاهدته وصفاء أعماله؛ فأجرى عليه ذلك الذنب ليذهب بعجبه، ويظهر فيه الإفلاس، والمسكنة، والعجز، والاضطرار، وتعيير نفسه والنظر إليها

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أيها المطلقون ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: من وسعكم، ومقتضى طاقتكم من ملك، وإجارة وإعارة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ حتى يضطررن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ منكم أيها المطلِّقون ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا الحكم؛ أي: الإنفاق على المعتدة مخصوص بأولات الأحمال من المعتدات؛ إذ الإنفاق حقيقةً إنما هيَ لأولات الأولاد دون غيرهن من المعتدات؛ إذ لا سبب توجبها.

وإذا وضعن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولادكم بعد رفع رابطة النكاح ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، مثل سائر المرضعات الأجنبيات، ولا تعللوا بكونهن أمهات للرضيع ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم﴾ أي: ليأمر بعضكم بعضًا أيها المؤمنون في إرضاع المطلقة ولدها من المطلق ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن، مقبول شرعًا من إعطاء الأجرة الكاملة، والزيادة عليها مراعاةً للمروءة ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ وتضايقتم في الأجرة عليها ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: 6] غيرها، إلَّا أن المروءة تأبى عن أن تعرض الأم من إرضاع ولدها؛ إذ هي أولى به من غيرها.

﴿لِيُنفِقْ﴾ على المعتدة الحاملة ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسر ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ ومقدار وسعه وطاقته على مقتضى نفقتها قبل الفرقة ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضُيِّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق بلا جبر وتحميل، إنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ المنعم الحكيم ﴿نَفْسًا إِلَّا﴾ مقدار ﴿مَا آتَاهَا﴾ وساق لها من الرزق الصوري؛ إذ ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ دنيوي ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7] حقيقيًا أخرويًا، فاليسر في الآخرة أولى من الدنيا وما فيها.

بعين الحقارة، وكل هذا بقبول الحضرة الإلهية؛ فإذا خاف على ذنبه وآيس من نفسه وعمله يبدل الله سيئاته حسنات، ويفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات والواقعات مما يتعجب السالك من تلك الفتوحات.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: 8 – 12].

ثمّ قال سبحانه على وجه الوعيد للموسرين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرًا من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أعرضت واستكبرت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ﴾ متابعة ﴿رُسُلِهِ﴾ المرسلين من عنده إياها اتكالاً على ما عندهم من المال والثروة، والتفاخر على الأقران، والتفوق عليهم بأنواع النخوة والعدوان ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: عن القليل والكثير، والنقير والقطمير ﴿وَ﴾ بعدما حاسبناها كذلك ﴿عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: 8] منكرًا فجيعًا فظيعًا؛ والمراد: حساب النشأة الأخرى وعذابها، عبّر بالماضي؛ لتحقق وقوعها.

﴿فَذَاقَتْ﴾ حينئذٍ ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: إعراضها عن الله وأهله ذوقًا محيطًا بها، بحيث لا يخلو من العذاب شيء من أعضائها وأجزائها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ الذي كان عليه في النشأة الأولى ﴿خُسْرًا﴾ [الطلاق: 9] في النشأة الأخرى، وأيّ خسر لا خسر أشد منه وأكبر، وهو حرمانهم عن عز القبول الإلهي، وانحطاطهم عن رتبة الخلافة والنيابة.

وبالجملة: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في العاجل والآجل ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ واعتبروا مما جرى على أولئك الغواة الطغاة، الهالكين في تيه العتو والعناد من وخامة عاقبتهم، ورداءة خاتمتهم، واعلموا أيها المعتبرون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة

الحق وبتصديق رسله ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: 10] ناشئًا منكم، مذكِّرًا لكم أصل مبدئكم ومنشئكم، وكذا مرجعكم ومعادكم.

ولهذا جعله سبحانه ﴿رَسُولاً﴾ مرسلاً من عنده إليكم؛ لإرشادكم وتكميلكم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ مشروحات موضحات كل ذلك ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على وجه الإخلاص ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: الظلمات الحاصلة من تراكم الكثرات، وتتابع الإضافات الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة إلى نور الوجود الذي هو الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الإضافات مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدته ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ طلبًا لمرضاته ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ المترشحة دائمًا من البحر المحيط الذي هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه المشتمل على عموم الكوائن والفواسد الجارية في فضاء الوجود مطلقًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون منها أصلاً، وبالجملة: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: 11] صوريًا ومعنويًا.

وكيف لا يحسن رزقه سبحانه، مع أنه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وقدَّر بمقتضى قدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ علويات مطبقات على عدد الأوصاف السبعة الذاتية الإلهية، وجعلها مسكنًا للمجردات من الملائكة والأرواح ﴿وَ﴾ قدَّر ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ السفلى؛ أي: عالم العناصر أيضًا ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ مطبقات بعضها فوق بعض: طبقة الأثير الصرف، وطبقة الأثير الممتزجة، وطبقة الزمهرير من الهواء، وطبقة الهواء الصرف، وطبقة الماء الصرف، وطبقة الطين المركب من الماء والتراب، وطبقة التراب الصرف، على عدد القوى السبع الإنسانية الفائضة على أعضائه السبعة، وهي: الدماغ، والكبد، والعين، والأذن، والأنف، واللسان وجميع البشرة من الصانع الحكيم؟!

وإنما رتبها سبحانه وطبقها عليها؛ حتى ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ﴾ الإلهي ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ يعني: تصير السفليات قوابل الآثار العلويات، يقبلن منها ما يفيض عليهن من الكمالات المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية، كل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيها المجبولون

على فطرة العلم والمعرفة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود، ولمع عليه برق الشهود ﴿قَدِيرٌ﴾ لا ينتهي قدرته عند مقدور ﴿وَ﴾ لتعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بالقدرة الكاملة ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿عِلْمًا﴾[1] [الطلاق: 12] إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام القلب وسعته، وقابليته لنزول سلطان الوحدة الذاتية الإلهية مع بُعد غورها، ورفعة طورها عن أحلام الأنام مطلقًا أن الله المتجلي على كل جلي وخفي قدير على مقدورات لا تتناهى، ومرادات لا تُعد ولا تُحصى بمقتضى حيطة علمه بمعلومات لا غاية يحدها، ولا نهاية يحيطها.

فله سبحانه الإعادة والإبداء، والإماتة والإحياء، وله التصرف في ملكه كيف يشاء حسب اقتضاء الأوصاف والأسماء، لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: ليعلموا أن علم الله محيط بالأرضيات والسماويات، يعلم استعداد كل لطيفة أرضية خلقية، ولطيفة سماوية أمرية، ويستعملها على قدر استعدادها، وهو غالب على أمره، حاكم في ملكه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا تجعلنا مقيدين بقيد الطبيعة، مغلولين في أسر الهوى، وثبتنا على متابعة المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الجزاء.

سورة التحريم

فاتحة سورة التحريم

لا يخفى على من رسخ على جادة التوحيد، وتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وترديد أن أرباب المحبة والإرادة الكاملة من المنقطعين عن الناسوت رأسًا، المنجذبين نحو فضاء اللاهوت مطلقًا، لم يبق لهم إرادة وكراهة، وصداقة وعداوة بالنسبة إلى كل أحد من بني نوعهم وغيرهم، بل هم مستغرقون بالله، فارغو البال من غيره، لا يشوشهم اللذة والألم، ولا يزعجهم الرضا والغضب.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه العتاب وناداه؛ ليرشده إلى منهج الصواب فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي دبر مصالح عباده على الوجه الأبلغ الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، حيث لا يكلفهم بما ليس في وسعهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، ينبههم عن زلاتهم بعدما صدرت عنهم، ويعلمهم التدارك والتلافي بالتوبة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم: 1 – 5].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيَّد بالوحي والإلهام من عند العليم العلام، القدوس السلام مقتضى نبوتك وتأييدك: ألَّا تخالف حكم الله، ولا تبادر إلى الخروج عما قضى الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ وتمنع عن نفسك من عندك بلا ورود نهي من قِبَل الحق ﴿مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ وأباحه عليك بمقتضى حكمته وعدالته ﴿تَبْتَغِي﴾ بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ وتترك رضا الله بمخالفة حكمه؟! فارتدع عن فعلك هذا، واستغفر الله لزلتك

﴿وَاللهُ﴾ المطلع على نيتك وإخلاصك ﴿غَفُورٌ﴾ يعفو عنك ما صدر منك ﴿رَحِيمٌ﴾[1]

---

(1) قد انعقد إجماع الأمة من متكلمين وفقهاء ومحدثين وغيرهم علمائها وعامتها على عصمته - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - من الكبائر واللمم قبل البعثة وبعدها، وكذا سائر حضرات الأنبياء والرسل - عليهم من ربهم الذي اجتباهم وقدمهم علينا الصلاة والسلام - ولكن طالما تجد من لم يوفق من المفسرين يقف ما ليس له به علم من التسلق والتطلع على مقامات الأنبياء والرسل -عليهم ممن اجتباهم الصلاة السلام- ونحن لا ذوق لنا في مقامتهم حتى نعرف استغفارهم مما، وذنبهم ما هو، وبكائهم مم، ولم يكلفنا الحق جل شأنه ذلك حتى لا نسيء الأدب معهم - عليهم من ربهم الصلاة والسلام - فنسقط من عين الله جملة واحدة، وإن كنا على عبادة الثقلين، ويكفي المريب - إذ نحن لم نقدر الله قدره ونعبده حق عبادته ونتقه حق تقاته- وجدان السلامة، فضلاً على أن المنسوب لهم في القرآن مما هو عند القاصرين ظاهره النقصان، له معان كثيرة ذكرها علماء الأمة الفقهاء عن الله في شرعه، وبينوها بما يناسب مقام النبوة وجلالة قدره، وانظر ذلك في كتب الحديث والشمائل وغيرها، وانظر على سبيل المثال كتاب الإمام المجدد الختم الأحمدي سيدي محمد بن جبل السنة الإمام عبد الكبير الكتاني - قدس الله سرهما -: "الكشف والتبيان عما خفي عن الأعيان في سر آية: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾" [ط. دار الكتب العلمية]، وما نقل من كتاب: (تطهير القلب والفؤاد من سوء الظن بالله وبالعباد) - والمؤلَف بقصد الدفاع عن عباد الله المخلصين حضرات الأنبياء والرسل عليهم السلام- لشيخ الإسلام وإمام الفريقين، شارح ومدون الأخلاق المحمدية بما لم يسبق إليه الإمام عبد الوهاب الشعراني ﷺ- تعلم أننا خير أمة أخرجت للناس نأمرهم بالتزام الأدب مع حضرات الأنبياء الرسل - عليهم ممن اصطفاهم الصلاة السلام- وننهاهم عن المنكر من افتياتهم على اختيار وتقديم ربهم من شاء من خلاصة عباده، وأن للفقه عن الله في كتابه والفهم فيه بحورًا لا تدرك، وكذا أن للمفسرين من عورات الجهل ما لا بدَّ أن يفشى ولا يطوى، حتى لا تهلك العامة بتقليدهم في سوء أدبهم. ويا ليت علمي أين الناس اليوم من علوم هؤلاء الأئمة - أمثال الشيخ الكتاني والشعراني قدس سره- واستنباطاتهم من الكتاب والسنة، وهذا ضرب مثل واطلب هذا النوع من العلم تجده الباز الأشهب والطراز المذهب، والتاج المكلل والعقد المجمل للمكتبة الإسلامية المحمدية. وإذا كان أهل البيت - عليهم السلام - يشار إليهم بالعصمة أو الحفظ الإلهي - على الخلاف بيننا أهل السنة والشيعة - من الوقوع في المعصية؛ فإنا معاشر أهل السنة نقول بالحفظ الإلهي، بدليل قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وإرادة الله لا تتخلف ولا حاكم عليها حتى يردها، فلا يصل إليهم الذنب الذي هو الرجس في عرف الشرع، فكيف بمن قال الله فيهم لعدوه:﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، واللمة من الشيطان تكون؛ فكيف يجوز أن يوصف مولانا وسيدنا محمد من لم يخلق الله خلقًا أعز عليه منه - كما عند ابن عساكر- بأنه صاحب لمة؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم. ولا يضرنا كون قائل ذلك منسوبًا لأي الفرق الإسلامية؛ فإن الله

-

[التحريم: 1] يرحمك ويقبل توبتك.

رُوي أن رسول الله ﷺ خلا بأَمَته مارية في يوم حفصة، فاطلعت حفصة على ذلك فعاتبته، فقال ﷺ: حرمت مارية على نفسي لأجلك، لا تقولي لأحد من أزواجي، واستكتمي عنهن هذا التحريم، وأيضًا الخلافة بعدي لأبي بكر وبعده لعمر، ولا تفش لأحد قط، فأخبرت حفصة عائشة بكلا الخبرين؛ لكونهما متصادقتين، فأخبرت عائشة رسول الله ﷺ بها، فغضب ﷺ وطلق حفصة طلاقًا رجعيًا، وعزل نساءه تسعًا وعشرين يومًا؛ لأجل هذه الواقعة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

ثُمّ لمّا نهى سبحانه نبيه ﷺ على وجه المبالغة والتأكيد، أراد سبحانه أن يبين كفارة اليمين الواقعة من المؤمنين فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ وشرع ﴿لَكُمْ﴾ على سبيل الوجوب ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: بتحليل أيمانكم وتكفيركم عنها ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿مَوْلاكُمْ﴾ ومُولي أموركم ﴿وَهُوَ العَلِيمُ﴾ لعموم مصالحكم ومفاسدكم ﴿الحَكِيمُ﴾ [التحريم: 2] في ضبطها وإصلاحها.

تعبدنا بإتباع كلامه وكلام المعصوم ﷺ وإجماع الأمة بعلمائها العارفين المؤيدين في كشفهم، فالواجب علينا شرعًا الذب عن حرمة المسلم إذا انتهكت حتى يذب الله عنا – كما في الحديث – والتي هي أعظم من حرمة الكعبة كمل في الحديث أيضًا فكيف بحرمة الصديقين؟ فكيف بحرمة الصحب الكرام والآل رضوان الله عليهم؟! فكيف بحرمة خلاصة النوع الإنساني الأنبياء؟!! فكيف بحرمة الرسل منهم، فكيف بحرمة أول العزم منهم، فكيف بحرمة أكرم الأولين والآخرين على الله نبينا وشفيعنا ﷺ! فأحرى وأحرى، من نرجوا بالتمسك بجنابه - المقبول المأذون عند ربه - أن نكون في مستقر رحمة الله مع المنعم عليهم، وقد ذكر العلامة الألوسي في تفسيره الآية ما نصه: وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما أَلِف من لطف الله تعالى به.

وقال العلامة المفسر الفخر الرازي في تفسيره الآية: نقول: المراد من هذا التحريم: هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج، لا اعتقاد كونه حراماً بعدما أحل الله تعالى؛ فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده كونه حلالاً، ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر؛ فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا ؟! اهـ. فانظر إلى هذا الكلام المنور المؤيد وغيره من أجوبة المفسرين عن الآية وغيرها، وراجع ذلك مبسوطًا في كتب التوحيد عامه وخاصه، وقس على ما ذكرنا – من التعليق في هذا الموضع– بما لم ينبه عليه، والله يتولانا وإياك بما تولى به عباده الصالحين بحق مولانا المعصوم الأمين ﷺ والله أعلى وأعلم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني: حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ وهو حديث مارية، وحديث خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بعده ﷺ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ وأخبرت حفصة ﴿بِهِ﴾ عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ وأطلع سبحانه نبيه ﷺ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إفشاء حفصة الحديث المعهود الذي أوصاها بالإسرار، فغضب ﷺ على حفصة؛ لذلك ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أي: بعض الحديث، وهو حديث تحريم مارية، وطلقها طلاقًا رجعيًا انتقامًا عنها ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وهو قصة الخلافة ولم يعرفها؛ لئلا يقع الفتنة بين المسلمين، ومع ذلك قد وقعت، وبعدما أطلع الله نبيه على إفشاء حفصة الحديث معاتبًا عليها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ﴾ حفصة ظنًا منها أنها صدرت هذا من عائشة: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ﴾ وأعلمك ﴿هَذَا قَالَ﴾ ﷺ في جوابها: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر والخفايا ﴿الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3] بما يجري في الضمائر والنيات.

ثمّ قال سبحانه من قِبَل نبيه ﷺ على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ أنت وعائشة عما صدر عنكما توبةً صادرة عن محض الندم والإخلاص، منبئة عن كمال الموافقة والاختصاص مع الرسول ﷺ فقد جبرتما ما كسرتما، وإلّا ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن موافقة الرسول ومخالصته، فجئتما بما يكرهه ﷺ وبكراهتكما ما يحبه ﷺ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا﴾ وتعاونا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنتما عليه من مخالفة الرسول فلن تضرا له ﷺ شيئًا من الضرر، وكيف يلحقه ﷺ ضرر منكما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لعموم أحواله ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَوْلَاهُ﴾ ناصره ومعينه، ومولي عموم أموره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رئيس الكروبيين قرينه وملازمه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أتباعه وأعوانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: عموم الملائكة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد نصر أولئك المظاهرين ﴿ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] له سبحانه على سبيل التعريض لعموم أزواجه ﷺ؟!

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ﴾ الذي رباه على الكرامة الأصلية، والنجابة الجبلية ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ جميعًا ﴿أَن يُبْدِلَهُ﴾ بمقتضى قدرته وإرادته ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ صورة وسيرة، أخلاقًا وأعمالاً ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ في الاعتقاد، مسلمات عن العيوب ﴿مُّؤْمِنَاتٍ﴾ بوحدة الحق، مصدقات لعموم ما نزل مِن عنده ﴿قَانِتَاتٍ﴾ راسخات على الطاعات، مواظبات على عموم الخيرات، خاضعات خاشعات لله في عموم الأوقات ﴿تَائِبَاتٍ﴾ عن عموم المنكرات والمحظورات ﴿عَابِدَاتٍ﴾ على وجه التذلل والخضوع، وكمال الانكسار والخشوع ﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائمات أو مهاجرات ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5] يعني:

سواء كن ثيباتٍ أو أبكارًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: 6 – 9].

ثمَّ أوصى سبحانه لعموم المؤمنين ما يصلح لهم، ويليق بحالهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم حفظ النفس عن مطلق المهالك الدينية ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ عن ارتكاب المعاصي، والالتفات نحو المنكرات، والتوجه نحو المحظورات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي: من في حفظكم وحضانتكم من أزواجكم وأولادكم عن الوقوع في المهالك والفتن، وأنواع الآثام الموجبة للخذلان والحرمان، وبالجملة: اتقوا ﴿نَارًا﴾[1] وأيّ نار، نارًا ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: ما يتقد به النار أجسام الأنام والحجارة؛ وذلك من شدة حرارتها وإحراقها، بخلاف سائر النيران فإن وقودها الحطب.

ومع ذلك يوكل ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ يوقدونها، وهم الزبانية، صفتهم: إنهم ﴿غِلَاظٌ﴾ في أقوالهم وهياكلهم، لا يتأتى منهم الملاينة والملاطفة أصلاً ﴿شِدَادٌ﴾ في البطش وعموم التعذيب ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ ولا يتجاوزون عن أمره سبحانه في عموم أوامره، بل يمضونها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها بعذر وشفاعة، أو شفقة أو

(1) أي: قدِّسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحوا أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبتم في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المأمومين. قال سهل: أي: بطاعة الله، واتِّباع السنن. وقال ابن عطاء: بقبول نصح الناصحين، قال الوراق: علِّموهم الفرائض والسنن؛ لتنقذوهم بها من النار. وقال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم. [العرائس].

مروءة، بل يفعلون ﴿مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] على وجهه خوفًا من غيرته سبحانه وغضبه.

وبعدما نادى سبحانه عموم المؤمنين بما نادى، نادى أيضًا عموم الكافرين على مقتضى المقابلة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وكذّبوا رسله المبعوثين إليكم؛ ليرشدوكم إلى سبيل الهداية والسلامة، فأنكرتم بهم وبجميع ما جاءوا به بلا تأمل وتوقف، عليكم أن ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ بأن أعمالكم دون عذابكم وأنقص منه، بل ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ من العذاب على مقتضى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: 7] من الكفر والإنكار.

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق من شأن إيمانكم تطهير قلوبكم عن مطلق المعاصي والآثام المنافية لصرافة وحدة الذات، ولا يتيسر لكم هذا إلّا بالتوبة والرجوع على وجه الندم والإخلاص ﴿تُوبُوا﴾ أيها المخلصون المبتلون بفتنة الذنوب ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الملك القدوس، المنزه ساحة عز حضوره عن سمة الحدوث والإمكان مطلقًا ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ خالصة لوجه الله، قالعة لعرق الالتفات إلى غير الله، نادمة على الذنوب الصادرة عنكم فيما مضى، مجتنبة عن التي سيأتي، مصفية للنفس عن مطلق الكدورات المتعلقة بالغير، محلية لها بالتقوى عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الخالص نحو المولى.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ بعدما تبتم ورجعتم نحوه بكمال التبتل والإخلاص ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويعفو عنكم، ولم ينتقم منكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ تفضلاً عليكم، وإحسانًا ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والدين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف والحقائق المتجددة، الجارية من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات.

وكيف لا يكفّر، ولا يدخل سبحانه خلّص عباده في جنة وحدته ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي﴾ ولا يُردي ﴿اللَّهُ﴾ المنعم المفضل على خلّص عباده، سيما ﴿النَّبِيَّ﴾ المؤيّد من عنده بأنواع الكرامة والتعظيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ واهتدوا بهدايته، مع أن شأنهم هكذا ﴿نُورُهُمْ﴾ الذي اقتبسوه من مشكاة النبوة المصطفوية ﴿يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: محيطًا بهم، محفوفًا عليهم وقت عبورهم من الصراط؟!

ثمّ لمّا تفاوتت أنوارهم بحسب الجلاء والخفاء المترتب على أعمالهم واستعداداتهم الفطرية ﴿يَقُولُونَ﴾ مناجين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربّانا على الهداية والرشاد

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ تفضلاً علينا، ومزيد إحسان بنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا؛ أي: استر أنانيتنا عن عيوب بصائرنا ﴿إِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدخل في حيطة علمك وإرادتك ﴿قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث؛ لإعلاء كلمة التوحيد ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ الذين ستروا بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق، وأنكروا وجودها عنادًا ومكابرةً، وقاتل معهم بلا مبالاة بشوكتهم، وكثرة عَددهم وعُددهم، هم ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أيضًا، مع أنك مؤيّد من لدنا بالحجج القاطعة، والبينات الساطعة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بالأقوال والأفعال، ولا تكن معهم بعد اليوم، مثل ملاينتك معهم قبله، بل اشدد عليهم، فإن الله معينك وناصرك، وهم سيغلبون عن قريب في الدنيا ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ المعدّ لهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعير الطرد والخذلان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9] مصيرهم ومرجعهم جهنم.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: 10 – 12].

وبالجملة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ وشبّه حال الكفرة بحالهما في عدم دفع صحبتهم مع المؤمنين، ومحبتهم معهم شيئًا من عذاب الله؛ إذ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم نوح ولوط - عليهما السلام - ﴿صَالِحَيْنِ﴾ لقبولنا، مصلحين لأعمالهما وأخلاقهما، وعموم أطوارها ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: تلكما المرأتان بالنفاق ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ ولم يدفعا؛ أي: العبدان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي: عن تلك المرأتين ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، بل ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ﴾ المعدة للكفار والعصاة ﴿مَعَ﴾ سائر ﴿الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: 10] فيها بلا مبالاة إلى زوجيهما.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ﴾ أيضًا ﴿مَثَلًا﴾ آخر ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ شبّه حال المؤمنين في وصلة الكافرين بحال امرأة فرعون مع فرعون، وعدم تضرر إيمانها منه، بل تأكد إيمانها بصحبة زوجها فرعون - لعنه الله - اذكر ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ امرأة فرعون بعدما انكشفت بسرائر التوحيد، مناجية إلى ربها: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرامة، ووفقني على توحيدك ﴿ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ وذلك لمّا آمنت حين غلب موسى على السحرة فآمنوا له بعدما غلبوا، فقتلهم فرعون، وأمر بزجرها، وأوتدها بالأوتاد الأربعة في حر الشمس؛ حتى ترجع عن الإيمان ولم ترجع، ثمّ أمر اللعين أن يوضع فوقها صخرة عظيمة، فقالت حينئذٍ مناجية مع ربها من كمال تحننها وانكشافها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ الخبيث ﴿وَعَمَلِهِ﴾ السيئ ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11] الخارجين عن ربقة عبوديتك بإيمانهم بهذا اللعين الطاغي، واعتقادهم بألوهيته وربوبيته، فماتت قبل وضع الصخرة.

﴿وَ﴾ ضرب الله مثلاً أيضًا للذين آمنوا: ﴿مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي﴾ من كمال نجابتها وكرامتها، وطهارة ذيلها وعصمتها: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من مخالطة الرجال، وبالغت في التحصن والتحفظ إلى حيث رضي الله عنها وكرّمها، وأعطاها ما أعطى من الإرهاصات والكرامات التي خلت عنها سائر نساء الدنيا، وبعدما كرّمناها كذلك ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: في جوفها من جيب درعها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾[1] الذي كنّا نفخنا منه في قالب آدم الصفي، ومن تلك النفخة حبلت بعيسى ﷺ؛ ولهذا صار عيسى في الصفوة كآدم، وظهرت منه معجزات ما ظهرت من نبي قط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿صَدَّقَتْ﴾ مريم ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي: بعموم كلمات مربيها التي من جملتها: خلق عيسى ﷺ من ذلك النفخ ﴿وَ﴾ بجميع ﴿كُتُبِهِ﴾ المنزلة من عنده على عموم رسله ﴿وَ﴾ من كمال مجاهدتها في طريق الحق، وإخلاصها في الطاعات

---

(1) قال المحقق البقلي: ظهر فيه نور الفعل؛ ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيًا موصوفًا بصفاته، ناظرًا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدًا، وهذه خاصية لمن له أثرٌ من روحه، قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدًا، ويُبعث في الآخرة شهيدًا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبّه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للخلق.

والعبادات، واتكالها على الله في مطلق الملمات، وكمال تفويضها عليه سبحانه وتسليمًا إليه: ﴿كَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ﴾[1] [التحريم: 12] أي: من عداد الكمَّل من أرباب القنوت،

(1) قال علاء الدولة: وهذا إشارة شريفة في حق المجذوبين يعني: ذكر بصفة الرجال وأدخلهم في القانتين منهم، يعني: من أحصن فرج قابليته من المريدين وإن لم يصل إلى مرشد ويصدق الوارد وما يجد في صحف القلب والسر والروح، ويتوجه إلى الله توجهًا كل لما يمكن له الوصول إلى مرتبة الولاية؛ ولكن على سبيل الندرة، والنادر لا حكم له، وحظ السالك من هذه السورة وتفسير بطنها: أن يحترز في أن يحرم ما أحل الله على نفسه بجهله عنده مبادئ المكاشفات والمشاهدات، وقلما السالك إذا ابتلاه الله بالغيبة عن خدمة شيخه في بداية أمره كما كان حال هذا المسكين أن يتخلص من هذه الورطة، وسبيله إذا عرف اللطيفة حق المعرفة أو عرّفه شيخه يتوب على الله من ذلك الفعل، ويأكل ما قد حرمه الله في البداية على نفسه قدر ما يرفع عنه اسم التحريم، ويقتصر على ذلك، ويأكل لقمات متتابعة، وكل عمل حلال حرم على نفسه في البداية على نفسه [يعمله] بقدر ما يرفع اسم التحريم؛ فينبغي أن يشتغل به قدر ما خرج عن حد النهي الذي يقول في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:87]، واقتصروا على عمل واحد في كل سَنة، أو لقمة واحدة في كل وقت حضرت لموافقة أخ من الإخوان، إذا علم إن لم يواكله ينكسر قلبه ويحزن عليه صاحبه يوافقه ويواكله، ولا يسرف في أكلها، ولا يأكلها إذا كان خاليًا إلا لقمة واحدة؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران:93]، وهذه الآية تدل على أن السالك إذا حرم شيئًا على نفسه في بداية أمره لله جهلاً بالطريق فلا يجوز الاشتغال به بعد ورود الوارد عليه ومعرفته بالطريق؛ ولكن نسخ حكمه حكم هذه السورة المنزلة على اللطيفة الخفية التي هي خاتم اللطائف، ودينها ناسخ الأديان، وحظ آخر للسالك من تفسير بطن هذه السورة: أن يتيقن بأن لكل قوة من قواها القابلة والفاعلة عذاب مختص بها لا ينفعها صلاح القوة الفاعلة، ولو فسدت الفاعلة لا ينفعها صلاح القوة القابلة، ولا يضر فساد القوة الفاعلة للقوة الصالحة القابلة وعلى العكس، وفي كشف هذا السر باب مفتوح إلى مطلع القرآن مما يجب إغلاقه فسددته ورجعت إلى ما يليق بأذان المستمعين وحوصلة المسترشدين، فاعلم أيها المسترشد إن السالك ربما يكون في ساعة واحدة في الجنة والجحيم وهذا مما شاهدناه مرارًا في أنفسنا، وأنفس السالكين الذين سلكوا هذا الطريق بحضرتنا، وأمرنا بأن لطيفة منك ولها صورة معينة تعرفها أنها صورتك متنعمة في أعلى عليين، وفي هذه الحالة أيضًا ترى لطيفة منك على صورتك - غير هذه اللطيفة المنعمة وأنت تشاهدها وتعرفها أنها صورتك - معذبة في أسفل سافلين، وأنت الشاهد بصورتي لطيفتك، وتتعجب من هذه الحالة المتضادة! وتتألم بألم الصورة المتألمة، وتتنعم بتنعم الصورة المتنعمة، وربما يكون أربع صور، وربما يكون سبع صور، وربما أن يكون ترى العالم مملوءًا من صورك، كل صورة في عمل خاص، وربما يكون أن تشاهد جميع الصور يتحركون

المنجذبين إلى حضرة الرحموت بكمال الخضوع والخشوع.

وفي هذا التمثيلين تعريض لأزواج النبي ﷺ، وحث لهن إلى حسن المعاشرة ومراعاة الأدب معه ﷺ وكمال المصادقة، وتبعيد لهن عن النفاق والمراء والمجادلة معه في أمر أباحه الله له بمقتضى حكمته، إنما ضربهما سبحانه؛ لينزجرن بهما عمّا جئن به؛ لتكون عظةً وتذكيرًا لسائر المؤمنين المتعظين.

جعلنا الله من زمرتهم وجملتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب لكلمات الحق النازلة من الغيب إلى الشهادة، المتفرعة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية أن تترصد في عموم أوقاتك إلى ما سيتجدد من عالم الخفاء والكمون إلى فضاء البروز والظهور، ثمّ منها إلى البطون بمقتضى النشأة الجِبِلية الإلهية، فلا بدَّ لك أن تخلي همك وبالك عن مطلق الأشغال الشاغلة لك عن الالتفات والتوجه إلى الله، والتفرج بعجائب مصنوعاته، وغرائب مخترعاته، وإياك إياك أن تغفل عنه ساعة، فإنها تورثك حسرة عظيمة طويلة، وخسرانًا عظيمًا إن كنت من جملة المستيقظين.

ربنا لا تزغ قلوبنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهّاب.

بحركتك، وينبسطون ببسطك، وينقبضون بقبضك، ويتكلمون بكلامك، وكل شيء يصدر منك يصدر منهم، مثل الصورة المنطبقة في المرآة من عكس صورتك، وسر هذا الصور المنطبقة في المرآة من عكس صورتك، وسر هذه الصور يتعلق أيضًا بحد القرآن.

سورة الملك

فاتحة سورة الملك

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وكثرة شئونه وتجلياته المترتبة على أسمائه وصفاته، الفائتة للحصر والإحصاء أن سعة مملكة الحق، وملكه وملكوته إنما هي بمقتضى رقائق أسمائه وصفاته الغير المتناهية، الظاهرة على مرآة العدم، فيلوح فيها منها هياكل الأشباح التي لا غاية لها ولا نهاية يحيطها، بعضها مترتب على البعض، وبعضها مقابل للبعض، بعضها متصفة بالشهادة والجلاء، وبعضها بالغيب والخفاء.

وبالجملة: جميع ذرائر الأكوان مربوطة بعضها ببعض برقائق المناسبات والارتباطات الواقعة في عالم الأسماء والصفات؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه عن عظمة ملكه، وكثرة خيراته واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في مظاهره ومصنوعاته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بعموم أسمائه وصفاته التي لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى جنة المأوى وسدرة المنتهى.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: 1 – 7].

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وتعالى من كثرة الخيرات والبركات المالك الكامل ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وبقبضة قدرته جميع التدابير الجارية فيه على وجوه الصور والتقادير ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متفرعات جود وجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1] بالقدرة الشاملة، والإرادة الكاملة؟!

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ بمقتضى قهره ولطفه، وأدارهما بينكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وأصوبه وأصلحه، وأخلصه ﴿وَ﴾ إن لم تحسنوا العمل، ولم تصلحوه بعدما أمركم سبحانه بالإخلاص والإصلاح فقد ينتقم عنكم سبحانه بمقتضى غيرته؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الانتقام لمن خرج عن ربقة عبوديته ﴿الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2] المقتدر على وجوه الإنعام للمحسنين المخلصين.

وكيف لا، هو ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع الذاتية، وجعلها ﴿طِبَاقًا﴾ متطابقة بعضها فوق بعض، جوف بعض، وجعل تطبيقها ونظمها على وجه أحكم، ونظام أبلغ، حيث ﴿مَّا تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ المستوي على عروش الأكوان ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ ينبئ عن عدم رعاية الحكمة والمصلحة فيه، بل كلها على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة؟! فإن شككت أيها المعتبر الرائي فيها؛ لقصور نظرك عن إحاطة ما فيها من الحكم والمصالح في بادئ الرأي ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ وكرِّر النظر، ثمَّ انظر ﴿هَلْ تَرَى﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] [1] خلل وشقوق وقعت فيها، لا على مقتضى الحكمة والإحكام؟.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ إن شئت وشككت ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مرتين أو مرارًا كثيرة إلى حيث ﴿يَنقَلِبْ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾ أي: بصرك ﴿خَاسِئًا﴾ خائبًا بعيدًا عن المطلوب الذي هو رؤية الفطور والقصور ﴿وَهُوَ﴾ أي: نظرك حين رجوعه إليك ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4] كليل كئيب من طول المعاودة، وكثرة المراجعة بلا فائدة تترتب عليها، وعائدة تفوز بها من إدراك الفطور والقصور.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا: ﴿لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: السماء المرئية من الدنيا ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي: بكواكب كثيرة مضيئة، منيرة في الليل كالسرج، هي سبب رؤيتها، وإلَّا فلا ترى الأفلاك ﴿وَ﴾ من جملة اختباراتنا الواقعة بين عبادنا: إنَّا ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: تلك المصابيح ﴿رُجُومًا﴾ أي: سبب ظنون وجهالات ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾

---

(1) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها قاله القاشاني، ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق اشد امتناعا من خواص الجسمانيات.

وهم المنجمون المرجفون الذين يرجمون بالغيب، مستمسكين بها وبحركاتها وأوضاعها ﴿وَ﴾ بعدما أضللناهم بها في الدنيا ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] أي: النار المسعرة جزاء ما اجترءوا على الله بدعوى الإطلاع على المغيبات، مع أنه من الخصائص الإلهية، وما ذلك إلا من كفرهم بالله، واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في ملكه وملكوته.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وادَّعوا معه الشركة في أخص أوصافه، وهو عالم الغيب ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، والطرد والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الملك: 6] مصير أهل الكفر.

ومأواهم من شدة أهوال جهنم وأفزاعها: إنهم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: قصدهم الزبانية؛ لإلقائهم بالعنف والزجر المفرط ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا هائلاً مهولاً، كصوت الحمار ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي: جهنم حينئذٍ ﴿تَفُورُ﴾ [الملك: 7] وتغلي غليان المرحل غيظًا وغضبًا لأعداء الله.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: 8 – 15].

ومن شدة غضبها وسخطها ﴿تَكَادُ﴾ وتقرب ﴿تَمَيَّزُ﴾ وتفترق أجزاؤها ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ المفرط ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: جماعة وفرقة من المتفقين المجتمعين على ديدنة قبيحة، وخصلة خارجة عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سؤال توبيخ وتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8] يخوفكم من هذا العذاب الهائل، مع أن سنة الله جرت على ألا يدخل عباده فيها إلا بعد الإنذار والتخويف.

﴿قَالُوا﴾ حينئذٍ متحسرين: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ فأنذرنا عنها على أبلغ الوجوه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير، وأفرطنا في تكذيبه إلى حيث نفينا الإنزال والإرسال مطلقًا، بل كفرنا

بالحق وبجميع ما جاء به النبي النذير من عنده، ونسبنا دعواه إلى السفه والضلال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُلْنَا﴾ له حين دعوته وادعائه نزول الكتاب: ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم أيها المدَّعون للرسالة ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾[1] [الملك: 9] عظيم لا ضلال أعظم من ضلالكم.

﴿وَ﴾ بعدما حكوا أولئك الضالون ما حكوا ﴿قَالُوا﴾ من غاية أسفهم وحسرتهم على سبيل التمني: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل المؤيَّدين بالمعجزات الظاهرة ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ نتأمل ونتفكر في حججهم الساطعة، ودلائلهم القاطعة ﴿مَا كُنَّا﴾ الآن ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10] أي: في عدادهم ومن جملتهم.

وبالجملة: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ وندموا، وما ينفعهم الاعتراف والندم؛ لمضي وقته، بل ﴿فَسُحْقًا﴾ طردًا وتبعيدًا عن ساحة عز القبول، وعن سعة رحمة الحق، وكنف لطفه ومغفرته ﴿لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 11] أي: لمطلق من دخل بشؤم كفره وإنكاره فيها.

ثمَّ أردف سبحانه حال الكفرة بحال المؤمنين تنشيطًا للسامع، وحثًا له على التثبت في الإيمان فقال: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُم﴾ أي: عذابه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: حال كونهم في النشأة الأولى غائبين عنه، غير معاينين له ﴿لَهُم﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لذنوبهم الصادرة عنهم بمقتضى بشريتهم جزاء إيمانهم بالله، وخشيتهم عن عذابه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12] يصغر دونه الدنيا وما فيها تفضلاً عليهم وامتنانًا، ألا وهو رضاه الله منهم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] من الآخرة وما فيها، فكيف عن الدنيا؟!

ثمَّ لمَّا قال بعض المشركين لبعضهم على سبيل التهكم: أسرُّوا قولكم؛ كي لا يسمعه ربّ محمد، نزل: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وهما سيان بالنسبة إلى علمه المحيط، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(1) يعني: جاءت اللطيفة المنذرة وبلغت إلينا ولكن كذبنا لاتباع هوانا، وقلنا: لا يمكن أن ينزل علينا مثلنا، لستم إلا في ضلال كبير؛ لرجوعكم عن دين آبائكم ولو كان الله أراد أن ينزل علينا لأنزل علينا ملائكة، أنتم تأكلون وتشربون وتمشون في الأسواق، وتحتاجون إلى البول والغائط وإلى ما يحتاج البشر إليه. [عين الحياة].

[الملك: 13] أي: بما في الضمائر قبل أن يعبّر به أو يقصد بتعبيره، بل هو عليم بما في استعداداتكم وقابلياتكم المكنونة في عالم الأسماء والصفات قبل ظهوركم في عالم الأشباح؟!

﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ وقدّر بمقتضى علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ اللَّطِيفُ﴾ الواصل آثار علمه إلى خفيات الأشياء وأسرارها ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] (1) المحيط خبرته لظواهر المظاهر وبواطنها.

وبالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أيها المكلفون بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينة سهلة، قابلة للسلوك عليها ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جبالها أو جوانبها حيث شئتم ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ رغدًا واسعًا متى أردتم، واشكروا المنعم المفضل، ولا تكفروا به وبنعمه ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] أي: نشور الكل ورجوعه؛ إذ لا مرجع لكم سواه، ولا معاد إلّا إليه، فيسألكم عمّا أنعم عليكم ويحاسبكم عليه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: 16 – 20].

وكيف لا تشكرون نعمه، ولا تواظبون على أداء حقوق كرمه؟! ﴿أَأَمِنتُم﴾ عذاب ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من عذابه النازل من جانب السماء على من لم يشكر نعماءه المتوالية، وآلاءه المتتالية من ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ويطويكم بها ويغيبكم فيها،

(1) قال روزبهان: بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليقة، وإن كان صدّيقًا، أو نبيًا مرسلاً، أو ملكًا مقربًا، فيكون عنهم مستورًا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمعنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفيةٌ عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: 16].

﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ عذاب ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ﴾ ويمطر ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حصباء من قِبَل السماء فيهلككم بها، كما فعل بقوم لوط عليه السلام ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ أيها المسرفون المفرطون في كفران النعم، ونسيان حقوق الكرم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 17] وإنذاري عليكم.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل، وبالغوا في تكذيبك وإنكارك لا تبال بهم وبتكذيبهم، وانتظر إلى ما سيؤول أمرهم إليه.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفرة المكذبين لرسلهم أمثالهم، مبالغين في تكذيبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: 18] أي: إنكاري إياهم، وانتقامي منهم، فسيلحق أيضًا لهؤلاء الضالين المكذبين لك بأضعاف ما لحقهم.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا عن انتقامهم وإهلاكهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران ﴿وَ﴾ بعدما أردن السرعة ﴿يَقْبِضْنَ﴾ ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن؛ استظهارًا بها على سرعة الحركة، مع أن ميلهن بالطبع إلى السفل بثقلهن ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ المستعان الشامل برحمته العامة على كل شيء دخل في حيطة قدرته، وعلمه وإرادته، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19] يدبر أمره على وجه يليق به، وينبغي له بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم قال سبحانه مستفهمًا إياهم على الإنكار والتقريع: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ الناصر الظهير ﴿الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وعون لكم ﴿يَنصُرُكُم﴾ ويعينكم حين بطش الله إياكم أيها المسرفون ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ المستوعب بالرحمة العامة على عموم الأكوان، مع أنه لا شيء في الوجود سواه، وبالجملة: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: 20] باطل وزور ظاهر بلا وثوق لهم، ولا اعتماد.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

﴿ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾ [الملك: 21 – 26].

﴿أَمَّنْ هَذَا﴾ الرازق المتكفل لأرزاقكم ﴿الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ ويسوق إليكم ما يسد رمقكم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ سبحانه ﴿رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر، وسائر الأسباب والآلات التي تتوسلون بها إلى أرزاقكم، هل لكم متمسك تتمسكون به، وتثقون عليه سواه سبحانه أصلاً؟! كلا وحاشا، ليس لكم إلّا هذا ﴿بَل لَّجُّوا﴾ تمادوا وأصروا على اللجاج، وصاروا دائمًا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ لدد وعناد ﴿وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21] عن الحق وقبوله تعنتًا واستكبارًا.

ثمّ قال سبحانه مستفهمًا على سبيل التوبيخ: ﴿أَ﴾ يعتقدون الآثار الظاهرة في الأقطار من الوسائل والأسباب، ولم ينسبوها إلى المؤثر المسبب لها المختار، وسلكتم في هذا الطريق بأنواع الإنكار والإصرار ﴿فَمَن﴾ أي: فهل من ﴿يَمْشِي﴾ ويمضي ﴿مُكِبًّا﴾ ساقطًا ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ لوعرة طريقه، وظلمة سبيله ﴿أَهْدَى﴾ إلى مقصده، وأرشد إلى مطلوبه ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستقيمًا سالمًا عن التزلزل والسقوط، راكبًا ﴿عَلَى﴾ متن ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22] وطريق واضح بلا عثور وقصور؟! مثّل بهما سبحانه للمشرك المتشبث بالعقل، المنعزل عن الرشد والهداية، وللمؤمن المستمسك بالعروة الوثقى التي هي الشرع القويم الموصل إلى توحيد الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر وحدة الحق، واستقلاله في مطلق التصرفات الواقعة في عالم الكون والفساد: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إنشاءً إبداعيًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا به المواعظ، والآثار والأخبار الصادرة عن أولي العزائم الصحيحة، المجتازين نحو فضاء اللاهوت بانخلاعهم عن كسوة الناسوت مطلقًا ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتنظروا بها في ملكوت السماوات والأرض فتعتبروا منها إلى مبدعها العليم الحكيم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفطنوا بها إلى عجائب حكمته، وبدائع قدرته؛ كي تنكشفوا بوحدته، وتتشرفوا بوصلته، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23] أي: الشاكرون الصارفون لهذه النعم العظام إلى ما خلقت لأجله، قليل في غاية القلة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر قدرتنا على الحشر والنشر، والحساب والجزاء على جميع الأمور الواقعة في النشأة الأخرى ﴿هُوَ﴾ سبحانه العزيز الغالب، ذو القدرة

والاختيار ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: بثكم وبسطكم بمقتضى قدرته ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وكلفكم على الإيمان والأعمال، واختبركم بالأوامر والنواهي ﴿وَ﴾ كما أبدعكم أولاً بامتداد أظلاله، ورش نوره على مرآة العدم، أعادكم أيضًا بقبض أظلاله وأنواره إلى ذاته، فثبت أنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: 24] للجزاء، فيجازيكم على مقتضى ما اقترفتم من المأمورات الإلهية.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال استبعادهم وإنكارهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الموعود الذي وعدتم الجزاء والحساب، والثواب والعقاب فيه، أخبرونا عن وقوعه في أيّ زمان، وإن وقع؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: 25] يعنون: النبي والمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألحوا عليك، وألجئوك إلى التعيين: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ المتعلق لتعيين وقته ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه أحد من خلقه ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مُّبِينٌ﴾ [الملك: 26] مظهر مبلغ ما يوحى إليّ من عنده على وجهه، لا طريق لي بوقوع المعهود إلا الوحي، ولم يوح إليّ تعيينه، فكيف أتكلم عنه؟! فعليكم ألّا تستعجلوا وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: 27 – 30].

وبعدما تحقق وقوعه، وحل وقته ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب الموعود في الآخرة ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اسودت وقبحت من شدة الكآبة والحزن المفرط ﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قِبَل الحق: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾[1] [الملك: 27] تطلبون وتستعجلون وقوعه مراءً واستهزاءً على سبيل.

(1) قال السمناني: أي: تتمنون أن يعجل فينبغي للسالك في هذا المقام ألّا يدع النفس أن تشك في بواقي الآيات؛ لأنها ما دامت في قالب الكدورات تصل من عالم السفل إليها دخان يصعد من الهوى على دماغها يحفظ عقله يشك، فإذا أراد السالك آية من آيات النفس مما لم يكن يراها قبل السلوك فيجب الإذعان لمسلكه واشتغاله برفع الحجاب؛ ليرى آيات ربه الكبرى وإن لم

التهكم، فالآن يلحقكم ما تنكرون به فيما مضى.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمشركي مكة بعدما تطيروا بموتك، وموت من معك من المؤمنين؛ ليتخلصوا من شروركم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَ﴾ أهلك أيضًا ﴿مَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بأن أخر آجالنا بمقتضى لطفه وجماله، ونحن مؤمنون مخلصون له، مقرّون بأنه الفاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ وينقذ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المنكرين على الله وإرادته، واختياره وألوهيته مطلقًا ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: 28] نازل عليهم من لدنه سبحانه بشؤم ما اقترفوا من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان؟!

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تمادى نزاعهم، وتطاول جدالهم، ولم تنفعهم الدعوة والتبليغ كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والمراء، منبعثًا عن الحكمة والمصلحة: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ المستعان المستوي على عروش الأكوان بكمال الاستيلاء والاستحقاق ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ مخلصين مستوثقين بحبل كرمه ووجوده ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وفوّضنا أمورنا كلها بالعزيمة الخالصة الصادقة، وأخذناه وكيلاً، واعتقدناه حسيبًا وكفيلاً ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: 29] أنحن أم أنتم؟!

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين بوجود الصانع الحكيم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المسرفون المكابرون ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ أي: ظل وصار ﴿مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا إلى حيث لا يصل إليه السجال والدلاء بحبال وحيل ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: 30] جارٍ هامرٍ، سهل المأخذ سوى الله رب العالمين؟.

فكيف تنكرون وجوده، مع أنكم مغمورون بسوابغ نعمه، معترفون

يقدر على رفع الحجاب فينبغي أن يكون مؤمنًا ببواقي الآيات، مصدقًا بملكه قياسًا فيما يقول ويحكي عن الآيات الأنفسية الغيبية، وألا يشك البتة فيما يشاهد قرنائه وأصحاب مسلكه قياسًا: إنني أيضًا سالك ولم أر ما يحكي نظرًا؛ أي: لأن الاستعدادات متفاوتة في الكثافة واللطافة، والله يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع كيف يشاء، لا راد لقضائه، ولا مانع لعطائه، ولا دافع لبلائه، وعلينا التسليم والتصديق وله الحكم على التحقيق وبيده التوفيق، وهو الرفيق في هذا الطريق.

بسوابق كرمه؟!

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المستمسك بعروة الشريعة المصطفوية التي لا عروة أوثق منها ولا جادة أقوم وأعدل أن تتشبث بها، وتعمل بمقتضاها، متوكلاً على الرحمن المستعان، مفوضًا أمورك كلها إليه على وجه الإيقان، معرضًا عن جنود أمارتك ومقتضياتها، مجاهدًا معها، مخاصمًا إياها حتى تصير مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء، صابرة على ما أصابها من البلوى إلى أن صارت فانية عن هوياتها الباطلة، باقية بهوية الحق وبقائه.

جعلنا الله ممن فني فيه، وبقي ببقائه بمنّه وجوده.

سورة القلم

فاتحة سورة القلم

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق، وشمول أوصافه الذاتية على عموم مظاهره ومصنوعاته أن قلم تقديره الذي هو أول مصنوع صدر منه سبحانه قادر غالب على تصويرات لا تتناهى، وتشكيلات لا غاية لها، فأثبت به سبحانه في لوح قضائه صدور عموم مظاهره ومصنوعاته ظاهرًا وباطنًا، غيبًا وشهادةً، أزلاً وأبدًا.

ومن كمال عظمته، ورفعة قدره: أقسم به سبحانه؛ لبراءة حبيبه ﷺ عمّا يتهمه الظالمون، ويقولون في حقه عنادًا ومكابرةً أولئك المسرفون المفرطون، فقال بعد التيمن باسمه، مخاطبًا لحبيبه ﷺ على طريق الرمز والإيحاء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده من الفضائل والكمالات ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل الخيرات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ
۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ
فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ
۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 1 – 15]

﴿نٓ﴾ أيها النبي النائب عن الحق، الناظر بنور الله، النقي عن جميع الرذائل والآثام المنافية لمرتبة النبوة والولاية ﴿وَ﴾ حق ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ الأعلى ﴿وَ﴾ بحق ﴿مَا

يَسْطُرُونَ﴾[1] [القلم: 1] ويكتبون بها الملأ الأعلى من الأسماء والصفات المأمورة بتصويرات الأشياء الكائنة في النشأة الأولى والأخرى حسب آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

﴿مَا أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي ربّاك على الهداية العامة، والولاية المطلقة، وأعطاك من الفضائل والكمالات المتعلقة لمرتبتي النبوة والولاية ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] أي: ما أنت غافل عنها، ذاهل عن أداء حقها، جاهل بشكر نعمها ومولاها.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل باحتمالك أعباء الرسالة والتبليغ، وتصبرك على أذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيمًا من عند الله ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3] منقطع أبد الآبدين؛ إذ ما يترتب على مرتبتك الجامعة من الكرامات اللائقة البديعة،

(1) قال روزبهان: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تستطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفائية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدِّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وبقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبته في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما يتنسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسماع أسر الأرواح القدسية الملكوتية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائنٌ إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطابي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرة عيون العارفين، وبنون حاجبيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، ومايسطرون كتبته أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

لا انقطاع لها أصلاً.

﴿وَإِنَّكَ﴾ من كمال تخلقك بالأخلاق الإلهية، وتحققك بمقام الخلة والخلافة ﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] لا خلق أعظم من خلقك؛ لحيازتك وجمعك خُلق الأولين والآخرين حسب جامعية مرتبتك.

وبالجملة: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم: 5] أولئك المصرفون المفرِّطون بنسبتك إلى الجنون حين تبلى السرائر، وينكشف ما في الضمائر، وينزل العذاب على أهله.

﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: 6] أي: أيكم يفتن بالجنون: المؤمنون المهتدون بهدايتك، أو الكافرون الضالون بغوايتهم؟.

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك على الرشد والهداية ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: 7] المتمكنين منهم على جادة التوحيد، والصراط المستقيم الموصل إلى جنة الرضا، وروضة التسليم.

وبعدما سمعت نبذًا من شأنك في شأنك في النشأة الأخرى: ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ أيها النبي المجبول على الهداية والفلاح ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: 8] المجبولين على الغواية والضلال؛ يعني: مشركي مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه سبحانه أن يطيعهم، ويقبل منهم دعوتهم.

فإنهم ﴿وَدُّوا﴾ وأحبُّوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ وتلائم معهم، وتوافقهم في دينهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9] معك، ويلاينونك ويوافقون معك، ولا يطعنون بدينك.

﴿وَ﴾ بعدما صرت متخلقًا بالخلق العظيم، ومتصفًا بالأوصاف الحميدة الإلهية ﴿لَا تُطِعْ﴾ آراء ذوي الأخلاق الذميمة، والأطوار القبيحة مطلقًا، سيما ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ مبالغ بالحلف الكاذب؛ لترويج آراء ذوي الباطل الزاهق الزائل ﴿مَّهِينٍ﴾ [القلم: 10] مهان عند الناس؛ بسبب الكذب والحلف عليه.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب طعّان يغتاب ويطعن بعض الناس عند بعضهم ﴿مَّشَّاءٍ﴾ يدور بين

الناس ﴿بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11] أي: ينقل حديث بعض عن بعض؛ حتى يوقع بينهم الفتنة والبغضاء.

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شحيح بخيل لا ينفق من ماله على من يستحقه، ويمنع أيضًا صاحبه وصديقه عن الإنفاق؛ لئلا يلحق العار عليه خاصة ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز الحد في أنواع الظلم، وأصناف الفسوق والعصيان ﴿أَثِيمٍ﴾ [القلم: 12] مبالغ في اقتراف الإثم والعدوان بلا مبالاة.

﴿عُتُلٍّ﴾ غليظ الهيكل، قاس القلب، كريه المنظر، عريض القفا، متناهٍ في البلادة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الاتصاف بالأوصاف المذمومة المذكورة ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13] دعي بين القوم، لا يكون له نسب معروف، ولا حسب مستحسن مقبول.

ومن كمال دناءته وخساسته ﴿أَن كَانَ﴾ أي: أنه كان ﴿ذَا مَالٍ﴾ عظيم ﴿وَبَنِينَ﴾ [القلم: 14] كثيرة مستحقة شكر المنعم المفضل، ولم يشكره.

بل يكفره؛ لأنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿قَالَ﴾ من كمال كفره وكفرانه، وبغيه وعدوانه: ما هذا إلَّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15] أي: الأكاذيب القديمة التي سطرها الأولون ودونوها.

قيل: هذا هو الوليد بن المغيرة الذي جمع الله فيه هذه المثالب الذميمة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: 16 – 27].

وبالجملة: لا تطعه يا أكمل الرسل، ولا تلتفت إلى ثروته وسيادته، فإنَّا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿سَنَسِمُهُ﴾ ونُعلِّمه بالكيِّ ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: 16] أي: أنفه، بحيث يعرف به في عرصات المحشر.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وانتقامنا من أهل مكة ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ أصبناهم وابتليناهم بالقحط سبع سنين؛ لكفرانهم بنعمنا التي من معظمها: بعثة الرسول الذي هو أكمل الرسل منهم فكذبوه، وأنكروا دينه وكتابه، واستهزءوا به ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ وأصبنا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ التي اسمها ضروان، كانت دون صنعاء بفرسخين لصالحٍ، كان ينادي الفقراء وقت الصرام، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا لضاق علينا، فإن المال قليل والعيال كثير، وكان مال أبينا كثيرًا وعياله قليلاً، فحلفوا ليصرمنها مصبحين خيفةً من المساكين، كما حكى عنهم سبحانه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني: أولاد الصالح وورثته ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ وليقطعنها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17] داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: 18] أي: لا يتكلمون بكلمة: إن شاء الله حين تقاولوا وتقاسموا.

وبعدما اتفقوا على تحريم الفقراء، ولم يفوضوا أمرهم إلى مشيئة الله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ بلاء مخصوص بها أحاط جميع جوانبها، لا لما في حواليها من البساتين الأخرى، ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿نَائِمُونَ﴾ [القلم: 19] في بيوتهم.

﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنة، وصارت ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: 20] أي: صارت كالتي صُرم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء، أو صارت كالليل في اسودادها وإحراقها، أو كالنهار من غاية يبسه وجفافه.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 21] داخلين في الصباح المعهود للصرام.

﴿أَنِ اغْدُوا﴾ واخرجوا غدوة أيها الملّاك ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: 22] قاصدين صرمها وقطعها.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ بأجمعهم نحوها ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ [القلم: 23] ويكتمون ذهابهم عن الناس، ويسرون كلامهم فيما بينهم.

مخافة ﴿أَن لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: 24].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ قصد تام، وسرعة كاملة ﴿قَادِرِينَ﴾ [القلم: 25] على القطع بلا مشارك ومعين.

﴿فَلَمَّا﴾ وصلوا إليها ﴿رَأَوْهَا﴾ كذلك ﴿قَالُوا﴾ في بادئ الرأي: ما هي جنتنا هذه، بل ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: 26] طريقها.

ثمّ لمّا تأملوا في أمارتها قالوا على سبيل الإضراب عن القول الأول من كمال الأسف والحسرة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: 27] حرمنا عنها وعن خيراتها؛ لخساستنا وخباثة نفوسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: 28 – 42].

وبعدما حُرموا منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم رأيًا وعقلاً على سبيل التقريع والتشنيع لإخوانه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ وقت مشورتكم على تحريم الفقراء، واتفاقكم على منعهم: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28] أي: هلّا تذكرون الله بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء؛ حتى يزيد عليكم نعمه، وقد قال هكذا حين عزموا أولاً على المنع، وشاوروا فيه.

وبعدما وقعوا في الشدة والبلاء اعترفوا بالظلم، حيث ﴿قَالُوا﴾ عن كمال الندامة

والإنابة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ ننزهك من أن ينازعك في ملكك وسلطانك، أو يخالف حكمك أو شأنك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: 29] خارجين عن أمرك بالإنفاق، معرضين أنفسنا على عذابك وانتقامك.

تب علينا بفضلك وكرمك ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

وبعد وقوع الواقعة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾[1] [القلم: 30] يعني: يلوم بعضهم بعضًا، فإن منهم من أنكر، ومنهم من استصوب، ومنهم من أشار، ومنهم من سكت.

وبالجملة: ﴿قَالُوا﴾ أي: الكل متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: 31] مجاوزين حدود الله، مستحقين للويل والثبور.

وبعدما أنابوا إلى الله، وتضرعوا نحوه على محض الندم والإخلاص قالوا على سبيل الطمع والرجاء: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ ببركة التوبة والرجوع بالإخلاص والاعتراف بالخطأ، والاستغفار بالندم، والانكسار التام، وقد رُوي أنهم أُبدلوا خيرًا منها ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: 32] راجون منه العفو، طالبون الخير والمغفرة.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ لمن خرج عن مقتضى الحدود الإلهية في الدنيا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة لأصحاب الغفلة عن الله ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم بأضعافها وآلافها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 33] ويعتقدون وقوعها لاحترزوا عمّا يؤولهم إلى عذابها، ويوقعهم في وبالها ونكالها.

---

(1) يعني: القوى اللوامة بعد أن ترى آيات الرب نفسها، وهذا ينفع في أثناء السلوك إذا طلع السالك على ظلمة الغفلة عن ذكر ربه وتركه الاقتداء بمقتداه، فيتوب إلى الله ثم يستأنف العمل على وفق الإقتداء، ويترك الغفلة ويشتغل بالذكر؛ ليزرع بعد ذلك على وفق أمر الدهقان الخبير، ويحصد - إن شاء الله تعالى - على وفق مراده عن قريب ذاته، لا ينفع بأن يفرغ عنه الآيات والأدوات، والبذر والأرض، ولا يزيد له من حسرته إلا العذاب الأليم المقيمُ، اللهم نبهنا من نومة الغافلين واجعلنا من الذاكرين. [عين الحياة].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن غضب الله، المتحرزين عن الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم إلى صيانة النفس عن المعاصي والمنكرات حين وصولهم إلى كنف حفظه، وجوار قدسه ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: 34] أي: روضة الرضا، وجنة التسليم، لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدًا، والله عنده أجر عظيم لمن وصل إليه وتحقق دونه.

ثمّ لمّا كان الكفرة يقولون: إن صح أنّا نُبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا هناك أيضًا، بل نحن هناك أيضًا أحسن حالاً منهم كما في الدنيا، رد الله عليهم زعمهم هذا بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يعني: أيزعم الكفرة المفسدون المفرطون أنّا نجعل ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ المتصفين بالإيمان والأعمال الصالحة، المنزهين عن مطلق العصيان ولوازمه ﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35] الموصوفين بأنواع الجرائم والآثام الخارجة عن مقتضى الأحكام الإلهية الجارية على مقتضى الحكمة والعدالة.

﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما عرض عليكم، ولحق بكم أيها العقلاء حتى أخرجكم عن مقتضى العقل الفطري ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 36] وتدعون مساواة المسيء مع المحسن، فكيف يفضله عند العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال على مقتضى القسط والعدالة؟!

أتحكمون هذا بمقتضى رأيكم الفاسد أيها الضالون؟! ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نازل عليكم من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿تَدْرُسُونَ﴾ [القلم: 37] وتقرؤون هكذا؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: 38] أي: ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه من خير ما تجدون فيه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود ومواثيق مؤكدة لازمة ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مشتملة متضمنة لهذا ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 39] به علينا من أن الخير والكرامة لكم عند الله أكثر مما لنا؟!

﴿سَلْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، وفتش عنهم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَيُّهُم﴾ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ [القلم: 40] قائم يستدل عليه ويصححه، أهو؛ أي: الزعيم

المستدل واحد منهم؟!

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ في هذا الدعوى ﴿شُرَكَاءُ﴾ متشاركون في هذا القول والحكم، وهم يقلدونهم؟! فإن ادَّعوا شركاء قل لهم نيابةً عنَّا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ حتى يثبتوا الدعوة ويصححوها ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: 41] في هذه الدعوة.

وبعدما بهتوا اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ الأمور والخطوب ﴿عَن سَاقٍ﴾ أي: عن أصلها وحقيقتها، وتبلى السرائر برمتها، وارتفعت حجب الأغيار وسدل الاعتبار بأسرها، وبالجملة: لم يبق إلا الله الواحد القهار ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ حينئذٍ هؤلاء الأظلال الهالكون في تيه الحيرة والضلال ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ والتذلل على وجه الانكسار لدى الملك الجبار ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42] حينئذٍ؛ لمضيّ نشأة الاختيار، وأوان الاختبار.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: 43 – 52].

بل صاروا ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة حاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ هائمة عقولهم، وبالجملة: ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتلحقهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ محيطة بجميع جوانبهم ﴿وَ﴾ كيف لا يكونون كذلك يومئذٍ؛ إذ هم ﴿قَدْ كَانُوا﴾ في نشأة الاختبار ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ حينئذٍ ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 43] متمكنون قادرون عليه، فلم يفعلوا عنادًا ومكابرةً؟! فالآن قد انقضى وقت الاعتبار، فلا ينفعهم التذلل والانكسار سواء قدروا أو لم يقدروا.

وبعدما بالغ المنكرون المكذِّبون في قدح القرآن وطعنه، وأصروا على العناد

والاستكبار.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي: خلني يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ وفوض عليّ أمر ﴿مَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، ولا تُتعب نفسك في معارضتهم ومجادلهم، ولا تعجل في أخذهم وانتقامهم، فإني أنتقم منهم، وأكفيك مؤنة شرُورهم، فاعلم أنَّا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: ندنيهم درجة درجة إلى سوء العذاب بأن نهملهم في الدنيا، وننعم عليهم، ونديم صحتهم ونوفر عليهم أسباب الشقاوة حتى صاروا مغمورين في الكفر والطغيان، منهمكين في الضلال والعصيان، ثمّ نبطشهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [القلم: 44] أي: من جهة وطريقة لا يفهمون أنه من جهته وطريقه مكرًا عليهم، وزجرًا لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم كيدًا عليهم، وهم لا يشعرون ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: 45] محكم لا يفهمه أحد، ولا يدفعه شيء.

أينكرون إرشادك وتبليغك إياهم عنادًا ومكابرةً؟! ﴿أَمْ﴾ يظنون أنك ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جعلاً على إرشادك وتكميلك إياهم؟! ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: من أجل غرامة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [القلم: 46] بحملها فيعرضون عنك، ويكذبونك بسببها.

﴿أَمْ﴾ يدّعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون أن ﴿عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: 47] منه جميع ما يحكمون به من الإقرار والإنكار، وبه يستغنون عن تعليمك وإرشادك؛ لذلك يكذبونك وينكرون عليك؟!

وهم وإن بالغوا في العناد والإنكار ﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير نصرك عليهم، وإمهالهم زمانًا على حالهم، ولا تستعجل في مؤاخذتهم ﴿وَلَا تَكُن﴾ في الاستعجال ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: أخاك يونس بن متى

---

(1) قال علاء الدولة: أي: يمهلهم قليلاً في رزق مكاشفاتهم النفسية ليزدادوا في إنكار اللطيفة، ويفتروا ببعض الكرامات التي هي عين المكر مما يقدر العدو على إتيان مثلها مثل المرور على الماء، والطيران في الهواء، والإسراف على الخواطر حتى يظن أنه عند الله من المكرمين، وينكر المقتدى فيأخذهم بغتة، وينزع منهم الآيات والأدوات، ويكشف عليهم أحوال زرعهم وحرثهم فصاروا عارفين بالمقتدى متحرين على فوات الوقت وضياع الاستعداد معذبين أبد الآباد.

عليه السلام، فاستعجل العذاب لقومه، ثمَّ لمَّا ظهرت أماراته خرج من بينهم مغاضبًا عليهم حتى اقتحم البحر ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات: 141] في السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142.141]، اذكر ﴿إِذْ نَادَى﴾ ربه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48] مملوء غضبًا وغيظًا، مبتلى بالبلاء العظيم.

﴿لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ﴾ أدركته ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعني: لو لم يوفقه سبحانه على نعمة التوبة، والإنابة والرجوع إليه على وجه الإخلاص والندامة ﴿لَنُبِذَ﴾ وطرح ألبتة ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الأرض الخالية عن الشجر ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مَذْمُومٌ﴾[1] [القلم: 49] مليم مطرود من الرحمة والكرامة.

لكن أدركته العناية الإلهية، وانفتح له باب التوبة والاستغفار على وجه الندم والانكسار، فاستغفر ربه وتاب عليه، وأجاب له تفضلاً عليه وامتنانًا ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أيضًا لمصلحة النبوة فأرسله إلى قومه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 50] الكاملين في الصلاح، الفائزين بالعصمة والفلاح.

---

(1) يذم ويلام بنزوله وبانحطاطه من مرتبة النبوية والولاية، وهذا سالك دعا على أممه على سبيل الضجارة بالعجلة وقت عروجه على معارج قلبه، ثم أخذ منه آلات الترقي بدعائه على أممه وطرح في جوف حوت الصدر فبقي فيه بحيث لا تزيد مرتبته ولا يترقى من حاله، وهذه حسرة عظيمة للسالك ولو ألهم في قلب السالك أنك وصلت إلى سدرة المنتهى منتهيك وأعطيت درجات جميع المقربين وليس لك الترقي بعد هذه المرتبة ينبغي أن يعري نفسه بنزع الآلات والأدوات عنها ووقوفها في مرتبتها؛ لأن المراتب الإنسانية والدرجات النفسانية غير منتهية إذا دخل السالك في عالم اللاهوت كل ساعة ونفس ولمحة لا يترقى فيها السالك من مقامه فهو مغبون كما قال ﷺ: «من استوى يومًا فهو مغبون كل الغبن»، من رضي بالدون وكل ما سوى الحق فهو دون، فاحذر عن الهمة الدنية وعليك بالهمة العلية، كما قال سلطان العارفين طيفور البسطامي- قُدِّس سرّه - ليحي بن معاذ الرازي حين سأله عن فضلات وارده الذي ورد عليه ليلة من الليالي وجاءه يحي وأراه في تلك الحالة فقام وراءه من إقباله إلى السحر وهو على تلك الحالة فلما أفاق والتفت سلم يحيي عليه وقال: أفض ما أفاض الله عليك، فقال: لو أعطاك الله درجات جميع الأنبياء والأولياء لا تقنع بها ولا تسكت عن الطلب؛ لأن عنده أكثر منها لا يتناهى أبد الآبدين ودهر الداهرين. [عين الحياة].

﴿وَ﴾ من غلظ غيظهم معك يا أكمل الرسل، وشدة شكيمتهم وضغينتهم بالنسبة إليك ﴿إِن يَكَادُ﴾ أي: إنه يقرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وستروا محامد أخلاقك، ومحاسن شيمك ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: حين سمعوا منك تلاوة القرآن المعجز، وتعجبوا من بدائع نظمه، وغرائب أسلوبه، وكمال فصاحته وبلاغته، ومتانة تركيباته الفائقة على تراكيب عموم أرباب اللسن والفصاحة، وعجائب معانيه التي قرعت أسماعهم؛ لذلك حسدوك خفية، وقصدوا مقتك بإصابة العين ﴿وَ﴾ إن كانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند الملأ: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51] يتكلم بكلام المجانين، ما هو من جنس كلام الناس تلبيسًا على ضعفاء الأنام، وتغريرًا لهم؛ لئلا يتفطنوا على عظمة شأنك، ورفعة قدرك ومكانك.

وهم في خلواتهم على ظنة تامة، وحسد كامل مما صدر منك وظهر عليك من الخوارق ﴿وَ﴾ كيف يقولون لك: مجنون، وينسبون كلامك إلى الجنون، مع أنه ﴿مَا هُوَ﴾ أي: القرآن المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42]، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هداية ورشد وتبصرة كاملة، وتذكير شامل ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52] أي: لعموم المكلفين ممن يوفقهم الحق إلى صراط مستقيم.

جعلنا الله ممن تذكر به، واتعظ بما فيه بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد - هداك الله إلى سواء السبيل - أن تتصبر على مشاق الطاعات، ومتاعب التكاليف الواقعة في سلوك طريق الفناء، سيما أذيات الزائغين الضالين، المائلين عن سبيل الرشاد، المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، فعليك ألّا تلتفت نحوهم، ولا تبال بشأنهم، ولا تستعجل بانتقامهم، فإن الله يكفي عنك مؤنة شرورهم، فعليك الاصطبار والوقار، والأمر بيد الله الحكيم الجبار، القدير القهار، فسينتقم من أهل البغي والإنكار على أبلغ وجه وآكده.

سورة الحاقة

فاتحة سورة الحاقة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد، وانكشف بوقوع الطامة الكبرى التي اندكت دونها الأرض والسماوات العلى، وفنيت عندها هياكل الأشباح، واضمحلت هويات الأشياء أن ظهور عموم المظاهر إنما هو بحسب الأسماء الإلهية، والصفات الذاتية التي امتد وانبسط على مرآة العدم، وانعكس منها ما انعكس من سراب العالم، فإذا قبض الحق ما أبدى انقهرت ماهيات الأشياء، وتلاشت هوياتها الباطلة، ولم يبق إلا الحق الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، بحيث لا يعرضه تغيير وزوال، ولا يعتريه تبدل وانتقال.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن وقوع الحاقة الحقيقية الحقية، وأبهمها عليه ﷺ تهويلاً وتفخيمًا لشأنها، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن إظهارًا للقدرة الغالبة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بامتداد أظلاله للظهور والبروز ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يقبضها إلى ذاته للخفاء والبطون.

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ
﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: 1 – 15].

﴿الْحَاقَّةُ﴾[1] [الحاقة: 1] أي: النشأة الأخرى التي ظهرت فيها حقية الحق وثبوته، وتحقق دونها من على الحق، وفاز بجزائه، واستقر في دار السرور، ومن على الباطل ولحق العذاب المعد له، واستقر على الويل والثبور، ثمّ استفهم سبحانه عنها تهويلاً وتعظيمًا فقال: ﴿مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 2] التي انقهرت دونها أظلال الأغيار، وأشباح العكوس والسوى مطلقًا، وبروز الله الواحد القهار؟.

ثمّ زاد سبحانه على تهويلها بأن نفاها عن إحاطة علم حبيبه ﷺ الذي جاء من عنده رحمةً للعالمين إياها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: وأي شيء أعلمك وأفهمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 3] التي طويت دونها نفوس الكثرات والإضافات مطلقًا، وفنيت عندها عكوس الأسماء والصفات رأسًا؟ وبالجملة: انقهرت رسوم الناسوت، ولم يبق إلّا الحي القيوم اللاهوت، ولاشك أنه متعال عن مطلق الإدراك والاطلاع المترتب على نشأة الناسوت.

قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمكذبين بها والمنكرين عليها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: 4] أي: بالحاقة التي يقرع الأسماع سماع أهوالها، ويدهش العقول ذكر أفزاعها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: 5] أي: بسبب طغيانهم بالتكذيب المتجاوز عن الحد، أُهلكوا بصيحة هائلة مجاوزة عن حد الصياح.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ باردة في غاية البرودة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6] شديدة العصف، بحيث لا يقدرون على دفعها وردها أصلاً.

حين ﴿سَخَّرَهَا﴾ وسلطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وانتقامه ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعات مترادفات، قاطعات قالعات ﴿فَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي

---

(1) قال السمناني: يعني: حقت القيامة الواقعة في السر الذي فيه خوارق الأمور، وحقائقها أن يعتبر بها؛ يعني: مستحاقة الوجود عن الأباطيل، ومحاقة الوجود الحادث بحيث لا يبقى إلا الوجود الحقيقي في الوجود المطلع، وفي أثر هذه القيامة قال أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي قُدِّس سرّه: ليس في الوجود إلا الله الحاقة الأولى هي المستحاقة، والثاني نية هي المحاقة، والثالثة هي الحاقة التي تحق حقوقها وتظهر الحقائق المودعة في جميع القوى والمفردات واللطائف، ولم يطلع أحد عليها إلا بعد الوصول إليها، ومطالعتها عيانًا.

﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الأيام والليالي ﴿صَرْعَى﴾ هلكى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] ساقطة عن أصولها، لا جوف لها.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم﴾ أي: ما ترى لهم بعد تلك الأيام ﴿مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8] أي: لم يبق منهم نفس لها حياة بعد تلك الواقعة الهائلة.

﴿وَ﴾ بعد انقراض هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكين في تيه الجهل والعناد ﴿جَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ الطاغي المجاوز عن الحد والبغي والعدوان ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ ويقدم عليه من الأمم الباغية، أو من معه من ملئه وأشرافه - على القراءتين - ﴿وَ﴾ جاء أيضًا ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ هي قرى قوم لوط ﷺ؛ والمراد: من فيها كلهم جاءوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: 9] المعهودة التي هي إنكارهم بيوم الحاقة الحقة على وجه المبالغة.

وبعدما جاء الرسل إليهم بالوحي ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عصى كل أمة برسولها المبعوث إليهم؛ ليهديهم إلى طريق الرشاد، فكذبوه واستهزءوا معه، وبالغوا في تكذيبه وعصيانه سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: 10] زائدة شديدة على مقتضى ما ازدادوا في العصيان والتكذيب.

اذكر يا أكمل الرسل شدة أخذنا إياهم ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ بعدما أمرناه بالطغيان في يوم الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: آباءكم الذين آمنوا بنوح ﷺ، وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11] (1) أي: السفينة التي صنعها نوح بتعليمنا إياه قبل الطوفان

(1) الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشربت الأرواح زلال أنهار القربة، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لحجها، وكادت تستغرق وتفنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمات العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، فلما دار دور الدهور الدهار وجرى جري الفلك الدوّار وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية، قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره. قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه الذرية. قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا. وقال الأستاذ: ذلك منبه على خواص أوليائه أن يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحد، ولا محاسبة مع أحد، ولا توقع من أحد، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون. [العرائس].

بمدة، وأغرقنا الكفرة بأجمعهم إلى حيث لم يبق على الأرض سوى أصحاب السفينة أحد من البشر.

وإنما حملناكم عليها وأنجيناكم بها ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: هذه الفعلة الجميلة التي هي نجاة المؤمنين من الطوفان العظيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المستخلفون المكلفون ﴿تَذْكِرَةً﴾ عظة وعبرة، وتبصرة دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، ومتانة حكمته ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي: تستحضر بها وتحفظها؛ أي: هذه التذكرة والتبصرة الكاملة ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12][1] حافظة للعبر والتذاكير المورثة للقلوب الصافية الخائفة خيرًا كثيرًا، ونفعًا كبيرًا.

وبعدما بالغ سبحانه في وصف القيامة، وشرح أهوالها وأحوالها، وذكر حال من كذب بها، ومآل أمره، أراد أن يشرح ما ظهر فيها من الأمور الهائلة والوقائع العظيمة عند قيامها، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 13] وهي النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَ﴾ بعد ظهور النفخة الأولى ﴿حُمِلَتِ﴾ ورفعت ﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من أماكنها التي استقرتا عليها بأن أمر عليهما سبحانه بالتسيير والاضطراب بمقتضى القدرة الغالبة ﴿فَدُكَّتَا﴾ انكسرتا وانبسطتا، فصارتا ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: 14] أي: قاعًا صفصفًا، مساواة ملساء لا عوج لها ولا أمتًا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين وقوع هذه الحالة الهائلة ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: 15] وقامت القيامة الكبرى، والطامة العظمى.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: 16 - 24].

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انحلت التئامها وتضامُّها، وتضعضعت بنيانها وأركانها

(1) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. تفسير الخازن (6/ ص 153).

﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: 16] ضعيفة منهدمة، منحلة الأجزاء.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: جنس الملك ينزلون ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أقطارها وأنحائها بعدما كانوا في حافاتها وحوافها ﴿وَ﴾ بعد تخريب السماوات وانهدامها ﴿يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَوْقَهُمْ﴾ أي: فوق الملائكة النازلين على الأرجاء ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[1] [الحاقة: 17] من الملائكة بعدما كانوا قبل ذلك أربعة؛ إذ حملة العرش في النشأة الأولى أربعة، وفي النشأة الأخرى ثمانية، كما أشار إليه ﷺ في الحديث، كأنه أشار بالأربعة إلى أمهات الصفات الإلهية التي هي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، وبالثمانية إلى مجموع الصفات الذاتية.

وبالجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الأظلال الهالكة على الله عرض العسكر على السلطان، بحيث ﴿لَا تَخْفَى﴾ وتستر ﴿مِنكُمْ﴾ في يوم العرض ﴿خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18] سر مستور محجوب على الله؛ حتى يكون العرض للإطلاع، بل الكل في حضرة علمه حاضر غير مغيب ومخفي، وإنما تعرضون؛ ليظهر كمال القسط والعدالة الإلهية بالنسبة إلى عموم العباد حتى ظهر أن الحجة البالغة لله.

ثمّ فصّل سبحانه أحوال العباد في الحساب والجزاء، وإتيان صحف أعمالهم؛ ليطالعوا فيها جميع ما اقترفوا في نشأة الاختبار، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ﴾ لمن حوله فرحًا مسرورًا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 19] أي: تعالوا اقرءوا كتابي.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ في النشأة الأولى ظنًا منتهيًا إلى الجزم واليقين ﴿أَنِّي﴾ اليوم

---

(1) يعني: يحمل حقيقة العرش الروحاني حقائق الصفات الثمانية فوق القوى القلبية، والذي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخر؛ هي أربعة حروف سوادية التي الآن حافظة صورة عرش كلمة الله، فإذا جاءت القيامة أيدهم الله بأربعة حروف بياضية ليحفظ حقيقة عرش كلمة الله في تلك الساعة؛ ولهذا السر تتقي النفوس المتألمة والمتنعمة في العقبى خالدات، وحقيقتها تتعلق بحد القرآن، فاختصرت على هذا الذي بينت لك مما لم يبينه قبلي أحد قط، واغتنم بهذا البيان، واشتغل بالسلوك في الطريقة المستقيمة المسلوكة بالأقدام الثابتة على الصراط المستقيم، وهو متابعة نبيه الكريم صاحب الخلق العظيم ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الثابتين على الدين القويم، وهم الذين جمعوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وآمنوا بمحكمه ومتشابهة، ومما أوّلوه من عند أنفسهم برأيهم العليل وعلمهم القليل. [عين الحياة].

﴿مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20] على الوجه الأحسن، وبواسطة إيقاني وجزمي، كنت أخاف ألَّا يصدر مني شيء أعاقب بسببه.

﴿فَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21] صاحبها عنها؛ لكونها صافية عن مطلق الكدورات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: 22] رفيعة مكانًا ومكانة.

﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 23] قريبة لمن ناولها، مهما أراد تناولها ناولها بلا مشقة وتعب.

ويقال لهم حينئذٍ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من ثمار الجنة ومائها ﴿هَنِيئًا﴾ سائغًا مريئًا، كل ذلك ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدمتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24] الماضية في نشأة الاختبار، فيصور لكم بهذه الصور البديعة في النشأة الأخرى.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا
كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ
﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ
﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة: 25 – 37].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ بعدما رأى تفصيل المعاصي والمقابح الصادرة منه في نشأة الاعتبار، متمنيًا متحسرًا من كمال الضجرة والأسف المفرط: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 25] هذا.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 26] فيه.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ﴾ هذه الحالة الآتية عليَّ ﴿القَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: 27] الفارقة الفاصلة بيني وبين الحياة، بحيث لم أصر حيًا بعد هذه الحالة؛ حتى لا أُفتضح على رءوس الأشهاد.

ثمّ قال متأسفًا متحسرًا على ما مضى عليه: ﴿مَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنِّي﴾ العذاب

﴿مَالِيَهْ﴾[1] [الحاقة: 28] أي: ما نُسب إليّ من الأموال والأولاد والأتباع.

بل ﴿هَلَكَ﴾ وضاع ﴿عَنِّي﴾ اليوم ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 29] أي: تسلطني على الناس، وتفوقي على الأقران.

وهو في أمثال هذه الهواجس على سبيل الحسرة والضجرة، قيل للموكَّلين من قِبَل الحق: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: 30] بالأغلال الضيقة الثقيلة.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ﴾ العظيم المعهود الذي يُعدّ لأصحاب الثروة من الكفرة ﴿صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: 31] واطرحوه.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ قدرها طولاً: ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراع لا يعرف طولها إلّا الله ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: 32] وأدخلوه وألقوه بها، بحيث يصير محفوفًا بها، لا يقدر على الحركة أصلاً.

وكيف لا يُعذب كذلك ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال نخوته وتجبره ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 33] المستحق للعبودية والإيمان عتوًا وعنادًا؟!

ولاشك أن من تعظَّم على الله العلي العظيم فقد استحق أعظم العذاب، واستوجب أشد النكال.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَحُضُّ﴾ أي: لا يحب ولا يرضى ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: 34] إن أطعمه أحد فضلاً أن يطعمه هو نفسه من ماله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا﴾ أي: في يوم العرض والجزاء ﴿حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 35] قريب من أقاربه يحميه ويشفع له، كما في الدنيا.

﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ يأكله ويشبع منه ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: 36] أي: غُسالة أهل النار، وما يسيل منهم من القيح والصديد.

---

(1) قال علاء الدولة: ما ينفعني الاستعداد الذي حصل في مملكة وجودي، وهذا عذاب يختص بالمجاهدين السالكين الذين سلكوا الطريق من غير إرشاد المرشدين المتصل إرشاده بالنبي الهادي عليه السلام؛ يعني: سلك الطريق برأيه وعقله وفكره وحديثه لا من إلهام رباني ووارد رحماني، يتمنى صاحبه أنه كان ميتًا في قالبه قبل اشتغاله بالسلوك ورفعه بعض الحجب بكثرة مجاهدته، كما أن العوام مبعدين عن إدراك هذه الآلام مشتغلين بهوى أنفسهم لكثافة حجبهم الظلمانية القالبية والنفسية.

وبالجملة: ﴿لَا يَأْكُلُهُ﴾ أي: الغسلين ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: 37] أي: أصحاب الخطايا والعصيان العظام، والجرائم الكبيرة والآثام.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ
قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ
ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ
ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: 38 – 52].

وبعدما شرع سبحانه من أحوال يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها، وما جرى فيها من الوعيدات الهائلة، والمصيبات الشديدة الشاملة، فرّع عليه قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة في إثبات ما ثبت، وتبيين ما بيّن بالقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38] من المظاهر والمجالي.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 39] منها من المقسمات التي لم نُطلع أحدًا عليها، فعليكم أيها المكلفون أن تتوجهوا إلى القرآن المنزل عليكم على سبيل التبيان والبيان فتعتقدوا جميع ما فيه حقًا صدقًا، وتمتثلوا بأوامره، وتجتنبوا عن نواهيه.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] نفسه، لا يتأتى منه المراء والافتراء على الله؛ إذ هو منزه عن أمثال هذه الرذائل المنافية لمنصب الرسالة التي هي مرتبة الخلافة والنيابة عن المرسِل الكريم.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما يقوله في حقه بعض الكفرة الجاهلين بقدره وشأنه، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 41] بصدقه وحقيته؛ لفرط عنادكم واستنكاركم.

﴿وَلَا﴾ هو ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما زعم بعضهم أن محمدًا ﷺ كاهن، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الحاقة: 42] وتتعظون أن ما فيه ليس من جنس كلام الكهنة، لا لفظًا ولا

(1) يعني: القوى النفسية المعاندة لا تذكر أصلاً أن اللطيفة كانت معنا من قبل ورود الوارد، وما قالت معنا شيئًا من هذا وما أمرتنا لاتباع لها وقت الطفولية إلى وقت البلوغ، فالذي تقول في هذا

معنى؛ إذ ما في القرآن من السرائر والأحكام، مشعرة بالحكمة المتقنة الإلهية التي هي بمراحل عن أحلام الكهنة المنحرفين عن جادة التوحيد والإسلام.

بل هو ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ناشئ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] لتربية الكل على مقتضى الحكمة؛ ليستعدوا إلى فيضان التوحيد واليقين.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي: اختلق وافترى ﴿عَلَيْنَا﴾ محمد ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: 44] من تلقاء نفسه بلا وحي منّا.

﴿لَأَخَذْنَا﴾ ألبتة وانتقمنا ﴿مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقدرة الكاملة، كما ننتقم من سائر العصاة والمفترين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ﴾ زجرًا عليه، وتعذيبًا له ﴿الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 46] أي: نياط قلبه الذي منه عموم إدراكاته.

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها المكلفون ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ حينئذٍ ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه وعذابه ﴿حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] مانعين، يمنعوننا عن بطشه وتعذيبه؛ يعني: إن محمدًا ﷺ لا يفتري علينا شيئًا لأجلكم أيها الكافرون، وهو ﷺ يعلم منّا أنه لو افترى علينا شيئًا من تلقاء نفسه، ونسبه إلينا ظلمًا وزورًا لعذبناه عذابًا شديدًا، بحيث لا يقدر أحد أن يدفع عذابنا عنه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ صادرة منّا، متعلقة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: 48] المتحفظين أنفسهم عن مقتضيات قهرنا وجلالنا.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ بمقتضى علمنا الحضوري ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: 49] أيها الكافرون المفترون، فنجازيكم على مقتضى تكذيبكم.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة: 50] في الدنيا والآخرة، يتحسرون في الدنيا من نزوله على المؤمنين وإن كانوا لا يظهرون، ويتحسرون أيضًا في الآخرة بترتب الثواب على من صدقه وآمن به، وهم حينئذٍ يتحسرون ويتندمون على عدم الإيمان والتصديق به.

الوقت كون من عند غيرها لا من عندها ينبغي أن يقول في أول حال صاحبناها. [عين الحياة].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] بالنسبة إلى من وصل إلى مرتبة اليقين الحقي، مترقيًا من اليقين العلمي والعيني.

﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل من وصل بمرتبة حق اليقين ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1] [الحاقة: 52] الذي ربّاك على الخلق العظيم، وأوصلك إلى روضة الرضا وجنة التسليم بلطفه العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتحقق بمرتبة حق اليقين - مكّنك الله عليها بلا تذبذب وتلوين - أن تتأمل في مرموزات القرآن، وتتدبر في كشف السرائر المودعة فيه بقلب خالٍ عن مطلق الوساوس والأوهام، صافٍ عن الكدورات الحاصلة من تقليدات ذوي الأحلام الخائضين فيه بمقتضى الآراء والأفهام الركيكة بلا تأييد من جانب الحكيم العلام، فلك أن تتوجه إليه بقلب حاضر غائب فارغ عن عموم الأشغال، مائل عن مطلق الزيغ والضلال الواقع فيه من أصحاب الظواهر القانعين منه بالقيل والقال بحسب تفاهم عرفهم.

وإياك إياك أن تكتفي بمجرد منطوقات الألفاظ، وتقتصر عليها بلا خوض في تيار بحاره الزخارات التي هي مملوءة بدرر المعارف والحقائق الموصلة إلى مرتبة حق اليقين.

وإذا خضت وغصت فيه على الفرصة المذكورة، واستخرجت من درر فوائده بقدر حوصلتك واستعدادك، حق لك أن تقول حينئذٍ: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] وأن تكون مرجعًا للخطاب الإلهي بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 52].

(1) يعني: بعد وصولك إلى هذه الحالة فنزه باسم ربك العظيم، وهو الله مجازي ذكره الكريم، واشتغل بالذكر الخفي في هذا المقام بتنزيهك مجازي الذكر، وتنزيهك مجازي الذكر فقدان وجودك بوجدان وجودك الحق؛ لتصل إلى حقيقة حق اليقين إن شاء الله رب العالمين. [عين الحياة].

سورة المعارج

فاتحة سورة المعارج

لا يخفى على من انكشف له الحجب، وارتفع عن بصر بصيرته السدل والأغشية المانعة عن الاطلاع والشهود بوجه الحق الكريم أن المراقي والمعارج من حضيض الإمكان الذي هو عبارة عن مضيق عالم الناسوت نحو ذروة الوجوب التي هو عبارة عن فضاء عالم اللاهوت أكثر من أن تُعدّ وتُحصى.

لكن المنجذبين نحو الحق من أرباب المحبة والولاء، وهم الذين شملت لهم العناية الأزلية، وأدركتهم الكرامة السرمدية، بحيث رفعت عنهم الأغطية والحجب الظلمانية، وطويت دونهم مطلق المسافات إلى أن صار سيرهم من عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت سيرًا كيفيًا، وعروجهم نحوه عروجًا معنويًا، وتحققهم عنده إنما هو بالفناء والموت الإرادي عن لوازم الهوية الصورية، وبالانخلاع عن مقتضيات القوى البشرية.

فمن كان شأنه هكذا لا يكال معارج ترقيه بمكيال الزمان والآن، وما يتركب منهما ويتفرع عليهما من مطلق المقادير التي يقدر بها عموم التقادير.

أما المحجوبون المقيدون بسلاسل الزمان وأغلال المكان، المعذبون بنيران الإمكان ولوازم نشأة الناسوت فلا مخلص لهم عن مقتضيات الطبائع والأركان، ولوازم بقعة الإمكان، كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، حيث قال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي كشف ذاته على أرباب المحبة والولاء بعد رفع الحجب والغطاء ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم، يوفقهم بالصعود إلى عالم الأوصاف والأسماء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مرتبة البقاء بعد الفناء.

﴿سَأَلَ سَائِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣
تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا
۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ
۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [المعارج: 1 – 18].

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: جرى على سبيل السيل والطغيان وادي الإمكان مملوءًا ﴿بِعَذَابٍ﴾ أي: أنواع من العذاب الهائل ﴿وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1].

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بطبائعهم الكثيفة، وهوياتهم الباطلة السخيفة شمس الحق الظاهرة في الأنفس والآفاق بمقتضى الاستحقاق إلى حيث ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 2] يرده ويدفعه عنهم.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من قبله وجهته؛ لتعلق مشيئته ومضاء قضائه المبرم على وقوعه لأعدائه، مع أنه سبحانه ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: 3] والدرجات العليّة، والمقامات السنيّة من القرب والكرامات لأوليائه.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: حوامل آثار الأسماء والصفات الإلهية من مجردات العالم السفلي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الفائض من لدنه سبحانه على هياكل الهويات من ماديات عالم الطبيعة، والأركان القابلة لآثار العلويات من الأسماء والصفات المسمّاة بالأعيان الثابتة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الذات البحت الخالص عن مطلق القيود والإضافات بعدما جذبه الحق، وأدركته العناية الإلهية مترقيًا من درجة إلى درجة ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وشأن لا كأيام الدنيا وشئونها، وإن قسته إلى أيام الدنيا، وأضفته إلى المسافة الدنيّة الدنيوية ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] [المعارج: 4] من سَني الدنيا، إلّا أنهم يقطعونها بعد ورود الجذبة الإلهية، كالبرق الخاطف في أقصر من لمحة وطرفة.

وبعدما انكشف لك الأمر ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذيات الأعداء واستهزائهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5] لا يشوبه قلق واضطراب؛ وضجرة وسآمة،

(1) قال البقلي: افهم أن للملائكة والروح مقاماتٌ معلومةٌ في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون بيوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنة، وهم يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طرفة، فإن الوصول منه وهى قريب غير بعيد. قال سهل: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

واستعجال للانتقام، وترقب بالعذاب على وجه التهتك، فإنه سيصيب لهم العذاب الموعود عن قريب.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بمقتضى إنكارهم وإصرارهم ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: نزول العذاب ﴿بَعِيدًا﴾ [المعارج: 6] في غاية البعد إلى حيث يعتقدونه محالاً خارجًا عن حد الإمكان.

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 7] من لمح البصر، بل هو أقرب منهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل كيف يعملون ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ من القهر الإلهي ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8] أي: كالفضة المذابة، يسيل من مكانها من غاية الخشية الإلهية.

وتكون الجبال الملونة بالألوان المختلفة بعدما شمله النظر القهري الإلهي ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: 9] أي: كالصوف المصبوغ المندوف تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10] أي: لا يسأل قريب عن قريبه، وصديق عن صديقه، بل يومئذ ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 35.34].

وبالجملة: لا يلتفت أحد إلى أحد من شدة هوله وشغله بحاله إلى حيث ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ وينبهون عليهم من حال أقاربهم؛ ليرقوا لهم، وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرقون لهم، بل ﴿يَوَدُّ﴾ ويحب ﴿الْمُجْرِمُ﴾ حينئذٍ متمنيًا ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: 11] الذين هم أحب وأعز عليه من نفسه في دار الدنيا.

﴿وَ﴾ كيف لا يود أن يفتدي بأحب الناس إليه بعد بنيه ﴿صَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: 12]؟!

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أقاربه وعشائره ﴿الَّتِي﴾ تؤويه؛ أي: تضمه إلى نفسه وقت حلول الشدائد ونزول الملمات، بل ﴿تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: 13].

﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: بل يود ويرضى أن يفتدي عن نفسه جميع من في الأرض من الثقلين ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: 14] من عذاب ذلك اليوم الهائل.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن ينقذ وينجي المجرم بأمثال هذه الافتداءات من عذاب الله، بل كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار المسعرة التي اسمها ﴿لَظَى﴾ [المعارج: 15] أي: ذات لهب والتهاب تلتهب دائمًا.

﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج: 16] أي: تنزع من شدة التهابها الأطراف عن أماكنها، سيما جلدة الوجه والرأس.

وبالجملة: ﴿تَدْعُو﴾ وتجذب إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان، ولم يقبل عن قبول الدعوى ﴿وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: 17] أي: انصرف عن الطاعة وإطاعة الدّاعي.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَمَعَ﴾ مالاً عظيمًا من حطام الدنيا ﴿فَأَوْعَى﴾ [المعارج: 18] أي: فجعله في وعاء، وكنزه من غاية حرصه وأمله، ولم ينفق في سبيل الله؛ لعدم وثوقه بكرم الله.

﴿ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج: 19 – 30].

وبالجملة: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: 19] شديد الحرص، قليل الصبر، طويل الأمل.

بحيث ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الضر والسوء صار ﴿جَزُوعًا﴾ [المعارج: 20] يكثر الجزع، ويلح في كشف الأذى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ﴾ أي: الفرح والسرور، والسعة والحضور صار ﴿مَنُوعًا﴾ [المعارج: 21] يبالغ في البخل والإمساك.

وهؤلاء كلهم هلكى في تيه الحرص والأمل، وقلة التصبر على البلوى، وكمال التكبر عند السراء ﴿إِلَّا المُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 22] المائلين المتوجهين إلى الله في عموم الأحوال بمقتضى الرضا والتسليم، قانعين بما وصل إليهم من الإحسان والتكريم، صابرين على ما أصابهم من العليم، منفقين في سبيل الله مما استخلفهم عليه من الرزق الصوري والمعنوي طلبًا لمرضاة الله، وهربًا عن مساخطه.

﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال تحننهم وشوقهم إلى الله ﴿عَلَى صَلاتِهِمْ﴾ وميلهم نحوه

﴿دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] [1] ملازمون بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ المنسوبة إليهم، المسوقة لهم ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: 24] كالزكاة والصدقات المؤقتة وغير المؤقتة.

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ويفشي فقره ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 25] الذي لا يسأل ولا يفشي، بل من كمال صيانته وتحفظه واستغنائه يُحسب من الأغنياء من كمال التعفف لذلك يحرم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ ويعتقدون ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: 26][2] تصديقًا مقارنًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الشيم والأخلاق.

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: 27] خائفون وجلون، وكيف لا يشفقون؟!

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 28] أي: من شأن المؤمن: ألَّا يأمن من عذاب الله وإن بالغ في طاعته وعبادته على وجه الإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: 29] لا يتجاوزون عن الحدود الإلهية.

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: 30] عليهن، إلَّا أن المؤمن المخلص لو لم يبالغ في اتِّباع الشهوات المباحة

---

(1) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناي ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

(2) قال حقي في تفسيره (120/6) أي: بأعمالهم حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية والمالية طمعا في المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء فمجرد التصديق بالجنان واللسان وان كان ينجى من الخلود في النار لكن لا يؤدى إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة قال القاشاني والذين يصدقون من أهل اليقين البرهاني أو الاعتقاد الإيماني بأحوال الآخرة والمعاد وهم أرباب القلوب المتوسطون .

أيضًا لكان له خيرًا كثيرًا، وأجرًا عظيمًا.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٤٤)﴾ [المعارج: 31 – 44].

﴿فَمَنِ ابْتَغَى﴾ وطلب ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر من السراري والأزواج ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿هُمُ العَادُونَ﴾ [المعارج: 31] المجاوزون عن مقتضى الحدود الموضوعة بحفظ العفة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا بها ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: 32] لحقوقها وحفظها على الوجه الأصلح الأحوط.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ المودعة عندهم في حقوق المسلمين ﴿قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33] حافظون، مستحضرون إلى وقت الأداء على وجهها.

﴿وَ﴾ بالجملة: المؤمنون المخلصون هم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ﴾ المكتوبة لهم في الأوقات المحفوظة المقدرة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: 34] على وجهها مع كمال الخضوع والخشوع، ورعاية الشرائط والأركان والأبعاض، وسائر الآداب في المندوبات المتعلقة بالصلوات.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بهذه الصفات الكاملة مقبولون عند الله، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 35] فيها بأنواع الكرامات تفضلاً وإحسانًا.

وبعدما ظهر وميز حال المؤمنين وحال الكافرين عند الله في النشأة الأخرى ﴿فَمَالِ﴾ عرض ولحق ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿قِبَلَكَ﴾ حواليك وجوانبك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: 36] مترددين مسرعين.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: 37] متفرقين فرقًا شتى يترددون حولك فرقة بعد فرقة، ويسمعون منك كلامك.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتردد حولك ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: 38] بلا إيمان وتصديق وإطاعة مقارنة بالأعمال الصالحة؟!

﴿كَلَّا﴾ وحاشا؛ أي: يحصل لهم هذا بلا سبق الإيمان، وامتثال الأوامر والأحكام، وكيف يدخلون أولئك الخبيثون في منازل القدس بلا تصفية وتزكية بالإيمان، وتحلية بالأعمال؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] [المعارج: 39] وهو النطفة القذرة الخبيثة التي لا نسبة لها بالمقام المقدس عن الرذائل والكدورات، المطهر من أوساخ الطبيعة وقيل الهيولى الحاصلة من ظلمة عالم الناسوت، فلم لم يطهروا نفوسهم بنور الإيمان اللاهوتي، ولم يتصفوا بالعرفان لم يصلوا إلى روضة الجنان، ولم يثابوا بنعيم الألوان.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة لنا إلى القسم بإثبات كمال قدرتنا ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: عموم الذرات التي أشرقت عليها شمس الذات باعتبار الظهور ﴿وَ﴾ لا برب ﴿الْمَغَارِبِ﴾ أي: جميع الذرات التي غربت فيها شمس الذات باعتبار الخفاء والبطون ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: 40] بالقدرة الغالبة الكاملة.

﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ بأن نهلكهم ونستأصلهم بالمرة، ونأت بدلهم بخلق أفضل منهم وأصلح لإيمان وقبول دين الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: 41] مغلوبين من أحد، إن أردنا هذا التبديل والتغيير، وتعلقت مشيئتنا به.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل كمال قدرتنا على إهلاكهم وتبديلهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ واتركهم وحالهم ﴿يَخُوضُوا﴾ في الأباطيل الزائغة، والأراجيف الزاهقة ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بالآيات الواضحة، والبينات اللائحة ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: 42] للحشر والنشر، وتنقيد الأعمال والحساب عليهم، والجزاء بمقتضاه.

(1) يعني: من نطفة ثم نربيها طورًا فطورًا؛ حتى صارت ذاكرة فينبغي ألّا ينسى أزل حاله، ولا يغش بما فيه من نعيم مشاهدة الآيات الآثارية؛ لئلا يحرم عن مشاهدة الآيات العقلية، ولا يغتر بها أيضًا؛ لئلا يحرم عن مشاهدة الصفات، ولا يقنع بها؛ لئلا يحرم عن المعارف الذاتية. [عين الحياة].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على وجه التذكير والتهويل ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور بعد نفخ الصور، ويسرعون نحو الداع ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ صنم ينصب؛ للزيارة والاستلام ﴿يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] يسرعون؛ يعني: إسراعهم في تلك الحالة نحو الدّاعي يشبه إسراعهم نحو الصنم المنصوب للعبادات، ورفع الحاجات، كما هو عادتهم طول عمرهم في الدنيا.

فيكونون حينئذٍ ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة خاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ بحيث لا يمكنهم أن ينظروا إليه؛ إذ ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ عظيمة بدل ما يذلون داعي الله حين دعوته في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ العظيم الهائل هو اليوم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[1] [المعارج: 44] في نشأة الاختبار فلم يصدقوا، ولم يؤمنوا له إلى أن يعاينوه.

جعلنا الله من زمرة المصدِّقين بيوم الدين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تعتقد، بل تعاين وتشاهد إن كنت من أولي الأبصار، وذوي القدر والاعتبار أن النشأة الأخرى هي دار القرار والخلود، بل العالم

---

(1) فيا أيها السالك: اعتبر بهذه السورة، واحذر عن تكذيبك الوارد واليوم الموعود ولا تحسب أن الذي عانيته في نفسك هو اليوم الموعود؛ لئلا يكفر باليوم الموعود العامر، وتيقن أن الذي وجدته في نفسك بالموت الاختياري فكذلك تجده في الموت الاضطراري، ومثل ذلك تجده في اليوم الموعود الكبير العظيم، وإن لم يؤمن بالقيامات الثلاث:

الصغرى: الحاصلة من الموت الاختياري كما قال ﷺ:«قبل أن تموتوا»، والوسطى: بالموت الاضطراري كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»، والقيامة الكبرى: وهي القيامة كما نطق به الكتاب والسنة؛ فأنت كافر لا ينفعك الإيمان بإحدى القيامات الثلاث، كما قال الله تعالى: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:150]، وتيقن أن كل قيامة متأخرة أبين وأكبر من القيامة المقدمة، كما أن الذي يبصره عند طلوع الشمس فيزداد ظهوره إذا طلعت الشمس، والذي يبصره عند طلوع الشمس، فيزداد ظهوره عند استواء الشمس في يوم يصيح، فهكذا ينبغي أن يعلم القيامة الحاصلة بالموت الاختياري، أنها نموذج مما كان مودعًا في القيامة التي قامت بالموت الاضطراري، وما شاهدت في هذه القيامة هو أنموذج مما كانت مدخرة في القيامة الكبرى الأخيرة، وأنا مؤمن بحمد الله وحسن توفيقه بالقيامات الثلاث كما نطق به الكتاب والسنة اللهم ثبتني على الإيمان ووفقني لمتابعة حبيبك نبي آخر الزمان ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان صغيرًا وكبيرًا. [عين الحياة].

الموجود هي.

والنشأة الأولى إنما هي أظلال لا وجود لها، وعكوس لا ثبوت لها، وإضافات لا حقيقة لها، وتعينات لا تحقق لها.

فعليك ألّا تستقر عليها إلّا كالعابر، ولا تعيش فيها إلا كالمسافر، ما تدري يا أخي أن جميع ما عليها ظل زائل، وعموم لذاتها وشهواتها سراب بلا طائل؟!

إلام تتشبث بها وبما فيها، وعلام تستلذ بمزخرفاتها وملاهيها؟! فإنك عن قريب ستموت، وما تدخر فيها سيضيع ويفوت، فلك أن تستعد لأخراك في أولاك، وتتزود لعقباك من دنياك.

وبالجملة: فلك أن تموت بالاختيار قبل هجوم الموت على وجه الاضطرار، فاعلم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار.

سورة نوح

فاتحة سورة نوح عليه السلام

لا يخفى على من انكشف بسرائر ظهوره مرتبة النبوة والرسالة من أرباب الولاية المقتبسين من مشكاة النبوة أن مقتضى النبوة والرسالة إنما هي الدعوة إلى دين الإسلام الموصل إلى دار السلام؛ للقرب والوصول إلى كنف جوار الله العليم العلام، فلا بدَّ لمن تقلد بها بتكليف الحق إياه واختياره لها أن يبالغ في تبليغها، ويجتهد في إظهارها، سيما بعد تأييد الحق وتقويته بالمعجزات القاطعة، والبراهين الساطعة، متحملاً على المتاعب والمشاق، وأنواع الأذيات الواقعة في إظهارها وترويجها.

كما أخبر سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام مع قومه كيف تحمل عنهم وصبر إلى أن ظفر عليهم وانتصر، فقال سبحانه بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله بعموم أسمائه وصفاته؛ ليستخلفهم عن ذاته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم مظاهره بإظهار مرتبة الخلافة والنيابة بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم بإرشاد الأنبياء وإهدائهم إلى زلال توحيده.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥)
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾ [نوح: 1 – 10].

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أخاك يا أكمل الرسل ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن جادة العدالة والقسط الإلهي، ووصينا له ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أي: بأن خوف وحذر

﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: 1] [1] مؤلم في غاية الإيلام، وهو عذاب الطوفان بعد نزول الوحي عليه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه وناداهم؛ ليقبلوا إليه، ويهتدوا بهدايته وإرشاده ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: 2] ظاهر الإنذار والتخويف بإذن العليم الحكيم، أرسلني ربي.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالألوهية والربوبية، القادر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: 3] فيما بلغت لكم من أوامر الله ونواهيه، وامتثلوا بمقتضاها.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إن استغفرتم منه سبحانه، وتبتم إليه مخلصين نادمين ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى﴾ أقصى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر عنده سبحانه بشرط أن تتصفوا بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ المقدر لآجال عباده على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر المقرر عنده ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ عن وقته، ولا يقدم عليه ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: 4] وتعتقدون حكمة الحكيم، وكمال قدرته ومشيئته لعلمتم يقينًا أن الأجل المقدر لا يُبدل ولا يُغير.

وبعدما بالغ نوح عليه السلام في دعوتهم وإرشادهم فلم يهتدوا، بل ما زادوا إلَّا إصرارًا وإضرارًا، وعنادًا واستكبارًا ﴿قَالَ﴾ نوح مناجيًا إلى ربه على وجه التضرع بعدما بالغوا في الإنكار والاستكبار: ﴿رَبِّ﴾ يا مَن ربَّاني على الرشد والهداية ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ بمقتضى وحيك وإلهامك عليَّ ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5] أي: دائمًا بلا مطل وتسويف.

---

(1) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذًا الفاعل قبل القابل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾ ودعوتي إياهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 6] عن الإيمان والإطاعة، وإصرارًا على الكفر والطغيان.

﴿وَإِنِّي﴾ صرت زمانًا ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ على قصد أن يقبلوا دعوتي ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بمقتضى عفوك ورحمتك ذنوبهم وزلتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ﴾ وقت دعوتي إياهم ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصر عليه، بل ﴿اسْتَغْشَوْا﴾ أي: غطوا ولفوا على رءوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يروا صورتي، ولا يسمعوا قولي من شدة كراهتهم عن دعوتي، وشكيمتهم معي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَصَرُّوا﴾ على ما هم عليه كانوا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عليّ ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7][1] عظيمًا إلى حيث شتموني شتمًا قبيحًا، وضربوني ضربًا مؤلمًا فجيعًا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما جرى منهم ما جرى ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ بمقتضى أمرك وحكمك إياي يا ربّ ﴿جِهَارًا﴾ [نوح: 8] على رءوس الملأ.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ وصرحت بدعوتهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أيضًا في الخلوات ﴿إِسْرَارًا﴾ [نوح: 9] على سبيل الكناية والإشارة، وبالجملة: دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة في المحافل والخلوات، وبالصرائح والكنايات.

﴿فَقُلْتُ﴾ لهم في دعوتي إياهم: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10] يغفر لكم ذنوبكم، ويعفو عنكم زلاتكم.

وبعدما بالغوا في الإنكار والإصرار حبس الله عليهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فقال نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

---

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 419): الإشارة: ينبغي للداعي أن يكون على قدم أولي العزم، لا يمل من التذكير والدعاء إلى الله، ويكرر ذلك ليلاً ونهاراً ولو قُوبل بالرد والإنكار، فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس . وقوله تعالى: (وأصرُّوا واستكبروا)، قال القشيري: ويقال: لَمَّا دام إصرارهُم تولَّدَ منه استكبارُهم، قال تعالى: (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ). وقال الورتجبي: مَن أصرَّ على المعصية أورثه التمادي على الضلالة، حتى يرى قبيح أفعاله مستحسناً، فإذا رآه مستحسنًا يستكبر، ويعلو على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصحتهم . قال سهل: الإصرار على الذنب يورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، وذلك يورث قساوة القلب، وهي تورث النفاق، والنفاق يورث الكفر.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 11 – 20].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: 11] بعدما حبسها زمانًا.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ بعدما منعها عنكم بكفركم وشرككم، وبعد استغفاركم أنزل عليكم مدرارًا ﴿وَ﴾ بعد إنزال المدرار ﴿يَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين متنزهات ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ في خلالها ﴿أَنْهَارًا﴾ [نوح: 12] جاريات.

﴿مَّا لَكُمْ﴾ وأيّ شيء عرض عليكم أغفلكم عن الله حيث ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ ولا تأملون ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق لأنواع العبودية والتعظيم ﴿وَقَارًا﴾ [نوح: 13] توقيرًا وتبجيلاً لائقًا لجلاله وجماله، وحسن فعاله معكم؟!

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14] مختلفة ومترقية في الكمال حيث قدر وجودكم من جمادات العناصر، ثمّ ركبكم إلى أن صرتم من أغذية الإنسان، ثمّ صيركم أخلاطًا، ثمّ نطفًا، ثمّ علقًا، ثمّ مضغًا، ثمّ عظامًا ولحومًا، ثمّ أنشأكم خلقًا عجيبًا قابلاً للخلافة والنيابة، ثمّ بعد ذلك يوصلكم في النشأة الأخرى إلى ما يوصلكم.

وبالجملة: فبأي آلاء ربكم تكذبون أيها المكذبون المنكرون، مع أنه وسع عليكم من زوائد النعم، وموائد الكرم والإفضال ما لا مزيد عليه من كمال قدرته، ومتانة حكمته؟!

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الراءون المعتبرون ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15] مطبقات بعضها في جوف بعض إلى حيث ينتهي الكل إلى كرة واحدة وقعت مظهرًا للوحدة الذاتية، وإن كان كل ذرة من ذرائر الكائنات المستقلة في مظهرية الوحدة الذاتية؟!

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في السموات ﴿نُورًا﴾ مقتبسًا من شمس الذات ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ﴾ المشرقة المنيرة ﴿سِرَاجًا﴾ [نوح: 16] واضحًا، ودليلاً لائحًا على

شروق شمس الذات على مظاهر عموم الذرات المنعكسة منها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ اليابسة الميتة ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح: 17] إنباتًا إبداعيًا؛ أي: أنواعًا وأصنافًا من النبات، وربّاكم إلى أن صرتم حيوانًا، ثمّ إنسانًا، ثمّ كلفكم ما كلفكم من التكاليف الشاقة؛ لتعززوا بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حلول أجلكم المقدر ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ منها في المحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 18] إعادة في النشأة الأخرى؛ لتنقيد ما كلفكم عليه في النشأة الأولى، وترتب الجزاء عليه تتميمًا للحكمة المتقنة البالغة، وتكميلاً لها.

﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19] ممهدة، تتقلبون عليها وترددون.

﴿لِتَسْلُكُوا﴾ وتتخذوا ﴿مِنْهَا﴾ حيث شئتم ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 20] طرقًا واسعة متسعة، فبأي آلاء ربكم ونعمائه تنكرون أيها الكافرون؟!

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: 21 – 28].

وبالجملة: كلما بالغ نوح عليه السلام في دعوتهم بالغوا في الإصرار والعناد، وبعدما اضطر ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ في جميع ما أمرتهم به، وانصرفوا عني وعن دعوتي، واستهزءوا معي ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21] أي: اتبعوا سادتهم ورؤساءهم المعروفين، المشهورين بكثرة الأموال والأولاد الموجبة

للثروة والجاهة عند الناس، وإن كان أموالهم وأولادهم لم يزدهم إلّا خسارًا وبوارًا في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَكَرُوا﴾ لهم أولئك الماكرون ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: 22] بلغ غاية كبره، ونهاية شدته في التلبيس والتغرير.

وذلك احتيالهم على الناس إلى حيث لم يقبلوا دعوة نوح عليه السلام، مع كونه مؤيّدًا بأنواع المعجزات، بل سفهوه، واستهزءوا متمسخرين مستهزئين ﴿وَقَالُوا﴾ لهم في نصحهم وتذكيرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: عبادتها، سيما بقول هذا السفيه المختبط، المختل الرأي والعقل ﴿ولَا تَذَرُنَّ﴾ خصوصًا ﴿وَدًّا ولَا سُوَاعًا ولَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23] فإنها غرانيق عظام تُرتجى منها الشفاعة على عصاة العباد، فعليكم ألّا تتركوا عبادة آلهتكم بقول هذا الطريد السفيه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بتزويراتهم الباطلة، وتغريراتهم الكاملة الشاملة لأهل الخبرة والضلال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يا ربّ ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: 24] فوق ضلال، وإصرارًا غب إصرار.

ثمّ قال سبحانه بعدما بالغ نوح عليه السلام في التضرع والمناجاة: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ أي: من أجل وفور خطيئاتهم وكثرتها ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان أولاً ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ نوعًا من عذاب النار عقيب عذاب الطوفان في البرزخ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم﴾ حين طغيان الماء وطوافه عليهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ القادر المقتدر على دفع المضار ﴿أَنصَارًا﴾[1] [نوح: 25]

(1) اعلم – رحمك الله – أن الله أدخل قوم نوح عليه السلام النار عقب غرقهم في الماء فانتقلوا من الغرق إلى الحرق، فطلبوا النصرة من آلهتهم الذين قالوا في حقهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح:23]، فلم يجدوهم، وأضل الله أعمالهم عنهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:1]، لأن الأعمال تطلب عاملها كما يطلب الابن أباه، وكما ضلت أعمالهم عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:24]، على أولئك المعبودين من أنهم آلهة ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:25]، أي: لم يجدوا غير الله ناصرًا، فأخبر الله تعالى أن قوم نوح أدخلوا النار، ولا يدخلون النار إلا بعد بعثهم فقدَّم الله بعثهم قبل خراب الدنيا، كما ورد في ذلك في حابسة الهرة فحقَّ فيهم قوله ﷺ: «من مات فقد

شفعاء من الأصنام كما زعموا، فلم ينصرهم الله فهلكوا بالغرق.

﴿وَ﴾ بعدما آيس عن إيمان قومه، وقنط عن فلاحهم وصلاحهم أخذ في الدعاء عليهم، حيث ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ يا من ربّاني على فطرة الهداية والرشاد ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ التي إنما وضعت؛ للعبادة والطاعة ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد والإلحاد عن السداد ﴿دَيَّارًا﴾ [نوح: 26] أحدًا يدور عليها.

﴿إِنَّكَ﴾ يا ذا الحكمة المتقنة البالغة ﴿إِن تَذَرْهُمْ﴾ على الأرض على ما كانوا ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ المؤمنين بك، المصدقين بفردانيتك ووحدانيتك ﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ ولا يتناسلوا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ خارجًا عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لحفظ العدالة ﴿كَفَّارًا﴾ [نوح: 27] ستارًا للحق بترويج الباطل عليه، إنما دعا عليهم بهذا بعدما جربهم ألف سنة إلّا خمسين سنة، فعرف منهم جميع خصائلهم المذمومة.

ثمّ ناجى ربه لنفسه ولوالديه، ولمن اهتدى بهدايته وإرشاده فقال: ﴿رَّبِّ﴾ يا من ربّاني بمقتضى كرمك وجودك لحكمة معرفتك وتوحيدك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ بفضلك وإحسانك ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ - اسم أبيه: لمك بن متوشلخ، واسم أمه: شمخا بنت أنوش - وكانا مؤمنين موحدين ﴿وَ﴾ اغفر أيضًا بفضلك ﴿لِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ سفينتي وحرزي، أو ديني ومذهبي ﴿مُؤْمِنًا﴾ موقنًا بإرشادي وتكميلي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن عروة عبوديتك، وربقة رقيتك ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28] إهلاكًا وخسارًا، عذابًا وبوارًا.

ونحن ندعو أيضًا على الكافرين المصرين بكفرهم وشركهم، الظاهرين على أهل التوحيد بأنواع الجدال والمراء بما دعا به نوح ﷺ، ونرجو أيضًا أن نكون من الناجين ببركة دعائه، ودعاء نبينا ﷺ.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، الداخل في سفينة الشريعة المصطفوية المنجية

قامت قيامته» فأتتهم ساعتهم بغتة، فكان البحر مأواهم ظاهرًا والنار مأواهم باطنًا، شاهد ذلك قوله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

لنفسك عن طوفان القوى البشرية، وطغيان اللذة البهيمية المانعة عن التلذذ باللذات المعنوية الروحانية أن تتشبث بذيل همّة المرشد الكامل، المكمل الذي يرشدك إلى سرائر الشريعة وحِكم الأحكام الموردة فيها، ومصالح الأوامر والنواهي بإرادة صادقة، وعزيمة خالصة عن شوب الرياء والرعونات العائقة عن الميل الفطري، والفطنة الجبلية التي جبل الناس عليها، إذا خلى طبعه بلا تصرف من شياطين الوهم والخيال، وجنود الأمارة على مقتضى القوى.

وفقنا الله لما يحب ويرضى، وجنبنا عن الميل إلى البدع والهوى.

سورة الجن

فاتحة سورة الجن

لا يخفى على من تحقق بمقام القلب وسعته، وكمال فسحته ووسعته أن مظاهر الحق وجنوده أكثر من أن يحيط به الآراء، أو يتفوه عنه ألسنة التعديد والإحصاء، أو يدرك نهايتها عقول العقلاء.

ومن جملتها: جنود الجن يختلط معهم ويصاحبهم من الإنس من كان بينه وبينهم مناسبة معنوية مخصوصة توجب ائتلافهم واختلاطهم، وذلك من جملة المواهب والإعطاءات الإلهية لبعض النفوس القدسية الزكية عن رذائل الطبيعة.

ولاشك أن نبينا ﷺ مبعوث إليهم، مختلط معهم، مرشد لهم، هادٍ إياهم إلى طريق التوحيد، كما أوحى إليه سبحانه في هذه السورة متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بدعوتهم إلى الإيمان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [الجن: 1 – 7].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر رسالتك على الثقلين: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قِبَل الحق ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ عند قراءتك القرآن ﴿نَفَرٌ﴾ طائفة، وهو يطلق على ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو جنس من جنود الحق ومظاهره، كجنس الملك، لا مناسبة بيننا وبينهم حتى ندركهم ونعرف حقيقتهم، وما لنا إلّا الإيمان بوجودهم وبأمثالهم؛ إذ ما يعلم جنود الحق إلّا هو، ولا يسع لنا الإنكار، سيما بعد ورود القرآن على وجودهم وتحققهم.

وبعدما سمعوا القرآن، ورجعوا إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من إنسان ﴿قُرْآنًا﴾ كتابًا ﴿عَجَبًا﴾ [الجن: 1] بديعًا نظمًا وأسلوبًا، غريبًا معنى ودلالة، حاويًا للمعارف والحقائق الإلهية، محتويًا على دقائق طريق التوحيد والعرفان، ما هو من جنس كلام البشر، بل هو خارج عن مداركهم، متعالٍ عن مشاعرهم.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والهداية الموصلة إلى مقصد الوحدة الذاتية ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته إلى توحيد الحق ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾ أبدًا ﴿بِرَبِّنَا﴾ الذي وفقنا على توحيده ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 2] من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ المصنوع المربوب لا يصير شريكًا للرب الصانع القديم.

﴿وَ﴾ كيف يكون للرب الواحد الأحد الصمد شريكًا، مع ﴿أَنَّهُ تَعَالَى﴾ تبارك وتقدس ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته وكبرياؤه من أن يكون له شريك في ملكه وملكوته، مع أنه الصمد الذي ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: 3] فكيف يتخذ شريكًا، مع أنه هو الواحد الأحد الصمد على الإطلاق، لم يكن له شريك في الملك ونظير في الوجود؟! فكبره تكبيرًا، ونزه ذاته عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَ﴾ بعدما آمنا بوحدة الحق وعرفناه وحيدًا فريدًا بلا شبيه ولا نظير، ولا وزير ولا مشير، عرفنا ﴿أَنَّهُ﴾ ما ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾(1) إبليس المردود المطرود ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المقدس ذاته عن مطلق المماثلة والمشاكلة في الوجود القيومية، وسائر الصفات الذاتية المصححة للألوهية والربوبية قولاً ﴿شَطَطًا﴾ [الجن: 4] باطلاً بعيدًا عن الحق بمراحل، مجاوزًا عن الحد في الإفراط، تعالى شأنه عما ينسب إليه المبطلون المفرطون.

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق، وتحققنا بمرتبة الشهود ﴿ظَنَنَّا أَن﴾ أي: إنه ﴿لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ أي: جنس الإنس والجن المجبولين على فطرة العبودية والعرفان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المعبود على الإطلاق ﴿كَذِبًا﴾ [الجن: 5] قولاً زورًا باطلاً على سبيل الافتراء والمراء؛ لذلك اتبعناهم فيما قالوا ظلمًا وعدوانًا، وبعدما ظهر الحق،

---

(1) السفه خفة العقل، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط، وصف بالمصدر للمبالغة. والسفيه إبليس أو غيره من مردة الجن الذين جاوزا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى الشريك والصاحبة والولد.

وكوشفنا بحقيقة الأمر تبرأنا عنهم وعن أقوالهم، وتبنا إلى الله، والتجأنا بكنف حفظه وجواره.

أعاذنا الله بلطفه من زيغ الزائغين، وإضلال الضالين المضلين.

﴿وَ﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ﴾ عند مرورهم بقفر، إذا أمسوا فيها كانوا يقولون: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ومع استعاذتهم واستعانتهم ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الجن والإنس ﴿رَهَقًا﴾ [الجن: 6] كبرًا وعتوًا، يختطفون عليهم ويخبطونهم.

﴿وَ﴾ ما ذلك الكبر والطغيان منهم بعدما استعاذوا إلا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الجن ﴿ظَنُّوا﴾ وزعموا ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ وزعمتم أيها الناس الموسومون بالجهل والنسيان، والإنكار والطغيان ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإعادة والإبداء ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 7] من الجن والإنس؛ حتى يستوفي عليه حسابه وجزاءه؛ لذلك يجترئون ويزيدون في الإرهاق والطغيان، سيما الاستعاذة والإلجاء.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: 8 – 13].

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل نزول القرآن ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: طلبنا البلوغ إليها، والصعود نحوها؛ لنسترق من أخبار الملائكة، ونخبر بها الكهنة، ونوقع الفتنة في العالم السفلي ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ أي: السماء اليوم ﴿مُلِئَتْ﴾ وامتلأت ﴿حَرَسًا﴾ أي: حراسًا حافظين ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء على الحفظ والحراسة ﴿وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8] جمع شهاب، وهو المضيء المتراكم من النار، نرجم بها ونطرد من حواليها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ صالحة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ والاستماع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ﴾ بعد نزول القرآن في تلك المقاعد ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ وعنده ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9] راصدًا قاصدًا له، يرجمه ويمنعه من الاستماع.

﴿وَأَنَّا﴾ اليوم ﴿لَا نَدْرِي﴾ ونعلم ﴿أَشَرٌّ﴾ وفتنة ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالساكنين عليها بحراسة السماء، ومنع أخبارها عنهم ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1] [الجن: 10] يهديهم إلى التوكل والتسليم، وكمال تفويض أمورهم إلى العليم الحكيم، بحيث لا يحترزون عمّا جرى عليهم من قضائه بأخبار السماويين؟.

﴿وَأَنَّا﴾ أي: نحن المخبورون ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ الأبرار المؤمنون، الآمنون

(1) بحراسة السماء فحظك أيها السالك من هذه السورة أن يبقى وقت ورود الوارد؛ لئلا تسرق منه القوى النفسية، وتلبس فيها المعاني الخبيثة، ويلقي بها إليك بعد فتور الوارد ظن أنه الوارد بما فيه من معاني الوارد المسترقة، وتلتفت إليه ويسد عليك باب الوارد الأعلى بالتفاتك إلى معاني القوى النفسية، وأكثر من هلك من أهل السلوك من اليونانية والنصرانية الشكمانية بهذه المعاني الملتبسة بالوارد، لأنهم إذا اشتغلوا بالسلوك، اشتغلوا بربهم غير مشبثين بعروة نبي من الأنبياء ليرشدهم في الغيب، ويطلعهم على الحق والباطل، ويهديهم إلى القوى المستخلصة، ويعرفهم خاصة القوى الملوثة؛ فإذا أصغوا وجودهم بالرياضة قويت القوى النفسية، وصعدت إلى سماء الصدر، واسترقت من المعارف الر[illegible]ية، ونزلت إلى عالمها، وكملت مع صاحبها فظن صاحبها أنها وارد غيبي ترده من عالم الرب على قلبه واطمأن بها، واستدرج منها حتى صار إمامًا في ملة الشيطان راعيًا للأمم إليه، وهو خليفة خاص الشيطان والحكماء القديمة اليونانية والرهابين المرتاضة بالنصرانية وحكماء الهند الذين أنهم ظنوا الوصول إلى المأمون حين قالوا: إنا ناصر برخانًا، والبرخان بلغتهم: الواصل إلى الرحمن، وهم يقولون في أثناء السلوك، وفي الوصول بالاتحاد، وها جئنا معهم وألزمناهم بلطف الله وحسن توفيقه ومعونيته حتى أسلموا وآمنوا، ثم بعضهم ارتدوا وماتوا على الكفر بأنهم أقروا بأن الاتحاد باطل؛ فأما الأئمة المهدية الذين اعتصموا بحبل نبي من الأنبياء واشتغلوا بالسلوك، أمنوا من هذه الورطة الوعيرة بأن استحكمت عقدة إرادتهم، ذلك بولاية ذلك النبي حتى دخلت نوبة النبوة المحمدية الناسخة لجميع الأديان لكمال أدرج الله في نبوته، أغلق المسرفون باب سمعهم بالشهاب الثاقب من أوج ولاية رسالته؛ فمن دخل في زمرة متبعيه، واشتغل بالسلوك على وفق إشارته سلم من القوى الخبيثة النفسية وأمن من إلقائها، وينبغي للسالك ألا يغتر بأنه يقول على اللسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، بأنه ممن يجوز له السلوك؛ لئلا يغتر بجبة الغرور في شبكة المغرور؛ لأن التشكيك أمر يختص بولاية الرسالة وينبغي أن يكون المسلك حيًا في عالم البشرية؛ ليهديك إلى الصراط المستقيم، ويقرئك الخواطر ومنشأها، والمسلك بعد النبي ﷺ هو إلى الذي كان وصاه بالأسرار، وعلمه كيفية الوصول إلى عالم الأنوار وأصله إلى حضرة الله الواحد القهار، وهو أرشد مريده ووصاه كما وصاه نبيه وعلمه وأوصله إلى الآن معنعنًا متصلًا؛ لتمكن الاستفادة من قلبه وقالبه صورة ومعنى، ويدفع عن نفسه كيد قطاع الطريق، ويسهل عليه العبور على مكامنهم بقوته وهمته وذكره. [عين الحياة].

الأمينون لا يختلط بالأخبار المسموعة من الأكاذيب ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لا أمانة لهم حتى يؤدوا الأخبار على وجهها، بل يوقعون الفتن والمحن بين الناس؛ إذ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ أي: ذوي طرائق ومذاهب ﴿قِدَدًا﴾ [الجن: 11] متفرقة مختلفة؛ لذلك منعنا بأجمعنا عن استراق الأخبار السماوية، وانحصر الأمر بالوحي الإلهي؛ حتى لا يختل أمر النظام الموضوع على القسط والعدالة الإلهية.

﴿وَأَنَّا﴾ بعدما كوشفنا بهداية القرآن، ورسالة محمد ﷺ تركنا ما كنا عليه من الضرر والإضرار لعباد الله؛ إذ ﴿ظَنَنَّا﴾ بل علمنا يقينًا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام كائنين ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ﴾ أيضًا ﴿هَرَبًا﴾ [الجن: 12] منه سبحانه إلى السماء، أو إلى أيّ مكان شئنا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن الموضح لطريق التوحيد ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ﴾ ويوقن بوحدانيته ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ نقصًا في الجزاء والثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13] ذلة تذله في الدارين؛ لأن من آمن اعتدل، ولم يبخس حق أحد، ولم يذله بظلم، فكذلك لا يبخس ولا يظلم.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا
﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا
﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن: 14 – 22].

﴿وَأَنَّا﴾ بعدما سمعنا الهدى والرشد ما كنا نؤمن ونهتدي جميعًا، بل ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ المنقادون لحكم الله، وأوامره ونواهيه الواردة في كتابه، المسلمون أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجاهلون المائلون عن الهداية، المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ منّا، واعتدل وسلم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المسلمون المسلّمون ﴿تَحَرَّوْا﴾ واجتهدوا ففازوا ﴿رَشَدًا﴾ [الجن: 14] يوقظهم عن سِنة الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون الحائرون في تيه الطغيان والكفران ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿حَطَبًا﴾ [الجن: 15] توقد بهم النار، كما توقد بعصاة الإنس وطغاتهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَن﴾ أي: وأن الشأن والأمر أنه؛ أي: الجن والإنس المجبولين على فطرة التكليف ﴿لَوِ اسْتَقَامُوا﴾ واعتدلوا ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: جادة المعرفة والتوحيد ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم﴾[1] تلطفًا لهم، وترحمًا عليهم ﴿مَّاءً﴾ محييًا لأراضي أجسامهم الميتة بسموم الإمكان، ويحموم الأماني الصاعدة من نيران الطبيعة ﴿غَدَقًا﴾ [الجن: 16] كثيرًا إلى حيث يجعل لهم روضة من رياض الجنان.

وإنما فعلنا معهم ذلك ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التنعم والترفه، كيف يشكرون للنعم؟ وكيف يواظبون على أداء حقوق الكرم؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ويزيد عليها ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وينصرف عن طاعته وعبادته، ويكفر بنعمه، ولم يواظب بأداء حقوق كرمه ﴿يَسْلُكْهُ﴾ ويدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: 17] يصعد عليه، ويعلو فوقه، وبالجملة: عذابًا شاقًا شديدًا، قاهرًا عليه عاليًا.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوجيه والتعليم لخُلّص عباده المؤمنين، والتوبيخ والتعريض للمشركين: ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون من الثقلين ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ المبنية؛ للميل والتقرب نحو الحق مختصة ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة خالصة ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ وتعبدوا فيها ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 18] عن مظاهره ومربوباته.

﴿وَ﴾ بعدما علمتم هذا بتعليم الله إياكم اعلموا ﴿أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي: النبي المؤيّد من عنده سبحانه بأنواع العناية والكرامة المستلزمة لأنواع العبادة والإطاعة في

---

(1) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقينه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء-لا كثرته ولعزة وجوده بين العرب قال عمر -رضي الله عنهما- أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (16 / 183).

المسجد الحرام المعدّ؛ لعبادة العليم العلاّم، القدوس السلام ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبده، ويتذلل نحوه ﴿كَادُوا﴾ وقاربوا مشركي الجن والإنس ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ويزدحمون حوله متعجبين ﴿لِبَدًا﴾ [الجن: 19] متراكمين، كلبدة الأسد، وهو مستغرق في صلاته بلا التفات منه إليهم إلى أن أوحى إليه بما هم عليه من التعجب والتحير من أمرهم.

فقيل له من قِبَل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمزدحمين المتعجبين: ﴿إِنَّمَا أَدْعُو﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني على كمال المعرفة والإيقان، وأرسلني أن أدعو عموم المكلفين إلى توحيده ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ ومعه ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 20] من مظاهره ومصنوعاته.

فإن قالوا: هل لك أن تشاركنا معك في عبادتك وخضوعك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ من تلقاء نفسي ﴿ضَرًّا﴾ يضركم به ويعذبكم إن أردت إضراركم وتعذيبكم ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21] يرشدكم به ويهديكم إن أردت هدايتكم ورشادكم، بل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا، فكيف لكم؟! بل ما ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 50] والأمر بيد الله العليم الحكيم.

فإن قالوا: ما فائدة عبادتك وتخصيصها إياه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: لمَ لم أعبد ربي، ولم أخصصه بالعبادة، مع ﴿إِنِّي﴾ أعلم منه سبحانه أنه ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ ويحفظني ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَحَدٌ﴾ من مظاهره، لو أراد عذابي ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ أبدًا ﴿مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 22] ملجأً وملاذًا ينقذني من بطشه وعذابه، لو جرى مشيئته سبحانه على تعذيبي؟!

وبالجملة: لا أملك لكم، ولا لنفسي ضرًا ولا نفعًا.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: 23 – 28].

﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ وتبليغًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ما أوحى إليّ ﴿وَ﴾ سوى أداء ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ التي

أرسلني بها، وما لي سوى الإبلاغ والتبليغ ﴿وَ﴾ من جملة ما أُوحي إليَّ: إنه ﴿مَن يَعْصِ اللَّهَ﴾ ويعرض عنه وعن عبادته من عباده ﴿وَ﴾ لم يصدق ﴿رَسُولَهُ﴾ المستخلف منه، القائم بأمره ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ أي: حق وثبت له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ في النشأة الأخرى، وبالجملة: صار العاصون المعرضون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23] لا نجاة لهم منها أصلاً.

وهم لا يزالون على عصيانهم بالله، مستظهرين بما معهم من الجاه والثروة، وكثرة الأموال والأولاد في نشأتهم الأولى ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: 24] النبي وأتباعه، أم المشركون ومن معهم؟.

وبعدما سمع المشركون: ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا على سبيل الإنكار والاستبعاد: متى يكون؟ فقيل من قِبَل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: إنه كائن لا محالة، لكن وقته مفوض إلى علم الله ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي: ما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: وقوعه وقيامه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ﴾ ولوقوعه ﴿رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن: 25] بعيدًا، وأجلاً طويلاً؛ إذ هو من جملة الغيوب التي استأثر الله بها؟.

إذ هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ حسب حكمته ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ولا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ المختص به ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 26][1] من خلقه.

﴿إِلَّا﴾ أي: يطلع من بعض غيوبه على ﴿مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ مأمون على غيبه، له قابلية الخلافة والنيابة عنه سبحانه ﴿فَإِنَّهُ﴾ يطلعه من غيبه على سبيل الوحي والإلهام حين ﴿يَسْلُكُ﴾ ويوكل سبحانه؛ لحفظه وحراسته ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 27] حراسًا من الملائكة يحرسونه من استراق الشياطين، واختطافهم وتخليطهم.

وإنما فعل كذلك عند إطلاعه ووحيه إلى رسوله ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الرسول الموحى إليه ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: حاملو الوحي مطلقًا ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ على وجهها

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (2 /180): عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان) ولا يعرف هذا ذوقًا إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه.

مصونة محروسة عن اختطاف الشياطين، وتخليطاتهم المغيرة لها ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه قد ﴿أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: لدى الرسل والملائكة جميعًا علمًا وحضورًا، بل ﴿وَ﴾ قد ﴿أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿عَدَدًا﴾ [الجن: 28] بحيث لا يعزب عن حيطة علمه وإحصائه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

خاتمة السورة

عليك أيها المحقق المنكشف بإحاطة العلم الإلهي ولوح قضائه، وقلم تصويره وتخطيطه أن تعتقد وتذعن أن عموم ما جرى في ملكه وملكوته إنما هو بأمره ووحيه، ونفوذ قضائه ومضاء حكمه على حسب الحضور، بحيث يجتمع عند حضوره الأزل والأبد، والأولى والأخرى، والغيب والشهادة؛ إذ لا انقضاء دونه، ولا انصرام ولا تجدد لديه، ولا انخرام، بل الكل بالنسبة إلى قدرته وإرادته على سواء بلا تفاوت وتخالف.

جعلنا الله من المنكشفين بحضور الحق وشهوده، مع كل شيء ودونه بمنّه وجوده.

سورة المزمل

فاتحة سورة المزمل

لا يخفى على ذوي الألباب والآداب المتحملين لأمانة التوحيد الإلهي أن من تمكن على تلك المرتبة لا بدّ ألّا يشغله شيء سواها، ولا يلهيه أمل دونها، سيما المتحملين معه أعباء الرسالة والنبوة المشتملة على دعوة عموم المكلفين إلى سبيل التوحيد، وإرشادهم نحوه بالتصبر على أذياتهم، وتحمل المتاعب والمشاق في تبليغ الدعوة والتكميل.

فلا بدّ للنبي أن يبذل كمال وسعه وطاقته في إجراء الشرع، وإعلاء كلمة التوحيد وبلا تكاسل وتغافل عنه لمحة وطرفة.

كما نبه سبحانه على حبيبه ﷺ مناديًا إياه على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب بعد التبرك باسمه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بعموم كمالاته على من اختاره لرسالته، واصطفاه لخلافته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإرسال الرسل، ووضع الشرع والدين القويم فيما بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى سرائر التكاليف الواقعة في طريق التوحيد واليقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ
فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى
ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾
[المزمل: 1 — 13].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1] المتغطي المتلفف بثوبه وقطيفته نائمًا، أو مرتدعًا عمّا دهشه بدء الوحي.

شأن النبوة والرسالة ما هو هذا ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وداوم على التهجد فيه ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾

[المزمل: 2] منه؛ للاستراحة والنوم تقويةً لمركب بدنك، وتنشيطًا له على العبادة.

يعني: ﴿نِّصْفَهُ﴾ أي: نصف الليل ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلاً﴾ [المزمل: 3] ليقرب الثلث.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف حتى يقرب الثلثين، وإنما خير بين هذه الثلاثة؛ لأنه فرض أولاً قيام الكل، ولمَّا تحرجوا ومرضوا، وشق عليهم الأمر، رحم الله عليهم فخيرهم في هذه الأوقات بناء على تفاوت أمزجة الناس في عروض الكلال بالسهر، وبعد القيام تهجد ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: 79]، ﴿وَرَتِّلِ﴾ في تهجدك ﴿الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 4] أي: بين حروفه، وقررها في مخارجها إلى حيث لا يشتبه على السامع العارف بأساليب الكلام ومنطوقات الألفاظ معانيها.

وبالجملة: اقرأها على تؤدة تامة، وطمأنينة كاملة بعزيمة خالصة، وإرادة صادقة إلى حيث تتأثر من ألفاظ القرآن فطرتك وفطنتك التي هي خلاصة وجودك، وزبدة أركانك وطبيعتك؛ إذ بها توسلك ووصولك إلى مقصد التوحيد واليقين.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَوْلاً﴾ جزلاً سهلاً، خفيفًا على اللسان ألفاظه وكلماته ﴿ثَقِيلاً﴾[1] [المزمل: 5] عظيمًا على القلب رموزه وإشاراته، والاتصاف بما فيه، والامتثال بمقتضيات أوامره ونواهيه، والاطلاع على سرائر الأحكام الموردة فيه، والإحاطة بقوادمه وخوافيه، وبالجملة: من تأمل فيه على وجه التدرب والتدبر فقد غرق في تيار بحاره الزخار.

وتخصيص الأمر بالليل وترتيل القرآن فيه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: القراءة التي تنشأ من النفس في جوف الليل حين خلو القلب عن جميع الأشغال والملاهي ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تأثيرًا ودفعًا في القلب، وتنبيهًا له، وإن كانت أثقل للنفس وأتعب للبدن

(1) يعني: ثقيلاً في العمل والوزن والقدر؛ أي: عمله ثقيل على الأبدان، وثوابه في الميزان، وقدره عظيم عند الرحمن، والموارد ثقل إذا يرد على السالك في البداية كأن السماء وقعت عليه، ولا يحسب أن ثقل الوارد يوازي ثقل الوحي ولا عشر عشيرة، روت عائشة رضي الله عنها «رأيته ينزل عليه في اليوم الثاني الشديد البرد فينفصم عنه وأن جبينه يتفصد عرقًا» وهو ﷺ في القوة بمرتبة، قيل في حقه أن الله أعطاه أربعين ضعف قوة أعطاها الله لموسى بن عمران وهو أقوى الأنبياء. [عين الحياة].

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 6] أي: أعدل الأقوال بالنسبة إلى القلب وأرسخها فيه، وأقواها أثرًا وانتباهًا بخلاف النهار.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ﴾ الذي هو وقت الأشغال والالتفات إلى المهمات، ومحل أنواع الملمات والواقعات؛ لذلك عرض لك فيه ﴿سَبْحًا طَوِيلاً﴾ [المزمل: 7] [1] تقلبًا وتصرفًا طويلاً شاغلاً لأوقاتك، مشوشًا لحالاتك.

وبالجملة: الفراغ الذي يحصل بالليل لا يحصل في النهار، فعليك أن تجتهد في التهجد، وتقرأ القرآن فيه، سيما عند الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على تسبيحه وتقديسه دائمًا في أوقاتك وحالاتك، ولا تشغلنك عن ذكره مهماتك، بل ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي: تجرد وانقطع عن عموم المهام ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: 8] وتجريدًا كاملاً بحيث لا يخطر ببالك الالتفات بحالك، فكيف بحال غيرك؟!

وكيف لا تنقطع إليه ولا تتجرد نحوه، مع أنه سبحانه ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: جنس المشارق والمغارب التي هي ذرائر الكائنات باعتبار ظهور شمس الذات منها، وشروقها عليها، وباعتبار بطونها وخفائها فيها؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا شيء سواه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: 9] سيما بعدما لم يوجد في الوجود غيره أصيلاً؟!

﴿وَ﴾ بعدما اتخذته وكيلاً، وجعلته حسيبًا وكفيلاً ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المسرفون من الخرافات والجزافات التي لا تليق بشأنك، إن شق عليك الصبر والتحمل ﴿وَاهْجُرْهُمْ﴾ اتركهم وانصرف عنهم ﴿هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: 10] بشًاشًا بسّامًا بلا التفات إلى هذياناتهم الباطلة، وبلا مبالاة بهم وبكلامهم، وتوكل على الله، وفوض أمر انتقامهم إليه، فإنه يكفيك مؤنة شرورهم واستهزائهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التسلية لحبيبه ﷺ: ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحك

---

(1) أي: سبحًا في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيما يَشغَلُك كثيرةٌ، والليلُ أَخلَى لك. تفسير القشيري (7/494).

وطعنك يا أكمل الرسل ﴿ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: دعني معهم، وفوض أمر انتقامهم إليّ، فإني أنتقم عنهم من قبلك، وأدفع أذاهم عنك، وأغلبك عليهم، وإن كانوا ﴿أُوْلِي النَّعْمَةِ﴾ وذوي الثروة والسيادة، وأصحاب التنعم والوجاهة - يريد صناديد قريش - ﴿وَ﴾ لا تستعجل في انتقامهم، بل ﴿مَهِّلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلاً﴾ [المزمل: 11] أو زمانًا قليلاً.

ولا تيأس من مكرنا إياهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ معدًا لهم أنواعًا من العذاب ﴿أَنكَالاً﴾ أثقالاً؛ لتثاقلهم وعدم تحملهم وتصبرهم بمتاعب التكاليف الإلهية، ومشاق الطاعات والعبادات المأمورة لهم من قِبَله سبحانه ﴿وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: 12] عظيمًا بدل ما يتلذذون بنيران الشهوات، ويظلمون الناس بأنواع الغضب والطغيان.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلق، و﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7]، بدل ما يأكلون من السحت والربا، وأموال اليتامى ظلمًا ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 13][1] لا عذاب أشد إيلامًا منه، وهو حرمانهم عن لقاء الله، وخذلانهم على ما فات عنهم من التحقق في كنف حفظه وجواره.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ [المزمل: 14 - 19].

اذكر لهم يا أكمل الرسل، وإن لم يصدقوا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل ﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ من شدة الحركة والاضطراب اندكت وتناثرت فصارت ﴿كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعًا ﴿مَّهِيلاً﴾ [المزمل: 14] منثورًا، تذروه الرياح حيث شاء، كسائر الرمال الآن في البراري والبوادي.

وكيف لا نأخذ المجرمين المشركين بظلمهم يومئذٍ، ولا نعذبهم بأنواع العذاب

(1) البحر المديد (6 / 442): وطعامًا ذا غُصةٍ يغص الروح عن شراب الحمرة؛ لضيق مسلكه بوجود العوائق، وعذاباً أليماً: البُعد والطرد عن باب حضرتنا وجناب كبريائنا .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة بعدما انحرفتم عن جادة العدالة على مقتضى سنتنا في الأمم السالفة ﴿رَسُولاً﴾ ناشئًا منكم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿شَاهِدًا﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بالإجابة والامتناع بعدما أمرنا له، وأوحينا إليه أن يدعوكم إلى الإيمان، ويأمركم بالطاعات والإحسان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿رَسُولاً﴾ [المزمل: 15] يعني: موسى الكليم عليه السلام؛ ليدعوه إلى الإيمان، ويأمره بلوازمه.

وبعدما دعاه وأمره بما أمر به الحق ﴿فَعَصَى﴾ وتكبر ﴿فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ وعتا عليه، واستكبر عن دعوته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: 16] ثقيلاً شديدًا إلى حيث أغرقناه وجنوده في اليم، وأورثنا أرضه ودياره وأمواله لبني إسرائيل.

هذا أخذُنا إياهم في النشأة الأولى، وفي الأخرى بأضعافها وآلافها، فأنتم أيضًا يا أهل مكة مثل فرعون عصيتم رسولكم الذي أُرسل إليكم؛ يعني: محمدًا ﷺ، فنأخذكم مثلما أخذنا فرعون، في الدنيا نجعلكم صاغرين مهانين، وفي الآخرة مسجونين بعذاب أليم، مخلدين في النار أبد الآبدين.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع تهويلاً عليهم، وتعريضًا: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ وتحفظون أنفسكم أيها المنهمكون في أنواع الغفلات والجهالات ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ وبقيتم على الكفر، ومتم عليه، مع أنكم ستستقبلون وتقعون يومًا، وأيّ يوم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17] من غاية طوله، وشدة أهواله وأحزانه؟!

هذا على وجه التمثيل والتشبيه بحسب متفاهم العرف، وإلّا فلا يكتنه هول ذلك اليوم وشدته بالوصف والبيان.

ومن جملة ما يدل على شدة هوله: إنه ﴿السَّمَاءُ﴾ المشيدة المحكمة ﴿مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: متشققة متضعضعة، منخرمة في ذلك اليوم بمقتضى قهر الله وجلاله، وكيف لا يكون كذلك بعدما وعد الله القادر المقتدر على عموم ما دخل في حيطة علمه وإرادته بوقوعه، ولاشك أنه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: 18] دائمًا، وأمره مقضيًا أبدًا، وحكمه مبرمًا أزلاً، وقضاؤه نافذًا سرمدًا؟!

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الكلمات الدالة على إنجاز وعد الله ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وعظة للمتعظين المتذكرين من أرباب العناية والتوفيق ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يتعظ بها ﴿اتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل: 19] بعدما وفقه الحق، وأعان عليه بالخروج عن لوازم الإمكان، وهداه للعروج إلى معارج الوجود مترقيًا من درجة إلى درجة، ومقام إلى مقام إلى أن

وصل إلى مبدأ طريق الفناء، ثمّ ترقى منه أيضًا من حالة إلى حالة إلى أن فني عن الفناء أيضًا، وبعد ذلك صار ما صار، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل: 20].

وبعدما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بقيام الليل على الوجه المذكور، وحثه عليه، ورغبه على وجه المبالغة والتأكيد بأن علله بعلمه سبحانه إياه على أيّ وجه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقل ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ وأعلى، وأكثر من نصفه تارة ﴿وَ﴾ تارة أخرى أدنى من ﴿نِصْفَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿نِصْفِهِ وَ﴾ تارة أدنى من ﴿ثُلُثَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿ثُلُثَهُ﴾ وأكثر من ربعه، وهذا أدنى تاراتك، وأعلاها: ما هو أدنى من ثلثي الليل؛ إذ هي أقرب إلى قيام الكل الذي فرض أولاً، ثمّ الثانية، ثمّ الثالثة.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أي: ويعلم سبحانه أيضًا قيام طائفة ﴿مِّنَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يقومون ﴿مَعَكَ﴾ ويوافقون لك في تهجدك وقيامك؛ يعني: علمه سبحانه محيط بهذه الأوقات الثلاثة الواقعة منك ومنهم، بخلاف علمك فإنه؛ أي: علمك لا يقدر بتعيينها على وجهها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم الذي ﴿يُقَدِّرُ﴾ بمقتضى علمه وإرادته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ على سبيل التجدد والتتابع، والاختلاف طولاً وقصرًا، وإيلاج بعض أجزاء كل منهما على الآخر، وإخراجهما منه، وضبط أجزائهما وساعاتهما وآنائهما، إنما هي بعلمه لا بعلم غيره من مظاهره ومصنوعاته، وهو سبحانه ﴿عَلِمَ﴾ منك ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾[1] أي: ليس في وسعكم وطاقتكم تقدير الأوقات، وضبط

(1) حتى لن تطيقوه، لأن القوة البشرية لا تتحمل هذه المجاهدات التي كنتم تشتغلون بها في البدايات، لأن المبتدئ الرحيل في الطريق ومباينه يظن أنه بالعجلة وحمل الميثاق بقطعه وذلك

الأحيان والساعات، وإحصاء الآناء الواقعة في الليل والنهار، وقيامكم في كلها أو بعضها على وجه التعيين والتخصيص.

وبعدما ظهر عنده سبحانه عدم طاقتكم ووسعكم ﴿فَتَابَ﴾ أي: عاد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ورجع عمّا ألزمكم، وأزال تعبكم بالرخصة في ترك القيام المقدر المعين على الوجوه المذكورة؛ إذ لا يسع لكم ضبطها، وبعدما رخصكم سبحانه، وخفف عنكم تفضلاً وامتنانًا، قوموا في خلال الليل مقدار ما يسّر الله لكم ووفقكم عليه ﴿فَاقْرَءُوا﴾ أي: صلوا التهجد بقراءة ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المقرون بصلاتكم.

قيل: كان التهجد واجبًا على التخيير المذكور، ثمّ رخص بترك التقدير والتعيين، ثمّ نسخ هذا أيضًا بالصلوات الخمس المقدرة في الأوقات الخمسة، وإنما نسخه سبحانه؛ إذ ﴿عَلِمَ﴾ بمقتضى حضرة علمه وحكمته ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿سَيَكُونُ﴾ بعضًا ﴿مِنكُم مَّرْضَى﴾ من السهر المفرط؛ إذ الأبدان متفاوتة في تحمل المشاق، سيما ترك النوم المعدّ؛ لاستراحة البدن في الليل ﴿وَ﴾ أيضا ﴿آخَرُونَ﴾ منكم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويسافرون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ سفرًا مباحًا ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بسفرهم ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ وسعة جوده وكرمه مزيد رزق، أو طلب علم، أو صلة رحم، أو زيارة صديق إلى غير ذلك من الأسفار المشروعة، فيتحرجون بقيام الليل والتهجد فيه ﴿وَآخَرُونَ﴾ أيضا ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ترويجًا لدينه، وإعلاءً لكلمة توحيده، فإنهم لو تهجدوا لضعفوا ألبتة فشق عليهم أمر القتال.

وبعدما أزال عنكم سبحانه حرجكم وتعبكم بمقتضى حكمته المتقنة البالغة، فعليكم ألّا تتركوا التهجد رأسًا، ولا تنسوه جملةً، بل قوموا في خلال الليل؛ للتهجد إن استطعتم ﴿فَاقْرَءُوا﴾ فيه ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وواظبوا على أدائها وقيامها حق المواظبة، وراعوا أركانها وأبعاضها وهيئاتها على وجوهها، وبالجملة: أدوها على وجه يرضى عنكم مولاكم، ولا تهاونوا عليها، ولا تقصروا فيها.

واعلموا أيها المؤمنون أن الفارق بين الإيمان والكفر، والهداية والضلال إنما هي

من غاية اشتياقه وقلة معرفته بالحق، فلما سلك ووصل إلى عالم العرفان يطلع على أن كل شيء مرهون بوقت معين لا يمكن الوصول إليه قبل إيقانه. [عين الحياة].

الصلاة التي هي أقوى أعمدة الدين وأقومها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ المأمورة لكم على سبيل الوجوب؛ تزكيةً لأنفسكم عن الشح، وأموالكم عن الفضلات، وتمرينًا لأنفسكم على الإنفاق وفعل الخيرات ﴿وَ﴾ بعد أداء الواجب من الزكاة ﴿أَقْرِضُوا اللهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعامات بإعطاء فواضل الصدقات، وأنواع الخيرات وبناء المساجد والرباطات، وغير ذلك مما يتعلق بمصالح المسلمين من المنافع الحاصلة بالمال ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، والسمعة والرياء، والعجب وأنواع الهوى.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ وتؤخروا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ موجب لأجر مستلزم لثواب، سواء كان ماليًا أو بدنيًا، قبل حلول الأجل وهجوم الموت ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾ المفضل المنعم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأكرم محلاً، وأعز درجةً ومنزلاً من الذي يؤخرونه إلى الوصية حين حلول الأجل ﴿وَ﴾ إن جرى عليكم في سالف زمانكم ما جرى من ترك الاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ المفضل المكرم لما صدر عنكم، واشتغلوا لامتثال أوامره في بقية أعماركم تلافيًا لما مضى ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على إنابتكم ونياتكم فيها ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر زلتكم الماضية أيضًا ﴿رَّحِيمٌ﴾[1] [المزمل: 20] يقبل توبتكم اللاحقة لها بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك لسلوك التوحيد، والقاصد نحو مقصد الفناء أن تبذل وسعك في طريق التوحيد ببدنك ومالك، وجميع أحوالك وأطوارك، وتجتهد في تصفية ظاهرك وباطنك، وتخلية قلبكِ عن الشواغل العائقة عن التوجه التام والالتفات الخالص.

فلك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة، وتواظب على الاتصاف بالأطوار والأخلاق الموروثة لك من النبي المختار، والمأثورة منه من الآثار، وامتثال ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه؛ لتصفية الخاطر عن الميل إلى ما

(1) يعني: يغفر لمن يتوب إليه بعد الاكتساب من المعاصي، ويرحم من تغلب عليه شهوته، وهو يريد أن يدفعها ولا يمكن له دفعها لغلبة قواها القالبية والنفسية، وضعف قوى قلبه ينصره بخواطر السكينة وملكية الرحمة ما لنا ذلة على صدره من عالم سره ليخرج من ضيق المجاهدة مع الشهوة إلى متسع عالم الرحمة. [عين الحياة].

سوى الحق من الأغيار الساقطة عن درجة الاعتبار؛ لتكون من الأبرار الأخيار الموسومين بأولي العبرة والأبصار، وتفوزوا بما فاز من الرموز والأسرار.

وإياك إياك ومصاحبة الأشرار المغترين بلذات الدنيا الغدارة، وشهوات الحياة المستعارة المستلزمة لأنواع الخسار والبوار.

جعلنا الله الغفور الغفار من ذوي العبرة والاستبصار بفضله وطوله.

سورة المدثر

فاتحة سورة المدثر

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود، المنخلعين عن جلباب عالم الناسوت، الرافلين بخلع عالم اللاهوت أن من خرج عن بقعة الإمكان مهاجرًا إلى الله بعدما جذبته العناية والتوفيق من جانبه سبحانه، فحين خروجه وتفرقه عن مألوفات عالم الطبيعة، وظهور طلائع سلطان الوحدة الذاتية، واستيلائه بنظر شهوده، طرأ عليه حالات عجيبة وصور بديعة إلى حيث أرعدته وأزعجته إلى الفرار نحو مألوفات الطبيعة، والنظر والتغطي بملابسها، فصار عليها إلى أن تمكن على فطرة الوحدة، وتمرن عليها بلا خوف ورعدة، إن أدركته العناية الإلهية، وشملته الجذبة الأحدية.

هكذا جرى على نبينا ﷺ في أوائل شهوده وانكشافه؛ إذ كان يومًا متوجهًا بحراء الفناء، منخلعًا عن لوازم عالم الناسوت بالمرة حتى ظهرت عليه أمارات عالم اللاهوت، فنودي حينئذٍ من قبل فناء الفناء نداءً عجيبًا، وصداءً غريبًا، بحيث لم يسمع مثله سمع سره ﷺ.

وكان ﷺ حينئذٍ في عالم التلون، فنظر بعين شهوده يمنة ويسرة فلم ير شيئًا، فنظر فوق ذلك العالم فرأى ما رأى، وانكشف بما انكشف، فرعب وارتعد، ورجع هاربًا مرعوبًا مغلوبًا، قلقًا حائرًا حتى وصل إلى خديجة الطبيعة، وتكلم معها بكلمة: دثريني بملابسك وجلبابك، فدثرته الطبيعة مرة أخرى، فأدركه الخطاب الإلهي، فأدبه وأخرجه من سجن الطبيعة، وملابس الهيولى بالكلية، حيث قال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ربَّى حبيبه محمدًا ﷺ على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه؛ إذ أخرجه عن مضيق الإمكان المستلزم لأنواع التخمين والتقليد ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يوصله إلى سماء التجريد، ويمكنه في فضاء التفريد.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا
تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى
الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا

﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا
﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ
وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المدثر: 1 — 24].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1] والمتدثر: المتغطي بملابس الطبيعة، وثياب الإمكان الموجبة لأنواع الخسران والحرمان.

﴿قُمْ﴾ من عالم الطبيعة، واخرج عن مضيق بقعة الإمكان بعدما كشفت طلائع فضاء اللاهوت، وبعدما خلصت من سجن عالم الناسوت ﴿فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 2] عموم بني نوعك؛ أي: المحبوسين في سجن الإمكان، المقيدين بسلاسل الزمان، وأغلال المكان عن دركات النيران، وأودية الضلالات والجهالات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة الموجبة لأنواع الحرمان والخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَ﴾ خصص ﴿رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك على فطرة المعرفة والإيقان بأنواع التبجيل والتعظيم ﴿فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 3] (1) ذاته تكبيرًا كاملاً إلى حيث لا يخطر ببالك معه شيء؛ إذ هو المتعزز برداء العظمة والكبرياء، لا شيء سواه.

وبعدما انكشفت بوحدة ربك، وكبرته تكبيرًا لائقًا بشأنه ﴿وَثِيَابَكَ﴾ التي هي ملابس بشريتك ﴿فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4] عن أوساخ الإمكان، وقذر عالم الطبيعة والهيولي، فإن طهارتك عنها واجبة عليك في ميلك إلى مقصد الوحدة.

﴿وَالرُّجْزَ﴾ أي: الرجز العارض لبشريتك من التقليدات الموروثة، والتخمينات المستحدثة من الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة المكدرة لصفاء مشرب التوحيد واليقين من الأخلاق الرديئة، والملكات الغير مرضية من الشهوية والغضبية المترتبة على القوى

---

(1) قال الورتجبي: يا أيها المدثر، أي: يا أيها الغريق في قَلزوم القِدم، قُم لدعوى محبتي، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأَظهِر جواهر حقائب بحر غيبي للمقبلين إلينا . ثم قال على قوله: (وربك فكبّر)، عن الحُسين: عَظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإنَّ إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية مني. قال القشيري: كبّر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد، فإنَّ كبرياءه ذاتي له، قائم بنفسه، لا بغيره من المكبّرين. والمتبادر أنه أمرَ الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنذرين، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمتكبرين عن التصدّي لإنذاره وتذكيره.

البهيمية إلى غير ذلك من القبائح الصورية والمعنوية.

﴿فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 5] أي: جانِب وافترق؛ ليمكنك التخلق بأخلاق الله، والاتصاف بأوصافه.

ومن جملة الأخلاق المذمومة، بل من معظمها: المنة على الله بالطاعة وفعل الخيرات، وعلى عباده بالتصدق والإنفاق عليهم.

﴿وَ﴾ إذا سمعت ﴿لَا تَمْنُن﴾ على الله مباهيًا بطاعتك، وعلى عباده تفوقًا عليهم ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6] وتستجلب نعم الله على نفسك وإحسانه عليك، وامتنانه لك بما لا مزيد عليه، أو المعنى: ﴿لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط أحدًا شيئًا على نية أن تستكثر وتتعوض منه بدله أكثر مما أعطيته، على مقتضى القراءتين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِرَبِّكَ﴾ الذي ربّاك على الخُلق العظيم ﴿فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 7] على مشاق التكاليف، ومتاعب الطاعات والعبادات، وعلى أذيات المشركين حين تبليغ الدعوة إياهم، وإيصال الوحي إليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل من الوصايا ما سمعت، امتثل بها واتصف بمقتضاها اتقاءً عن يوم الجزاء.

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونُفخ ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: 8] أي: الصور المصور؛ لتصويت الأموات؛ ليبعثوا من قبورهم أحياءً كما كانوا، ثمّ نُقر ثانيًا؛ ليحشروا إلى المحشر، ويحاسبوا بين يدي الله، ثمّ يجازوا على مقتضى ما يحاسب، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿فَذَلِكَ﴾ أي: وقت النقر الثاني للحشر والوقوف بين يدي الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: 9].

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ عسر عليهم حينئذٍ الأمر، واشتد الهول، وتشتتت أحوالهم واضطربت قلوبهم، وبالجملة: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 10] عليهم حسابهم؛ لذلك عسر عليهم.

وبعدما سمعت قيام يوم القيامة وتنقيد الأعمال فيها، والجزاء عليها، لا تستعجل يا أكمل الرسل لانتقام المشركين المسرفين، ولا تعجل عليهم، بل ﴿ذَرْنِي﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: مع شخص خلقته ﴿وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11] متفردًا من أهل

عصره، مفروزًا منهم بكثرة الأموال والأولاد، والثروة والجاه، إلى حيث لُقب بين قومه بريحانة قريش؛ يعني: وليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾ توسيعًا عليه، وامتنانًا له ﴿مَالاً مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: 12] كثيرًا وافرًا، متزايدًا يومًا فيومًا بالتجارة والنتاج والزراعة وغير ذلك.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: 13] حضورًا معه دائمًا، لا ينفصلون عنه زمانًا؛ لاستغنائهم عن التجارة والحراثة وسائر المصالح؛ لكثرة خدمهم وحشمهم، بحيث لا احتياج لهم من تهيئة أسبابهم إلى ترددهم بأنفسهم؛ لذلك يحضرون معه في جميع المحافل والمجالس، والأندية تكميلاً لثروته ووجاهته.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 14] أي: بسطت له بسطًا واستيلاءً، يتحسر ويتحسد بحاله جميع بطون العرب وأفخاذه.

ومع تلك الوجاهة العظمى، والكرامة الكبرى الموهوبة له لم يشكر عليَّ، ولم يرجع إليّ قط ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: 15] على ما آتيته وأعطيته من النعم العظام، مع أنه مصر على الكفر والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف أزيد عليه، مع أن كفرانه وطغيانه يوجب ويقتضي زوال ما أُعطي به، وكيف لا يوجبه ﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال عظمتنا، واقتدارنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿عَنِيدًا﴾ [المدثر: 16] معاندًا منكرًا، وعناده أمارة زوال ماله وثروته وجاهه؟!

وبالجملة: ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ أي: سأغشيه وأكلفه بالعنف في النشأة الأخرى ﴿صَعُودًا﴾ [المدثر: 17] عقبة شاقة المصعد والمهوى، فأكلفه على الصعود والهبوط دائمًا، بحيث لا نجاة له منها، وعنه ﷺ: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا، ثم يهوى فيه كذلك أبدًا»[1]، وهو مثل لما يلقى من الشدائد.

وكيف لا أكلفه بصعود الصعود وهبوطه ﴿إِنَّهُ﴾ من شدة شكيمته، وخباثة طينته

---

(1) رواه أحمد (75/3، رقم 11730)، وهناد في «الزهد» (184/1، رقم 281)، وعبد بن حميد (ص 289، رقم 924)، والترمذي (703/4، رقم 2576) وقال: غريب، وأبو يعلى (523/2، رقم 1383)، والحاكم (551/2، رقم 3873)، وقال: صحيح الإسناد.

﴿فَكَّرَ﴾ في آيات القرآن على وجه التدبر فلم يجد فيه طعنًا وقدحًا ﴿وَ﴾ بعدما لم يجد ما يصلح للطعن ﴿قَدَّرَ﴾[1] [المدثر: 18] في نفسه على مقتضى خباثته ما ينفق به، ويقول فيه على سبيل القدح؟!

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التعجب من إفكه وتقديره: ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعن وطُرد ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 19] له قدحًا، مع أن القرآن منزه عن القدح مطلقًا؟!

﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ ذلك المعاند الطاغي ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 20] ما هو بعيد عن شأن القرآن بمراحل؟! كرره سبحانه مبالغةً في التعجب والاستبعاد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: 21] كرة بعد أولى، ومرة بعد أخرى في أمر القرآن ﴿ثُمَّ﴾ لمَّا لم يجد فيه طعنًا، مع أنه من أرباب اللسن والفصاحة ﴿عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه وكلح، واستكره كراهة شديدة ﴿وَبَسَرَ﴾ [المدثر: 22] اهتم وبالغ في وجدان القدح اهتمامًا بليغًا فلم يجد، وأيس ملومًا مخذولاً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دبر مرارًا فلم يجد ﴿أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان بعدما أشرف على الإقبال بالإيمان والقبول ﴿وَ﴾ ما حمله على الإدبار إلى أنه ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: 23] واستحيى عن اتِّباعه.

وبالجملة: ﴿فَقَالَ﴾ بعد اللتيا والتي: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24] أي: يُروى ويتعلم.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: 25 – 31].

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: القوى الكافرة إذا فكرت في حقيقة الوارد ما تنطق به اللطيفة المنذرة، وقدر في نفسه أن يؤمن بما نطقت اللطيفة،ثم فكرت في ترك اختيارها وتسليمها اللطيفة، وترك مشتهياتها قدرت تقدير أسو وأنكرت الآية البينة.

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25] ما هو من الوحي وكلام الله، كما ادَّعاه محمد ﷺ مفتريًا على الله.

رُوي أنه مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ، وهو يقرأ: حم السجدة، فسمعه بسمع الرضا متدربًا بأسلوبه، ثمّ أتى قومه فقال: لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من جنس كلام الإنسَ والجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، ثمّ خرج.

فقالت قريش: والله، قد صبأ الوليد، ولتصبون قريش كلهم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فجلس إلى جنبه حزينًا، فقال: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: هذه قريش يجمعون لك نفقة، يعينونك على كبر سنك، يزعمون أنك زيَّنت كلام محمد؛ لتنال من فضل طعامه.

فغضب الوليد فقال: لم تعلم قريش أني أكثرهم مالاً وولدًا، وهل يشبع محمد وأصحابه أن يكون لهم فضل؟! ثمّ قام مع أبي جهل حتى أتى قومه، فقال: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يتجنن قط؟ قالوا: اللهم لا، ثمّ قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن قط؟ قالوا: لا، ثمّ قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، ثمّ قال: تزعمون أنه كذَّاب، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: اللهم لا.

ثمّ سكت، قالت قريش: فما هو؟ فتكفر في نفسه، وقدر في نجواه، ثمّ قدر، فقال: ما هو إلَّا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله، وولده ومواليه، وما يقوله مفتريًا إلى ربه سحر يؤثر؟.

فقال تعالى زجرًا عليه، وجزاءً له: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ وادخله ﴿سَقَرَ﴾ [المدثر: 26].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا سَقَرُ﴾ [المدثر: 27] وما شأنها؟ أبهمها تفخيمًا وتهويلاً.

وغاية ما يدرك من شأنها: إنها ﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئًا يقع فيها، بل تهلكه ﴿وَ﴾ مع إهلاكه وإفنائه ﴿لَا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28] ولا تدع على هلاكه وفنائه، بل يوجده الله بكمال قدرته، ثمّ يهلكه، ثمّ يوجده فتهلكه أبدًا كذلك.

وأيضًا من شأنها: إنها ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ مسودة؛ من شدة إحراقها ﴿لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 29] أي: البشرة التي هي عبارة عن ظاهر الجلد.

وأيضًا من شأنها: إنها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] [المدثر: 30] أي: تسعة عشر من الزَّبانية الموكلة عليه بإذن الله، وهي من الملائكة أو شبيهة بهم.

إنما اختص هذا العدد؛ لأن الأعمال الفاسدة، والأفعال القبيحة الموجبة للدخول في سقر إنما يكتسب بالقوى البهيمية، والقوى الطبيعية، أمّا القوى البهيمية فاثني عشر: الشهوية، والغضبية، والحواس الظاهرة والباطنة، وأمّا القوى الطبيعية فسبع: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة.

وبالجملة: يصور السقر من مقتضيات هذه القوى، ويوكل عليها من زواجر الزَّبانية على عدد مأخذها عدلاً منه سبحانه؛ لينزجر كل من القوى بزاجر يناسبها.

ولمّا نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم بخبر ابن أبي كبشة، إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهم؛ أي: الشجعان، أتعجز كل عشر أن تبطش بواحد منهم؟!

وبعدما قالوا ما قالوا على سبيل التهكم أنزل سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ وخزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أقوياء، قوتهم لا تُقاس بالقوى البشرية، بل لا يقاوم جميع من على الأرض بواحد من الملك في القوة والصولة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي: عددهم المذكور ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ اختبارًا وابتلاءً؛ أي: سبب اختبار وافتتان لهم، يفتنون بهذا العدد، تارة يستقلون، وتارة يستبعدون ويتعجبون من مقاومة هؤلاء المعدودين بعموم العباد المستحقين لدخول السقر من الثقلين، وبالجملة: يستهزئون بهذا القول، ويضحكون منه، وإنما أنزلنا هذه الآية، وخصصنا هذا العدد وهؤلاء المعدودين ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: ليكتسبوا اليقين، ويجزموا بنبوة محمد ﷺ وبصدق القرآن وحقيته؛ لأن هذا ليس ببدع منّا في هذا الكتاب، بل أنزلنا كذلك في سائر كتبنا.

ولمّا وجدوه موافقًا لما في كتبهم تيقنوا بصدق القرآن ونبوة النبي ﷺ ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ على إيمانهم؛ أي: يرسخ إيمانهم، ويتأكد بتصديق أهل الكتاب كتابهم ونبيهم ﴿وَ﴾ بعدما استيقنوا واستقاموا على اليقين، وتمكنوا فيه ﴿لَا يَرْتَابَ﴾

(1) قال السمناني: من القوى العنصرية إذا ضربت أربعة في أربعة يحصل ستة عشر، وخاصية المعدنية والنباتية والحيوانية على هذه الستة تسعة عشر من قواها، وخواصها في صورها هائلة موكلة ليشعلوا نيرانها ويعذبوا فيها أبد الآباد.

ويشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [1] في حقية هذا الكتاب وهذا النبي المؤيد به ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وارتياب في حقية هذا الكتاب والنبي من أهل النفاق.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون الجازمون في التكذيب، المجاحدون بالإنكار صريحًا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا﴾ أي: أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب المستبعد، إلى حيث صار في الاستغراب والاستبعاد ﴿مَثَلاً﴾ سائرًا بين الناس يستعملونه ويتداولونه، مستبعدينه ومستهزئين ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما سمعت يا أكمل الرسل من استيقان البعض، واستنكار البعض الآخر بهذا العدد المذكور ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله من عباده، وأراد مقته وضلاله ﴿وَيَهْدِي﴾ بمقتضى لطفه وجماله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار والاستحقاق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: مظاهر لطفه وقهره، وجماله وجلاله ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو المستقل بالإحاطة والشمول، لا يعزب عنه شيء من الأصول والفروع؛ إذ لا سبيل للعباد إلى إحصاء أوصافه وأسمائه التي تترتب عليها مظاهره ومصنوعاته، ما للعباد ورب الأرباب ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ذكر السقر ووصفها، وعدة الخزنة عليها ﴿إِلَّا ذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكرة نازلة من قِبَل الحق ﴿لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31] المجبولين على العبرة والنظر، المكلفين بجلب النفع ودفع الضر، وبالحذر عن مقتضى القهر والجلال، والركون إلى مقتضى اللطف والجمال.

---

(1) البحر المديد (6 / 452): لأنَّ عدتهم تسعة عشر في الكتابَيْن فإذا سمعوا مثلها في القرآن تيقّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، وهو متعلق بالجعل المذكور، أي: جعلناهم كذلك ليكتسبوا اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم، وصِدْقِ القرآن، لموافقته لِما في كتبهم، (ويزداد الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (إيمانًا) لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا بسائر ما أُنزل، فيزيدون إيماناً مع إيمانهم الحاصل، أو: يزداد إيمانهم تيقُّناً؛ لما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم، (ولا يرتابَ الذي أوتوا الكتاب والمؤمنون)، تأكيد لِما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة ما، وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في الارتياب، حيث لم يقل: ولا يرتابوا؛ للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإنَّ انتفاء الارتياب عن أهل الكتاب مما ينافيه لِما فيه من الجحود، وعن المؤمنين لما يقتضيه من الإيمان، وكم بينهما؟ والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المُنبئة عن الحدث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ ﴾ [المدثر: 32 – 47].

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يتذكر بها هؤلاء الحمقى، إلّا من وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه ﴿وَ﴾ حق ﴿الْقَمَرِ﴾ [المدثر: 32] المنير.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ المظلم، وكيفية تصاريف القمر المضيء في ظلمة الليل، وانمحاء نوره ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: 33] أي: ولى وانصرف ذاهبًا؛ يعني بالقمر: نور الإيمان المشرق في الليل الذي هو عبارة عن ظلمة عالم الكون والفساد المترتب على التعينات العدمية الحاصلة من انعكاس شمس الذات.

﴿وَالصُّبْحِ﴾ الذي هو ظهور نور الوجود، وطلوع شمس الذات الأحدية التي انمحت وفنيت ﴿إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: 34] أي: أضاء وأشرق أظلال التعينات بالمرة، وانتثرت كواكب الهويات، وانطفأت شهب العكوس، واضمحلت مطلق الإضافات.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: سقر الطرد والحرمان، وسعير الزجر والخذلان، والخزنة المعدودين الموكلين عليها بقدرة الله ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: 35] أي: إحدى البلايا والمصيبات الكبار النازلة لأصحاب الضلال بمقتضى القهر الإلهي وجلاله.

وإنما أنزلنا في كتابه، وأخبرنا عنها؛ لتكون ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 36] ينذرهم ويحذرهم عن حر سقر.

﴿لِمَن شَاءَ﴾ وأراد سبحانه ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون المجبولون على الهداية والضلال ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ بالإيمان والأعمال الصالحة، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، فيهتدي بطريق النجاة منها ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 37] بالكفر، وارتكاب المناهي والمنكرات، وفعل المحرمات، فوقع فيها وازدجر.

وبالجملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ واقترفت ﴿رَهِينَةٌ﴾

[المدثر: 38] مرهونة مرتهنة عند الله بكسبها، فكسبها إن كان لأجل الدنيا وما يترتب عليها من اللذات والشهوات البهيمية، والوهمية والخيالية من الجاه والثروة، والاستكبار والاستعظام بالأموال والأولاد، ترتب عليها أنواع العقوبات والمصيبات، وإن كان لأجل الآخرة من الإيمان والإسلام، وصوالح الأعمال، وارتكاب المتاعب والمشاق في طريق الحق وتوحيده، ترتب عليه أصناف المثوبات، وأنواع الكرامات والدرجات العليّة، والمقامات السنيّة من اللذات الروحانية.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: 39] وهم الطائرون إلى الله، السائرون نحوه؛ لإفناء هوياتهم في هوية الحق، المنخلعون عن لوازم عالم الناسوت بالمرة، المتخلعون بخلع عالم اللاهوت.

والمتمكنون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ ومنتزهات موصوفة بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن كمال تمكنهم وتقررهم في مقر الوحدة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدثر: 40].

ويسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: 41].

على سبيل التعجب والاستبعاد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأدخلكم ﴿فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: 42] الإمكان، وجحيم الطرد والخذلان؟!

﴿قَالُوا﴾ أي: المجرمون في جوابهم متحسرين متأسفين: ﴿لَمْ نَكُ﴾ في دار الاختبار ونشأة الاعتبار ﴿مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: 43] المتوجهين نحو الحق في الأوقات المكتوبة علينا.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: 44] على مقتضى الأمر الإلهي عطفًا ولطفًا.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنَّا نَخُوضُ﴾ ونشرع في الباطل ونروجه، ونترك الحق ونهمله ﴿مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: 45] الشارعين المزوّرين، المروّجين عنادًا ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أعظم من الكل: إنا ﴿كُنَّا﴾ من نهاية جهلنا وغفلتنا ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: 46] أي: بوقوع الطامة الكبرى وقيام الساعة، مقتفين أثر الضالين المضلين، مستظهرين بالآلهة الباطلة، مغترين بشفاعتهم العاطلة لدي الحاجة، وبالجملة: كنّا

مصرين على ما كنّا عليه.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: 47] وحلّ علينا الأجل، وظهرت مقدماته، وانقرضت نشأة الاختبار.

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر: 48 – 56].

وبالجملة: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] حين أُخذوا بظلمهم، لو شفّعوا لهم جميعًا.

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ وأيّ شيء عرض لهم ولحق بهم، مع أنهم مجبولون على فطرة التوحيد واليقين، حتى صاروا ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ التي هي آيات القرآن المبيّنة لسرائر التوحيد والعرفان ﴿مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: 49] منصرفين على سبيل الإنكار والاستكبار.

وبالجملة: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في هذا الإعراض والنفرة المتفرعة لغاية السخافة، ونهاية البلادة ﴿حُمُرٌ﴾ هي مثل في البلادة المتناهية ﴿مُسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: 50] من شدة رعبها وخوفها.

سيما حين ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 51] أشد صائل عليها، شبّه نفرتهم عن التذكر بآيات القرآن حسدًا وحميةً جاهليةً بالحُمُر المستنفرة من الأسد، والجامع بينهما: البلادة المتناهية، بل هم أسوأ حالاً من الحُمُر؛ إذ الحُمُر فرت من العدو؛ خوفًا من ضرره، وهؤلاء فروا من الحق المشفِق، النافع لهم نفعًا صوريًا ومعنويًا، وما حملهم وأوقعهم على فتنة الاستنفار والاستنكاف إلّا حميتهم وغيرتهم الجاهلية، بأن لم يؤمنوا بما نزل على غيرهم.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى﴾ له من قِبَل الحق ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس مدونة

﴿مُنَشَّرَةً﴾[1] [المدثر: 52] تنشر وقت القراءة، ثمَّ تُطوى، كالصكوك والسجلات؛ لذلك قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلاً منّا بكتاب من السماء مكتوب فيها: من الله إلى فلان، اتَّبع محمدًا، فإنه نبي صادق.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردًا عليهم، وردعًا لهم عن الإعراض عن الإيمان والتذكر، لا عن امتناع المقترح، فإنه لا يستحيل على الله شيء، لو تعلق به مشيئتهم ﴿بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾[2] [المدثر: 53] ولم يؤمنوا لها؛ لذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف يتأتى لهم الإعراض عن التذكرة ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: 54] وأيّ تذكرة وتبصرة؟!

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: 55] أي: أيّ شيء اتعظ وتذكر به فقد هدى واهتدى إلى الله.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا يَذْكُرُونَ﴾ ويتذكرون به ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تذكّرهم وهدايتهم؛ إذ أفعال العباد كلها مستندة إليه سبحانه، مخلوقة له، وكيف لا يفوّض إلى مشيئته سبحانه عموم أمور العباد، مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته، ومقتضى أسمائه وصفاته ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾ وأحق من أن يتقى من انتقامه وقهره؛ إذ هو المقتدر على وجوه الانتقام ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] حقيق بأن يُرجى منه العفو والغفران، سيما على المتقين المستغفرين؛ إذ هو المقتدر بالاستقلال على عموم الإنعام والانتقام، والإكرام؟!

جعلنا الله من زمرة أهل التقوى والمغفرة بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد المحقق، المتحقق بسر سريان الوحدة الذاتية في عموم

---

(1) يعني: القوى القالبية والنفسية يريدون أن يرد عليهم الوارد كما يرد على القلب ليؤمنوا، ولا يعلمون أن ليس لهم طاقة سماع ما في الوارد على لسان اللطيفة المنذرة، فكيف يطيقون حمل قوة الوارد؟. [عين الحياة].

(2) هو التمني أيضًا يلقى الشيطان فيهم ليزداد لهم إنكار الآخرة، لا يتمنون الوارد أن يرد عليهم ليؤمنوا، بل يكذبون الوارد ووجود الآخرة ولا يخافون منها [عين الحياة].

المظاهر، وباستقلال الوجود في عموم الآثار الظاهرة في الأنفس والآفاق أن تذعن وتعرف أن جميع الأفعال الجارية في عالم الغيب والشهادة إنما هي مستندة إليه سبحانه، صادرة عنه أصالةً وفق الإرادة والاختيار، وإنما أظهرها سبحانه في مظاهر أسمائه، وملابس صفاته إظهارًا لكمال قدرته، ومتانة حكمته، وإحاطة علمه وإرادته، وعجائب صنعه وصنعته.

فلك أن تعتقدها على الوجه المذكور، وتجزم بها علمًا إلى أن يصير علمك عينًا، وعينك حقًا، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

وفقنا بما أنت تحب منّا وترضى يا مولانا.

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القيامة

لا يخفى على من تحقق في مقر التوحيد، وتمكن في مقر التجريد والتفريد أن عموم المظاهر والمجالي منقهرة تحت سلطنة الوحدة الذاتية، فانية فيها، مضمحلة دونها، وأن التعينات المحسوسات والهويات المترتبة الغير الموجودة، إنما هي أظلال أسمائه وعكوس أوصافه الذاتية المتفرعة على شئونه وتطوراته القبضية والبسطية المترتبة على التجليات الجمالية والجلالية.

وبعدما انكشف الأمر على هذا المنوال ثبت أن الكل برزوا لله الواحد القهار، الكبير المتعال.

ثمّ لمّا أراد سبحانه أن ينبه عباده على ظهور هذه الحالة، وبروز هذه الواقعة الموعودة في النشأة الأخرى، أشار سبحانه إلى وقوعها وقيامها على وجه المبالغة والتأكيد من طريق مخصوص من طرائق التوكيد، وأردفها بالإشارة إلى النفس اللوامة المعينة على تصديقها، وتهيئة ما يناسبها من الأخلاق والأعمال أيضًا على وجهها من المبالغة والتأكيد، فقال سبحانه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي استغنى عن عموم مظاهره ومصنوعاته بمقتضى ذاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإظهارها حسب آثار أسمائه وصفاته في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها حسب انقهار الكل في وحدة ذاته، وإفنائه في هويته الذاتية في النشأة الأخرى.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ
﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا
لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: 1-15].

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 1] أي: بوقوع الطامة الكبرى وثبوتها وقيامها؛ إذ هي من غاية ظهورها وجلائها غنية عن أن يؤكَّد أمر وقوعها وقيامها بالقسم عند العارف المحقق المتحقق بمقام التوحيد واليقين.

﴿وَلَا أُقْسِمُ﴾ أيضًا ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] [القيامة: 2] أي: وكذا لا حاجة إلى القسم بظهور النفس اللوامة في عالم الكون والفساد؛ إذ كل نفس من النفوس الكائنة تعلم أن العالم ما هو إلَّا سراب باطل وعكس زائل عاطل، لا قرار له، ولا مدار لها فيه، وتلوم دائمًا نفسها عليها، إلَّا أنها لا تتنبه على سلطنة الوحدة، ولا تتفطن بسرايتها واستيلائها على عموم ما ظهر وبطن، وغاب وشهد، حتى تصير لوَّامة، مطمئنة راضية، وراضيته مرضية، ومرضيته فقيرة، وفقيرته فانية، وفانيته باقية، وليس وراء ذلك مرمى ومنتهى.

أدركنا بلطفك الخفي يا خفي الألطاف.

ثمَّ التفت سبحانه نحو حقيقة الإنسان المجبول نحو فطرة العرفان حسب حصة لاهوته، ووبَّخه بما وبَّخه تشنيعًا وتقريعًا، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويظن ﴿الْإِنسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: 3] أي: إنَّا لا نقدر مع كمال قدرتنا على إبدائه وإبداعه على إعادته، وجمع عظامه مرة بعد أخرى في يوم البعث والجزاء؟!

﴿بَلَى﴾ أي: نحن نقدر على إعادته، وجمع عظامه؛ وتسوية جميع أعضائه على الوجه الذي كان، بل ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 4] أي: سلاميه على وجهها، خص بالذكر؛ لأن جميع أجزائها أصعب من سائر الجسد؛ لاشتمالها على دقائق العظام ورقائق العروق والأعصاب، والغضاريف والرباطات المعينة على القبض

(1) قال علاء الدولة: أي: أقسم بهما والسر الذي قرنهما أن كل من وصل إلى قيامته اليوم تصير نفسه الأمارة لوامة، بحيث تلوم صاحبها في كل حركة وسكون يصدر منه على خلاف أمر الحق، ولا تحسب أن القيامة بعيده عنك، بل لو كشف الغطاء غطاؤك لشاهدت القيامة أقرب إليك من شراك نعلك، ولوامتها دالة على ظهور نور القيامة في باطنك، وهذه الملامة تنفع لصاحبها ما دامت معها آلات الكسب لتعتذر وتتوب إلى الله، فأما بعد نزع الآلة عنها لا تنفع ملامتها إلا ندامة وحسرة وعذابًا، والنفس المؤمنة اللوامة تلوم صاحبها في الدنيا، والنفس الكافرة اللوامة تلوم صاحبها في العقبى.

والبسط، والأخذ والبطش، ولصعوبة الاطلاع على أجزائها عجز الأطباء عن تشريحها؛ يعني: إنّا نقدر على جمعها مع صعوبتها، فكيف نجمع غيرها؟!

﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ﴾ المركّب من الجهل والنسيان بظنه وحسبانه ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: 5] أي: يدوم ويمضي دائمًا على الفجور والفسوق، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية فيما يستقبله من الزمان، كما كان عليها فيما مضى.

لذلك ﴿يَسْأَلُ﴾ سؤال إنكار واستبعاد: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يقوم، وأيّ آن يقع ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 6] التي تبلى السرائر، وتكشف الستائر فيها؟.

بيّن لي أيها المدعي وقت وقوعه؛ حتى أكف وأمنع نفسي عن الفجور، وأتوب عنها يقينًا وثقةً، إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء والتهكم.

وكيف يستهزئ ويصر على الإنكار ذلك المستهزئ المسرف المصر؟! ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ وتحير ﴿الْبَصَرُ﴾ [القيامة: 7] أي: حاسة عالم الناسوت وجاسوسه حين ظهرت طلائع عالم اللاهوت فزعًا وهولاً، ودهشًا مما يرى من العجائب والغرائب الموعودة التي كان ينكر ويكذِّب بها في دار الدنيا وبقعة الإمكان.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿خَسَفَ الْقَمَرُ﴾ [القيامة: 8] أي: ذهب ضوء الوجود الإضافي المستعار، وانمحى نوره، وأشرف على الأفول في أفق العدم.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ﴾ أي: ظهر نور الوجود المطلق المستغني عن عموم المظاهر والمجالي ﴿وَالْقَمَرُ﴾[1] [القيامة: 9] أي: اندرج ضوء الوجود الإضافي المنعكس منها، واندمج فيها، ولم يبق له كون ولا لون، ولا بين ولا بون.

وبعد رجوع الكل إليها، وانطماسها فيها، وانقهارها دونها ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ﴾ المنعزل عن اليقين والعرفان ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ [القيامة: 10] والملجأ؛ حتى أفر إليه، وألجأ نحوه؟.

(1) قال علاء الدولة: أي: جمع شمس روحه وقمر قلبه في عالم نفسه؛ ليرى بضوء شمس روحه أن هؤلاء أعد الله تعالى للقوى العلوية المستكبرة الروحانية التابعة للهوى القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد الأغلال والإنكار التي كسبتها القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد السالك في أثناء سلوكه، فينبغي أن يتيقن بأنه من علامات القيامة التي قامت بالموت الاختياري.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يكون له حينئذٍ ملجأ ومقر في الوجود حتى يطلبه؛ إذ ﴿لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11] أي: لا حصن ولا ملجأ، ولا حرز ولا مخلِّص له يومئذٍ، بل في عموم الأوقات والأزمان عند العارف غير الحق؛ إذ لا شيء في الوجود سواه.

فثبت أنه ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وإلى كنف حفظه وجواره ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12] أي: لا مقر حينئذٍ لعموم العباد إلَّا عنده سبحانه، ولا مرجع لهم سواه.

وبعد رجوع الكل إليه سبحانه، وحضوره دونه ﴿يُنَبَّأُ﴾ ويخبر ﴿الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من الأعمال الصالحة، وأتى بها ﴿وَ﴾ بما ﴿أَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] منها، ولم يأت بها وتركها، بل أتى بأضدادها على التفصيل بلا فوت شيء منها.

﴿بَلِ﴾ لا حاجة حينئذٍ إلى الإنباء والإخبار بما صدر عنه؛ إذ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ له حينئذٍ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ وبما صدر عنه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14] كاملة وبيّنة، واضحة موضحة؛ إذ يشهد له وعليه حينئذٍ جوارحه وآلاته التي اقترف بها ما اقترف من الحسنات والسيئات.

بحيث ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 15] أي: جميع ما يعتذر به من الأعذار الكاذبة، لم يسمع مع حضور الشهود والعدول التي هي أعضاؤه وجوارحه، بل يعامل معه بمقتضى ما يحاسب عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: 16-25].

ثمَّ لمَّا استعجل رسول الله ﷺ، وبادر بالتقاط الوحي من فيّ جبريل عليه السلام، إلى حيث سبق عليه بالتلفظ خوفًا من أن ينفلت منه شيء، نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن ذلك تأديبًا وإرشادًا فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ حين التقاطك من حامل الوحي؛ يعني: جبريل عليه السلام، قبل أن يتم وحيُه وإلقاؤه لك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16] أي: لتأخذه على عجلة خوفًا من إفلاته عنك.

لا تخف ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في خاطرك وضميرك ﴿وَ﴾ أيضًا علينا بعد جمعنا ﴿قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] وقراءته على لسانك على وجهه بلا فوت شيء منه، لا تتعب نفسك بالعجلة، ولا تستعجل بالالتفاظ قبل الالتمام.

وبعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل فأجر عليه، واذكر ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: القرآن حين الوحي بلسان جبريل عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18] أي: تذكر وتتبع قراءته.

﴿ثُمَّ﴾ تتبع تلاوته وتكرر حتى ينتقش في صحيفة خاطرك، ويترشّح في ذهنك، ثمّ أجر على لسانك مرارًا كذلك، ثمّ إن بقي لك شك وتردد في معناه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] أي: تبيينه وتوضيحه لك، وإزالة ترددك إشكالك عنه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لرسوله ﷺ، وكفًا لعموم عباده عن العجلة في جميع الأمور مبالغةً وتأكيدًا؛ لأن الإنسان مجبول على الاستعجال، مطبوع عليه؛ لذلك بالغ سبحانه في النهي عنه، وأردف بهذا النهي حسب العاجل والآجل، فقال على سبيل الإضراب: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: 21.20] يعني: إن بني آدم كلهم مجبولون على العجلة؛ لذلك يحبون ويختارون اللذة العاجلة الدنيوية مع سرعة انقضائها وزوالها، على اللذة الآجلة الأخروية مع بقائها ودوامها، وعدم انقضائها أصلاً، ويتركون الأعمال المقتضية لها.

لذلك ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم قيام الساعة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] طريّة بهيّة مشرقة، يتلألأ منها أنوار اليقين والعرفان، وآثار الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، وهي وجوه أرباب العناية الموفّقين على صلاح الدارين، وفلاح النشأتين.

لذلك حينئذٍ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] [القيامة: 23] وبمطالعة لقائه مشرفة مسرورة.

(1) قال علاء الدولة: بلا حجاب كلما ينظر إلى وجه نضارة وجه الناظر وقرارة عينه وحق لها تنظر وتقر، وكلما تزيد نضاره الوجه وقرارة العين يتنعم بمشاهدة جمال وجه الرب أكثر من الأول؛ لأن حسن جماله بلا نهاية، والناظر بقدر قرارة عينه يقدر أن يشاهد ذلك الجمال، فكلما يزداد قربه يزداد حسن جماله في نظره ولأجل هذا لا يستريح الواصلون من العمل بعد وصولهم إلى الأصل و﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:61]، وعلى هذه المشاهدة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:26] فعلامة الواصل إلى هذا المقام في الدنيا زيادة عطشه عند شرب

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أُخر ﴿يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: 24] عبوسة كلوحة، متغيرة مسودة.

بحيث ﴿تَظُنُّ﴾ بل يجزم كلُّ من نظر إليها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ ويعرض عليها ﴿فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: 25] داهية شديدة، ومصيبة عظيمة تكسر فقار ظهرها من هولها وشدتها.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة: 26-40].

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف تحبون وتختارون اللذة الفانية العاجلة على الباقية الآجلة؟! أمَا تتذكرون ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، وعزمت على التوديع والخروج ﴿التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: 26] أي: عالم الصدر قريب المخرج؟!

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذٍ في حقه؛ أي: الملائكة الموكلون على الموت، مستفهمين فيما بينهم على سبيل المشورة: ﴿مَنْ﴾ هو ﴿رَاقٍ﴾ [القيامة: 27] منّا، قابض روحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿ظَنَّ﴾ بل جزم المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: 28] والافتراق عن الدنيا، وما فيها من عموم اللذات والشهوات المحبوبة فيها.

﴿وَ﴾ بعدما جزم بفراق الأحبة ﴿الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: 29] أي: التولت ساقه بساقه من كمال ضجرته وأسفه، فلا يقدر حركتها وتحريكها.

ماء مشاهدته، فكلّما يزداد عطشه إلى الأبد الآباد، وسر هذا الحرف يتعلق بحد القرآن، فاجتهد في أن تصل إلى هذه الكرامة العظيمة في الدنيا؛ لأن استيفاء حظك منها مع الآلات والأدوات يزيد نفعًا فما يرى بعد نزع الآلات والأدوات.

وبالجملة: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 30][1] أي: سوقه إليه، ورجوعه نحوه، وحكمه عنده، وحسابه عليه.

وبالجملة: إذا سُئل الإنسان حينئذٍ عمّا أُمر له ونهي عنه في النشأة الأولى، كيف يجيب، مع أنه ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ على من أُمر بتصديقه، ولا قَبِل منه ما هو صلاحه في دينه ﴿وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: 31] ومال إلى الله في الأوقات المكتوبة المقدَّرة للتوجه والرجوع نحوه سبحانه؟!

﴿وَلَكِن﴾ عكس الأمر؛ إذ ﴿كَذَّبَ﴾ على من أُمر بتصديقه ﴿وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: 32] أي: انصرف وأعرض عن الطاعات المأمورة به.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انصرافه وإعراضه عن المرشد الدّاعي ﴿ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: 33] يتبختر فرحانًا مسرورًا، مباهيًا بفعلته، مفتخرًا بشأنه.

قيل له حينئذٍ من قِبَل الحق مخاطبًا إياه بالويل والهلاك؛ بسبب فعله هذا ومباهاته: ﴿أَوْلَى﴾ وأليق ﴿لَكَ﴾ وبحالك في شأنك هذا الويل والهلاك ﴿فَأَوْلَى﴾ [القيامة: 34] لك وبحالك الويل والهلاك.

﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ﴾ كذلك ﴿فَأَوْلَى﴾ [القيامة: 35] لك كذلك تأكيدًا على ذلك، وتشديدًا على عذابك، ووخامة حالك ومآلك، أيها المسرف المفرط، المباهي بالإعراض والانصراف عن الإيمان والطاعات؛ المراد منه: أبو جهل، عليه اللعنة.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ المصرّ على الكفران والطغيان ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36] مهملاً لا يكلف، ولا يحاسب بعد التكليف، ولا يجازى ولا يعاقب على أفعاله، مع أنه إنما جُبل على فطرة التكليف والمعرفة، وبمقتضى حسبانه هذا أنكر البعث والجزاء، وخرج عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة عليه في نشأة الاختبار، مصرًا على كفره وكفرانه؟!

ومن أين يتأتى له الخروج عن ربقة العبودية ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ مهينة مرذولة، حاصلة ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾ مهين مرذول ﴿يُمْنَى﴾ [القيامة: 37] ويصب في الرحم المرذول؟!

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ قذرة في الرحم، كسائر الأقذار ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: قدّر سبحانه

(1) إلى الله وإلى حكمه يُساق، لا إلى غيره، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، وهو مصدر: ساقه مساقًا.

أعضاءه وجوارحه منها، وبعدما قدَّره وصوَّره ﴿فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: 38] أي: عَدَله وقوَّمه سبحانه بحوله وقوته، فصار جسدًا ذا حس وحركة، وقوَّاه فأقامه.

﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق بكمال قدرته، ومتانة حكمته وصنعته لمصلحة التناسل والتكاثر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من ماء الإنسان ونطفته ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: 39] تتميمًا للحكمة البالغة المتقنة.

ثمَّ قال سبحانه موبخًا مقرعًا على وجه الاستبعاد عن كفران الإنسان، وإصراره على إنكار البعث والحشر، وإعادة الأموات أحياءً كما كان: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ القادر المقتدر الذي قدر على خلق هذه الصور المهينة الخبيثة وتبديلها، صوّرها عجيبة بديعة، قابلة لفيضان أنواع الكمالات، لائقة للخلافة والنيابة الإلهية ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[1] [القيامة: 40] مرة بعد أخرى، مع أن الإعادة أهون من الإبداء؟!

بلى، لك الإعادة والإبداء أيها القادر المقتدر على خلق الأشياء، أنت تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا تُسأل عن فعلك، إنك حميد مجيد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بحيطة الحق وشموله، واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وجبروته ولاهوته أن تعتقد أن قدرته الكاملة لا يعتريها كلال، ولا يعرضها فطرة ولا زوال، بل له أن يظهر ويوجد بمقتضى قدرته جميع ما ثبت وتحقق في حضرة علمه، ولوح قضائه من الصور البديعة التي لا يخطر ببالك مطلقًا، فله أن يكون ويوجد من كل ذرة عوالم ما شاء الله، وكذا يدرج العوالم الغير المحصورة في كل ذرة من

(1) قال علاء الدولة: أليس الذي عمل هذه الأعمال في نطفة، وخلق صاحب النطفة بإرادته كما شاء مما يشاء يقدر أن يحي القوى الميتة القالبية والنفسية غير المدركة بنتائجها الباقية وبما كسبت من الآلام الدائمة، بلى قادر على أن يحي الموتى في الدنيا قبل نزع الآلات والأدوات منها لتعذر عن السيئات، وتتوب إلى خالق السماوات والأرض، وتحي بعد نزع الآلات حياة طيبة أبد الآباد، وقادر على أن يحي الموتى العقبى بعد نزع الاستعدادات لتشقى في الآخرة أبد الآباد ونحدد على ذلك؛ لأنا شاهدنا في أنفسنا وفي أنفس غيرنا مما أرسلهم الله إلينا لنداويهم فداويناهم وأحياهم الله تعالى، وشاهدوا كل الذي كتب في هذه السورة مشاهدة إيقان عيان عن غير ظن وحسبان، وصار إيمانهم الغيبي الذي يخبر الله عنهم في كلامه بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:3] إيمانًا شهوديًا وعيانيًا ذوقيًا أظهر من فلق الصبح.

ذرائر الكائنات.

وبالجملة: من وصل إلى سعة قلب الإنسان، وساحة صدره ظهر عنده أنه لا يمتنع، ولا يستحيل في جنب قدرته سبحانه وإرادته شيء من مقدوراته ومراداته مطلقًا.

فهيهات هيهات لو نظرت إلى أجزاء العالم بنظر العبرة والاستبصار، بل إلى نفسك ورقائق أعضائك وجوارحك، ودفعت الألفة والعادة عن البين، لرأيت من كل شيء وفي كل ذرة من ذرائر العالم عجائب وغرائب، لا تُعدّ ولا تُحصى.

غاية ما في الباب: إن ألفك حجبك عن هذا الإدراك، وعادتك عاقتك عن رؤية البدائع الإلهية، ولو تنوّر بصر بصيرتك، ونظر سرك وسريرتك بكحل الاستبصار والاعتبار، لرأيت من عجائب قدرة الله، وبدائع صنعه وحكمته في كل طرفة ولمحة ما بجنبه أمر الحشر والنشر، وإعادة الأموات أحياء سهل يسير.

حققنا بحقيتك وقيوميتك يا ذا القوة المتين.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الإنسان

لا يخفى على من انكشف بحقيقة الإنسان، وكيفية تطوراته المتلونة، وشئونه المترقية من الخباثة والخساسة إلى أنواع النجابة والكرامة حتى وصل إلى رتبة الخلافة والنيابة الإلهية أن مبنى ترقيه وتدلِّيه من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب، إنما هي بالتربية الإلهية، وتكريمه بمقتضى تجليه عليه بعموم أسمائه الكاملة، وأوصافه الشاملة؛ ليرشده إلى وحدة ذاته، ويخلقه بأخلاقه وأوصافه.

ولاشك أن تربية الدُّنى المرذولة إنما هي بتغيير الخصلة المذمومة، وتبديل الديدنة المستهجنة، وذلك لا يتيسر إلَّا بوضع التكاليف، وتحميل المتاعب والمشاق القالعة المصفية لأقذار الطبائع، وأكدار الهيولي اللازمة للقوى البشرية، وأيضًا بتلميظ المعارف والحقائق المشوقة إلى اللذات الروحانية، والمكاشفات اللدنية المخلصة عن الرسوم العادية مطلقًا؛ لذلك أشار سبحانه في هذه السورة العظيمة الشأن إلى أحوال الإنسان، وكيفية ترقيه من شأن إلى شأن إلى أن وصل إلى ما وصل من الهداية والعرفان، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بمقتضى عموم أسمائه الحسنى، وصفاته العليا في مظهر الإنسان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بأنواع التربية والإحسان حتى أوصله وهداه إلى طريق الإيمان والعرفان ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يوصله إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: 1-6].

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي: قد سبق ومضى ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ المصوَّر بصورة الرحمن

﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: شأن محدود من الشئون الغير المحدودة الإلهية، بحيث ﴿لَمْ يَكُن﴾ الإنسان فيه ﴿شَيْئًا﴾ إذ العدم ليس بشيء، فكيف كان ﴿مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] ؟!(1)

---

(1) قال سيدنا البيطار: اعلم - رحمك الله - أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:1، 2]، للإنسان قبل خلق الإنسان ثم ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:3، 4]، والقرآن الجامع لكتاب الوجود الإلهي خلق رسول الله ﷺ الموصوف بالعظمة الإلهية، فتعليم القرآن له هو تجلي الأحدية، وفي هذا التجلي لم يكن شيئًا مذكورًا مع الأحدية الغنية بأحدية ذاتها عن العالمين، وإتيان الحين من الدهر عبارة عن انفراد الأحدية بذاتها لذاتها بتجلي أحدي هو عين ذاتها، واندراج كل شيء بتلك الأحدية عبر عنه بتعليم الرحمن القرآن وبأحسن تقويم، وخلق الإنسان هو الرد، أي: التنزل من أسفل سافلين؛ لأن الصورة الإنسانية وفق كمال الوجود مفتاحًا ومغلاقًا، وهذا المعنى هو مراد سيدي عبد السلام بن شيش ﷺ بقوله: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار.. إلى آخر ما قال. وقال فرد زمانه وغوث أوانه سيدي محمد وفا قدس الله سره: قلب القطب هو اسم الأعظم، ووجه ذاته الأكرم الذي قام به الخلق والأمر وعليه مدار السر والجهر، وكل قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابعه كقلب واحد، فهم ألسنته الناطقة، وكلماته الصادقة وأقلامه الفاتقة والراتقة، ولو برز جامع عالم القدرة يفسد نظام عالم الحكمة، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] انتهى كلامه، واعلم - رحمك الله - أن القطب مظهر الأخلاق المحمدية بحسب استعداده واستعداد وقته وزمانه، فهو في كل زمان مظهر محمدي كامل؛ لأن خلق رسول الله ﷺ هو القرآن، والقطب مظهر ذلك الخلق الذي هو القرآن، وأما قلب القطب الذي قال عنه سيدي محمد وفا بأنه اسم الله الأعظم ووجه ذاته الأكرم، فهو السراج المنير الذي هو قلب القرآن يس، وهو النور المحمدي الذي هو الحقيقة الإنسانية المحمدية التي علم الرحمن: أي: تجلي الرحمن على تلك الحقيقة بكنه ذاته التي هي مدلول جميع ما في القرآن قبل خلق صورة الإنسان، فهي غيب القطب، والقطب الذي هو المظهر المحمدي الكامل في وقته هو شهادة ذلك الغيب، وذلك الغيب هو الإنسان الذي ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان الله، ولم يكن شيء، والشيء المذكور هو المظهر، وفي حضرة الأحدية لا يمتاز مظهر عن مظهر، قال الشيخ الأكبر ﷺ بلسان تلك الحضرة:

وسوانا ما تم أين الظهور ... لو ظهرنا للشيء كان سوانا

واعلم أن القطب هو فجر الشهادة لليالي الغيب العشر الخمسة بشرية والخمسة ملكية وتلك الليالي العشر محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر المذكور في آية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:38] وقد أخبر القطب

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا بمقتضى كمال قدرتنا وإرادتنا، ووفور حكمتنا ﴿خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ وقدّرنا وجوده بعدما أخرجناه من العدم الصرف نحو فضاء البروز، وصوّرناه بصور العناصر ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة مرذولة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ مختلطة مجتمعة من الذكر والأنثى، وبعدما صوّرناه هيكلاً سويًا، وأودعنا فيه ما أودعنا من الروح وسميناه إنسانًا ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره ونجرّبه، هل يتفطن إلى موجده ومظهره، أم لا؟.

وكيف لا نختبره ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ لحكمة الاختبار، ومصلحة الاعتبار ﴿سَمِيعًا﴾ متمكنًا قادرًا على استماع آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2] مقتدرًا على مشاهدة بدائع صنعنا، وغرائب صنعتنا، وعجائب حكمتنا؛ ليكون معتبرًا منها، متوجهًا إلى فاعلها.

ومع إعطاء تلك الكرامات العظيمة إياه ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: أودعنا فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الذي هو حضرة علمنا، وبواسطته هديناه إلينا سبيلاً بأن أرسلنا الرسل المنبّهين عليه، الموقظين له من نعاس النسيان، المنهين له إلى ما أودعنا فيه من الوديعة البديعة، وأيدناهم بالآيات المبيّنة المنبّهة، النازلة من لدنا، والبينات الواضحة الموضحة لطريق توحيدنا، وسبيل شهودنا، وبعدما وضح الحق، واتضح السبيل على الوجه الأبلغ الأكمل.

فعليه الاختيار ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ أي: إمّا أن يكون شاكرًا مشتغلاً بشكر النعم، مواظبًا على أداء حقوق الكرم، صارفًا عنان عزمه واختياره إلى صوب الهداية والرشاد حتى يكون من أرباب العناية والسداد، المتنعمين في جنة الرضا والتسليم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3] للنعم، كافرًا لمنعمها، مقتفيًا أثر أصحاب الغفلة والعناد، واللدد والفساد

سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ أنه كان يقوم في أبحر عشرة، وهي العشرة التي ذكرناها، وقال أبو الحسن الشاذلي: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاها أو شيئًا منها فليبرز أن يمد بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الموجودين، وانفصال الأول عن الأولى، وما اتصل عنه إلى منتهاه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وحكم ما بعد وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو: العلم المحيط بكل علم، وبكل معلوم بدءً من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه. انتهى كلامه ﷺ. ولا يخفى أن طلسم هذا الكنز لا يحله إلا من تحقق بما تحقق به أبو الحسن الشاذلي ﷺ.

حتى يكون من أصحاب الجحيم.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيَّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق المشرقة، الظاهرة على صفائح ذرائر الكائنات؛ لذلك خرجوا عن ربقة ربقيته، وعروة عبوديته، وأعرضوا عن مقتضى حدوده الموضوعة بين عباده ﴿سَلَاسِلَ﴾ أي: سلاسل الحرص وطول الأمل، يُقادون ويُسحبون بها نحو نيران الإمكان، وجحيم الطرد والحرمان بأنواع الخيبة والخسران ﴿وَأَغْلَالًا﴾ أي: أغلال الأماني والشهوات، يُقيَّدون بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4] مسعرًا مملوءًا بنيران الافتقار والاحتياج، والأماني والآمال، يُطرحون فيها طول دهرهم بأنواع الخذلان والهوان أبدًا، ويُسجنون خالدين مخلدين.

ثمَّ أردف سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الأخيار، البارين المبرورين ذوي الأيدي والأبصار، المستغرقين في بحار المعارف والأسرار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ لدى الملك الجبار خمور الشهود والاعتبار ﴿مِن كَأْسٍ﴾ أي: من كؤوس ذرائر العالم المستعار؛ ولذلك ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما يمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا﴾[1] [الإنسان: 5] هو برد اليقين.

يعني: ﴿عَيْنًا﴾ معينًا هي ينبوع بحر الوجود ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ومنها ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ الواصلون إلى عالم اللاهوت، والفانون في فضاء الجبروت، الباقون ببقاء حضرة الرحموت؛ لذلك ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ ويجرونها ﴿تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: 6] وإجراءً حيث شاءوا.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن الشاكرين نعمنا يشربون من كأس استعدادهم التي كان مزاجها كافورًا؛ يعني: طينة الكأس ممن وجه بكافور الجمال صورة والجلال معنى، والمسك جلالي في الصورة والكافور جمالي في الصورة، وفي بيان هذه السر لطيفة، لو لجت بها لاستباح العوام سفكُ دم، وإن كان من بطن القرآن فطويت صحيفتها.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: 7-14].

وصاروا من كمال وصولهم واتصالهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويوفرون على المنذور ﴿وَ﴾ كيف لا يوفون أولئك الموفون، مع أنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وأيّ يوم، يومًا ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 7] طائرًا منتشرًا بين عموم العباد؟!

﴿وَ﴾ من كمال استغراقهم بمطالعة وجهه الكريم ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: الرزق الصوري والمعنوي، المسوق لهم من عنده سبحانه تقويةً وتقويمًا، ترحيبًا وتكريمًا ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿مِسْكِينًا﴾ أسكنه الفقر، وأزعجه إلى المعاونة والسؤال ﴿وَيَتِيمًا﴾ أدركه الذل، وأحوجه إلى الافتقار ﴿وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8] أذلّه الصغار والهوان، وأفقره إلى الرعاية والترحم.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الحسن والحسين - سلام الله وصلواته على جدهما ووالديهما وعليهما - مرضا مرضًا هائلاً فعادهما رسول الله ﷺ في ناس، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة - على النبي وعليهما وابنيهما الصلاة والسلام - وفضة جارية لفاطمة صوم ثلاثة أيام إن برئا، ثمّ لمّا برئا صاموا وما معهم شيء، واستقرض عليّ من شمعون الخيبري ثلاثة آصع من الشعير، فطحنت فاطمة صاعًا، وخبزت خمسة أقراص على عدد رءوسهم، فوضعوا بين أيديهم ليفطروا، فجاء على الباب مسكين، فأعطوا له وآثروه على أنفسهم، وباتوا ولم يذوقوا إلّا المّاء، وأصبحوا صيامًا.

فلمّا أمسوا فعلوا كذلك، فألمّ عليهم يتيم فآثروه كذلك، فأصبحوا صيامًا، ففعلوا في اليوم الثالث مثل ذلك، فجاء أسير، فأعطوه فباتوا بلا طعام، فنزل جبريل بهذه الآية فقال: هنأك الله في أهل بيتك يا نبي الله.

ثمّ لمّا أضمروا في نفوسهم ومناجاتهم حين صدور هذا الإحسان عنهم طلب مرضاة الله، وتثبيتًا لهم على دينه وطاعته، وتشويقًا منهم إلى لقائه، نزل في حقهم على وفق ما نووا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ أي: ما نطعمكم أيها المحتاجون إلّا ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ الكريم، وطلبًا لمرضاته؛ إذ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ ليصير عوضًا؛ لإطعامنا لوجه الله الكريم ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9] ما لنا من الشكر والجزاء أمر.

وكيف يتأتى منًا طلب الشكر والجزاء؛ إذ قدرتنا على إطعامكم إنما هي بإقدار الله إيانا، وإعطاؤنا إنما هي من عطاياه؟! وبالجملة: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ بطلب الأجر والجزاء ﴿مِن﴾ غضب ﴿رَّبِّنَا﴾ بنا ﴿يَوْمًا﴾ وأيّ يوم، يومًا ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه مطلق الوجوه من شدة هوله، بل صارت ﴿قَمْطَرِيرًا﴾[1] [الإنسان: 10] في غاية الشدة والعبوسة، سيما على أهل الرياء والسمعة، الطامعين بصدقاتهم الذكر الجميل، والثناء الجزيل، مع أنهم إنما يعطون من مال الله لعيال الله.

وبعدما أخلصوا لله، وخافوا من عذابه ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ الحكيم الحفيظ ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: فرفع عنهم شره، وأبدله لهم خيرًا ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي: لقى لهم يومهم ﴿نَضْرَةً﴾ طراوة وصفاء في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11] وبهجة في قلوبهم.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا ما فعلوا خالصًا لوجه الله ﴿جَزَاهُم﴾ سبحانه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وحبسوا نفوسهم عن مشتهيات المنهيات والمحرمات، وعلى أداء الواجبات، وإيثار الأموال والأرزاق المسوق نحوهم؛ لطلب المرضاة ﴿جَنَّةً﴾ مصورة من صالحات أعمالهم وحالاتهم ومقاماتهم، يتلذذون فيها باللذات الروحانية أبد الآباد ﴿وَ﴾ يلبسون فيها ﴿حَرِيرًا﴾ [الإنسان: 12] متخذًا من حلل الأسماء والصفات التي لا يتصور فيها الحول والخشونة أصلاً.

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني: مستظهرين فيها بالألطاف الإلهية، مستظلين بكنف حفظه وجواره، بحيث ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: حرارتها المؤذية لهم ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: 13] أي: البرودة المضرة، بل تعتدل فيها الهواء والأهواء؛ لتعديلهم الأخلاق والأعمال والأحوال.

﴿وَ﴾ ليس ظلال الجنة بعيدة عنهم، بل كانت ﴿دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ الموعودة لهم من قِبَل الحق ﴿وَ﴾ لهم فيها ثمار متجددة، متلونة من أنواع المعارف والحقائق اللدنية المترتبة على أشجار الأسماء والصفات الإلهية التي اتصفوا بها، وتخلقوا

---

(1) قال السمناني: إنا نخاف من اللطيفة الربوبية السكينة في قالبنا يومًا أظلم فيه شمس الروح، وقمر القلب وكوكب الحواس، ونجوم القوى فصار يومًا عبوسًا على صاحبه، وهذا يشاهد وقت تقرر ذكر الرب عن القلب الغافل عن الرب، وفي ذكر القمطرير شدة الكرب، وهو عند تقرر القلب السليم عن الذكر الذي يجري على لسان ملوث بالغيبة، والكذب والفحش، ومما لا يعنيه.

بمقتضاها، ولا تكون تلك الأشجار وأثمارها، وأغصانها الكثيرة بعيدة آبية عنهم بعدما اتصفوا بها، بل ﴿ذُلِّلَتْ﴾ وسخرت ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها لهم ﴿تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: 14] بحيث متى أرادوا تلذذوا بها بلا تردد؛ إذ كمالاتهم كلها حينئذٍ بالفعل بلا انتظار لهم إياها، وترقب لها.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (18) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (22) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (23)﴾ [الإنسان: 15-23].

﴿وَ﴾ لتكميل ترفههم وتنعمهم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ﴾ متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: من فضة عقائدهم الصافية البيضاء، الشفافة الخالصة عن مطلق الكدورات ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أباريق وكيزان لا عروة من شدة صفائها وجلائها، كأنها ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ [الإنسان: 15] في الرقة.

وأية قوارير ﴿قَوَارِيرَ﴾ متخذة ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ من غاية صفائها وشفافها لا يُرى لها لون ولا كون، بحيث اشتبه أمرها عند الرائي؛ لذلك ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[1] [الإنسان: 16] بمقتضى ما راعوا في الاعتدال في الأطوار والأخلاق.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ هؤلاء المقربون ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الأواني والأكواب ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا من خمور المحبة والمودة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: 17] أي: كالزنجبيل في المساغ وسرعة الانحدار.

---

(1) قال السمناني: يعني: يطاف عليهم قواهم المطهر بآنية نياتهم الثابتة، مثل القصعة في الصلابة وأكواب استعدادهم الوسيعة الصافية، مثل الزجاج وشبهه بالزجاج؛ لأن الزجاج يخرج من الحجر، ويشعل النار تحته؛ لتحرق أجزاء الباطلة الكثيفة، كما كان حال القالب فهو مثل الحجر، فينبغي أن يشعل صاحبه نار الذكر؛ ليخرج منه خبائبه وكثائفه حتى يصير آنية صافية لطيفة، وشبهه بالفضة؛ ليكون آمنًا من الكسر صلابة استعدادهم مثل الفضة، وصفاؤهم ورقتهم الزجاجة يصف أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ﷺ نفس المؤمن أنها أصلب من الصلد وأذل من العبد.

يعني: ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ جارية بماء الحياة الأزلية الأبدية السرمدية ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: 18] لهدايتها وإرشادها إلى مشرب التوحيد، وبحر الوحدة الذاتية، كأنها تلقى وتلقن تلك العين المترشحة من بحر الحياة الأزلية الأبدية لأرباب العناية بقولها: سل أيها الطالب الحائر في بيداء الطلب سبيلاً إلى الوحدة الحقيقية الحقيَّة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ تأنيسًا لهم وتصحيبًا ﴿وِلْدَانٌ﴾ حسان، مصورون من أعمالهم وأحوالهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون على صباحتهم وحسنهم، بحيث ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: 19] من صفاء ألوانهم، ومقبولية هياكلهم، وصباحة خدهم، ورشاقة قدِّهم، وانعكاس أشعة وجوههم من كمال اللطافة والطراوة والصفاء المفرط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ثَمَّ﴾ أي: في الجنة ﴿رَأَيْتَ﴾ ما رأيت، وما أدراك ما رأيت، رأيت ﴿نَعِيمًا﴾ وأيّ نعيم، نعيمًا لا يكتنه غوره وطوره ﴿وَمُلْكًا﴾ وأيّ ملك، ملكًا ﴿كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20] وسيعًا فسيحًا، لا يدرك وسعته وقدره، ولا يكتنه طوره وغوره.

ومع ذلك ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي: يعلو عليهم فيها تعظيمًا لهم وتكريمًا ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ رقيق من الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ على لون الحياة؛ لأن حياتهم فيها سرمدية ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ منه كذلك ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ﴾ متخذة ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ تميمًا لتنعمهم وترفههم فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بعدما تمكنوا في مقعد الصدق عند المليك المقتدر ﴿شَرَابًا﴾ من كأس المحبة، ورحيق التوحيد والتحقيق ﴿طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] خاليًا خالصًا عن شوب الثنوية، وشين الكثرة مطلقًا، فسكروا منه، ولم يصحوا أبدًا.

ثمّ قيل لهم من قِبَل الحق: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ التي فزتم عليه الآن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ موعودًا في مقابلة أعمالكم وأخلاقكم، وأحوالكم ومعارفكم، ومواجدكم التي أنتم عليها في النشأة الأولى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ الذي كنتم عليه في نشأة الاختبار ﴿مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22] مجازًا عليه، غير مضيع مع زيادات منّا عليكم تفضلاً وامتنانًا.

ثمّ لمّا جمع سبحانه جميع الفضائل والكمالات، وعموم المعارف والمشاهدات والمكاشفات اللدنية في المرتبة الجامعة الختمية المحمدية، المحيطة على عموم المراتب والمناصب، خاطبهم سبحانه خطاب امتنان ورحمة على وجه التعطف والتلطف فقال: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل

تأييدًا لك، وتعظيمًا لشأنك ﴿الْقُرْآنَ﴾ الحاوي لما في الكتب السالفة، المحتوي لجميع الكمالات اللائقة لعموم الأنبياء والرسل، المجتازين في سبيل التوحيد ﴿تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: 23] مفرقًا منجمًا على مقتضى الحكمة البالغة الباعثة على إنزالها حسب حاجتك إليها، وانكشافك بما فيها؛ لتتدرج في سلوكك وشهودك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ
هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: 24-31].

وبعدما سمعت ما سمعت من الكرامة والتعظيم ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ولا تستعجل في نصرتك وظهورك على عموم أعدائك من جنود أهل التقليد والضلال، سيما كفار مكة، خذلهم الله.

﴿وَ﴾ بعدما كوشفت بحقية الحق، ووحدته واستقلاله في الوجود ومطلق الآثار ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل التقليد وأصحاب الضلال أحدًا سواءً كان ﴿آثِمًا﴾ متناهيًا في الفسوق والعصيان، بحيث ينتهي إثمه إلى الكفر ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24] (1) لنعم الله، مبالغًا في كفران نعمه ونسيان كرمه، بحيث ينتهي كفرانه إلى الكفر، أعاذنا الله وعموم عباده منهما.

(1) قال الورتجبي: حقيقة إشارته أنه تعالى عرّف لهم الطريق، فمن بقى في الطريق ولم يصل إليه فمنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفته شاكرًا له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافرًا به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم يرَ نور مشاهدة الجمال، مهّد الطريق، ونصّب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بما وجد به وهو شاكر، ومن واصل لم يسكن بما وجد، ويكون معربدًا بطلب مزيد الدنوّ، وفي كل ما وجد لم يكن راضيًا حتى وصل إلى غيبوبة الغيب، ويشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحدًا يدّعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة، قال سهل: بيّنا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكرًا طائعًا، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفورًا جاحدًا، فمأواه النار.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: 25] أي: في عموم أوقاتك وحالاتك، وداوم على ذلك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ الموضوع؛ للخلوة مع الله، ودوام المراقبة معه ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وتوجه نحوه توجهًا خالصًا، مقارنًا بكمال الخضوع والخشوع، والتذلل التام ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أي: نزه ذاته عن جميع ما لا يليق بشأنه ﴿لَيْلاً﴾ أي: في خلاله تسبيحًا ﴿طَوِيلاً﴾ [الإنسان: 26] خاليًا عن مطلق الشواغل، فارغ البال عن تشتت الآمال، هكذا دأب أصحاب الكمال، وديدنة أصحاب الوجد.

والحال ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ أي: أصحاب الضلال المنحرفين عن جادة الاعتدال ﴿يُحِبُّونَ﴾ اللذة ﴿الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي: يتركون أمامهم وخلفهم بلا مبالاة لهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان: 27] شديدًا، يشتد الأمر فيه عليهم ويصعب، ومع ذلك ينكرون له ويكذبونه.

وكيف يذرونه وينكرونه، مع أنّا نخبر به، ونأمر بتصديقه؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى قدرتنا ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجودهم أولاً من أهون الأشياء، وأخسها وأرذلها ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: عدلنا أركانهم وجوارحهم، وأحكمنا مفاصلهم وأوصالهم، وبالجملة: سويناهم أشخاصًا قوابل للتكليف؛ ليترتب عليهم الإيمان والتصديق بجميع المعتقدات الدينية ﴿وَ﴾ بعدما لم يؤمنوا، ولم يصدقوا عنادًا ومكابرةً ﴿إِذَا شِئْنَا﴾ وتعلق مشيئتنا على إهلاكهم واستئصالهم أهلكناهم واستأصلناهم، و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ في الخلقة وجميع لوازمها ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان: 28] حسنًا، بحيث يكون المبدل خيرًا، وأحسن وأكمل من المبدل منه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات الدالة على تهذيب الأخلاق والأطوار ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ ناشئة من قِبَل الحق ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ به، أو يتذكر بما فيها ﴿اتَّخَذَ﴾ أولاً ﴿إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان: 29] يعني: شرع في مسالك القرب والوصول إلى الله، فتقرب نحوه بالمعاملات، ثمّ بالأحوال والمقامات، ثمّ بالمعارف والحقائق المنتهية إلى المكاشفات والمشاهدات المؤدية إلى الوصول والنهايات، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ أيها المتقربون إلى الله، السائرون نحوه حسب التوفيق والتيسير الإلهي ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الموفق لهم، الموجد المقدر لعموم أفعالهم وأعمالهم، المنجي لهم عن غياهب الإمكان، وظلمات الخيالات والأوهام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾

المطلع على استعدادات عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم اللائقة لفيضان الكشف والشهود ﴿حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30] في تربيتهم وتكميلهم.

﴿يُدْخِلُ﴾ بمقتضى هدايته ولطفه ﴿مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾[1] التي هي سعة وحدته ﴿وَ﴾ لكن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المحرومين عن نظر العناية والتوفيق مطلقًا ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 31] لا عذاب أشد منه إيلامًا، وأفزع انتقامًا، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول، نعوذ بك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد المترصد لمشيئة الله وتيسيره - وفقك الله على ما أملك، وأعانك على إنجاحه - أن تفرغ همك، وتخلي قلبك عن الالتفات إلى الدنيا معرضًا عن آمالها وأمانيها، متوجهًا إلى الآخرة وما فيها، متعرضًا لنفحات الحق، مستنشقًا من روائح روحه ورحمته، راجيًا من سعة لطفه وجوده أن ييسر لك، ويوفقك في عموم أوقاتك وحالاتك على ما هو خير لك في أولاك وأخراك، ويدفع عنك شرور بشريتك، ومقتضيات بهيميتك وقواك.

وبالجملة: فاتخذه وكيلاً، وثق إليه، واجعله حسيبًا وكفيلاً؛ إذ هو أعلم بما ينبغي لك منك، ويليق بحالك، فلك التفويض والتكلان، والأمر بيد الله الحكيم المستعان.

(1) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة. تفسير اللباب لابن عادل (16/156).

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المرسلات

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وانجذب إلى مرتبة الكشف والشهود والانجلاء التام المسقط لعموم العبارات والاعتبارات أن الركون إليه سبحانه، والانجذاب نحوه إنما يحصل بجذبات إلهية، ونفحات غيبية مهبة من نفسات الرحمن من قِبَل يمن عالم اللاهوت وحضرة الرحموت.

ولاشك أن الجذبات الإلهية متفاوتة بتفاوت الاستعدادات والقابليات المترتبة على رتبة الأسماء والصفات:

فمنهم: من جذبته العناية، وأدركته النفحات والنسمات اللاهوتية، كالبرق الخاطف فعصفن عليهم، وأزيل عنهم ملابس الإمكان بالكلية، وأخرجنهم عن سجن الطبيعة والهيولي على الفور بلا تراخٍ ومهلة.

ومنهم: من نشرنا عليهم هينات لينات، بحيث يستروحوا من هبوبها، ويستريحوا فيها حتى يترسخ في نفوسهم آثارها فيتدرجون إليها، ويتحنون نحوها متشوقين فيتطرقون أثرها حتى وصلوا إلى ما وصلوا، بل اتصلوا.

ومنهم: من يهبن عليهم، ويفرقن في نفوسهم بين الحق والباطل، والهداية والضلال على سبيل التدريج فيوقعن بينهم الفتن والبليات، وأنواع التجارب والاختبارات حتى يتفطن البعض منهم، ويتنبه فيكون من أصحاب الجنة، والبعض الآخر لم يتفطن، ولم ينبه فيكون من أصحاب النار.

ومنهم: من يلقين لهم بعد هبوبهن عليهم ذكرًا من عالم اللاهوت، مجردًا عن الفكر والفطنة، فكيف عن التحنن والتشوق، فكيف عن السيران والطيران؟!

فالأولى: إشارة إلى طريقة الشطار الطائرين إلى الله، كالبرق الخاطف.

والثانية: إلى طريقة الأبرار أرباب المواجيد والواردات والأذواق.

والثالثة: على طريق الأخيار، وأصحاب المعاملات والاستدلالات.

والرابعة: إلى طريقة العوام القانعين بالذكر والتكرار بلا وجدان وفطنة،

وذوق ومعرفة.

لذلك قال سبحانه في شأن العوام: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

ثم لمّا أراد سبحانه أن يشير إلى هذه الطرق أقسم بحاملي وحيه، ونفسات رحمته الفائضة منه سبحانه على عموم عباده على الدوام؛ ليستمدوا منه، ويتطرقوا نحوه متذكرين لمبدئهم ومعادهم حسب استعداداتهم وقابلياتهم، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المظهر لعموم عباده بامتداد أظلاله المترتبة على أوصافه الذاتية وأسمائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة نسمات روحه، ونفسات رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى فضاء وحدته بإرسال شمائم روحه وراحته.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ⑬ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ⑯ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ⑰ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ⑱ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑲﴾ [المرسلات: 1-19].

﴿وَ﴾ حق ﴿الْمُرْسَلاتِ﴾ أي: رياح الجذبات المهبة من قِبَل عالم اللاهوت؛ لاسترواح أرواح سكان عالم الناسوت وأشباحهم ﴿عُرْفًا﴾[1] [المرسلات: 1] للتعارف والائتلاف الواقع بينهم بحسب الحقيقة.

(1) أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين ففرقن بين الحق والباطل، فالقين ذكرًا إلى الأنبياء عليهم السلام عذرًا للمحقين أو نذرًا للمبطلين، أو أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله: (ويجعله كِسَفًا) فالقين ذكرًا إما عذرًا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، واما نذرًا للذين لا يشكرون وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السببية. تفسير النسفي (3/ 498).

﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ النازعات ملابس عالم الناسوت، وثياب الإمكان عن أرواح المحبين المنجذبين نحو الحق ﴿عَصْفًا﴾ [المرسلات: 2] سريعًا شديدًا تخليصًا لهم عن سجن الطبيعة تفريجًا وترويجًا.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ المنتشرات على أراضي استعدادات أرباب الطلب والإرادات المتوجهين نحو الحق بعزيمة خالصة ﴿نَشْرًا﴾ [المرسلات: 3] لينًا هينًا، بحيث يوقظهم عن نوم الغفلة، ويخلصهم عن مضيق الضلال، ويرشدهم إلى فضاء الوصال.

﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ الواصلات إلى بقعة الإمكان من قِبَل الرحمن؛ ليفصلن ويفرقن لساكنيها بين الحق والباطل، والحرام والحلال، والهداية والضلال الواقعة في سلوك طريق الحق، وسبيل توحيده ﴿فَرْقًا﴾ [المرسلات: 4] بينًا واضحًا؛ ليتنبهوا إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ الملقنات لحوامل أثقال الطبيعة والأركان، المسجونين في سجن الإمكان، المقيدين بسلاسل الزمان، وأغلال المكان ﴿ذِكْرًا﴾ [المرسلات: 5] حسنًا من عالم اللاهوت، يجرونه على ألسنتهم؛ لعلهم يتذكرون بها مبدأهم الأصلي، ومنشأهم الحقيقي.

ليكون لهم ذكرهم هذا ﴿عُذْرًا﴾ يزيل ويمحو سيئات عالم الناسوت، وآثام لوازم بقعة الإمكان بعدما تنبهوا بها إلى عالم اللاهوت، طرقوا نحوه مهاجرين من بقعة الناسوت ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: 6] ينذرهم عن نيران الإمكان، وسعير الطرد والخذلان بعدما تذكروا نعيم عالم اللاهوت، وفضاء الجبروت.

يعني: وبحق هذه المقسمات العظام، المكرمات عند الله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من قِبَل الحق في يوم العرض والجزاء ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: 7] محقق وقعه وثبوته بلا ريب وتردد.

وبعدما وقعت الواقعة، وقامت القيامة ﴿فَإِذَا النُّجُومُ﴾ أي: الهويات المترتبة في عالم الكون والفساد ﴿طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: 8] انمحقت وانمحت، وغابت وتلاشت عند ظهور شمس الذات.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: نظام عالم الكون والفساد ﴿فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: 9] وانفصمت وتلاشت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ﴾ الرواسي التي هي أوتاد الأرض، وهي في الحقيقة عبارة عن الهياكل المحسوسة في عالم الكون والفساد ﴿نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10] قلعت عن أماكنها، ثمّ ذريت برياح الفناء.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ﴾ المبعوثون؛ للإرشاد والتكميل، والإشهاد على صلاح العباد وسدادهم ﴿أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: 11] ووُقِّتت؛ أي: عُيِّن لهم وقت الشهادة على أممهم بعدما أبهم عليهم وقتها في النشأة الأولى.

كأنه قيل لهم من قِبَل الحق: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات: 12] وأُخرت شهادتهم؟.

وأجيب أيضًا من جانبه سبحانه: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 13].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 14]؟ أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيمًا.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ وهلاك مؤبد مستمر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في يوم الفصل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 15] به، المنكرين له في النشأة الأولى، سيما بعد إخبار الرسل والكتب، وكيف يكذبونه وينكرون عليه أولئك الضالون المكذبون، مع أنهم قد سمعوا حال المكذبين المنكرين المّاضين؟!

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ المكذبين ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 16] كقوم نوح وعاد وثمود، ولم نستأصلهم؛ بسبب إنكارهم وتكذيبهم بهذا اليوم؟!

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: 17] أي: نحن نُتبع ونُعقّب إهلاك الأولين بإهلاك الآخرين، كقوم شعيب وموسى وعيسى، وغيرهم أيضًا؛ بسبب تكذيب هذا اليوم، وتكذيب من أخبر به من الكتب والرسل.

وبالجملة: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا بالمكذبين السابقين، والآخرين اللاحقين ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: 18] أي: بعموم هؤلاء المجرمين الحاضرين، المكذبين على رسول الله ﷺ وآياته النازلة عليه.

لذلك ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 19].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ

﴿ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات: 20-34].

وكيف تكذبون أيها المكذبون بما أُمرتم بتصديقه من لدنَّا، مع أنكم قد عرفتم قدرتنا عليه وعلى أمثاله؟! ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أيها المجبولون على النسيان ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20] في غاية المهانة والخباثة؟!

وبعد نزوله ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ مستقرًا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ يعني: مقر الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: 21] مستقر.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22] وأجل معين، قدَّره الله العليم الحكيم للولادة، وتسوية الخلق، والخروج إلى عالم الشهادة.

وبالجملة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على خلقكم من النطفة المهينة، المكينة في ظلمة الرحم، وعلى إخراجكم منها إلى فضاء العالم، وتربيتكم فيها إلى أن صار كل منكم شخصًا ذا رأي ورشد، قابلاً لحمل التكاليف المثمرة للمعرفة والإيمان.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] المقتدرون نحن على إخراجكم من قبوركم أحياءً كما كنتم في يوم البعث والجزاء.

فلمَ تكذبون به أيها المكذبون، مع أنه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 24] بقدرتنا على الإعادة؟!

وكيف تنكرون قدرتنا الكاملة الشاملة على مطلق المقدورات ؟! ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿كِفَاتًا﴾ [المرسلات: 25] جامعة كافية.

ضامة ﴿أَحْيَاءً﴾ مرة ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: 26] أخرى؛ أي: كيف تكف وتجمع الأحياء والأموات من الإنسان على التعاقب والتوالي تارة فيها، وتارة عليها؟!

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ وعليها من نوع الإنسان ﴿رَوَاسِيَ﴾ أوتادًا وأقطابًا

﴿شَامِخَاتٍ﴾[1] عاليات متعاليات عن أن ينال بكنه معارفهم وشهوداتهم إدراك أحد ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم﴾ من لدنيّات أولئك الأوتاد المتعالية أعذار أطوارهم العالية عن إدراك الأنام وإفهامهم ﴿مَّاءً﴾ حيانًا ﴿فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27] سائغًا شرابه لأولي العزائم الصحيحة، والمشارب الصافية.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 28] لقدرتنا واقتدارنا على إظهار هذه البدائع التي كلّت دونها وصف الألسن والأحلام، ودرك العقول والأفهام، وكيف يكذبونه إذا عاينوه؟!

ويقال لهم حينئذٍ زجرًا عليهم وتوبيخًا: ﴿انطَلِقُوا﴾ وادخلوا أيها المكذبون ﴿إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: 29] من العذاب والنكال، وأنواع العقوبات والمكروهات.

ثمّ قيل لهم تأكيدًا وتشديدًا على توبيخهم وتقريعهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ﴾ وأيّ ظل، ظل ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: 30] متشعبة من القوى البهيمية الوهمية الشهوية، والغضبية؛ إذ بها تقترف المعاصي، وتكتسب جميع الآثام الموجبة لدخول النار.

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ إذ لا يدفع ضرر الحرارة، كسائر الأظلال ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿مِنَ﴾ حر ﴿اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 31] الجهنمية، وإحراق النيران.

وكيف يمكن أن يدفع حر جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ أي: جهنم الطرد والخذلان، وجحيم اللعن والحرمان ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ وهي ما تطايرت من النار حين التهابها وسوادتها، وأيّ شرر، كل شرر ﴿كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: 32] الرفيع في الكبر وعظم المقدار؟!

﴿كَأَنَّهُ﴾ في التتابع والتوالي ﴿جِمَالَةٌ﴾ إبل متسلسلة، مترادفة متتابعة ﴿صُفْرٌ﴾

---

(1) قال حقي (16/ 378): صفة بعد صفة والشامخ العالى المرتفع أي طوالاً شواهق يعنى بلد وسر فرز ومنه شمخ بأنفه عبارة عن الكبر، وفى عين المعانى رواسى أي ثوابت الأصول رواسخ العروق شامخات أي مرتفعات الفروع ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه والتنكير للتفخيم أو للإشعار بأن ما يرى ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وأن فى عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير فإن السماء فيها جبال أيضًا بدلالة قوله تعالى من جبال فيها من برد.

[المرسلات: 33] لونها، شبّهها بها في عظم أجرامها وتتابعها، ولونها.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 34] بتكذيبهم بهذا العذاب الهائل بعدما أُمروا بتصديقه على ألسنة الرسل والكتب.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات: 35-50].

وبعدما ساقهم الخزنة إليها بالزجر التام، والعنف المفرط، فأخذوا يطرحونهم إليها مهانين صاغرين، وهم يتضرعون صائحين فزعين، قيل لهم حينئذٍ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: 35] إذ نطقهم كاللانطق في عالم الدفع والنفع.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ حينئذٍ ﴿لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36] إذ لا يُسمع منهم العذر؛ لانقضاء نشأة التلافي والتدارك بالأعذار والتوبة.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 37] وأيّ ويل، ويل لا يكتنه غوره وطوره، وشدة هوله.

ثمّ قال لهم سبحانه حينئذٍ توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، والمسيء والمحسن ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 38] أي: جمعنا الآخرين والأولين، والسابقين واللاحقين فيه.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المكلّفون ﴿كَيْدٌ﴾ ومكر تقاومون به معي، وتدفعون به عنكم عذابي ﴿فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: 39] وامكروني إن استطعتم.

وإلّا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 40] حتمًا؛ لأنه من أين يتأتى بينهم المكر والكيد، والحيلة والخداع مع الله في التخلص من العذاب، سيما في تلك الحالة؟!

وبالجملة: سوقوا نحو النار، وطُرحوا فيها مهانين، وعُذبوا بها صاغرين خالدين.

ثمَّ أردف سبحانه وعيد المكذبين بوعد المصدقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي، المصدقين بيوم الدين مستغرقون يومئذٍ في أنواع التنعم والترفه ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ممدودة في ظلال البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: 41] جارية فيها.

﴿وَفَوَاكِهَ﴾ كثيرة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: 42].

ويقال لهم حينئذٍ تلطفًا وتكريمًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لكم مريئًا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 43] من الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية المثمرة لتلك الحالات العليَّة، والمقامات السنيَّة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما أنتم عليه من الترفه والتنعم ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: 44] المخلصين في الأعمال والأخلاق، الراضين بما جرى عليهم من مقتضيات القضاء.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 45] لكم هذا النعيم المقيم، ولهم ذاك العذاب الأليم.

ثمَّ قيل للمكذبين من قِبَل الحق زجرًا عليهم، وتوبيخًا لهم بما اختاروا اللذة الفانية على اللذة الباقية على سبيل الفرض والتقدير، كأنهم أُمروا به في النشأة الأولى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ بالأمتعة الدنيوية زمنًا ﴿قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: 46] بالجرائم العظيمة، مؤاخذون عليها في النشأة الأخرى بشؤم تكذيبكم بما أُمرتم بتصديقه.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 47] إذ عرضوا أنفسهم على العذاب المؤبَّد المخلَّد.

﴿وَ﴾ كيف لا يؤاخذون أولئك المعاندون المكابرون، كانوا من كمال استكبارهم وعتوهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿ارْكَعُوا﴾ تواضعوا لأمر الله، واخضعوا لحكمه، وانقادوا وصلوا نحوه متذللين ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: 48] من غاية استكبارهم واستعظامهم، ولا يمتثلون لحكم الله وأمر رسوله، ولا يطيعون لهم تعنتًا وعنادًا، بل يكذبونهم ويستهزئون معهم؟!

لذلك يحل عليهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 49] المستهزئين مع

رسل الله، الظاهرين عليهم بالإشارة والاستكبار، المتكبرين بما نزل عليهم من الكتب المبيّنة لمعالم الدين، ومراسم التوحيد واليقين.

وبعدما لم يؤمنوا بهذا الكتاب المبين المبيّن لطريق الحق، ومنهج الصدق والصواب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾[1] أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] أولئك المنكرون المعاندون المسرفون؟!

جعلنا الله ممن آمن به، وامتثل بما فيه، وتفطن برموزه وإشاراته بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، القاصد لسلوك طريق الهداية والتوفيق، العازم على التحقق والتمكن في مقعد صدق التوحيد والتحقيق - يسّر الله عليك مبتغاك - أن تتمسك بحبل المتين القرآني، وتتشبث بأذيال هدايته وإرشاده، وتمتثل بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه، وتتفطن بما رمز له، وأُشير إليه من المعارف والحقائق المصفِّية لسرك على الالتفات إلى ما سوى الحق، المعدّة لقلبك لفيضان الكشف والشهود، فلك أن تتبتل على الله حسب استعدادك، وتتخلق بالأخلاق المحمدية التي هي القرآن.

والتوفيق بيد الله، والهداية عنده، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(1) قال الرازي (7/ 321): على أن القرآن ليس قديماً قالوا: لأن الحديث ضد القديم، وأيضًا فلفظ الحديث يفيد من جهة العادة حدوثه عن قرب، ولذلك يقال: إن هذا الشيء حديث، وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضد العتيق الذي طال زمان وجوده، ويقال: في الكلام إنه حديث؛ لأنه يحدث حالاً بعد حال على الأسماع.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النبأ

لا يخفى على من انكشف له سرائر التكاليف الإلهية، وحِكم الأحكام الموردة من لدنه، ومصالح الأوامر والنواهي الناشئة من قدس ذاته أن مقتضى الألوهية والربوبية تربية المربوب، وتأديبه بتحميل المتاعب والمشاق المانعة عن مقتضيات الهوى ومتابعة شياطين الأوهام والخيالات الباطلة التي هي من جنود الأمّارة بالسوء، وبعدما لم يمتنع ولم ينزجر عن مقتضيات القوى الطبيعية، ولم يأت بالطاعات والعبادات المكلَّفة المأمورة له لم يعتدل على صراط العدالة الإلهية، ولم يستقم على الطريق المستقيم الموصل الى جنة النعيم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يعذبه بالعذاب الأليم، ويدخله في نار الجحيم أبدًا مؤبدًا، خالدًا مخلدًا.

لذلك وضع سبحانه بمقتضى حكمته نشأتين: نشأة الاختبار والابتلاء، ونشأة الانتقال والجزاء، فجعل الأولى منزل العبور والاعتبار، والأخرى دار الثبوت والقرار.

فالعاقل العارف لا بدّ وأن يؤمن ويوقن بكلتيهما، ويستعد في أولاهما لأخراهما، ومن اغتر بالأولى وشغل بها عن الأخرى فقد لحق بالأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104] وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105] لكمال ظهور النشأة الأخرى، ووضوح براهين المرتابين وقوعها وقيامها، حيث يتساءلون ويتقاولون فيما بينهم بخبر وقوعها وقيامها، ويتداولونها على سبيل المراء والاستهزاء، فقال سبحانه بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للكل حسب النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم أيضًا حسب النشأة الأخرى.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: 1-16].

﴿عَمَّ﴾ يعني: عن ما، وعن أيّ شيء وأمر ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: 1] ويتقاولون فيما بينهم مراءً ومجادلةً؟.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: 2 .3] أي: يختلفون في قيام الساعة الموعودة؛ لتنقيد أعمالِ العباد، والجزاء عليهم على وفقها، مع أن أمره أظهر من أن يشك فيه ويسأل عنه، ويستهزأ به، ويختلف فيه وفي وقوعه.

﴿كَلَّا﴾ أي: من أين يتأتى لهم إنكاره والتساؤل فيه على وجه المراء، مع أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 4] عن قريب، بل قربه كلمح البصر، بل هو أقرب؟!

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 5] حين ألم عليهم بغتة، وهم لا يشعرون.

وبالجملة: من أين يتأتى لهم إنكار يوم البعث والجزاء، هل ينكرون قدرتنا الكاملة على أمثاله؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: 6] لهم، ممهدة مبسوطة، ينتشرون عليه ويستريحون؟!

﴿وَ﴾ لم نجعل ﴿الْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] [1] عليها تقريرًا لها وتثبيتًا؟!

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدَّرنا أشباحكم أيها المكلفون ﴿أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: 8] أصنافًا ذكرًا وأنثى؛ لتتآنسوا وتتناسلوا؟!

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ في الليالي ﴿سُبَاتًا﴾ [النبأ: 9] قطعًا عن الإحساس والحركة؛ ليحصل إرخاء الأعصاب والعضلات؛ لتستريحوا، وزالت كلال القوى وفتورها فتشتد بالاستراحة، وتشتغل بأفعالها في النهار بجرأة تامة، وقوة كاملة.

---

(1) إنّ هذه الآية إنّما ذكرت ليستدلّ على وجود الصّانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأنَّ الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (380/9).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ لكم ﴿لِبَاسًا﴾ [النبأ: 10] غطاءً وغشاءً تستترون فيه، وتختفون به فيما فيه الإخفاء مطلوبكم.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: 11] وقتًا تطلبون فيه ما تعيشون من حوائجكم ومطعوماتكم وملبوساتكم.

﴿وَبَنَيْنَا﴾ بكمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سماوات طباقًا ﴿شِدَادًا﴾ [النبأ: 12] أقوياء محكمات، مستحكمات لا يتأثرن بمر الدهور، وكر الإعصار كسائر الأبنية.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ في خلالها ﴿سِرَاجًا﴾ مضيئًا متلألئ، متشعشعًا ﴿وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 13] حارًا سخينًا في غاية السخونة عند الانعكاس؛ لتنضج ما تحتاجون إليه في أمور معاشكم.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ أيضًا تتميمًا لتربيتكم، وترتيب معيشتكم ﴿مِنَ﴾ السحب ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ بالرياح ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: 14] مطرًا كثير الانصباب، متتالي القطر.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿حَبًّا﴾ تقتاتون به ﴿وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: 15] تعلف به مواشيكم.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات لكم وبساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ [النبأ: 16] ملتفات أشجارها وثمارها من كثرتها وكثافتها.

كل ذلك من المقدورات التي يتفطن منها العاقل المنصف على وقوع الحشر والنشر، وجميع الأمور الغيبية الموعودة في يوم الجزاء، بل جميع المقدورات الداخلة تحت قبضة القدرة الإلهية؛ إذ نسبة القدرة الكاملة الإلهية إلى هذه المقدورات وأمثالها، وإلى الأمور الموعودة فيها على السواء، والإرادة الكاملة الإلهية ترجح كلًّا منها عند حلول ما قدّر الله له من الوقت والأجل.

وبالجملة: من ترقى إدراكه عن مضيق الألف، وخرق حجبُ الرسوم والعادات، وخلص من ظلمات الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات التي هي منبع عموم الخيرات، ومنشأ جميع الكمالات، انكشف له ولاح عنده أن أمر النشأة الأولى والأخرى وأمثالهما، بل أضعافهما وآلافهما في جنب القدرة الغالبة الإلهية سهل يسير، لكن المحجوب المحبوس في عالم المحسوس المقيّد بعقال العقل

المبهوت، المشوب بالوهم المنحوس، والخيال المزور المنكوس، يتخيل حصر المظاهر والمجالي الإلهية بسراب عالم الطبيعة والهيولي؛ لذلك وقع فيما وقع من البلوى، وزلت نعله في سبيل القرب من المولى.

هب لنا من لدنك رحمة تنجينا عن أمثال هذه المهالك، إنك أنت الوهاب.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: 17-30].

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الفارق بين احتجاب أصحاب الحيرة والضلال، وأرباب العناية والوصال ﴿كَانَ﴾ له ﴿مِيقَاتًا﴾ [النبأ: 17] وقتًا معينًا في حضرة علم الله، مقدرًا في لوح قضائه، لم يطلع أحدًا عليه وعلى تعيينه، بل أخبرهم بأماراته وعلاماته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم إذ حل وقت يوم الفصل، وقيام الساعة ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى؛ لبعث الموتى، وإذا وصل لهم ذلك الصدى فيخرجون من قبورهم حيارى سكارى مبهوتين، ثمّ ينفخ فيه ثانيًا؛ للحشر ﴿فَتَأْتُونَ﴾ المحشر ﴿أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: 18] زمرًا زمرًا، فرقًا فرقًا.

﴿وَ﴾ يومئذٍ ﴿فُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أي: خرقت وشقت ﴿فَكَانَتْ﴾ الخرق والشقوق لها ﴿أَبْوَابًا﴾ [النبأ: 19].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض، وتحركت فطارت أجزاؤها، كالهباء نحو الهواء ﴿فَكَانَتْ﴾ أشكالها وهيئاتها ﴿سَرَابًا﴾ [النبأ: 20] أي: كالسراب يُرى على صورة الجبال، ولا حقيقة لها كما هي الآن عند العارف المكاشف.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يومئذٍ ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: 21] مرصدًا ومصيرًا لعموم العباد، يعبرها أهل الجنة على تفاوت سرعة وبطء، مترتبًا على تفاوت أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم: منهم من لا يلتفت نحوها، ولا يدركها أين هي وإن عبرها.

ومنهم من يعبرها، كالبرق الخاطف، ثمّ الأمثل الأمثل فينجون من غوائلها، ويسقط فيها أهل النار، ويبتلون بأغلالها وسلاسلها فتصير ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ المصرّين على كفرهم وطغيانهم ﴿مَآبًا﴾ [النبأ: 22] مرجعًا ومأوى، لا يخرجون منها

بل يكونون ﴿لابِثِينَ﴾ ماكثين ﴿فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: 23] وأيّ أحقاب، أحقابًا لا كأحقاب الدنيا، بل لا نهاية لها، ولا غاية لحدها فذكرها كنايةً عن عدم نهايتها.

وهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم البعد والحرمان ﴿بَرْدًا﴾ لحرمانهم عن لذة برد اليقين في النشأة الأولى ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: 24] لأنهم لم يشربوا في النشأة الأولى من زلال الإيمان شربة، ولا من رحيق العرفان جرعة.

لذلك لم يشربوا في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماءً حارًا، سخن بنيران غضبهم وشهواتهم، بحيث يقطع أمعاءهم من شدة حرارته.

﴿وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: 25] صديدًا يسيل من جراحات أهل النار، بدل ما يأكلون ويشربون من أموال اليتامى والمظلومين ظلمًا.

وبالجملة: جوزوا فيها ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: 26] موافقًا مطابقًا لأعمالهم التي آتوا بها في دار الدنيا.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ حين يمموا على المعاصي، وعزموا على الآثام ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يأملون ﴿حِسَابًا﴾ [النبأ: 27] ولا يخافون عذابًا.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿كَذَّبُوا﴾ بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا، واقتدارنا على وجوه الإنعام والانتقام، وعلى رسلنا المنزلة إليهم بتلك الآيات ﴿بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: 28] تكذيبًا بليغًا، وإنكارًا شديدًا إلى حيث يستهزئون بالآيات والرسل.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: 29] يعني: وهم وإن بالغوا في التكذيب والعناد فصلنا عليهم أعمالهم، وأحصينا لهم جميع خصائلهم المذمومة في صحف أعمالهم، سيحاسبون عليها على التفصيل، ويجازون بمقتضاها.

وبعدما يحاسبون ويؤاخذون، يقال لهم زجرًا عليهم وتوبيخًا: ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفرطون ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ بأعمالكم وتكذيبكم ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: 30] فوق العذاب.

في الحديث - صلوات الله على قائله -: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل

النار»[1].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾ [النبأ: 31-40].

ثمّ أردف سبحانه بوعيدهم وعد المؤمنين تشديدًا لعذابهم وتأكيدًا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين، المتحفظين نفوسهم عن محارم الله خوفًا من عذاب الله، ورجاءً من فضله ﴿مَفَازًا﴾ [النبأ: 31] مخلصًا ونجاةً من جميع المكاره اللاحقة للكفار والعصاة.

﴿حَدَائِقَ﴾ ذات بهجة ونضارة ونزاهة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: 32] معروشات وغير معروشات.

﴿وَ﴾ إن لهم فيها أزواجًا ﴿كَوَاعِبَ﴾ نواهد، استدارة ثديهن مثل الرمان ﴿أَتْرَابًا﴾ [النبأ: 33] أبكارًا، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 56].

﴿وَكَأْسًا﴾ من خمور المحبة الإلهية ﴿دِهَاقًا﴾ [النبأ: 34] ملآنًا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة عند شرب خمور المحبة ﴿لَغْوًا﴾ فضولاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: 35] [2] أي: مكاذبة، يكذِّب بعضهم بعضًا، كما يقع بين شاربي شراب الدنيا.

وإنما يجازون بما يجازون ﴿جَزَاءً﴾ ناشئًا ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَطَاءً﴾ منه إياهم تفضلاً عليهم وإحسانًا؛ إذ لا يجب عليه سبحانه شيء ﴿حِسَابًا﴾ [النبأ: 36]

---

(1) ذكره الرازي في «تفسيره» (301/16).

(2) قال بندار بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهاية؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية، قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبةٌ من الله، يخصُّ به الخواص من أهل وداده. [العرائس].

كافيًا وافيًا، لا ينقصون ولا ينتظرون.

وكيف لا يتفضل سبحانه على أوليائه، مع كونه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «رَبُّ» أي: مربّي العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «الرَّحْمَنُ» المستوي على عروش الكل بالرحمة العامة، والاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة، والبسطة الغالبة بالإرادة والاختيار، بحيث ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يقدرون؛ أي: أهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ﴾ سبحانه ﴿خِطَابًا﴾ [النبأ: 37] أي: لا يسع لهم أن يخاطبوه، ويطالبوا منه شيئًا من زيادة ثواب ونقص عقاب، بل هو بذاته فعَّال لكل ما يريد من مقتضيات أسمائه وصفاته بالإرادة والاختيار، لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد؟!

وكيف يملك ويقدر خطابه سبحانه هؤلاء الأظلال الهلكى في حدود ذواتهم، مع أنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ أي: الوجودات الإضافية الفائضة على هياكل الهويات من أشعة نور الوجود المطلق ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية المجردات عن التعليقات مطلقًا ﴿صَفًّا﴾ صافين مصطفين، ساكتين صامتين من كمال دهشتهم عن سطوة سلطنة الذات القاهرة الغالبة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ حينئذٍ، ولا يقدرون على التفوه بالحال أو المقال ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بالشفاعة والسؤال فتكلم بإذنه ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38] مرضيًا عند الله مستجابًا؟!

وبالجملة: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ﴾ أي: يوم الفصل والقيامة هو اليوم ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الكائن وقوعه بلا خلف ولا ريب ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يأمن من فتنته، ويخلص من عذابه ﴿اتَّخَذَ﴾ وأخذ في النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: 39] مرجعًا ومنقلبًا يتوجه إليه، ويتحنن نحوه متقربًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار.

وبالجملة: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ أيها المعرضون عن الله، المنصرفون عن طاعاته وعباداته ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سيلحقكم بغتة، وأنتم لا تشعرون بأماراته ومقدماته ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾ ويرجى جميع ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ خيرًا كان أو شرًا، نفعًا كان أو ضرًا ﴿وَ﴾ بعدما رأى الكل يومئذٍ ما رأى من المصالح والمقابح الصادرة منه، الجارية عليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ﴾ الرائي قوابح أفعاله، وفواسد أعماله، متأسفًا متحسرًا متمنيًا هلاكه على سبيل المبالغة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: 40] لم أُخلق ولم أُكلف؛ حتى لا أستحق هذا

الويل والثبور.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الرحيم الغفور.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تتزود ليوم الجزاء بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته، والامتثال بأوامره، والتخلق بأخلاقه؛ حتى لا تستحي من الله في يوم الجزاء، ولا تتمنى مقتك وهلاكك مثل من كفر وعصى.

فلك أن تلازم على أداء الواجبات والمستحبات، والمسنونات من الصلوات والزكوات وأنواع الطاعات، والتقرب نحوه بالنوافل من الطاعات والصلوات والصدقات، والخدمة بالجوارح والآلات لعموم عباد الله، والسعي إلى مطلق الخيرات والمبرات، والاجتهاد في طريق الحسنات وترك السيئات ومطلق المنكرات؛ حتى تتخلص من كؤود العقبات، وتصل إلى روضات الجنات، وتفوز بالفوز بالسعادات وأنواع الكرامات.

جعلنا الله من أرباب الهداية والتوفيق، ويسر لنا الوصول إلى مقر التوحيد والتحقيق بمنّه وجوده.

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النازعات

لا يخفى على السالكين المندرجين عن مضيق الطبيعة نحو فضاء الحقيقة، مهاجرًا من بقعة الإمكان ولوازمها نحو الوجوب الذاتي أن التخلص والنجاة من سلاسل الأماني وأغلال الآمال مطلقًا لا يتيسر إلّا بجواذب الحق، ووحيه المفوّض من عنده على أسمائه وصفاته الفعّالة في عالم الكون والفساد، الموسومين المتسمين بالملائكة النازعات المخلصات للأرواح البشرية التي هي من جنود عالم اللاهوت، المسجونة في مضيق الناسوت في حصون الهويات الإمكانية، وقلائع الطبائع والأركان.

فبعضهم بعدما هبطوا إليها، وتوطنوا فيها نسوا موطنهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي، وبعضهم صاروا محبوسين مسجونين، متذكرين الموطن الأصلي، راجين الخلاص عن ورطة الهلاك، وبعضهم مترددون، وبعضهم متحركون مضطربون للخروج، ولا يتأتى لهم.

ولمّا كان حالهم في سجن الطبيعة وعالم الإمكان هكذا، وكّل عليهم سبحانه عنايةً منه وفضلاً نوازع نازلة من عالم الجبروت حسب قيوداتهم التي كانوا عليها؛ حتى يخلصوهم عن مضيق الناسوت، ويوصلوهم إلى فضاء اللاهوت.

وأقسم سبحانه بحق هذه النوازع العظيمة الشئون؛ لثبوت يوم البعث والجزاء الذي انقهرت وانعدمت عند قيامه وظهوره سراب عالم الناسوت مطلقًا؛ ليرتدع المنكرون عن إنكاره، وينزجر الملحدون عن الجحود فيه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المقدِّر لأمور عباده حسب ما اقتضته حكمته ومصلحته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، ينبههم عن سِنة الغفلة ﴿الرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى، يخلصهم عن سجن الطبيعة.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ② وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ③ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ④
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصَارُهَا

خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: 1-14].

﴿وَ﴾ حق ﴿النَّازِعَاتِ﴾ المخلِّصات أرواح عموم العباد عن محابس الطبائع والأركان ﴿غَرْقًا﴾ [النازعات: 1] لاستغراقهم في لوازم الناسوت، ومقتضياتها المغشية صفاء عالم اللاهوت.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ المنزعات المخرجات لنفوس أرباب المحبة والولاء المتشوقين إلى عالم العماء، وفضاء اللاهوت ﴿نَشْطًا﴾ [النازعات: 2] رفقًا ولطفًا؛ لكمال تحننهم وشوقهم إلى الخلاص.

﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾ المخرجات أرواح الأبرار من أشباحهم هينات لينات، يقبضون رفقًا، ثمّ يمهلون حتى يستريح، ثمّ يقبضون، هكذا إلى أن يخلصوهم، كالسابح في المّاء يتحرك، ثمّ يستريح، ثمّ يتحرك ﴿سَبْحًا﴾ [النازعات: 3] لكونهم سابحين في بحر الحيرة حتى وصلوا إلى بحر اليقين.

﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾ أي: النفوس الفانية في الله، الباقية ببقائه، المبادرة إلى الخروج قبل نزول النازعات ﴿سَبْقًا﴾ [النازعات: 4] لكمال شوقهم وانبعاثهم، وتجرُّدهم عن ملابس عالم الناسوت، وانخلاعهم عن مقتضيات الطبيعة والأركان قبل حلول الأجل، وهجوم المخرجات المخلِّصات.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾ الموكلات على تدابير عموم المظاهر من الأرزاق والآجال، وجميع الأمور الجارية في عالم الكون والفساد ﴿أَمْرًا﴾ [النازعات: 5] [1] لكونهم مأمورين بها، موكّلين عليها بمقتضى حكمة القدير العليم؛ يعني: وحق هذه الحوامل العظام، والموكلات الكرام لتبعثن من قبوركم، ولتحاسبن على أعمالكم أيها المكلفون.

(1) قال القاشاني: أقسم بالنفوس المشتاقة التى غلب عليها النزع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أى تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقاله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبق إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الإبدان أولا فتكون مدبرات.

اذكروا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: 6] المتقررة الساكنة التي لا حركة لها أصلاً، كالأرض وسائر الجمادات.

وبعد تحرك هؤلاء الجوامد ﴿تَتْبَعُهَا﴾ في الحركة والاضطراب والاندكاك ﴿الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 7] أي: العلويات السائرة المتحركة، حيث تتشقق السماوات، وتنتثر الكواكب، وبالجملة: تختلط العلويات بالسفليات وتتمازجان، بحيث لا علو ولا سفل.

ومن شدة الهول ونهاية الفزع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: 8] قلقة حائرة، شديدة الاضطراب.

﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي: أبصار أصحاب القلوب حينئذٍ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: 9] شاخصة ذليلة من شدة الخوف والهول، مع أن هؤلاء الشاخصين الواجفين كانوا ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ في النشأة الأولى حين أخبرهم الرسل بالبعث والحشر على سبيل الاستبعاد والإنكار ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: 10] أي: إلى الحالة التي كنّا عليها؛ يعني: أنبعث أحياءً كما كنا من قبل؟!

ثمّ يزيدون الإنكار على الإنكار بقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: 11] بالية رميمة، نُبعث ونحيا؟! كلّا وحاشا، من أين يتأتى لنا هذا؟!

وبعدما استبعدوا واستكبروا بما استنكروا ﴿قَالُوا﴾ منهمكين ومستهزئين: ﴿تِلْكَ﴾ الحالة المفروضة لو وقعت، ورددنا إلى الحياة بعد الموت، كما زعم هؤلاء المدّعون؛ يعنون: الرسل، يحصل لنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ﴾ عودة ورجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: 12] ذا خسران وخذلان؛ لأننا كنا نكذّب بها، ولا نصدّق من أخبر بها، وبعدما وقعت كنّا خاسرين خسرانًا عظيمًا.

وبعدما تقاولوا من بطرهم وخيلائهم ما تقاولوا، قيل لهم من قِبَل الحق، مقرّعًا على استماع استعداداتهم: لا تستبعدوا أمر الساعة، ولا تستصعبوها ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: أمر الساعة وقيامها عند كمال قدرتنا الغالبة القاهرة ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: 13] أي: نفخة واحدة، يُنفخ في الصور بأمرنا وحكمنا.

فإذا نفخت النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 14] أي: فوجئ بنو آدم بأجمعهم فصاروا أحياءً على وجه الأرض، كما كانوا عليها في النشأة الأولى من

الهيئات والأشكال، والهياكل والهويات.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ
وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: 15-26].

ثمّ أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الاصطبار بأذيات أصحاب التكذيب والاستكبار فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: 15] يعني: بما اضطربت بتكذيب قومك، وإنكارهم عليك، وإعراضهم عن هدايتك وإرشادك يا أكمل الرسل، أليس قد أتيتك حديث أخيك موسى الكليم؛ حتى يسليك ويزيح كربك، ويرشدك إلى الصبر والثبات مثل أخيك؛ حتى تظفر على أعدائك مثله.

وذلك وقت ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ بلا وسيلة الملك، وسفارة السفير؛ إذ هو حينئذٍ من إفراط المحبة ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار، والالتفات إلى ما سوى الملك الجبار ﴿طُوًى﴾ [النازعات: 16] أي: طويت دونه حينئذٍ مطلق التعينات والنقوش الطارئة على بحر الوجود من رياح الإضافات المعوجة الممنوحة.

وبعدما تقرر في مقعد الصدق، وتمكن على مكمن اللاهوت أمره سبحانه بالالتفات إلى عالم الناسوت، والرجعة نحوه؛ للإرشاد والتكميل تتميمًا لقضية الحكمة البالغة، المتقنة الإلهية بقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ العالي العاتي، الباغي الطاغي ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: 17] وتجاوز عن مقتضى العبودية طغيانًا فاحشًا إلى أن ادّعى الألوهية لنفسه.

﴿فَقُلْ﴾ مستفهمًا أولاً على طريق الملاينة اللازمة لمرتبة النبوة والإرشاد: ﴿هَل لَّكَ﴾ بعدما انحرفت عن جادة العبودية بهذه الدعوى الكاذبة الباطلة ميل ﴿إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: 18] وتتطهر عن رذيلة الكفر والطغيان، ونقيصة الظلم والعدوان.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وأرشدك أنا بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وتقديس مربيك الذي أظهرك من كتم العدم، وربّاك بأنواع اللطف والكرم، وبعدما تعرف وحدة ربك، وتؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتصدق بكمال قدرته واقتداره على

وجوه الانتقامات والإنعامات، وباستقلاله في عموم التدبيرات والتصرفات ﴿فَتَخْشَى﴾ [النازعات: 19] حينئذٍ عن بطشه وقهره، وتشتغل بأداء المأمورات، وترك المنكرات والمحرمات، والاجتناب عن مطلق المنهيّات، وبالجملة: تكون من زمرة أرباب العناية والكرامات، وتتخلص من نيران الطبيعة ودركاتها؟.

وبعدما ذهب موسى لمقتضى أمر الله ووحيه إلى فرعون الطاغي الباغي، وبالغ في التبليغ وإظهار الدعوة، والملاينة على وجه الرفق والمداراة ﴿فَأَرَاهُ﴾ على سبيل التبيين والتوضيح ﴿الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [1] [النازعات: 20] يعني: العصا وتقليبها حيّة، أو جنس الآيات النازلة عليه.

وبعدما سمع فرعون من موسى ما سمع، ورأى من الآيات ما رأى استكبر وعتا ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَى﴾ [النازعات: 21] على المولى، وزاد على البغي والطغيان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقبل عليه موسى بالإرشاد والتكميل بأمر الله ﴿أَدْبَرَ﴾ فرعون عن الإقبال، وأقبل على البغي والضلال؛ لذلك ﴿يَسْعَى﴾ [النازعات: 22] ويجتهد في المعارضة والإبطال.

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده وسحرة بلاده ﴿فَنَادَى﴾ [النازعات: 23] على رءوس الملأ على سبيل الاستعلاء والاستكبار.

﴿فَقَالَ﴾ ذلك المسرف المفرط من كمال البطر والافتخار: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾ ومربيكم

---

(1) «الفاء» في «فأراه»: معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: (ضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت) أي: فضرب فانفجرت، واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة، فقيل: هي العصا، وقيل: اليدُ البيضاءُ تبرقُ كالشَّمس، قاله مقاتل والكلبي، والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلاً في العصا؛ لأنها لمّا انقلبت حيّة، فلا بد وأن يتغيّر اللون الأول، فإذن كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخر، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرةِ الكبيرة والقُوّة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حيّة، وكلُّ واحدٍ من هذه الوجوه كان معجزًا مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا، وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد، وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته. [تفسير اللباب لابن عادل (16 /212)].

الأجلّ ﴿الأَعْلَى﴾ [النازعات: 24] من كل من يلي أمركم أيها البرايا.

وبعدما أفرط في البغي والطغيان، وبالغ في الظلم والعدوان ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ﴾ القدير القهّار بمقتضى اسمه المضل المذل فجعل سبحانه طغيانه وعدوانه ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ [النازعات: 25] أي: سبب الأغلال والسلاسل في النشأة الأخرى، وسببًا للإهلاك والإغراق في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الشأن الذي جرى على فرعون من أنواع البلاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة عظيمة، وتذكيرًا بليغًا ﴿لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: 26] عن غضب الله، ومقتضيات قهره وجلاله.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: 27-36].

ثمّ أشار سبحانه إلى توبيخ المنكرين للنشأة الأخرى، وتقريعهم وتسفيههم بمقتضى عقلهم فقال: ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها المنكرون المفرطون المسرفون ﴿أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلْقًا﴾ وإيجادًا على سبيل الإعادة ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ التي هي أرفع الأبنية وأعلاها، وأشدها نظامًا، وأقواها بنيانًا؛ إذ هو سبحانه ﴿بَنَاهَا﴾ [النازعات: 27] بقدرته الكاملة.

وأحسن بناءها، حيث ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وسقفها بلا أعمدة وأسانيد واسطوانات ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 28] وعدلها بلا قصور وفتور.

وبعدما سوّاها أدارها على الاستدارة، ورتب على حركاتها الجديدين ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي: أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ الحاصل من حركاتها ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أبرز وأظهر ﴿ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 29] ضوء شمسها في النهار الحاصل من تلك الحركات.

﴿وَ﴾ بعدما رتبها كذلك خلق ﴿الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماوات وأعجب في خلقها بأن ﴿دَحَاهَا﴾[1] [النازعات: 30] مهدها وبسطها لمن يسكن عليها

(1) قال الألوسي (22/ 151): لأنها لا تصلح بيانًا لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحينئذ

ويستقر فيها.

وبعد بسطها كذلك ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ حيث فجر فيها عيونًا، وأجرى أنهارًا ﴿وَ﴾ إن ظهر عليها أيضا ﴿مَرْعَاهَا﴾ [النازعات: 31] تقويتًا لمن عليها وما عليها.

﴿وَ﴾ رتب ﴿الْجِبَالَ﴾ الطوال الثقال عليها حتى ﴿أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32] وأثبتها.

وإنما مهدها وبسطها، وأنبت عليها وفجر منها؛ لتكون ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ أي: تمتيعًا لكم عليها ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: 33] أيضًا، فإنها من لواحق معائشكم ومتمماتها.

وبعدما فضل عليكم سبحانه بأنواع الخيرات والبركات ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: 34] والداهية العظمى التي هي عبارة عن قيام الساعة الموعودة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: 35] حيث يعطى لهم صحائف أعمالهم مفصلة فينظرون فيها، ويتذكرون بها جميع ما صدر عنهم من الأعمال الصالحة والفاسدة فيجازون بمقتضاها.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ولاحت ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: 36] أي: لكل من يتأتى منه الرؤية؛ أي: ظهر أمرها، بحيث لا يخفى على أحد.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾[النازعات: 37-46].

ثم قسم الناس حينئذٍ قسمين: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ [النازعات: 37] في

يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى وجوز عطف الأرض بالرفع على (السماء) من حيث المعنى كأنه قيل السماء أشد خلقًا والأرض بعد ذلك أي والأرض بعدما ذكر من السماء أشد خلقاً فيكون وزان قوله تعالى: (دحاها) الخ وزان قوله تعالى: (بناها) الخ وحينئذ فلا يكون بعد ذلك مشعراً بتأخر دحو الأرض عن بناء السماء.

النشأة الأولى.

﴿وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: 38] أي: اختار الحياة المستعارة، الدنيَّة الدنيوية ولوازمها من اللذات والشهوات الفانية على الحياة الأخروية، وما يترتب عليها من اللذات اللدنيَّة الباقية.

﴿فَإِنَّ الجَحِيمَ﴾ المسعرة بنيران غضبهم وشهواتهم ﴿هِيَ المأْوَى﴾ [النازعات: 39] لهم، مقصورة عليهم، لا مأوى لهم سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي الله، ووقوعه في المحشر؛ للحساب، وعرض الأعمال عليه سبحانه والجزاء عليها ﴿وَ﴾ مع خوفه وخشيته ﴿نَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾ [النازعات: 40] أي: كف نفسه عن مقتضياتها التي هي ترديها وتغويها.

﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأْوَى﴾ [النازعات: 41] أي: مأواهم مقصورة على الجنة، وهم فيها أبدًا خالدون لا يتحولون إلَّا إلى ما هو أولى منها، وأعلى درجة ومقامًا.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ وقيامها التي هي من جملة الغيوب التي لا نطلع عن درجاتها ومقاماتها أحدًا عليها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: 42] أي: متى إرساؤها وإقامتها، وفي أيِّ آن إتيانها وقيامها، عيِّن لنا وقتها؟.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: 43] أي: أنت في أيِّ شيء وشأن منها أن تذكر لهم وقتها، أو تعينها، مع أنَّا لا نطلعك على وقتها، سوى أنَّا أوحينا لك آنيتها وثبوتها، وتحقق قيامها، فما لك إلَّا تبليغ ما يُوحى إليك؟!

بل ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: 44] أي: منتهى علمها، وتعيين وقتها إنما هو مفوّض إلى حضرة علم الله، موكول إلى لوح قضائه.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: 45] أي: أنت ما تُبعث إلَّا؛ لإنذار الخائفين الموفقين على الخوف من أهوالها وأفزاعها، لا من المقدِّرين المعيِّنين لوقتها.

وكيف يسع لك هذا التعيين والتقدير؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحدًا عليها؟!

ثم قال سبحانه تهويلاً على المنكرين: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ ويعاينون قيامها تيقنوا حينئذٍ على سبيل الجزم أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا في دار الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾

أي: عشية يوم ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46] أي: ضحى تلك العشية، يعني: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى هول يوم القيامة وطولها.

نعوذ بك من النار وما قرب إليها يا غفّار.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المحقق، الموقِن بقيام الساعة وما فيها من الثواب والعقاب، والجنة والنار أن تزرع في محرثك هذا ما ستحصده هناك من بذور الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية، والأطوار المحمودة، وسائر السنن والآداب المقبولة المأثورة من النبي المختار، وعترته الأخيار الأطهار، لا بدَّ لك أن تكون على ذِكر من قيامها وأهوالها في عموم أحوالك.

وإياك إياك الاغترار بالحياة المستعارة، والالتفات إلى مزخرفات الدنيا الغدارة المكارة، فإنها تمكر بك، وتغويك، وتضلك عن طريق الحق وترديك.

فعليك ألّا تتبع بغوائلها، ولا تنخدع بمخائلها؛ حتى لا تكون من زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].

جعلنا الله من زمرة الآمنين الفائزين، المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة عبس

لا يخفى على من تمكّن بمقر عز الوحدة، وتوطّن في السواد الأعظم اللاهوتي أن علامة التمكين والتثبيت ألّا يبقى للموحد المحقق شيء من لوازم عالم الناسوت، بحيث لا يتكبر على من دونه، ولا يتحسر على من فوقه، بل لم يبق في عين شهوده سدل الاثنينية، ورمد الفوقية والتحتية مطلقًا، بل صار كل في نظر شهوده على السواء، بحيث ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: 3] سيما ترجيح أصحاب الثروة والغفلة، الفاقدين نظر البصيرة والاستبصار على أرباب الإرادة والاعتبار، وإن فقد منهم حس الظاهر.

ثمّ لمّا كان ﷺ مشغوفًا بإيمان رؤساء مكة وصناديدهم ودعوتهم، جلس يومًا من الأيام معهم على سبيل الملاينة رجاء أن يوفقوا للإيمان، ويرغبوا إلى قبول الدعوة، وكان ﷺ يصاحبهم ويداريهم حتى دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم الأعمى ﷺ، ولم يدر مَن هم عنده فقال: يا رسول الله علّمني مما علمك الله، ولم يلتفت إليه ﷺ، واشتغل مع أهل الثروة، فناداه بما نادى مرة بعد أخرى حتى غضب رسول الله ﷺ، وقطب وجهه، فصار عبوسًا فجرى في نجواه ما جرى من لحوق العار، بأن يعيب هؤلاء الصناديد بأن أتباعه ما هي إلّا العجزة والعميان والمساكين.

فكان عليه ﷺ حتى أوحى إليه سبحانه معاتبًا عليه مؤدبًا، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على قلوب أوليائه بمقتضى سعة رحمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بحفظ مرتبتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوقظهم عن غفلتهم.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ

﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: 1-22].

﴿عَبَسَ﴾ وجهه من الكراهة عن المسترشد ﴿وَتَوَلَّى﴾ [عبس: 1] [1] أي: أعرض عنه، وحول صفحة وجهه عنه كارهًا إياه.

وقت ﴿أَن جَاءَهُ﴾ المسترشد ﴿الْأَعْمَى﴾ [عبس: 2] أخرج الكلام سبحانه مع حبيبه ﷺ على طريق الغيبة؛ إظهارًا لكمال الغيرة، والحمية الإلهية عن هذه الغفلة الغير مرضية.

ثمَّ التفت إلى الخطاب؛ لكمال التأديب والتشنيع فقال على سبيل التهويل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وأيّ شيء يكشف لك حاله وقلبه ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: 3] ويتطهر عن الآثام، ويهتدي إلى طريق الإسلام بهدايتك وإرشادك، بخلاف أولئك الجهلة الغفلة الذين تحننت نحوهم، وتحببت دعوتهم، فإنهم لا يهتدون ولا يتطهرون.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويتذكر هذا المريد الفقير من كلامك ﴿فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: 4] والعظة، وتوجّه هو بسببها إلى المولى.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس: 5] عن الله، وأعرض عن تذكيرك ودعوتك مستكبرًا بماله وثروته، وسيادته وكمال نخوته.

﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس: 6] تميل وتتعرض بالإقبال إليه، وتتحنن بكمال المحبة نحوه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليك، ولحِق بك عن المكاره الإمكانية ﴿أَلَّا يَزَّكَّى﴾ [عبس: 7] ولا يتطهر عن خباثة الآثام، وأدناس العصيان حتى يبعثك عن

---

(1) قال الورتجبي: بيّن الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق الفقر إذا كانت سجيّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيّه ﷺ بهذه الآية.

الإعراض عن أهل الحق، وعدم الالتفات نحوهم، مع أن ما عليك إلّا البلاغ والتبليغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ﴾ من أرباب الطلب والإخلاص ﴿يَسْعَىٰ﴾ [عبس: 8] ويسرع بطلب الخير والهداية.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ يَخْشَىٰ﴾ [عبس: 9] عن غضب الله، ويرجو ثوابه.

﴿فَأَنتَ﴾ مع كونك مبعوثًا عن الهداية والإرشاد إلى أصحاب الإرادة والقبول ﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: 10] تتشاغل وتنصرف، كأنك تحقره ولا تبال بشأنه وإيمانه؛ لرثاثة حاله وفقره.

ثمّ بالغ سبحانه في تأديب حبيبه ﷺ وأكده، حيث قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدع عن فعلتك هذه، ولا تمل إلى أصحاب الزيغ والضلال معرضًا عن أرباب الهداية والكمال؛ إذ ما عليك التخيير والاختيار، إن عليك إلّا التبليغ والإنذار ﴿إِنَّهَا﴾ أي: دعوتك وتذكيراتك بالآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: 11] نازلة من ربك، مأمورة لك تبليغها إلى الناس.

﴿فَمَن شَاءَ﴾ سبحانه اتعاظه من عباده ﴿ذَكَرَهُ﴾ [عبس: 12] أي: بالقرآن، ووعظه به سواء كان فقيرًا أو غنيًا.

وكيف لا يوعظ به، مع أنه منزّل من عند الله ﴿فِي صُحُفٍ﴾ نازلة على رسل الله ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: 13] عنده سبحانه؟!

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ مقبولة لديه درجةً ومكانًا، ملقاة من عند الله إلى رسول الله ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: 14].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: 15] أي: ملائكة يتوسلون بين الله ورسله.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزة من عند الله، ذو كرامة على أهل الإيمان ﴿بَرَرَةٍ﴾[1] [عبس: 16] أنقياء مبرورين في أنفسهم، بارين على عباد الله مع هذه الكرامة العظيمة الإلهية، والإشفاق البليغ من لدنه سبحانه، والرحمة العامة من عنده.

(1) قال علاء الدولة: بأيدي كتبة على الله بررة على خلقه بكتابتهم كل ينوون قبل الوقوع من الخير، ولا يكتبون ما ينوّن من السر إلا بعد الوقوع، وهم جمع من الملائكة التي خلقهم الله من رشاش النور المطهر من رأس القلم على لوح العقل، وهم الكتبة وفي هذه سر يتعلق بحد القرآن مما يجب أن يطوي سره.

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾ أي: لُعن وطُرد عن ساحة عز القبول ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17] أي: أيّ شيء حداه وبعثه إلى الإعراض عن الله المنعم المفضل، والانصراف عن طاعته وعبادته، مع أنه عالم بكمال كرامته سبحانه عليه، معترف ببدائع صنعه وصنعته معه، متذكر في نفسه، مستحضر بشئونه وتطوراته السالفة؟!

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿خَلَقَهُ﴾ [عبس: 18] وأوجده حسب قدرته.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة خبيثة ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: 19] أي: هيّأ آلاته وأعضاءه منها، فعدّله وسوّى هيكله، ومن أنّى تكبر وافتخر وبطر؟!

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ الموحد الموصل إلى ربه وموجده الذي هو مبدؤه ومعاده ﴿يَسَّرَهُ﴾ [عبس: 20] وسهّل عليه بأن أفاض عليه، وأودع فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الإلهي؛ ليعرف به مبدأه ومعاده.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ عن نشأة الاختبار والابتلاء تخليصًا وتقريبًا له إلى ربه ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: 21] في البرزخ.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ وتعلق مشيئته للإحياء ﴿أَنشَرَهُ﴾ [عبس: 22] من القبر، وحشره إلى المحشر فحاسبه فجازاه على مقتضى حسابه، خيرًا كان أو شرًا فضلاً منه وعدلاً.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: 23-42].

﴿كَلَّا﴾ ردع له وويل عليه، ما هذا النسيان والكفران لهذه النعم العظام والكرامات الجسام ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي: لم يقض ولم يجر من لدن وجوده وظهوره على ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: 23] الحق به؛ إذ لا يخلو أحد من أفراد الإنسان عن الكفر والكفران، والإثم والعدوان، إلّا أن بعضه متدارك متلاف، قد جبر بالتوبة والإيمان ما

كسر بالكفر، وبعضه مغمور في عصيانه ونسيانه إلى حيث لا يتنبه قط.

وبالجملة: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾[1] [عبس: 24] المسوق له من لدنَّا تفضلاً وتكريمًا؛ لتقويته وتقويم بنيته.

﴿أَنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا كيف ﴿صَبَبْنَا المَاءَ﴾ وأنزلنا من جانب السماء ﴿صَبًّا﴾ [عبس: 25] ترويجًا له، وتهيئةً لأسباب معاشه.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بعدما صببنا الماء عليه ﴿شَقًّا﴾ [عبس: 26] بديعًا.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: 27] من أنواع الحبوب التي يقتات بها الإنسان ﴿وَعِنَبًا﴾ متضمنًا لأنواع الأدم والمشروبات.

﴿وَقَضْبًا﴾ [عبس: 28] نباتًا يُقطع مرة بعد مرة، يعين للأكل.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ [عبس: 29].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿حَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: 30] مملوءة بأنواع الأشجار والثمار.

﴿وَفَاكِهَةً﴾ أي: ألوان الفاكهة وأنواعها وأصنافها ﴿وَأَبًّا﴾ [عبس: 31] علفًا لمواشيه ومراكبه التي بها يتم ترفهه وتنعمه.

وبالجملة: أعطاكم وأحسن إليكم سبحانه ما أعطى وأحسن من النعم العظام، والكرم الجسام؛ ليكون ﴿مَتَاعًا﴾ وتمتيعًا ﴿لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 32] التي بها يتم ترفهكم وتنعمكم، وإنما أنعم عليكم سبحانه؛ لتعرفوا المنعم، وتواظبوا على شكر النعم، وأنتم تكفرون للنعم والمنعم جميعًا.

اذكروا ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: 33] الصيحة المقرعة لصماخكم وأسماعكم.

فحينئذٍ شق عليكم الأمر، وصعب الهول، مع أنه لا نصر يومئذٍ ولا مظاهرة، ولا إغاثة من أحد ولا إعانة، بل ﴿يَوْمَ﴾ أي: يومئذٍ ﴿يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34]

---

(1) أي: فلينظر اللطيفة الغيبية والشهادية المستجمعة في الإنسان الذي أنس علوي وأنس سفلي إلى طعام المركب من الحظوظ العلوية المغلوبة والحقوق السفلية المستكنة في الحظوظ وكيفية اجتماع الأضرار فيه رحمة منا وحكمة منا ليعبر بالرزق الذل جعلنا بسبب حصولها. [عين الحياة].

شقيقه وشقيقته ﴿وَأُمِّهِ﴾ التي يأوي إليها.

﴿وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 35] الذي يظاهر ويفتخر به ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ التي هي أحب إليه من عشائره.

﴿وَبَنِيهِ﴾ [عبس: 36] الذين هم أعز عليه من عموم أقاربه.

وسبب النفرة والفرار: اشتغال كل بحاله بلا التفات منه إلى حال غيره؛ إذ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37] يشغله عن شئون غيره، ويزعجه على الاهتمام به، مع أنه لا يكفه ولا يكفيه.

وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: 38] مضيئة مشرقة، متنورة بنور الإيمان والعرفان.

﴿ضَاحِكَةٌ﴾ فرحًا وسرورًا بلقاء الرحمن ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 39] بعلو الدرجات والمقامات بأنواع السعادات والكرامات.

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: 40] غبار وكدورة ناشئة من أكدار الكفر والكفران، وأنواع الآثام والعصيان.

مظلمة إلى حيث ﴿تَرْهَقُهَا﴾ وتغشيها ﴿قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 41] مذلة وصغار، وذلة وخسارة.

وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز القبول، المكدرون بكدورات الكفر والشرك، وأنواع الفسوق والفجور ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 42] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ونور المعرفة والإيمان بمتابعة القوى البهيمية من الشهوية والغضبية؛ إذ كلتاهما مناط عموم الشرور والخسران.

أعاذنا الله وعموم عباده من شرهما.

خاتمة السورة

عليك أيها المستنشط القاصد لتبشير الحق وتيسره أن تسمع نداء البشارة والتوفيق الإلهي من ألسنة عموم رسل الله وكتبه، فلك أن تقتفي أثر هؤلاء الكرام، وتمتثل بما في كتاب الله العليم العلام من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام والعبر، والتذكيرات الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن عن الميل والإلحاد، إلى

الأمور المؤدية إلى إفساد العقائد والعناد.

فلك إلفرار عن أصحاب الزيغ والضلال، والانصراف عن مخالطتهم ومصاحبتهم في كل حال؛ حتى تكون من زمرة أصحاب المتنعمين في جنات النعيم، لا من الضالين المكذبين المخلدين في دركات الجحيم، المعذبين بالعذاب الأليم.

نسأل منك يا ذا القوة المتين الفوز بدرجات النعيم، والعوذ عن دركات الجحيم يا من فضله وكرمه عميم.

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكوير

لا يخفى على المنكشفين بسطوة سلطنة جلال الله، وقهره الغالب أن قيام الساعة، ووقوع الطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس السوى مطلقًا في جنب القدرة الكاملة الإلهية، إنما هي في غاية اليسر والسهولة، والمنكر المستبعد لها، وللأمور الموعودة فيها مكابرةً عن مقتضى عقله، سيما بعد ورود الوحي الإلهي.

وبالجملة: ليس إنكار المنكر بعد وضوح الآيات، وسطوع البيّنات إلّا من اعتياده بمزخرفات الوهم والخيال اللذين هما من أقوى أسباب الكفر والضلال، ومن خلص عن رقية تلك القوتين، ونجا من غوائلهما وتغريراتهما فقد جزم بوقوع عموم ما أخبر الحق به في هذه السورة بلا تردد وارتياب على الوجه الذي نص عليه سبحانه، وفصّله بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بعموم كمالاته في النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في النشأة الأولى؛ لانبساط وبسط ظلاله على عموم الأشياء ﴿الرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى؛ لقبضه الكل إلى ما منه بدأ.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: 1-14].

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1] [1] يعني: إذا قامت القيامة، ولاحت شمس

---

(1) قال البقلي: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلّي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوّرت شموس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار

الذات الأحدية عن مكمن العماء، وغلبت نشأة اللاهوت على نشأة الناسوت كور الوجود الإضافي المنعكس من الوجود المطلق الإلهي، المنبسط على صفائح مطلق العكوس والأظلال، ولف وطوي، بحيث لم يبق له أثر عند ظهور شمس الحقيقة الحقيّة.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 2] يعني: انقضت واضمحلت حينئذٍ نجوم الهويات، وهياكل المَاهيات الحاصلة من الأوضاع والنسب، والإضافات العدمية الاعتبارية المحضة، بحيث لم يبق لها رسم وأثر عند ظهور الهوية الذاتية الإلهية الحقية.

﴿وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: 3] يعني: سارت وانقلعت، وطارت عن أماكنها جبال الأنواع والأجناس الواقعة في عالم التعينات.

﴿وَإِذَا العِشَارُ﴾ يعني: السحب الماطرة لمياه المعارف، والحقائق الفائضة على أراضي الاستعدادات القابلة لها، اللائقة لفيضانها ﴿عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: 4] وتركت؛ لاضمحلال محالها، وتلاشي قوابلها بانقضاء نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الوُحُوشُ﴾ أي: النفوس المستوحشة الأبية، الوحشية التائهة في بوادي الطبيعة، وقفر الهيولي ﴿حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5] وجمعت إلى ما منه انتشرت وبدت.

﴿وَإِذَا البِحَارُ﴾ أي: البحار الحاصلة من اعتبارات الوجود وشئونه ظاهرًا وباطنًا، غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى ﴿سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 6] جمعت وملئت واتحدت، فيصار بحر الوجود بحرًا واحدًا زخارًا، لا ساحل له أصلاً.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ﴾ يعني: الأرواح الفائضة على هياكل الأشباح من عالم الأمر

الصفات، وسُيِّرت جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطَّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجِّرت بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارف في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة. قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُخمد الجحيم بعد تسعيرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبّار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوبى لمن أثبت في ذلك المقام.

الإلهي ﴿زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: 7] وقرنت يومئذٍ ببواعثها التي هي الأسماء والصفات الإلهية، والأسباب اللاهوتية.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: 8] أي: أبكار المعاني والمعارف الإلهية، المودعة المدفونة في أراضي الطبائع والأركان، مع اتصافها بالحياة الأزلية الأبدية، سُئلت من سكان تلك البقاع، ومن تلك المخدرات الحسان ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ﴾ وجريمة ﴿قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 9] تركت ودفنت، مع أنها إنما جاءت في أراضي الطبائع والاستعدادات، مع أنها إنما حييت وجبلت؛ لكسب أنواع الخيرات، واقتراف أصناف السعادات والكرامات؟!

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ أي: صحائف تفاصيل الأعمال المشتملة على عموم الأماني والآمال، المطوية فيها جميع الأحوال الصادرة من أصحاب الغفلة والضلال ﴿نُشِرَتْ﴾ [التكوير: 10] فرِّقت وكشفت بين أصحابها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الإلهية المتجلية على شئون الظهور والنزول ﴿كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11] طويت وأزيلت عن هذه الشئون إلى شئون البطون والخفاء.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ المعدّ لأصحاب الغفلة والضلال، التائهين في بوادي الجهالات بمتابعة أهويتهم الباطلة، وآرائهم الفاسدة العاطلة ﴿سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: 12] أوقدت وأحميت بنيران غضبهم وشهواتهم التي كانوا عليها في نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾ المعدَّة لأرباب العناية والوصال، المتصفين بالتقوى عن مطلق المحارم، والامتثال بمقتضيات الأوامر والنواهي، وعموم الأحكام الموردة في الكتب الإلهية، المتعلقة بإرشادهم وتكميلهم ﴿أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: 13] قربت وقرنت بهم، بحيث فازوا بعموم ما وعدوا من قِبَل الحق.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14] يعني: علمت حينئذ كل نفس من النفوس المودعة في هياكل الهويات لحكمة المعرفة والتوحيد أيّ شيء أحضرت عند الحساب عليها من الأمور المأمورة لها؛ حتى تجازى بها وعلى مقتضاها.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 15-29].

وبعدما عدَّ سبحانه أحوال القيامة وأهوالها أشار إلى ما يدل على التأكيد والمبالغة في وقوعها فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة إلى القسم؛ لإثبات هذه المذكورات؛ إذ هي في غاية السهولة والظهور عند القدرة الغالبة الإلهية، بل أقسم ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: 15] أي: بالنفوس الزكية عن لوث الناسوت، الراجعة إلى عالم اللاهوت، وحضرة الرحموت قبل قيام الساعة؛ لصفاء مشربها، ونظافة طينتها.

﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: 16] [1] أي: أقسم أيضًا بنفوس الشطار الطائرين إلى الله، المختفين تحت قباب عزه، وشمس ذاته، بحيث لا يعرفهم أحد سواه سبحانه.

﴿وَ﴾ حق ﴿اللَّيْلِ﴾ أي: عالم العمَاء الإلهي ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: 17] أقبل ظلامه واشتد، بحيث اختفى فيه عموم ما ظهر وبطن.

﴿وَ﴾ بحق ﴿الصُّبْحِ﴾ أي: عالم الجلاء المنعكس من ذلك العماء اللاهوتي ﴿إِذَا

---

(1) قال البقلي: أقسم الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستارها بعد تجلّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتدورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيومية إلى عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18] أي: أضاء وأشرق على أهل الفناء الفانين عن الفناء، المتعطشين بزلال البقاء.

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: أقسم سبحانه بهذه المقسمات العظيمة أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ مرسل من قِبَل الله ﴿كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 19] متصف بالكرامة والأمانة؛ يعني: العقل الكل المسمّى بجبريل.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ غالبة على حمل الوحي الإلهي ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ العظيم المحيط بعروش عموم المظاهر ﴿مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20] ذي مرتبة ومكانة عظيمة.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في عالم الأسماء والصفات؛ إذ عموم المدارك والقوى تابعة مطيعة للعقل الكلي الذي هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: 21] حفيظ على الوحي الإلهي بالتوفيق الإلهي، بحيث لا يشذ عنه شيء من أوامره ونواهيه.

﴿وَ﴾ أيضًا أقسم سبحانه بتلك المقسمات على أنه ﴿مَا صَاحِبُكُم﴾ الذي نزل عليه هذا إلّا أمين بهذا الكتاب المبين؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22] ومختل القوى والآلات، كما زعمتم؛ إذ زعمكم هذا بالنسبة إليه ﷺ إنما هو من غاية انحطاطكم عن رتبته، وجهلكم بمكانته، وإلّا فهو ﷺ في أعلى طبقات الإدراك.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون ﷺ في أعلى طبقات الإدراك والمعرفة ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ يعني: علم وعرف ﷺ جبريل الذي هو العقل الكل ﴿بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[1] [التكوير: 23] الذي

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب الوارد الإلهي وهو إشارة إلى: أفق محمد ﷺ خاصة في هذا المقام؛ لأن أفق آدم ﷺ كان متصلاً بأفق نوح، كان متصلاً بأفق إبراهيم، كان متصلاً بأفق موسى، وأفق موسى كان متصلاً بأفق داود، وأفق داود كان متصلاً بأفق عيسى، وأفق عيسى كان متصلاً بأفق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وأفق محمد ﷺ كان متصلاً بالحق وهو أفق الأعلى من طرف الخلق؛ يعني: ليس أفق أعلى من أفقه وهو الأفق المبين من طرف الحق، كما أن المعدن أفقًا إلى حد النبات، وللنبات أفقًا إلى حد الحيوان، وللحيوان أفقًا إلى حد الإنسان، والإنسان صاحب الأفقين العلوين والسفلين ولأجل هذا كان وسطًا وخيرًا، فهكذا صارت أمة محمد ﷺ وسطًا كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:143]، وقال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران:110] وفي حقيقة الأفق سر يتعلق بحد القرآن مما لا يجوز إفشاؤه، هذا بساط قد طويناه.

هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه؟!

﴿وَمَا هُوَ﴾ ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي أطلعه الحق عليه من المعارف والحقائق، والرموز والإشارات المتعلقة بتصفية الظاهر والباطن، وتخلية السر والضمير عن الالتفات إلى الغير مطلقًا ﴿بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: 24] بخيل شحيح، سيما بعدما أمره سبحانه بنشرها وتبليغها، وما هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي، وإلهامه بظنين متهم، يتهمه أحد، وينسبه إلى الافتراء المستبعد عن علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه ﷺ بمراحل.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا هُوَ﴾ يعني: القرآن الذي هو تكلم به، ونزل عليه ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: 25] أي: ما هو شعر وكهانة ناشئة من شياطين الوهم والخيال، كما زعمه أهل الزيغ والضلال المترددين في أودية الجهل والغفلة، وهاوية العناد والجدال.

وبعدما لاح عظم شأن القرآن، ورفعة قدره، وعلو مكانته ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: 26] تعدلون وتنصرفون عن جادة العدالة الإلهية أيها الضالون المضلون؟.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن العظيم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة كبيرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 27] أي: لعموم من جُبل على فطرة التذكر، وقابلية الإرشاد والتكميل.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] أي: عظة وتذكير لمن قصد الاستقامة على صراط العدالة الإلهية، تذكر به واتعظ؛ لإرشاده وهدايته.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ وتختارون طريق الهداية والرشاد لأنفسكم ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتكم، ويوفقكم على الاستقامة والرشاد عنايةً منه وفضلاً؛ إذ عموم أفعالكم إنما هي مستندة إلى الله، صادرة منه سبحانه أصالة؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29] لا مربي في الوجود سواه، ولا مدِّبر في الشهود إلّا هو، ومقتضى تربيته وتكميله: إرشاد عباده وتوفيقهم إلى ما هو أصلح لهم، وأليق بحالهم.

وفقنا بفضلك وجودك بما تحب وترضى أنت عنّا يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتوفيق الحق، وتربيته على الوجه الأصلح الأليق أن تفوّض عموم أمورك، وأعمالك وأحوالك كلها إلى مشيئة الله، وتسلمها إليه سبحانه طوعًا ورغبةً بلا توهم تخيير واختيار منك، وإرادة جزئية أو كلية؛ إذ ليس لك من الأمر شيء، بل الأمور الجارية كلها لله، وبمقتضى تقديره وقضائه، وليس لك إلّا التسليم والرضا بجميع ما جرى عليك من القضاء.

وإياك إياك الاغترار بحياة الدنيا، الفرار الفرار، وما فيها من المزخرفات الخداعة المكارة، فإنها دار العتو والاعتبار، لا منزل الإقامة والقرار، واللائق بحال الفطن الذكي ألّا يتمكن فيها إلّا على وجه الضرورة والاضطرار، لا على سبيل الرضا والاختيار.

جعلنا الله ممن تنبّه ببطلان الدنيا الدنيّة وعموم ما فيها، وعدم ثباتها وقرارها.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الانفطار

لا يخفى على من لاح عليه أثر القدرة العالية الإلهية، وانكشفت دونه غناه سبحانه في ذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته أن جميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هو محكوم كلمة المحكم، وقضائه المبرم، له أن يتصرف فيها ويقلبها كيف يشاء إرادةً واختيارًا، لكنها مرهونة بأوقات، ومسبوقة بأمارات مقدرة من عنده سبحانه.

ومن تلك العلامات ما ذكر سبحانه في هذه السورة بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب قدرته الغالبة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم مظاهره بإعطاء الوجودات الإضافية ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها بخلعها عنها عند ظهور الوحدة الذاتية على صرافتها.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 1-8].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ المعبَّر بها عن العلويات المتأثرات عن الأسماء والصفات الإلهية ﴿انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] انشقت وانخرقت، ولم يبق قابليتها للتأثر والاستمداد من الأسماء والصفات.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ التي تعينت عليها بالهويات، وتكثرت بالهياكل والماهيات ﴿انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 2] وتفرقت أوضاعها، وتلاشت أشكالها وهيئاتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ المستحدثة من صعود الأمواج المتراكمة، المترادفة على بحر الوجود، واتصف كل واحد منها بالصفات المتنوعة، مثل الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، إلى غير ذلك من العوالم التي لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: 3] انفجرت وانفتحت بعضها على بعض، وارتفعت صور الأمواج، واتصل الكل فصار

بحرًا واحدًا وحدانيًا على ما كان أزلاً وأبدًا.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ﴾ المندرسة المتكسة التي لم يبق في أجوافها شيء من أمارات عالم الناسوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: 4] قلبت وبحثرت، وخرج من مطاويها ما فيها من حصة عالم اللاهوت.

﴿عَلِمَتْ﴾ يومئذٍ ﴿نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ في نشأة الاختبار والاعتبار من صوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 5] أهملت وتركت فيها منها.

ثمَّ نادى سبحانه مظهر الإنسان، المصور بصورة الرحمن بداءً معاتبةً وتخجيلاً على ما عرض عليه من الغفلة والنسيان، مع أنه جُبل على فطرة التوحيد والعرفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ المنعم عليك بأنواع الإنعام والإحسان ﴿مَا غَرَّكَ﴾ أي: أيّ شيء خدعك ومكر بك حتى جبرك على الكفر والعصيان ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]؟!

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أوجدك وصوَّرك في أحسن تقويم ﴿فَسَوَّاكَ﴾ أي: سوّى أعضاءك وجوارحك سليمة عن مطلق العيوب.

﴿فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: 7] أي: جعلك معتدل المزاج، متناسب الأعضاء، مطبوع الهيكل.

وبالجملة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8] يعني: في أيّ صورة بديعة عجيبة، ممتازة عن صور عموم الحيوانات تعلّق بها مشيئته وإرادته ركبك عليها؛ أي: انتخب صورتك من صور جميع المظاهر فركبك عليها.

قيل للفضيل بن عياض - قُدِّس سره -: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة، وقال: يا فضيل ما غرّك بربك الكريم، ماذا كنت تقول؟ فقال: أقول: غرني ستورك المرخاة.

وقال يحيى بن معاذ - قُدِّس سره -: لو أقامني سبحانه بين يديه، فقال: يا يحيى ما غرّك بي؟ قلت: غرّني برك بي سالفًا وآنفًا.

وقال أبو بكر الوراق - قُدِّس سره -: لو قال لي: ما غرّك بربك الكريم؟ لقلت: كرم ربي الكريم.

وأنا الفقير الحقير، خادم الفقراء وتراب أقدامهم، أقول لو قال لي ربي: ما غرّك بربك؟ لقلت: كفالتك بي، وكونك سمعي وبصري، وعموم قواي ومشاعري، يا ربي.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: 9-19].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للإنسان عن الغفلة والاغترار بإيراد الأعذار الكاذبة ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ أيها المفترون المسرفون ﴿بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: 9] وترتب الجزاء على أعمالكم وأخلاقكم حسناتها وسيئاتها؛ لذلك اغتررتم بالحياة المستعارة، وفعلتم ما فعلتم من المفاسد والمقابح بشدة الإنكار والإصرار، بلا مبالاة وخشية من القدير العليم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من قِبَل الحق ﴿لَحَافِظِينَ﴾[1] [الانفطار: 10] رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم على التفصيل الذي صدر عنكم.

﴿كِرَامًا﴾ في حفظها، أمناء لا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها؛ لكونهم ﴿كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: 11] مثبتين في صحف أعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 12] فيقررون عليكم وقت حسابكم، ثمّ تجازون على مقتضاها.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ البارين المبرورين ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13] ومسرة دائمة، وفوز عظيم.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ المسرفين المفترين ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 14] معذّبين بعذاب أليم.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 15] والجزاء

(1) لأن بذور البر إذا زرعت خرجت النعيم، وبذور الفجور إذا زرعت أبرزت الجحيم، وإنكم اليوم في الزراعة لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وغدًا في الحصاد فكل أحد يحصد ما يزرع، فالعجب من العاقل أنه يزرع الشوك ويرجو الرطب فليس هذا الغرور إلا من إلقاء الغرور، فاحذّر منه وازرع من مزرعتك خيرًا تحصد رغبته ولا تزرع شرًا لئلا تحصد ندامته. [عين الحياة].

بعدما حوسبوا.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: 16] متحولين مفارقين أبدًا، صاروا فيها خالدين مخلدين.

ثمّ أبهم ذلك اليوم على السامعين تعظيمًا له، وتفخيمًا على سبيل التهويل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك أيها المغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 17] وما شأنه، وشدة هوله وقوته؟!

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ﴾ يا مغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 18] وما يجري عليك فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الهموم والأحزان؟!

وبالجملة: يوم، وأيّ يوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ ترفع وتدفع ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ﴾ حميم لحميم، أو صديق لصديق ﴿شَيْئًا﴾ مما حكم عليها واستحق بها من الجزاء، بل كل نفس رهينة ما كسبت، مشغولة بما اقترفت، بلا التفات إلى غيرها من شدة هوله وحزنه ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: أمور العباد وما جرى عليهم من الثواب والعقاب كلها ﴿يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[1] [الانفطار: 19] مختصّة به، موكولة لمشيئته، مفوضة إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً، لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد.

---

(1) قال السمناني: اليوم أيضاً لله، ولكنهم سبب اختيارهم الذي أعطاهم الله محجوبون عن المختار الحقيقي الوهاب لكل أحد اختياره، فإذا نزع عنهم الاستعداد وأخذ الاختيار فعرفوا في ذلك الوقت أن ليس لهم اختيار، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وأقروا أن الأمر بيد الله وهو المريد المختار الفعال لما يريد ولا ينفعهم في ذلك الوقت الإقرار، فالواجب عليك أيها السالك، أن تجتهد في أن تشاهد اليوم مختاريته ومضطريتك وتعلم أن الأمر كله بيد الله يبطش ويأخذ، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحكم ما يريد، وتلتجئ إلى حضرته بالتمسك والعجز ليرحمك إن شاء الله، ولا يمكن هذا إلا بترك اختيارك وتسليمك إلى شيخك؛ ليوصلك إلى الاختيارية الحقيقية إن شاء الله، ولأجل هذا السر يحتاج إلى بشر مثلك؛ لينذرك ويبشرك ويهديك إلى ربك، ولأجل هذا تُلي على زبدة الكائنات عليه أزكى التحيات وأزكى الصلوات بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110] وهذه سنة سنها الله تعالى ولن تجد لسنته تبديلاً، من يرد أن يصل إلى الله؛ فليذ بأذيال متابعة حبيبه، ومن يرد أن يصل إلى حبيبه فليعتصم بحبل ولايته ويشاهد ولايته، فليترك اختياره وإرادته وإلا فلا يلعب بالتوراة إن لم يكن يهوديًا صرفًا، والله إن منادي الحق ينادي دائمًا من الصباح إلى الرواح.

اصنع بنا ما أنت أهل به يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب بفضل الحق ولطفه في يوم الجزاء أن تفوض أمورك كلها إلى الله في نشأتك هذه، وتقوم بين يدي الله في كل الأحوال، وتنخلع عن مقتضيات ناسوتك في عموم الشئون والأطوار الطارئة عليكم على تعاقب الأدوار في مدة حياتك المستعارة.

وإياك إياك الاغترار بخداع هذه الغدارة المكارة، فاعتبر من أهل هذه الدار إن كنت من ذوي العبرة والاستبصار، فاعبر عنها، فإنها ما هي دار القرار، بل منزل الخبرة والاعتبار ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المطففين

لا يخفى على من تمكن في جادة العدالة الإلهية، ورسخ قدم عزمه وهمته على صراط الاستقامة الحقية، الموصلة إلى ينبوع بحر الوحدة الذاتية أن الانحراف والميل عن مقتضى القسط والإنصاف الإلهي إنما هو من طغيان القوى البهيمية، واستيلاء شياطين الأمارة على جنوده المطمئنة، وغلبة مقتضيات لوازم الإمكان، ولواحق الطبيعة المورث لأنواع الخذلان والخسران.

ولاشك أن طريان هذه الخصال المذمومة إنما نشأ من متابعة الهوى، والركون إلى مزخرفات الدنيا، ومن جملتها: البخس والتطفيف في المكايل والموازين الموضوعة؛ لحفظ الاعتدال؛ ولمراعاة الاتصاف والانتصاف بين المسلمين، من عدل عنها مفرِطًا أو مفرِّطًا فقد استحق الويل الأبدي، والهلاك السرمدي، كما قال سبحانه متيمنًا باسمه: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المستوي على صراط العدالة والتقويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بوضع القسطاس المستقيم القويم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى صراط مستقيم.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: 1-9].

﴿وَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب أليم ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1] الذين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون حقوق الناس، سمّاهم سبحانه مطففين؛ لأنهم يسرقون من الحقوق طفيفًا حقيرًا على وجه الدناءة والخساسة، وهو لمن أخس الأفعال الذميمة، وأدناها وأخبثها.

في الحديث - صلوات الله وسلامه على قائله -: «ما نقض العهد قوم إلّا سلّط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عليهم القطر»[1]، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم لأنفسهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: 2] ويزيدون على المكيال قليلاً قليلاً ترجيحًا لأنفسهم عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي: للناس ﴿أَو وَزَنُوهُمْ﴾ لأجلهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾[2] [المطففين: 3] يُنقصون منه قليلاً قليلاً ترجيحًا لغبطتهم عليهم، مع أن الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل.

ثمّ قال سبحانه على وجه التعجب والتشنيع: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ بل يستيقن ﴿أُولَئِكَ﴾ المسرفون المفرطون بارتكاب هذه الخصلة الذميمة ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: 4]؟!

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: 5] لعظم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الأفزاع والأحزان، سيما على أهل العصيان؛ إذ يفتضحون على رءوس الأشهاد.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بأجمعهم؛ لأجل العرض ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] ليحكم عليهم سبحانه على مقتضى السؤال والحساب، إمّا بالجنة وإمّا بالنار.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للمطففين بفجورهم، وخروجهم عن مقتضى العدالة الإلهية الموضوعة فيما بينهم بالقسط؛ يعني: كيف يخرجون عن مقتضاها ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ أي: ثبت فيه تفاصيل أعمالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وأطوارهم المذمومة كلها مضبوطة محفوظة فيه، محكوم عليهم من قِبَل الحق بمقتضى ما في كتبهم أنهم

---

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (379/5).

(2) قال علاء الدولة: يعني: يكيلون على الحفظة أعمالهم الناقصة، ويزنون حظوظ القوى من القوى السفلية في التفكر في آلاء الله ونعمائه، والاعتبار بما في عالم الآفاق، واستماع المواعظ بوزن خاسر، ويستوفون حظوظها من القوى العلوية من الحياة والعقل وغيرهما مما نكب بها نفسها بالحظوظ العاجلة على وفق سواها، ولولاها لكانت مثل البهائم في جذب النافع ودفع المضار عن نفسه، وخسران وزنهم يرجع إلى أعمالهم الباطنة مثل: الحضور، والإخلاص، والصدق، والنية، والتوجه وأمثالها، وخسران كيلهم يرجع إلى الأعمال التي تتعلق بالحواس الظاهرة مثل: أركان الصلاة، والإمساك والشرب، وإيتاء الزكاة وأشبهها.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7] أي: مقرهم في الدرك الأسفل من النار؟!

ثمّ أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المسرف المفرط ﴿مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: 8] ما لم تقع فيه، ولم تذق من عذابه ونكاله؟!

وبالجملة: كتاب الفجار ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: 9] مسطور بين الرقوم والرسوم، يعرفه من نظر إليه ألّا خير فيه، ولا نفع في ضمنه، بل إنما هو مشعر بأنواع العذاب والعقاب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: 10-17].

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم أُعطي ذلك الكتاب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: 10] له في النشأة الأولى، وبواسطة تكذيبهم وإنكارهم به يرتكبون من الجرائم والمعاصي ما لا يُعدّ ولا يُحصى.

يعني: وهم ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: 11] والجزاء بجميع الأمور الأخروية من السؤال والحساب، وإعطاء الكتب وسائر المعتقدات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ سيما بعد نزول الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة من قِبَل الحق بالحق على أهل الحق ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحد في الإفراط والغلو، منكر لكمال قدرة الله وإحاطة علمه، حتى أنكر القدرة على الإعادة، مع أن الإبداء الإبداعي مقدور قدرته الغالبة أيضًا ﴿أَثِيمٍ﴾ [المطففين: 12] مبالغ في الجهل والغفلة بارتكاب الشهوات، المعمية لقلوب بصائره عن إدراك آيات القدرة الغالبة الإلهية، الفانية للحصر والإحصاء.

مع أن كل واحدة من تلك الآثار دليل مستقل على الإعادة عند المتأمل المنصف، إلّا أن المنكر مكابر عن مقتضى عقله، وما أجراه وأغراه على الإنكار والإصرار إلّا شياطين الأوهام والخيالات الموروثة له من إلف الطبيعة، ورسوخ العادات المبنية على التقليدات الراسخة، المتقررة في قلوب أصحاب الغفلة والضلال.

لذلك ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا، واستقلالنا في عموم المرادات والتصرفات الواقعة في ملكنا وملكوتنا ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله، ونهاية غفلته وإعراضه عن الحق وأهله: ما هي إلَّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: 13] أي: أكاذيبهم المسطورة في دواوينهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن هذا الافتراء والمراء على سبيل الإنكار والاستهزاء؛ يعني: ما هذه الآيات البيِّنات من المفتريات، كما زعمها أولئك البغاة الطغاة الهالكين في تيه البغي والطغيان، والغي والعدوان ﴿بَلْ رَانَ﴾ يعني: حدث في نفوسهم رين الغفلة، وصدأ الجهل والضلال، وازداد وغلب حتى علا وأحاط ﴿عَلَى قُلُوبِهِم﴾ فكسفها وكدرها إلى حيث أظلمها وأسودها، ولم يبق فيها لمعة من بياض نور الإيمان، وما ذلك إلَّا بسبب ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14] من المعاصي، والشهوات المذهبة لجودة الفطرة الأصلية، والفطنة الجبلية التي فطروا عليها في أصل الخلقة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم عن اقتراف الرين المصدئ لقلوبهم، كيف يكسبونه، مع أنهم جبلوا على فطرة الإيمان والتوحيد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفسدون المسرفون ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ الذي ربّاهم لمصلحة المعرفة والإيمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم اقتراف المعاصي الرائنة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15] [1] عن الله، وظهور نوره اللامع في صفائح الأنفس والآفاق، مع أنه لا سترة له سبحانه، ولا حجاب في حال من الأحوال، إلَّا أن خفافيش بقعة الإمكان لا يرون شمس ذاته اللامعة بواسطة غيوم هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ بعدما حجبوا عن الله، وحرموا عن مطالعة وجهه الكريم ﴿لَصَالُوا

---

(1) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمّا محلّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأمّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحِسّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

الجَحِيمِ﴾ [المطففين: 16] أي: داخلوها وخالدون فيها أبدًا.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تعييرًا وتشديدًا لعذابه من قِبَل الحق حينئذٍ: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: 17] مصرون على تكذيبه وإنكاره، بل مستهزئون به متهكمون.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ (٢٠) يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ [المطففين: 18-28].

ثمّ كرر سبحانه لفظة: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم بعد ردع، تأكيدًا وتقريعًا، وليكون توطئة وتمهيدًا لتعقيب وعيدهم بوعد المؤمنين، مع أن في هذا التعقيب زيادة زجر وتقريع عليهم بما اقترفوا من الآثام والعصيان، المؤدية إلى دار الندامة والحرمان ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ﴾ أي: ما كتب فيه عموم آثارهم الصالحة، الصادرة عنهم إيمانًا واحتسابًا، ثقة بالله، وخوفًا من غضبه، محفوظة فيه جميع ما ذكر، محكوم عليهم بمقتضى ما فيه، إنهم ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18] أي: متمكنون في أعلى درجات الجنة، وأرفع مقاماتها.

ثمّ أبهمه سبحانه تعظيمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها البار المبرور ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: 19] وما شأنه الرفيع، ومكانته البديعة، وما فيها من اللذات الروحانية التي من لم يذقها لم يعرفها؟!

رزقنا الله الوصول إليها، والحصول دونها.

وبالجملة: كتاب الأبرار ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: 20] بين الرقم والرسوم.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 21] أي: أرباب العناية والتوفيق، فيعلمون أن ما فيه خير كله بمجرد رؤيتهم وشهودهم في بادئ النظر.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾ البارين على الله، المبرورين بين الناس ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: 22] مقيم.

متكئين ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ المصورة من صالحات أعمالهم، وصفاء عقائدهم وأخلاقهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: 23] إلى ما يسرهم ويفرحهم من الصور الحسنة،

والمنتزهات البديعة.

بحيث ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ في بادئ الرأي ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24] بهجة التنعم، وبرق الرضا والتسليم.

ومع ذلك ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ خمر من خمور المحبة والولاء ﴿مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: 25] مطبوع على غيرهم، بحيث لا يشمون روائحها أصلاً.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: روائحه الواصلة لهم منّا قبل كشفهم عنه ختامه كالمسك، بلا كراهة وبشاعة، كخمور الدنيا ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في رحيق التحقيق، وكأس المحبة والتصديق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26] أي: فليرغب الراغبون؛ لنفاسته وسرعة سوغه وانحداره، وكمال لذته وذوقه.

﴿وَمِزَاجُهُ﴾ أي: ما يخرج به، ويخلط من ماء المعارف والحقائق منتشيًا ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: 27] مقام عال، وهو ينبوع بحر الوجود الذي هو الوحدة الذاتية الإلهية.

فكان ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 28] أي: يشرب من عذبها وفراتها مَنْ تقرب نحو الحق باليقين الحقي، فإنهم يشربون من عين الوحدة بلا مزج وخلط.

ذقنا حلاوة نعيمك، وبرد يقينك، وشربة تسنيمك يا خير الرازقين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين: 29-36].

﴿إِنَّ﴾ المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالجرائم العظام الموجبة لأنواع الانتقام، من جملتها: إنهم ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 29] ويستهزئون بفقراء المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ متهكمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 30] أي: يغمز بعضهم بعضهم، ويشيرون بأعينهم كبرًا عليهم وخيلاءً.

﴿وَإِذَا انقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمُ﴾ وأماكنهم وإخوانهم ﴿انقَلَبُوا﴾ وصاروا ﴿فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 31] متلذذين متهكمين بما رأوا من شيم المؤمنين من صلاتهم وخشوعهم فيها، وتضرعهم واستكانتهم، وتواضعهم مع إخوانهم.

﴿وَ﴾ هم من شدة شكيمتهم وغيظهم ﴿إِذَا﴾ مروا ﴿رَأَوْهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ متهكمين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ السفلة المستحسنين ﴿لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: 32] منحرفون عن مقتضى الرشد والهداية بمتابعة هذا المجنون؛ يعنون: الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ هم يقولون هكذا من كمال ضلالهم في أنفسهم، بل من حسدهم عليهم، مع أنهم ﴿مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ [المطففين: 33] يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون بهدايتهم وضلالهم، بل الأمر بالعكس.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: اليوم الموعود المعهود الذي هو يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بالآخرة، وبجميع الأمور الموعودة فيها ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ المصرين على العناد والإنكار ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34] أي: يضحك المؤمنون يومئذٍ عكس ما كانوا عليه في النشأة الأولى؛ إذ يرونهم أذلاء صاغرين، مغلولين في نار القطيعة، معذبين بأنواع المحن.

مع أن المؤمنين حينئذٍ متكئين ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ المعدة لهم جزاء ما يتكلون على الله، ويتكئون إلى فضله وإحسانه، مواظبين على أداء المأمورات وترك المنكرات، صابرين على متاعب الطاعات ومشاق التكاليف القالعة لعرق المستلذات الجسمانية، والمشتهيات النفسانية ﴿يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: 35] حينئذٍ بنور الإيمان، وصفاء اليقين والعرفان إلى وخامة ما فيه أصحاب الكفر والكفران، ويشكرون بنعمة الإيمان والإحسان.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ وقد جوزوا يومئذٍ بأسوأ الجزاء؛ بسبب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] [المطففين: 36] من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، وضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم فيما بينهم بعيونهم تهكمًا عليهم.

---

(1) قال السمناني: يعني: هل جزاء استهزائهم بالمؤمنين إلا هزاء، فعليك يا سالك الطريقة أن تستهزئ بالقوى المجرمة، وشاهد نعمك لنعمل بالنعيم المقيم عملاً صالحًا؛ ليكون غدًا من المقربين الشاربين رحيق المحبة الممزوجة بنسيم ريق الساقي إن شاء الله تعالى.

جعلنا الله ممن بصَّره بعيوب نفسه، وأعماه عن عيوب غيره بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب على تربية النفس، المداوم على تهذيب الأخلاق أن تصفي نفسك عن مطلق الرذائل المنافية لصفاء مشرب التوحيد، وتخلصها عن عموم القيود الإمكانية المتولدة من طغيان الطبيعة، وتُحليها بمحاسن الأخلاق والأطوار المناسبة للفطرة الأصلية التي جبلت عليها في مبدأ خلقك، فلك الاتكال على الله، والفرار من على أصحاب الغفلة والضلال.

وإياك إياك أن تخالطهم وتجالس معهم؛ لأن صحبة الأشرار تُميت القلوب، وتؤثر في السر، وتُذهب جودة الفطنة، وتكدر صفاء مشرب الوحدة، وتُزيد الوحشة، وتورث النسيان المستلزم لأنواع الخسران والحرمان.

جعلنا الله ممن أذاقه حلاوة خلوته، وأنسه مع وحدته.

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الانشقاق

لا يخفى على من سلك عن مضيق الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وتوجه إلى كعبة الوحدة مهاجرًا عن عالم الكثرة أن العود والرجوع إنما هو على مقتضى البدء والظهور، وأن التدلي والارتفاع إنما هو على طبق التدني والانحطاط، فكما نزلت نفس الإنسان، وهبطت روحه في النشأة الأولى من سماء الأسماء المعبر بعالم اللاهوت، المقدس عن شوائب النقص، وسمات الحدوث مطلقًا إلى عالم الطبيعة والهيولي المكدَّرة بأنواع الكدورات، كذلك صعدت نحوها منها بعدما وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه.

وللصعود والعروج علامات وأوقات قدرها الله العليم الحكيم في سابق علمه، ولوح قضائه، ولم يُطلع أحدًا على وقته، بل أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض علاماته وأماراته فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر في بدء الوجود بمقتضى الجود ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإمدادها وإبقائها إلى اليوم الموعود ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)﴾ [الانشقاق: 1-12].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء عالم الطبيعة والأركان ﴿انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] وانخرقت؛ لتصعد وتعرج الأرواح الفائضة إلى الأشباح نحو سماء الأسماء والصفات بعد خرق التعينات، ورفع الإضافات.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أصغت وانقادت لحكم ربها وأمره الذي مضى على

انشقاقها ﴿وَ﴾ بعدما أمرت ﴿حُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2] لها، ولاقت بحالها أن امتثلت بالمأمور وانقادت.

﴿وَإِذَا الأَرْضُ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولي القابلة المجبولة لانعكاس تأثيرات سماء الأسماء والصفات ﴿مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: 3] امتدت وانبسطت لقبول مطاويها.

﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت فظهرت ﴿مَا فِيهَا﴾ من التقوى المودعة القابلة لفيضان أنوار الذات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: 4] عن حفظ الأمانات الإلهية.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 5] لها للاستئذان والإصغاء، ولاقتضاء مرتبة العبودية ذلك، حينئذٍ انكشفت لها جزاء ما كسبت واقترفت في نشأة الاختبار.

ثمّ نادى سبحانه الإنسان نداء تنبيه وتخطية، وتحريك حمية فطرية، وسلسلة جبلية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ المصور على صورة الرحمن، المنتخب من بين سائر المظاهر لحكمة الخلافة والنيابة، ومصلحة المعرفة في التوحيد، فاعرف قدرك، ولا تغفل عن حقيقتك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ساعٍ للتقرب والتوحيد ﴿إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ وسعيًا منتهيًا إلى إفناء هويتك في هوية الحق، وبالجملة: ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6] يعني: أنت ملاقٍ ربك بمقتضى سعيك واجتهادك، فلك ألّا تفترق ما يوصلك إليه، ويفنيك فيه بعد جذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه؛ لتكون من أرباب اليمن والكرامة، الموسومين بأصحاب اليمين، المؤتين لهم صحف أعمالهم من قِبَل أيمانهم التي هي علامة إيمانهم وعرفانهم.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ المطوي المشتمل على تفاصيل ما صدر عنه ﴿بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: 7] الذي هو عنوان اليُمن والكرامة والرضوان.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] سهلاً سريعًا.

﴿وَيَنقَلِبُ﴾ ويرجع بعد الحساب ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ الذي هم رفقاؤه في سبيل السعادة والكرامة ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 9] مبسوطًا فرحانًا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: 10] الذي هو عنوان الشقاوة، ودليل العتاب والعقاب، وأنواع الملامة والندامة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو﴾ ويتمنى ﴿ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: 11] ويلاً وهلاكًا؛ لصعوبة حسابه،

وغلبة سيئاته على حسناته.

﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿يَصْلَى﴾ ويطرح صاغرًا ذليلاً ﴿سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: 12] مسعرًا بنيران الشهوات والغفلات الصادرة منه بمتابعة الأوهام والخيالات، وأنواع الضلال والجهالات الناشئة من القوى البهيمية الحاصلة من طغيان الطبيعة.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: 13-25].

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في دار الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 13] بطرًا فرحانًا، فخورًا بالمال والجاه، والثروة والسيادة، متفوقًا على الأقران، يمشي على الأرض خيلاء.

وإنما حمله عليه ﴿إِنَّهُ ظَنَّ﴾ بل تيقن جهلاً وعنادًا ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: 14] أي: لن ينقلب ويرجع إلى الله، ولن يقوم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء؛ لذلك اجترأ من المعاصي.

ثمّ قال سبحانه: ﴿بَلَى﴾ ردعًا عما قبله، وتصديقًا لما بعده على سبيل التعريض ﴿إِنَّ رَبَّهُ﴾ الذي ربّاه على فطرة المعرفة، وجبله على نشأة التوحيد ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: 15] عالمًا بتفاصيل أعماله الصادرة عنه على وجه الخبرة والبصارة، بحيث لا يشذ عن حيطة علمه شيء من أعماله وأحواله، فلا يهمله، بل يعيده ويجازيه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لإتيان يوم القيامة، وإثبات ما فيها من الثواب والعقاب، والجزاء والحساب وغير ذلك؛ إذ هي أمور ظاهرة مكشوفة عند ذوي الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى بحر الوحدة، وينبوع الحقيقة، بل أقسم ﴿بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: 16] المنبئ عن الشفقة والترحم الإلهي، وهو البياض المعترض من أفق عالم اللاهوت عند انقضاء نشأة الناسوت، حين حكم سبحانه بانطواء سجلات عموم التعينات والهويات.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: أُقسم بالليل؛ أي: مرتبة العماء الإلهي ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: 17] أي: ضم وجمع من الأنوار المنعكسة إليها هياكل الأشباح.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ أي: أُقسم أيضًا بالقمر؛ أي: الوجود الكلي الإضافي، المنبسط على مرآة العدم المنعكس من شمس الذات الأحدية المتشعشعة، المتجلية عن مطلع الفضاء اللاهوتية ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 18] تم وعمم، وشمل الكل، وصار بدرًا كاملاً بلا نقصان.

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها المكلفون، ولتطرحن في نار القطيعة والحرمان ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزًا ﴿عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 19][1] بعيدًا عنه، متجاوزًا في شدة الأهوال والأفزاع، وبعد الغور والطور في الحرقة، وأنواع العذاب والنكال.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام لدخلتم في طبقات النيران لو كفرتم بالله وعصيتم أمره، وخرجتم عن مقتضى حدوده وأحكامه.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من الصادق الصدوق ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليهم ولحقهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: 20] ولا يتصفون بالانقياد والتسليم، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من قِبَل الحق على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ من كمال غفلتهم عن الله، وضلالهم عن سنن الهداية والرشاد ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ المبين لطريق الحق، وسبيل الإيمان والعرفان ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: 21] لا يخضعون ولا يتذللون، مع أنه إنما نزل؛ لهدايتهم وإرشادهم عنادًا ومكابرةً، فكيف التذلل والخضوع؟!

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: 22] به وبمنزله، وبمن أُنزل إليه جميعًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بما في ضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق: 23] أي: بعموم ما يضمرونه في نفوسهم من الكفر والكفران، وأنواع البغي والعدوان، والغفلة والطغيان، يجازيهم على مقتضى علمه بهم، وخبرته بما في نفوسهم.

(1) قال التستري في تفسيره (254/2): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كنتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

وبالجملة: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا أكمل الرسل بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: 24] نازل عليهم حين أُخذوا بعصيانهم وآثامهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منهم، وخرجوا عن ورطة الطغيان مستمسكين بعروة الإيمان، متشبثين بحبل القرآن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] [الانشقاق: 25] أي: غير مقطوع ومنقوص، إن أخلصوا في إيمانهم وإذعانهم.

اصنع بنا ما أنت به أهل يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المجبول على فطرة الإيمان والعرفان - مكنك الله فيما يسّر لك، وثبتك عليه - أن تتمسك بحبل التوفيق الإلهي، وتتشبث بأذيال همم أرباب التحقيق من الأنبياء والرسل الهادين المهديين، والأولياء الألباء المهتديين لهدايتهم؛ إذ هم خلاصة الوجود، وزبدة أرباب الكشف والشهود.

فلك أن تتخلق بأخلاقهم، وتقتفي بآثارهم المأثورة عنهم، وتسترشد من المرشد الرشيد الذي هو القرآن المجيد الموصل لأرباب التوفيق إلى زلال التوحيد، المسقط لأنواع التقاليد الراسخة في قلوب أصحاب الغفلة والتخمين.

فلك أن تتأمل ظاهره وباطنه، وحده ومطلعه؛ حتى تتوسل بها إلى ما فوقها من الرموز التي وهبها سبحانه، وجاد بها لبعض النفوس القدسية الفانية في قدس الذات الباقية ببقائها.

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

(1) قال علاء الدولة: أي: غير مقطوع ولا منقوص، فعليك أيها السالك أن تخضع لأمر الحق، وتصدق الآيات الأنفسية التي تطرأ عليك والقرآن الذي يقرأ عليك لطيفتك السرية؛ وتؤمن بالحق الذي أنزل عليك، وتعمل بما فيه ليكون لك أجرًا غير منون.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة البروج

لا يخفى على من تحقق بسماء الأسماء اللاهوتية المشتملة على بروج عالم الجبروت، وقصور مملكة الملكوت الموهوبة لسكانها من حضرة الرحموت أن الوصول إليها والحصول دونها إنما يتيسر للمستوحشين عن لوازم الإمكان، ومقتضيات نشأة الناسوت، المستأنسين بسكان عالم اللاهوت، وسواد أعظم الفقر.

ولاشك أن الاستئناس معهم إنما يحصل بجذبة غالبة، وخطفة جالبة إلهية، والجذبة الإلهية مسبوقة بالمحبة المفرطة، والمودة المزعجة إلى الفناء في المحبوب الحقيقي، والمحبة إنما تنشأ من الشوق الغالب الجالب، والشوق إنما ينبعث من الإرادة والطلب الصادر عن العزيمة المذكورة الخالصة، والعزيمة ما خلصت وصفت عن أكدار الطبيعة إلّا بالخلوة والعزلة عن الناس، ودوام العفة والقناعة، ومقارنة الرضا والتسليم، والتفويض والتوكل على وجه التبتل إلى العليم الحكيم.

فالكل مسبوق برفاقة التوفيق، والتصبر على متاعب الطاعات، ومشاق العبادات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية المورثة من القوى الطبيعية.

والمنهمكون في بحر الغفلة والضلال لا يتيسر لهم الاستئناس بالكبير المتعال؛ لذلك لُعنوا وطُردوا عن ساحة عز القبول والحصول على وجه المبالغة والتأكيد، كما قال سبحانه في شأن طردهم ولعنهم مقسمًا بالأمور العظام، متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي في عموم المجالي بمقتضى أسمائه وصفاته إظهارًا للقدرة الكاملة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ للكل تتميمًا لتربيته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان تعظيمًا لحكمته ومصلحته المودعة في نشأته.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩﴾[البروج: 1-9].

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء والصفات المتشعشعة المتجلية في عالم اللاهوت ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] من النفوس القدسية القابلة لانعكاسها وتشعشعها، المستعدة لفيضان أنوارها الذاتية.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ [البروج: 2] للانجلاء الكامل، والانكشاف التام المنعكس عن عالم العماء عند ارتفاع سدل الأسماء والصفات عن البين.

﴿وَ﴾ اتحاد ﴿شَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ [البروج: 3] [1] في العين، إنكم أيها المحجوبون عن الله، المطرودون عن ساحة عز حضوره، الملعونون مردودون عن كنف قربه وجواره؛ يعني: كفار مكة - لعنهم الله - لأن السورة نازلة في تثبيت المؤمنين على أذاهم.

كما ﴿قُتِلَ﴾ ولُعن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: 4] الخد: الشق في الأرض وغيرها.

رُوي أنه كان لملك ساحر فكبر، فضم إليه غلامًا؛ ليعلمه، وكان في طريق الغلام

---

(1) قال الورتجبي: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ بالحقيقة، وأيضًا الشاهد هو، إذا تجلى بتجلي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضًا الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهدها بنعت الكشف، وأيضًا الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده، قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علمًا وقدرةً ورؤية، وتصريفًا في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر آباد وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقودًا أبدًا، أو يستحيل أن يكون البارئ مفقودًا، قال فارس: كلاهما عائدٌ عليه هو الناظر، والمنظور إليه، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه، قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوّن ولا قاربه، قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لى نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهدًا، فلو ثبت مشهودًا غير نفسه من الحدثان، فإذًا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوّنات، وكيفية وجودها، فإذًا وجودها وعدمها سواءٌ في شهود الحق.

راهب يستمع منه كلامًا، فرأى في طريقه يومًا حية حبست الناس، فأخذ الغلام حجرًا فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي المريض، فعمي جليس للملك، فابرأه، فأسلم، فسأله الملك: من أبرأك؟ فقال: ربي.

فغضب الملك عليه، فعذبه فدل على الغلام، فعذبه فدل على الراهب، فقده بالمنشار، وذهب بالغلام إلى جبل؛ ليُطرح من أعلاه، فرجف بالقوم، فطاحوا ونجا الغلام، فذهب به إلى سفينة؛ ليغرق، فاكفأت السفينة بمن معه ونجا.

وقال الغلام للملك: لست بقاتلي حتى تأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول: بسم الله رب الغلام، ثمَّ ترميني به، فرماه فقال: بسم الله رب الغلام، فأصاب صدغه، فوضع عليه يده فمات، فآمن الناس.

وقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بحفر أخاديد، فأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة مع صبي رضيع، فتقاعست فقال الرضيع بإلهام الله إياه، مع أنه في غير أوان تكلمه، مثل عيسى النبي - صلوات الله عليه -: يا أماه اصبري، فإنك على الحق، فاقتُحمت في ﴿النَّارِ﴾ بدل من لفظه: الأخدود، بدل الاشتمال ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: 5] والحطب الكثير تهويلاً عليهم بشدة التهابها وسورتها؛ لينزجروا عما اختاروا، ويعودوا عن الإسلام والتوحيد.

ثمَّ لمّا طُرح المؤمنون فيها التهبت النار التهابًا شديدًا، وخرجت على أطرافها فأحرقت كثيرًا من صناديد أولئك الظلمة ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ وفي أطرافها ﴿قُعُودٌ﴾ [البروج: 6] قاعدون على الكراسي حول النار.

﴿وَهُمْ﴾ أي: رؤساؤهم ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: الموكلون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الأخذ والإفناء ﴿شُهُودٌ﴾ [البروج: 7] عدول مشرفون من قِبَل الملك، أمناء من جانبه، أقعدهم حولها؛ لئلا يتهاون الأعونة في إهلاك المؤمنين، وطرحهم في النار.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وانتقموا أولئك الظالمون المنهمكون في بحر الغي والعدوان ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المؤمنين بهذا الانتقام الصعب الهائل ﴿إِلَّا﴾ أنهم كرهوا منهم، واستكرهوا عليهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحي القيوم، الحقيق بالإيمان والإطاعة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب القاهر على من دونه من السّوى والأغيار مطلقًا ﴿الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8] المستحق لأصناف الأثنية والمحامد استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا.

وكيف لا يكون سبحانه عزيزًا حميدًا، مع أنه القادر ﴿الَّذِي لَهُ﴾ وفي حيطة قدرته وإرادته ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مظاهر العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات؟! ﴿وَ﴾ كيف لا، هو ﴿اللهُ﴾ المستقل بالألوهية والوجود ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق وجوده ﴿شَهِيدٌ﴾ [البروج: 9] حاضر غير مغيب؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ
(١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ
(١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)
فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ
مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)﴾ [البروج: 10-22].

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ وأحرقوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظلمًا وعدوانًا، كراهة هدايتهم وإيمانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما فعلوا من الإفراط والإسراف ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ إلى الله، ولم يرجعوا نحوه سبحانه عن ظلمهم، ولم يستغفروا نادمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان عن حضور الحنّان المنّان ﴿وَلَهُمْ﴾ ولحق بهم؛ بسبب كفرهم بالله، وإنكارهم توحيده ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10] بدل ما فعلوا بالمؤمنين من حرقهم في الأخاديد.

ثمّ عقب سبحانه وعيدهم بوعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَ﴾ أكدوا إيمانهم بأن ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقرونة بالإخلاص في النيات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم جزاء إيمانهم وأعمالهم تفضلاً عليهم ﴿جَنَّاتٌ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر الحقيقة، وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ القول العظيم الشأن، البعيد رفعةً ومكانةً عن أفهام الأنام هو ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11] والفضل العظيم الذي لا فوز أعظم منه وأرفع.

ثمّ أشار سبحانه إلى تهديد أصحاب الضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال، مخاطبًا لحبيبه ﷺ فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وأخذه بالعنف لعصاة عباده المائلين عن سبيل سداده، وجادة رشاده ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12] بحيث لا يقاس على شدة بطشه، وتضاعف عذابه وانتقامه.

وكيف يقاس على بطشه، ويقاوم مع أخذه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ القادر الغالب الذي ﴿يُبْدِئُ﴾ ويظهر عموم المظاهر والموجودات من كتم العدم بالقدرة الغالبة الكاملة، ثمّ يخفي ويعدم كلها أيضًا بكمال قدرته ﴿وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13] ويخرج عن فضاء الظهور مرة بعد أخرى بمقتضى قدرته واختياره، فكيف يقاوم ويقاس مع قدرته سبحانه هذه؟!

وكيف يطيق أحد أن يقوم بمعارضته - تعالى شأنه أن يُعارض حكمه، ويُنازع سلطانه - يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد؟!

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة جوده ورحمته ﴿الْغَفُورُ﴾ الستار المحاء لذنوب من تاب ورجع نحوه مخلصًا نادمًا، وإن كبرت وكثرت، فإن رحمته أوسع منه وأشمل ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج: 14] المحب لإخلاص المذنبين، وتوبة المستغفرين، وضراعة الخائفين المخبتين، المستحيين من الله، النادمين على ما صدر عنهم وقت الغفلة والغرور.

وكيف لا يود ولا يغفر سبحانه، مع أنه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل ﴿الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15] العظيم في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله؛ إذ لا وجود لسواه، ولا كون لغيره.

فظهر أنه ﴿فَعَّالٌ﴾ بالاستقلال الاختيار ﴿لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16][1] وجميع الأفعال الجارية في ملكه وملكوته صادرة عنه باختياره، وبلا شركة فيها ومظاهرة؛ إذ لا يجري في ملكه إلّا ما يشاء بمقتضى علمه الشامل، وحكمته الكاملة، سواء كان إنعامًا أو انتقامًا.

---

(1) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله، فلا يُفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من ورائهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

ثمّ أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الصبر بأذيات قومه وتكذيبهم إياه مكابرةً فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك، وثبت ذلك عندك يا أكمل الرسل بالتواتر ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: 17] أي: أخبار الأمم السالفة، وقصة تكذيبهم للرسل والكتب، وانتقامنا عنهم بعدما بلغ أذيات الرسل غايتها.

يعني: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي وملئه، كيف كذبوا أخاك موسى الكليم عليه السلام، وكيف قصدوا لمقته وهلاكه مرارًا، وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَثَمُودَ﴾ [البروج: 18] المردود، كيف كذبوا أخاك صالحًا عليه السلام، وكيف انتقمنا عنهم، تذكر يا أكمل الرسل قصصهم مع رسلهم، وما جرى عليهم من لدنّا، فاصبر على ما أصابك من قومك، فإن ذلك من عزم الأمور، فسننتقم عنهم، مثلما انتقمنا من الأمم السالفة الهالكة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: 19] أعظم من تكذيب الماضين، إنهم سمعوا قصصهم، وما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم فلم يعتبروا، ولم ينزجروا، فسيلحقهم أشد مما لحقهم من العذاب عاجلاً وآجلاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لعموم ما جرى في ضمائرهم من الكفر والشقاق ﴿مِن وَرَائِهِم﴾ أي: وراء هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة ﴿مُّحِيطٌ﴾ [البروج: 20] لهم بالإحاطة الذاتية، بحيث لا يفوت منه سبحانه شيء من جرائمهم وآثامهم، سيجازيهم عليها بمقتضى إحاطته، وهم منكرون إحاطته؛ لذلك ينكرون كتابه الجامع لجميع الكمالات الدنيوية والأخروية، الغيبية والشهادية، ينسبونه إلى الشعر والكهانة، وأنواع التزويرات والمفتريات الباطلة عنادًا ومكابرةً، مع أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ﴾ فرقان بين الحق والباطل، والهداية والضلال ﴿مَّجِيدٌ﴾ [البروج: 21] عظيم عند الله مبين، مبيّن لأحكام الدين المستبين.

مثبت ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 22] هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه المصون عن مطلق التحريف والتغيير.

جعلنا الله ممن تنور بنور الإيمان، وانكشف بحقية القرآن الفرقان.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المنكشف بحقية القرآن – هداك الله إلى حقيقته –

أن تعتقد إلى أن تنكشف أن مطلق الحوادث الجارية في عالم الكون والفساد، إنما هو مثبت في لوح القضاء المصون عن سمت التبديل والتغيير؛ إذ ما يبدل القول والحكم لدى القادر الحكيم العليم.

والتصرفات الواقعة في عالم الملك والملكوت إنما هي مرفوعة مرسومة فيه على وجهها، بحيث لا يشذ شيء منها عنه، والقرآن المجيد منتخب منه، حاوٍ على عموم ما ثبت فيه إجمالاً.

ومن أدركته العناية السرمدية، وجذبته الجذبة الأحدية تفطن من رموز القرآن إلى نور الأسرار والمعارف التي فصلها الحق في لوح قضائه، وحضرة علمه، لكن الواصل إلى هذه المرتبة العليّة أقل من القليل.

وبالجملة: فكن راجيًا من الله الجميل، ولا تيأس من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الخاسرون.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الطارق

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وحفظه، ورقابته لعموم عباده أن كل ما صدر عمن صدر، وعلى أيّ وجه صدر، فإن الله عليه رقيب عتيد، يحافظه ويراقبه سواء كان خيرًا أو شرًا، نفعًا أو ضرًا، عملاً أو اعتقادًا، حالاً أو مقامًا.

والسر في ذلك: ألّا يغفل العبد عن الله بحال من الأحوال، وشأن من الشئون، وكيف يغفل عنه سبحانه، فإنه مستمد منه سبحانه دائمًا في عموم حالاته حسب أنفاسه ولحظاته وخطراته؟!

لذلك أقسم سبحانه؛ لإثبات هذا المطلب العزيز بما أقسم؛ ليكون العبد على ذكر من ربه، وحضور عنده، بحيث لا يغيب عنه لمحة وطرفة؛ حتى لا يصدر عنه ما لا يرضى به سبحانه بمتابعة شياطين القوى الأمارة، فقال سبحانه متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب لأحوال عباده؛ كيلا يوسوس في صدورهم الشيطان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم، يحفظهم عن موجبات الندامة والخذلان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى طريق الجنان.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق: 1-10].

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية، المصونة عن مطلق التغيير والزوال، المتعالية عن مدارك الوهم ومشاعر الخيال ﴿وَ﴾ بحق ﴿الطَّارِقِ﴾ [الطارق: 1] الذي يتخطف منها على آحاد الرجال بعدما هاجروا عن بقعة الناسوت متشمرين بالعزيمة الخالصة نحو فضاء اللاهوت بمقتضى الجذب الجبلي، والميل الفطري المعنوي.

ثمّ أبهمه سبحانه على حبيبه تعظمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المظهر

الكامل اللائق لفيضان الطوارق اللاهوتية ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: 2] حين كنت مقيدًا في عالم الناسوت، وبعدما أطلقك الحق عن قيود عالم الناسوت عرفت أن الطارق الذي يطرقك من عالم اللاهوت والجبروت.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] أي: الجذبة المضيئة الأحدية، اللامعة المتشعشعة، الناشئة من عالم العماء الذي هو محل كمال الجلاء والانجلاء الذاتي، والجذوة المشتعلة الساقطة من نار العشق والمحبة المفرطة الإلهية إلى شجرة ناسوتك، القائلة لك بعدما أمرك بالانخلاع عن كسوة ناسوتك: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12].

واطرح لوازم نشأتك بعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل، فاسترح في مقعد صدقك عند ربك ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: 13.2] لمظهرية المعارف والحقائق ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] إليك الآيات البينات لمراسم التوحيد واليقين.

وبالجملة: وحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: ما كل نفس من النفوس الزكية والخبيثة ﴿لَمَّا﴾ أي: إلَّا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] [الطارق: 4] من قِبَل الحق، يحفظ لها أقوالها وأفعالها وأحوالها، وحالاتها ومقاماتها؛ حتى لا يدفعها ويسلمها إلى المقادير التي حصل منها، وصدر على طبقها حتى جوزيت على مقتضاها.

وبعدما سمع الإنسان ما سمع من الحكمة العليّة الإلهية ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ المركب من الجهل والنسيان، وليتأمل في منشئه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: 5] يعني: فليراجع وجدانه، ولينظر مبدأه ومنشأه؛ حتى يظهر له من أيّ شيء قدر وجوده، فعرف قدره، ولم يتعد طوره.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ﴾ مهين مسترذل ﴿دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6] مدفوق مصبوب في الرحم على وجه التلذذ والاضطراب من كلا الجانبين.

---

(1) قال السمناني: جواب القسم؛ يعني: ليس كل نفس لما عليها منا حافظ، وحفظتك من هذا القبيل يحفظونك من العاهات الجسمانية والآفات الروحانية، وأنت غافل عن نفسك وعن حفظك وتحسب أنك خلقت للأكل والشرب، والجماع والبهائم ولا تتفكر في خلقك.

مع أنه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 7] أي: من ظهر الرجل وصدر المرأة.

وبعدما تأمل الإنسان في مبدئه، وعرف أصل منشئه تفطن منه أن وفقه الحق إلى قدرة الصانع العليم، الحكيم الذي خلقه من هاتين الفضلتين الخبيثتين، وربّاه إلى أن صار بشرًا سويًا، قابلاً لفيضان أنواع المعارف والحقائق، لائقًا للخلافة الإلهية، مهبطًا للوحي والإلهام.

وتفطن أيضًا، بل جزم وتيقن أن من قدر على خلقه وإيجاده ابتداءً ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ وإعادته وبعثه من القبور ﴿لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: 8] ألبتة، فكيف ينكر قدرته سبحانه على البعث والحشر، مع أن الإعادة أهون عنده من الإبداء؟!

تأملوا أيها المجبولون على فطرة العبرة والتكليف ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] وتكشف الستائر، ويظهر ما خفي في الضمائر من الإنكار والإصرار، وفواسد النيات والأعمال.

﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: للإنسان حينئذٍ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يدفع عن نفسه ما يترتب على أعماله وأحواله من العذاب والعقاب على وجه الجزاء ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10] يدفعه عنه وينصره؛ إذ كل نفس يومئذٍ رهينة بما كسبت، مشغولة بجزاء ما جرت خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 11-17].

ثمّ أقسم سبحانه بما أقسم؛ لإثبات حقية القرآن وفضله، وكونه بريئًا عن قدح القادحين، وطعن الطاعنين فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية التي هي في أعلى درجات الارتفاع ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11] والعود؛ إذ تدور على هياكل عالم الناسوت طرفة، وترجع في الحال، كالبرق الخاطف آثارها إلّا لأرباب العناية من البدلاء الذين بُدِّلت لوازم ناسوتهم في المرة بخواص اللاهوت، ولا تدوم وتستقر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولى القابلة لانعكاس ما لمع عليها من

سماء الأسماء ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12] أي: التأثر والتشقق بقبول أثر مؤثرات عالم اللاهوت.

يعني: وبحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: 13] فاصل بين الحق والباطل، والهداية والضلال.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: 14] كما زعمه المسرفون المفرطون في شأنه، بل هو جدّ كله، صدر عن حكمة بالغة إلهية لمصلحة الهداية والرشاد لعموم العباد، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: طغاة مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15] ويمكرون مكرًا في إبطال القرآن وإطفاء نوره مراءً ومكابرةً، فيرمونه بأنواع القدح والطعن الفائض على عموم الأعيان، وينسبونه إلى ما لا يليق بشأنه.

﴿وَأَكِيدُ﴾ أيضًا في أخذهم وانتقامهم بعدما استحقوا الأخذ والانتقام ﴿كَيْدًا﴾ [الطارق: 16] على سبيل الاستدراج والإمهال، بحيث لا يحتسبون، بل يحملون إمهالنا على الإهمال؛ لذلك يغترون ويجترئون في قدحه وطعنه.

وبعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ﴾ أنت أيضًا، ولا تستعجل بانتقامهم، ولا تشتغل بالدعاء عليهم سريعًا؛ إذ إمهالنا إياهم ابتلاء منًّا لهم وفتنة جالبة لمصيبة عظيمة، ومتى تحققت يا أكمل الرسل ما قلنا لك ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ وأعرض عن المراء والمجادلة معهم، وانتظر لمقتهم، وترقب لهلاكهم ﴿رُوَيْدًا﴾[1] [الطارق: 17] إمهالاً يسيرًا في زمان قليل، وسيظهر عن قريب دينك على عموم الأديان، وهم يقهرون ويستأصلون.

جعلنا الله ممن صبر وظفر على مبتغاه بمنه ولطفه.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوكل على الحق، المتبتل نحوه بالعزيمة الخالصة أن تفوض عموم

(1) قال علاء الدولة: يعني: أنظر لهم ولا تستعجل؛ لكي يتمتعوا ويلههم الأمل فيأخذهم أخذ بغتة، وتعد لهم بما كادوا باللطيفة الإرادية عذابًا شديدًا؛ وهو عذاب الإطلاع على عرش اللطيفة وما أودع الله لصاحبها من النعيم المقيم والملك العظيم في جنة قلبها، ونحشرهم على فوات الاستعداد الذي يمكن ترتيبها.

أمورك إلى ربك، بحيث لا يخطر ببالك أن تلتفت إلى تحصيلها باستدراك، وتتخذه كفيلاً حسيبًا، كافيًا بجميع حوائجك وأشغالك.

وبالجملة: كن فانيًا في الله يكفيك جميع مؤنك؛ إذ الكل بالله ومن الله وفي الله، بل أنت ما أنت، بل أنت هو، بل هو هو، لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعلى

لا يخفى على الموحدين الواصلين إلى مقام التمكين بلا تلعثمٍ وتلوين أن العارف المحقق بعدما وصل إلى مقام الفناء في الله، وحصل دون ذروة التوحيد الذاتي والبقاء السرمدي، لم يبق في عين شهوده سوى الوحدة الذاتية الصرفة، الخالية عن تعدد الأسماء والصفات مطلقًا؛ إذ تلون الأوصاف وتعدد الأسماء من جملة الحجب والغطاء عند أرباب المحبة والولاء، المتحققين بعالم العماء الذي لا يمكن التعبير عنه مطلقًا؛ لاضمحلال الحجب والآلات التي بها يُتوسل إلى التعبير والإشارة والرمز والغمز والإيماء.

وبالجملة: لا يسع حينئذٍ سوى التقديس والتسبيح؛ إذ لا يحتاج المسبح المقدس إلى التوسل مطلقًا؛ لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ بعدما وصل إلى القرب والشهود بالتسبيح ولقنه بالتقديس المقارن باسمه الأعلى، لا على وجه الاسمية والإضافة، ولا على وجه الوصفية؛ إذ الاسم والوصف وسائر الاعتبارات لا يسع في ذلك المقام؛ ولا على معنى التفضيل، بل على وجه العجز والقصور عن الإدراك والتغيير والإشارة ومطلق الوسائل المؤدية إلى الإخبار عنه سبحانه؛ إذ كلَّت حينئذٍ ألسنة الاستعدادات عن مطلق الإيماء والإشارات، وانحسرت المدارك والعقول، فصار الكل مبهوتًا حائرًا هائلاً، بل فانيًا مضمحلاً، لم يبق له رسم ولا اسم ولا خبر ولا أثر.

وبعدما وقع ما وقع، فقد وقع أجره على الله بأمره بما أمره بمقتضى حكمته وعلمه حسب إرادته ومشيئته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتعالي ذاته عن أحلام الأنام وأفهام الخواص والعوام ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى أرفع المكانة وأعلى المقام.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: 1-9].

﴿سَبِّحِ﴾ يا من غرق في تيار بحر زخّار الوجود، وتلاشى في لمعات شمس الشهود ﴿اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[1] [الأعلى: 1] وإن لم يبق لك التوسل بمطلق الأسماء، بعدما فنيت في المسمى.

ثمّ تذكر بمقتضى حصة عبوديتك نعمه الواصلة إليك بعدما فزت بخلع البقاء، وتذكيرًا استحضارًا لمًا جرى عليك من الشئون والأطوار في نشأة ناسوتك؛ إذ هو سبحانه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد عموم ما خلق وأظهر ﴿فَسَوَّى﴾ [الأعلى: 2] خلق الكل بحوله وقوته، مع ما يتعلق به، ويترتب عليه في معاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ﴾ المقادير ودبر التدابير وأحسن التصاوير وأودع فيها ما أودع من الاستعدادات والقابليات الجالبة لأنواع الكمالات، وبعدما عدلها وهيأها ﴿فَهَدَى﴾ [الأعلى: 3] أي: هدى الكل إلى ما جبلوا لأجله بوضع التكاليف المشتملة على الأوامر والنواهي، والأحكام الواجبة والمندوبة، والأخلاق المرضية والآداب السنية؛ ليتمرنوا على الأمور المذكورة ويترسخوا فيها بالعزيمة الخالصة حتى يفيض عليهم طلائع سلطان الوحدة الذاتية المنقذة لهم عن ورطة الناسوت، الموصلة إلى فضاء اللاهوت.

﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بكمال قدرته ﴿الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: 4] أي: أنبت وأظهر المرعى الحاصل في مرتع الدنيا بأجناسها وأنواعها وأصنافها؛ تتميمًا لتربية دواب الطبائع وحوامل الأركان القابلة لتأثيرات عالم الأسماء والصفات؛ ليتقوموا بها ويستعدوا لفيضان المعارف والحقائق، وأنواع الكمالات اللائقة التي هم جُبلوا لأجلها.

(1) قال علاء الدولة: من أن يجري على لسان ملوث، والاسم الأعلى هو الله، والذكر الأفضل لا إله إلا الله ولأجل هذا السر اختار المشايخ الذين عرفوا الطريق على وجه التحقيق وهم طبقة أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي -قدس سره- للسالكين الذين دخلوا في الطريقة، وجاهدوا في تطهير القلب؛ ليتنزل سلطان ذكر الرب فيه لا إله إلا الله، وإذا طهرت صورة الذكر صورة لسانك، وطهرت معاني الذكر حقيقة جنانك عرفت الرب وسبحته حق التسبيح، وعلمت أنه خلقك من العناصر الأربعة فسواك في أعدل الأمزجة ليصلح أن يكون مركبًا للروح الإضافي، وقدر أقوات القوى الروحانية من نفحات ألطاف الرب، وأقوات القوى الجسمانية من تدبيرات السماوية النازلة إلى أرض القالب، وهدى كلي قوة إلى قوتها المقدرة.

وبعدما حصل لهم ما حصل من الكمالات المنتظرة في نشأة الناسوت ﴿فَجَعَلَهُ﴾ سبحانه مرعى العالم مع كمال نضارتها وبهائها في نظر شهود أولي الألباب، الناظرين بنور الله من وراء سدل الأسماء والصفات ﴿غُثَاءً﴾ يابسًا، بل سرابًا باطلاً بعدما تحققوا بمقر التوحيد، ورفعوا وسائل الأوصاف والأسماء عن البين، فصار الكل حينئذٍ هباء ﴿أَحْوَى﴾ [الأعلى: 5] عدمًا لا يبقى، أسود موحشًا مظلمًا، بعدما كان أخضر مفرحًا.

ثمّ التفت سبحانه نحو حبيبه ﷺ على سبيل التفضل والامتنان فقال على وجه الوصاية والتذكير: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ ونجعلك قارئًا مراقبًا على وجوه الوحي والإلهام النازل من لدنا عليك، مع أنك أمي لم يعهد منك أمثالها ﴿فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى: 6] يعني: عليك أن تضبط هذه النعمة وتحفظها على وجهها، وتواظب على أداء شكرها بلا فوت شيء منها وزيادة عليها وتحريف فيها.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم نسيانه منك بأن نسخ تلاوته أو حكمه أو كلاهما على مقتضى حكمته المتقنة المستحكمة ومصلحته، وبعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت فدم عليها، ولا تغفل سرًا وجهرًا، وحالاً ومقالاً عنها ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ منك ﴿الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: 7] أي: ظاهرك وباطنك؛ يعني: ما امتثلت بظاهرك من مقتضيات الوحي والإلهام، وبباطنك من الإخلاص في النيات والحالات والخلوص في العزائم والمقامات.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أنّا بمقتضى عظيم جودنا معك ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ ونوفقك على التدين والتحفظ بمقتضيات الوحي ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: 8] أي: للطريقة السهلة السمحة البيضاء.

وبعدما يسرنا لك وسهلنا عليك طريق الهداية والإرشاد ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: عظ بالقرآن وبين الأحكام الموردة فيه للناس ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9] أي: سواء نفعت عظتك وتذكيرك إياهم أو لم تنفع؛ إذ ما عليك إلّا البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: 10-19].

ولا تيأس يا أكمل الرسل من مبالغتهم في الإعراض والانصراف عنك وعن تذكيرك إنه ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ ويتعظ بتذكيرك ﴿مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى: 10] عن بطش الله، وعن كمال قدرته على وجوه الانتقام.

وبعدما تأملت في القرآن مرارًا، وتدبرت في فحاويه تكرارًا، تنبه على حقيقته، فتذكر به وامتثل بما فيه ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يعرض عنها وعن سماعها؛ يعني: الذكر والعظة التي هي القرآن ﴿الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: 11] أي: الكافر، الذي جبل على فطرة الشقاوة وجبلة الجهل والغباوة.

﴿الَّذِي يَصْلَى﴾ ويدخل في النشأة الأخرى ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: 12] التي هي بأضعاف نار الدنيا في الحرقة والحرارة، لذلك قال: «كبرى» أو في الدرك الأسفل منها وهو أكبرها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دخل في نار القطيعة والحرمان بأنواع الخيبة والخذلان ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ يعني: يستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: 13] حياة نافعة طيبة كسكان بقعة الإمكان، الداخلين في نيران الشهوات ودركات الأماني والآمال، لا يموتون حتى يستريحوا، ولا يحيون بلا منية إلا منية وغل الأمل وسلسلة الحرص.

وبالجملة: هم معذبون في عموم الأوقات والأحوال، لا نجاة لهم عنه ماداموا في قيد الحياة، وبعدما ماتوا بأنواع الحسرات، سيصلون في أسفل الدركات وأصعب العقوبات.

هب لنا جذوة من نار المحبة، تنجينا عن نيران الإمكان في النشأة الأولى والأخرى.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا ﴿مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14] وتطهر عن أدناس الطبائع وأكدار الهيولى من الميل إلى الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير الباقية، وتوجه نحو المولى بالعزيمة الخالصة.

﴿وَذَكَرَ﴾ في أوائل الطلب ومبادئ الإرادة ﴿اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي: جنس الأسماء الإلهية متفطنًا بمعناها، يقظان فرحان متشوقًا ﴿فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 15] ومال نحوه سبحانه في الأوقات المأمورة المحفوظة، محرمًا على نفسه عموم مبتغاه من دنياه.

﴿بَلْ﴾ هؤلاء الحمقى الهلكى التائهون في تيه الضلال، المغلولون بأغلال

الأماني والآمال ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: 16] المستعارة الفانية على الحياة الحقيقية الأخروية الباقية؛ لذلك يجمعون أسباب الفساد والإفساد، ولا يتزودون ليوم الميعاد.

﴿وَ﴾ الحال أنها؛ أي: ﴿الْآخِرَةُ﴾ وما وعد فيها من اللذات الروحانية الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ مما في الدنيا وأمانيها ﴿وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 17] وأدوم بحيث لا انقطاع لها.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي وعظك الحق به يا أكمل الرسل، ووصاك بالفلاح ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: 18][1] أي: مثبت، مسطور على وجهه، وتلك الصحف ﴿صُحُفِ﴾ جدك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الفائق في الخلة والفلاح على عموم أرباب الصلاح والنجاح ﴿وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 19] الكليم الفائز من عند الله بالفوز العظيم، وهو مرتبة التكليم مع الله العزيز العليم.

جعلنا الله من خدَّامهم وتراب أقدامهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأخروي الحقيقي والنجاح المعنوي أن تزكي أولاً نفسك عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، وتصفي سرك عن الميل إلى مزخرفات الدنيا الدنية وأمانيها الغير الهنية، فلك أن ترغب نفسك عن مقتضيات الإمكان، ولا تغريها إلى لذاتها وشهواتها، فعليك أن تلازم الخلوة والخمول، وتجتنب عن أصحاب الثروة والفضول حتى يعينك الحق إلى التلقي بالقبول بما يوجبك الفلاح والفوز بالنجاح.

افتح لنا أبواب رحمتك إنك أنت الفتاح.

---

(1) إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ، والوعدَ والوعيدَ، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (8 / ص 70).

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الغاشية

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخروية، المتحققين بظهور الحق حسب النشأتين أن الوقوف بين يدي الله وعرض الأعمال عليه سبحانه والحساب عليها والجزاء على مقتضاها مشهودة للعارف المحقق، مكشوفة عنده في كل آن وزمان، وبعد الحساب والجزاء فرقةٌ منهم رابحون مقبولون عند الله، وفرقةٌ خاسرون مردودون.

فالمقبولون في كنف جوار الله مسرورون متنعمون والمردودون في نار القطيعة والحرمان محرومون مطرودون؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه بطريق المبالغة والتحقيق مخاطبًا لحبيبه ﷺ، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم عباده، ينبههم نحو المرجع والمعاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سبيل الرشاد.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية: 1-7].

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: 1] أي: الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتحيط بهم يوم القيامة بشدائدها حين وقفوا بين يدي الله للعرض والجزاء، وهم حينئذٍ من شدة الهول والفزع حيارى، سكارى تائهون، هائمون، مرعوبون عما يفعل بهم، وكيف يحكم عليهم.

وبعدما أُخذوا للحساب وحوسبوا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: 2] ذليلة شاخصة منكوسة.

﴿عَامِلَةٌ﴾ يومئذ بأعمال لا تنفعها، كالتوبة والتوجه وطلب العفو والمغفرة بعد مضي أوانها ﴿نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: 3] مبالغة في التعب والمشقة، رجاء أن يُعفا عنها

ويغفر لها، فلا تنفعها حينئذٍ عملها، وإن أتعبت نفسها لانقضاء نشأة الاختبار المأمورة فيها الأعمال.

﴿تَصْلَى﴾ وتطرح حينئذٍ ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: 4] في نهاية الحر والحرقة؛ تأكيدًا وتشديدًا لعذابها.

﴿تُسْقَى﴾ عند إشرافها على الهلاك من شدة العطش ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: 5] متناهية في الحرارة، وكيف لا، قد أوقدت حولها نار جهنم منذ خلقت، هذا شرابهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] شبرق يابس، أمرٌّ من الصبر وأبشع من جميع الأشياء البشعة، ومع نهاية بشاعته ومرارته وشدة حرارته ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ حتى يزيد في قوتهم ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7] وبالجملة: لا يفيد البدن أصلاً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: 8-16].

﴿وُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8] متنعمة مبتهجة مسرورة.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي تحملته من أنواع المتاعب والمشاق في نشأة الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: 9] سيما بعدما رأت ما ترتب على سعيها من الجزاء.

وكيف لا ترضى؛ إذ هي متنعمة بسبب ذلك بالسعي ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: 10] متعالية أوصاف نزاهتها ونضارتها عن مدارك العقول ومشاعر الحواس، مصفاة عن مطلق المكاره بحيث ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ كلمة ﴿لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: 11] لا فائدة لها.

ولتتميم نزاهتها ونضارتها ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ ماؤها في غاية البياض والصفاء ﴿جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: 12] في خلالها وأنهارها أبدًا.

ولتتميم ترفههم وتنعمهم ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 13] مرتفعة عن الأرض على قوائم طوال.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ أوان لا عروة لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 14] بين أيديهم.

﴿ونمارقُ﴾ وسائد في غاية الصفاء، متلونة بالألوان المطبوعة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية: 15] مفروشة بعضها في جنب بعض.

﴿وزرابيُّ﴾ بسط أخر فاخرة متلونة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: 16] مبسوطة بين أيديهم، فلا تستبعدوا ولا تستغربوا عن قدرة الله أمثال هذا.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾ [الغاشية: 17-26].

﴿أَ﴾ ينكرون ويستبعدون أولئك البعداء، المنكرون، المفرطون قدرة الله القدير الحكيم على أمثال هذه المقدورات ﴿فَلَا يَنظُرُونَ﴾ بنظر التأمل والاعتبار ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] [1] على الهيكل الغريب والشكل العجيب، تحمل كثيرًا

(1) انظر كيف تحقق الشيخ البيطار من هذه الآية المباركة بقوله الرباني حيث قال: اعلم - رحمك الله - أن الإبل عجيبة باسمها ومعناها؛ لأنها من جهة اسمها جمع وفرد؛ لأن الإبل لفظ يدل على الكثرة لاستغراقه لكل فرد منها مع أن هذا الاسم لا واحد له من لفظه مثل: تمرة وتمر، وحبة وحب، فاسم الإبل وإن دلّ على الكثير فهو واحد في عين تلك الكثرة، كذلك صور العالم وإن تكاثرت فهي حقيقة واحدة بين الوجود والعدم؛ لأنها برزخية بين ذات الله ومعاني أسمائه وصفاته، فمن الذات التي هي الوجود المحض، ومن معاني الأسماء - التي هي أحكام لا وجود لها في العين، وإنما تتعقل في الذهن - فهي عدم في الوجود العيني ظهر العالم الذي هو عبارة عن الصور، فالصور برزخية لا وجودية من كل وجه، ولا عدمية من كل وجه فهي من جهة الوجود عين الذات، ومن جهة الحكم العدمي عين الأسماء والصفات، فشابه لفظ الإبل الحق في واحديته، وصور العالم في كثرته، كذلك لفظ الجلالة هو واحد في نفسه، ولكن اندرج فيه كل شيء، وأما العجب في معناها، فإنها مع كبرها وعظمتها تنقاد لكل عظيم وحقير وصغير وكبير، وتحمل النفيس والخسيس، ولا تمنع أحدًا من التمكن منها ولو كان نملة أو بعوضة، كذلك وجود الله تعالى لا يأبى أحدًا، فهو ظاهر في السعيد والشقي والعزيز والذليل، فأشبهت الأرض التي هي تحت العزيز والذليل، مع أن الأرض لما ذُلّت تحت نعال الذليل أعزها الله تعالى بسجود الآدمي، ووضع وجهة الذي هو أشرف ما فيه عليها، وقد قالﷺ: «لو دليتم بحبل لهبطتم على الله» والهبوط لا يكون إلا على الأرض، فقد سمّاها باسمه مع أنه ليس كمثله شيء، -

وتأكل قليلاً وتصير منقادة لكل أحد حتى النسوان والصبيان مع عظمة جسمها وكمال قوتها وقدرتها وتتحمل على الجوع والعطش مدة، وتتأثر من المودة والغرام، وتسكر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زمانًا ممتدًا، وتتأثر أيضًا من أحسن الأصوات

كذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]، وما حملهم في البر مثل الإبل، وإن كانت الوابورات الظاهرة في زماننا هذا تحمل بني آدم برًا، ولكن لا تحملهم إلى ما شاءوا، بل حملاً مقيدًا، فالحامل هو الله والصورة صورة الإبل، فصورة الإبل وجه من وجوه الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17] أي:كيف تنزّل الحق الذي ليس كمثله شيء إلى هذه الصورة الإبلية حتى حمل بني آدم بنفسه، فقال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]، فالحامل هو الله في صورة الإبل، فصورة الإبل مخلوقة حادثة والحامل قديم، فظهر من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في صورة الحادث مع أنه باقي على قدمه، فمن نظر إلى الإبل فقد نظر إلى وجه الاسم الإلهي (الحامل) لا ترى أن رسول الله ﷺ لما طلبوا الصحابة أن يحملهم فقال: «والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه» ثم أرسل لهم وأعطاهم من الإبل ما يحملهم، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنك أقسمت ثم أعطيتهم، فقال: «أنا ما حملتهم ولكن الله حملهم». ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية:18]؛ لأنها بعل الأرض، فالأرض تحتها كما أن المرأة تحت الرجل، فالأرض منكوحة للسماء وزوجة لها، فحركات الأفلاك السماوية بمنزلة الجماع، والأمطار النازلة في الأرض بمنزلة الماء الذي يُلقى في الرحم، ونبات الأرض بمنزلة الولد الذي تخرجه المرأة من بطنها، فأشبهت السماء الذكر في الرفع، والأرض أشبهت الأنثى في السطح، وأما الجبال المنصوبة بين السماء والأرض فهي بمنزلة الخنثى من بني آدم، فهي برزخية المنزلة؛ لأن لها وجه إلى ذكورة السماء، ووجه إلى أنوثة الأرض لاتصالها بالأرض، وهي تحمل بني آدم من جهة السكن.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:82]، فلها مع الاسم (الحامل) الاسم (الواقي)، والاسم (الحفيظ) والاسم (الساتر) والاسم (المؤمن)، وجميع ذلك أسماء الله، والمسمى هو، فما في الوجود إلا هو، فهذه دلالات ظاهرة في هذه الأربع وهي: الإبل والسماء والجبال المنصوبة والأرض المسطحة، فأشبهت تربيع مراتب الوجود في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، وهذه المعاني متوجهة على هذه الصور الأربعة، فلكل منها نصيب من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية، فنَصّبها الله دلالات على وجود ذاته، إذ نظر الإنسان إليها ليتعدى نظره من صورها الظاهرة إلى الباطن فيها، وهو الحق تعالى.

والحدي، وصارت من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري، وتجري الدمع من عينها، وبالجملة: ظهر منها حين حُدي عليها عجائب كثيرة، يتفطن بها أهل العبر والاستبصار.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: 18] بلا عمد وأسانيد منثورة عليها من الكواكب التي لا ندرك حقائقها وأوصافها وأشكالها وطبائعها وحالاتها، وما لنا منها إلّا الحيرة والنظر على وجه العبر.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ الرواسي ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: 19] على وجه الأرض مشتملة على معادن ومياه وأجسام.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ﴾ التي هي مقر أنواع الحيوانات وأصناف المعادن وأنواع النباتات ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20] مهدت وبسطت.

ومع وضوح هذه المقدورات العظيمة الشأن، الصادرة من الحكيم المنان ذي الطول والإحسان، ينكرون قدرته سبحانه على المقدورات الأخروية، فالعجب كل العجب عمن شهد آثار القدرة الغالبة الإلهية في نفسه وفي الآفاق، فتردد في المقدورات الأخر الأخروية وأنكر عليها.

وما ذلك إلّا من ظلمات الأُلف والعادات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة والطارئة على أهل الغفلة والضلال، المسجونين في سجن الإمكان بأنواع الخيبة والخسران وإلّا فظهور آثار القدرة الغالبة الإلهية أجل وأعلى من أن تتردد فيه الآراء، أو تنكر عليه الأهواء، وبالجملة: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

وبعدما سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا أكمل الرسل بالقرآن بمقتضى ما أُمرت به وأُلهمت ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21] مبلغ، فلا بأس عليك إن لم ينظروا ولم يعتبروا، ما عليك إلّا البلاغ، فلا تقصر في تبليغك.

إذ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22] مسلط، ملزم، مكره للقبول ألبتة.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني: لكن من أعرض وبغى بعد تذكيرك وتبليغك ﴿وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: 23] وطغى بما سمع منك، واستهزأ معك وكذبك.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ العزيز الحكيم المقتدر على وجوه الانتقام ﴿الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: 24] الذي لا عذاب أعظم منه وأشد، وهو حرمانهم عن رتبة الخلافة

وخلودهم في نار القطيعة بأنواع الخذلان والخسران، وبالجملة: بلغ يا أكمل الرسل جميع ما أنزل إليك على كافة البرية، ولا تبال بإعراضهم وتكذيبهم.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا من الوسائل والأسباب العادية ﴿إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25] ورجوعهم، كما أن منّا مبدأهم وصدورهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعوا إلينا صاغرين ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 26] على أعمالهم التي صدرت عنهم في نشأة الاختبار، وبعدما حاسبناهم، جزيناهم أحسن الجزاء إن كانوا من أصحاب اليمين، وعذبناهم بأنواع العذاب والنكال إن كانوا من أصحاب الشمال.

رب يسر حسابك علينا، وقنا عذابك، إنك أنت الرءوف الرحيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو الحق، الحقيق بالتوجه والرجوع أن ترجع إلى الله قبل حلول الأجل المقدر للقيامة الصغرى والكبرى، وتفوض أمورك كلها إليه سبحانه بالإرادة والرضا، وتنخلع عن لوازم ناسوتك بالمرة.

وبالجملة: عليك أن تتصف بالموت الإرادي قبل حلول الأجل الاضطراري الطبيعي، حتى تكون عند ربك دائمًا وفي كنف حفظه وجواره بلا انتظار منك إلى الطامة الكبرى والحساب والجزاء، ولا يتيسر عليك هذا إلّا بتوفيق الله وجذب من جانبه، فلك السعي والاجتهاد، والله الملهم للرشاد والهادي إلى سبيل السداد.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الفجر

لا يخفى على من ترقى عن حضيض الغفلة وغور الغرور إلى ذروة المعرفة وأوج السرور أن التدني من مضيق الناسوت والترقي نحو فضاء اللاهوت إنما يحصل بالجذبة الغالبة الإلهية المثنية للقوى البهيمية عن مقتضياتها الطبيعية مطلقًا، المعطلة للوهم والخيال عن التصرف في عالم المثال، الرادعة للعقل الفطري المتشعب من العلم الإلهي، المقتبس من مشكاة لوح القضاء عن متابعة القوى الداركة البشرية وآلاتها، وسفارة الحواس الظاهرة والباطنة إياهم، ومعاونة الواهمة المتخيلة اللتين هما من جنود إبليس الأمارة بالسوء.

ولاشك أن هذا الترقي إنما يتيسر بعد الموت الإرادي وبعد التبدل عن مقتضيات الأوصاف البشرية، وحصوله إنما هو بالميل الفطري المترتب على الرابطة المعنوية والعلقة الحقيقية التي هي مناط التكاليف الإلهية المثمرة لأنواع المعارف والحقائق اللدنية، المتنشئة عن صفاء مشرب التوحيد.

لذلك أقسم سبحانه بمسالك أرباب السلوك المهاجرين عن عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وابتدأ بفلق صبح الانجلاء اللاهوتي، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عباده؛ ليخرجهم من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بوضع التكاليف الشاقة القالعة لعرق الإلف والعادة الموروثة لهم من مقتضيات عالم الناسوت ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يميتهم بالموت الإرادي عن لوازم بشريتهم ولواحق هويتهم الباطلة الإمكانية.

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر: 1-9].

﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: 1] أي: وحق انفلاق صبح السعادة المتنفس بأنفاس الرحمانية المتلألئ من سماء العماء وأفق عالم الأعلى اللاهوتي.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: 2] أي: وبحق ليالي الحواس العشر، المقبلة إلى الإدبار والانمحاء عند انجلاء الفجر اللاهوتي وصبح العماء الذاتي.

﴿وَالشَّفْعِ﴾ أي: شفع الملوين الجديدين، وارتفاعهما عن العين وانمحائهما عن البين ﴿وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: 3] أي: الوجود الوحداني، المطلق، المنزه عن التعدد والتكثر مطلقًا في ذاته.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: ليل العدم المظلم في ذاته ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: 4] وذهبت ظلمته بامتداد أظلال الوجود وشروق شمس الذات عليه.

﴿هَلْ﴾ يحتاج ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في كل واحد من المقسمات العظيمة الشأن ﴿قَسَمٌ﴾ ويمين يؤكدها ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: 5] عقل فطري خالص عن شوب الوهم والخيال، خال عن مزاحمة مطلق الإلف والعادات الحاصلة من الرسوم والتقليدات، الناشئة من ظلمات الطبيعة.

وبالجملة: أقسم سبحانه بحق هذه المقسمات الرفيعة القدر والمكان أنه سبحانه يعذب أصحاب الزيغ والضلال، المقيدين بسلاسل الحرص وأغلال الآمال في الدنيا بشهوات الإمكان، وفي الآخرة بدركات النيران؛ يعني: كفار مكة خذلهم الله.

استبعدت يا أكمل الرسل تعذيبنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ولم تخبر بالتواتر الموجب للجزم واليقين ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6] يعني: كيف أهلك عادًا.

﴿إِرَمَ﴾ اسم لبنائهم وبلدهم ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: 7] أي: الأساطين الطوال شديدة الأساس، رفيعة السمك، عريضة الجدار.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ﴾ ولم يوجد ﴿مِثْلُهَا﴾ أي: مثل بنائهم وبلدهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾[1] [الفجر: 8] في الإحكام والرفعة وأنواع النزاهة واللطافة، وهم كانوا أكثر الناس أعمارًا

(1) قال علاء الدولة: يعني: ألم تر القوى النفسية إن الله فعل بالقوى العادية التي نبت لنسفها من التنعم في ذات عماد قالبها إرم جنة من القول النباتية الخبيثة، متى ما شاءت على وفق هواها دخلت وأكلت من ثمارها، لم يخلق مثل ذلك الإرم في قوالب غيرها كيف خربها ربها.

وأولادًا وأموالاً وجاهًا وثروة بأضعاف هؤلاء المسرفين المفسدين، فأهلكهم سبحانه واستأصلهم بعدما أفرطوا في أطوارهم الخارجة عن حد الاعتدال ﴿وَثَمُودَ﴾ يعني: كيف فعل بثمود أيضًا ما فعل من الهلاك، مع أنهم ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ قطعوا ونقبوا ﴿الصَّخْرَ﴾ أي: صخور الجبال ﴿بِالْوَادِ﴾ [الفجر: 9] أي: بواد القرى، واتخذوا فيها بلادًا حصينة منيعة من شدة قدرتهم وقوتهم، مع ذلك أهلكهم سبحانه.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر: 10-16].

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10] أي: ذي العسكر الكثير، المشتمل على المضارب والخيام، المشتملة على الأوتاد والأطناب.

وهؤلاء المذكورين هم: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 11] واستكبروا على ضعفاء العباد اتكالاً بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: 12] أي: أنواع الكفر والظلم والعناد.

وبعدما بالغوا في الفساد والإفساد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: 13] أي: نوعًا من العذاب، كأنه يصب عليهم ويمطر كالماء من السحاب، وهو كناية عن ترادف موجات الهلاك وتتابعها، وبالجملة: أهلكهم بأشد العذاب وأكثره.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ، منبهًا له على كمال قدرته على انتقام عصاة عباده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك على كمال المعرفة واليقين ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1] [الفجر: 14] أي: مراقب محافظ لطرق عباده، يرقبهم سبحانه كيف يسلكون نحوه: هل في سبيل الضلال والفساد، أم في طريق الهداية والرشاد؟ مع أن الكل مجبول على فطرة التوحيد لكن الحكمة الإلهية تقتضي الابتلاء والاختبار.

(1) قال علاء الدولة: يعني: يرصدك ويريك في تقلبك ويسمع نجواك ولا يخرب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الأرض القالب، ولا في الصدور، ولا في نهار الروح، ولا في ظلمة ليل النفس، ولا في أطوار القلب.

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ﴾ المذبذب بين الإحسان والكفران ﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ اختبره وجربه ﴿رَبُّهُ﴾ بالغنى واليسر ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاه والثروة ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بالأموال والأولاد ﴿فَيَقُولُ﴾ شكرًا لمَّا وصل إليه من النعم ومقتضيات الكرم: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15] وتفضل عليَّ بما أعطاني من الخير والحسنى.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ ربه بالفقر والعسر بعد اليسر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وقصر على قدر كفايته وحاجته وقوت يومه، بحيث لم يزد على مؤنة معاشه ﴿فَيَقُولُ﴾ مشتكيًا إلى الله باثًا للشكوى عنده سبحانه: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 16] وأذلني، حيث لم يعط لي ما أعطى لفلان وفلان، مع أن الفقر خير من الغنى؛ إذ الفقر لو قرن بالتسليم والرضا لأدى صاحبه إلى جنة المأوى وملك لا يبلى، والغنى لو لم يقرن بالشكر والإنفاق والإحسان لأدى صاحبه إلى دركات الجحيم وأودية النيران.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: 17-23].

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن هذا الاعتقاد بأن الكرامة باليسر والتوسعة والإهانة بالفقد والفقر ﴿بَل﴾ الكرامة بالإنفاق والإطعام على فقراء الله؛ طلبًا لمرضاة الله؛ وأنتم أيها الأغنياء ﴿لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: 17] ولا تتفقدونه بالنفقة والكسوة.

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أي: لا تأمرون غيركم ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 18] وإطعامه.

﴿وَ﴾ أنتم أيها الأغنياء ﴿تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: ميراث الأيتام ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ [الفجر: 19] أي: أكلاً على سبيل الجمع بين سهامكم وسهامهم، بأن تأخذوا وتحرزوا أموالهم؛ لترقبوها لهم وتزيدوها لأجلهم، فتأكلوا منها ومن غالَّها دائمًا.

﴿وَ﴾ ما ذلك إلَّا أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 20] كثيرًا مع حرص شديد وأمل كامل، ولا تطعمون الفقراء والمساكين؛ خوفًا من نفاذه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم عمّا هم عليه من حب المال والخلط عليهم بين الحرام والحلال؛ يعني: كيف تؤدون أيها البخلاء الممسكون حسابها وقت ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ﴾ أي: كسرت واستوت، فصارت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21] وهباءً منبثًا.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وظهرت طلائع هيبته وآثار قهره وجلاله ﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الموكلون من عنده سبحانه؛ لتنقيد أعمال العباد والحساب والسؤال ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] أي: صفًا بعد صف، حسب ما يؤمرون من قِبل الحق.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: أُحضرت تهويلاً على أصحابها وتفظيعًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة التي ظهرت فيها هذه الآثار ﴿يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ معاصيه وقول من يزجره عنها وينذره، فيندم عليها ويتأسف ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23] أي: من أين ينفعه التذكر والذكرى حينئذٍ؛ إذ نشأة الاختبار والتلافي قد انقضت؟!

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ [الفجر: 24-30].

وبعدما جزم أنه لا نفع يومئذ لتذكره ﴿يَقُولُ﴾ متمنيًا على وجه الحسرة والندامة: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ في الابتلاء والاختبار ﴿لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] ونجاتي في هذا اليوم.

وبالجملة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25] أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما عذب هو نفسه بالحسرة والندامة وأنواع الكربة والكآبة والخذلان.

﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ ويحكم ﴿وَثَاقَهُ﴾ ونكاله ﴿أَحَدٌ﴾ [الفجر: 26] مثل ما أوثقه وأحكمه هو على نفسه بأنواع الخيبة والخسران والغصة والحرمان؛ إذ العذاب الروحاني الطارئ من الندامة والخذلان لا يُقاس شدة تأثيره إلى سائر العذاب الجسماني.

ثمّ أشار سبحانه إلى حُسن أحوال أرباب العناية والكرامة يومئذ من المؤمنين الموقنين الذين تزودوا في النشأة الأولى للأخرى، واتصفوا بالتقوى، ولم يعصوا في مدة أعمارهم إلى المولى، ولم يتبعوا الهوى، واطمأنوا ووطّنوا نفوسهم بما جرى

عليهم من مقتضيات الانقضاء، وبالجملة: لم يضطربوا في السراء والضراء، ولم يبالوا في الشدة والرخاء، فيقال لهم يومئذ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27] المتقررة المتمكنة بمقام الرضا والتسليم.

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ واصعدي على الطريق الذي هبطت عنه ﴿رَاضِيَةً﴾ متصفة بالرضا كما كنت راضية بالقضاء في النشأة الأولى ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28] مقبولة مكرمة عند المولى.

وبعدما رجعت على الوجه المذكور ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ [الفجر: 29] الذين وصلوا إلى كنف جواري، وحصلوا في مقعد الصدق لدي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿ادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1] [الفجر: 30] أي: جنة وحدتي واستريحي في خلوة لاهوتي.

جعلنا الله ممن خوطب بهذا الخطاب المستطاب، إنه هو الملهم للصواب، وعنده حسن المآب.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المترقب بهذا النداء، والمحب المترصد لسماع هذا الصدى أن تكون في عموم أوقاتك على حضور مع ربك، بحيث لا يشغلك عنه سبحانه الالتفات إلى غيره مطلقًا من الميل إلى الدنيا وأمانيها وعموم ما فيها، بل تكون مطمئنًا راضيًا بما جرى عليك من مقتضيات القضاء، مفوضًا أمورك كلها إليه على وجه التسليم والرضا، متوجهًا بالعزيمة الخالصة نحو المولى، حتى تكون مخاطبًا بهذا الخطاب المستطاب في كل نفس من أنفاسك التي جرت عليك في عموم أوقاتك وحالاتك.

وبالجملة: لا تغفل عن الله مطلقًا تقر بتشريف أمثال هذه الخطابات العلية والكرامات السنية.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين المطمئنين.

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: في جنة القلب المضاف إلى الرب لشرفها فيا أيها السالك، أعبر بهذه الحالات واعتبر عن مشتهيات النفس الأمارة؛ لتكون من الداخلين جنة الرب، ولا تفرح بالبسط ولا تحزن بالفيض، وكن في كلتا الحالتين ذاكر للرب لئلا تكون من الذين يعبدون الله على حرف كما ذكرهم الله في كتابه.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة البلد

لا يخفى على من وصل إلى مقام القلب الذي هو عبارة عن البيت الحرام الحقيق والكعبة المعنوية التي دحيت وبسطت من تحتها أراضي الاستعدادات، وتوجهت نحوها زوار القابليات من كل فج عميق ومرمى سحيق من بوادي الإمكان وأودية الطبائع والأركان، إنما وصل إليه وتشرف بطوافه، ووقف بين يدي الله ناويًا الموت الإرادي، محرمًا عن لوازم الطبيعة ومقتضيات الإمكان من ميقات الطلب والإرادة الصادقة، مغتسلاً بزمزم التوبة والإنابة عن الالتفات إلى مطلق السوى والأغيار، متجردًا عن ثياب الغفلة وجلباب الاغترار، ساعيًا بين صفاء المحبة ومروة المودة الإلهية بكمال الشوق والذوق، متوجهًا للوقوف إلى عرفات اللاهوت، متعرضًا عن عوارض عالم الناسوت، ذابحًا كبش نفسه تقربًا إلى الحي الذي لا يموت، منخلعًا عن جلباب البدن ولوازمه في منى الفناء، معاملاً مع الله في سوق البقاء؛ طلبًا لربح اللقاء، حلّ له أن يقاتل عند الحرام الإلهي مع جنود الأمارة وكفار القوى والآلات، إلى أن يغلب عليهم ويهلكهم، ويصفي البيت العتيق الإلهي، الذي هو قلب الإنسان الكامل عن أصنام الأحلام وأوثان الأماني والآمال الحاصلة من الخيالات والأوهام.

لذلك رخص سبحانه لحبيبه ﷺ القتال في حرم مكة، مع أن الحرمة فيها مؤبدة، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي اختار لنفسه بيتًا صوريًا ليكون قبلة لأصحاب الصورة، وبيتًا معنويًا؛ ليكون وجهة لأرباب القلوب ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده، حيث يدعوهم إلى كعبة المقصود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى عرفات الوحدة وبيت معمور الوجود.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 1-10].

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1] الذي هو كعبة آمال أرباب الإرادة والطلب؛ ألا وهو السواد الأعظم اللاهوتي؛ إذ لا حاجة بالقسم لأرباب المعرفة، بل أقسم لأصحاب الغفلة ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مكة - شرَّفها الله - التي وضعت بيتًا حرامًا، لا يحل لأحد أن يفعل فيها شيئًا من المحظورات المباح.

﴿وَ﴾ من جملة خواصك التي اصطفيناك وميزناك بها عن سائر الناس يا أكمل الرسل هي أنه: ﴿أَنْتَ حِلٌّ﴾ يعني: أنت لجمعك وجامعيتك وحيازة مرتبتك عموم المراتب، مستحل للتعرض خاصة للقتل والأسر في الحرم من بين عموم الناس؛ لمزيد فضيلتك ومنزلتك عند الله، وزيادة خصوصيتك ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] الذي حرم على عموم العباد، وإنما أُحل لك أيضًا ساعة من نهار لا أزيد منها، وبعد ذلك يحرم لك أيضًا.

﴿وَوَالِدٍ﴾ أي: أقسم بالوالد الذي هو آدم الصفي عليه السلام في عالم اللاهوت ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: 3] منه في عالم الطبيعة بعد هبوطها إلى مضيق الناسوت.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا نشأة ناسوته مغمورًا ﴿فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4] تعب ومشقة كثيرة، شاغلة لعموم حواسه ومداركه بحيث يستوعب ويحيط بجميع القوى والآلات حوائج المعاش وأسبابه، فاشتغل عن الله بسبب ذلك وترك أمر معاده، فأخذه في كسب الأموال وجمع الحطام والآثام المبعدة عن الحكيم العلام، فصار من غاية استغراقه بالدنيا نسي العقبى، وزلت نعله عن طريق المولى.

لذلك كذب وتولى، واستكبر واستولى، واستظهر بأمواله وأولاده، واستعلى وترقى أمره في الغفلة والغرور إلى أن طغى على الله، وبغى على عباده، وخيل أنه لا يغلب ولا يعلى، كما قال سبحانه مقرِّعًا عليه مسفهًا له: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ المجبول على الكفر والنسيان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ أي: أنه لن يستطيع ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: 5] فينتقم عنه ويأخذه على ما صدر عنه من العتو والعناد.

ومن كمال بطره وغروره ومفاخرته على بني نوعه ﴿يَقُولُ﴾ على سبيل الخيلاء والسمعة والرياء: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ وأنفقت في سبيل الله ﴿مَالاً لُّبَدًا﴾ [البلد: 6] مالاً كثيرًا ملبَّدًا منضدًا مجتمعًا متراكمًا.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويعتقد ذلك الأحمق ﴿أَن﴾ أي: أنه ﴿لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: 7] أي: لم يعلم الله إنفاقه ونيته فيه، واعتقاده عليه وإبطاله بالمن والأذى.

وكيف يتأتى إنكار إطلاعنا إياه وإلى ما صدر عنه؟! ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ﴾ ولم نظهر في جسده حين صورناه بمقتضى حولنا وقوتنا وكمال قدرتنا ﴿عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: 8] ليبصر بهما عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا.

﴿وَلِسَاناً﴾ ليعرب ويترجم به ما جرى في خلده ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: 9] مبينين على التكلم والتعريب على وجه الإفصاح والتوضيح.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ بإعطاء هذه النعم العظام ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أي: طريقي الخير والشر، والهداية والضلال، واختبرناه بهما وابتليناه أيّ طريق يختار لنفسه بعدما وفقناه لكليهما ونبهناه عليهما؟!

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ [البلد: 11-20].

وبعدما أعطيناه ما أعطيناه وهديناه ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ وما دخل الإنسان ﴿الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: 11] أي: الكؤودة الوعرة على نفسه الشاقة لها، حتى يؤدي شكر ما أعطيناه.

ثمّ أبهمها سبحانه تعظيمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المغرور بالحياة المستعار ولوازمها ﴿مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12] الكؤودة في طريق أهل الإيمان والعرفان.

ثمّ بيّنها بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: 13] أي: العقبة الكؤودة فك الرقبة عن رقية الأماني والآمال.

﴿أَوْ﴾ العقبة ﴿إِطْعَامٌ﴾ على فقراء الله وعجزة عباده ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: 14] أي: حاجة شديدة وجوع مفرط.

يعني: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: 15] أي: له قرابة إلى المطعم.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: 16] أسكنه الفقر وأغبره في تراب

المذلة والصغار.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقدم على اقتحام العقبة المذكورة ﴿كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وأيقنوا أن ما في يدهم لله، وهم منفقون بإقدار الله في سبيل الله ﴿وَ﴾ مع إيمانهم بالله واتصافهم بالأعمال الصالحة المؤكدة لإيمانهم ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على مشاق التكاليف الإلهية ومتاعب الطاعات المأمورة لهم ﴿وَ﴾ كذلك ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: 17] والشفقة على عباد الله وتعظيمهم، والتحنن نحوهم، والإحسان معهم ولو بكلمة طيبة.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الموصوفون بلذة الكرامة العظمى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 18] عند الله؛ أي: ذوي اليُمن والكرامة وأنواع اللطف، وأعلى الدرجة والمقامة.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذّبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: 19] أي: ذوو الملامة والندامة، المأخوذون بشؤم كفرهم ومعاصيهم، المجزيّون بفواسد ما اقترفوا من الجرائم والآثام.

لذلك ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[1] [البلد: 20] مطبقة ،مغلقة، مكتوبة بحيث لا يمكنهم من لوازمها التنفس فيها أصلاً؛ لكونهم منهمكين في النشأة الأولى في لوازم الإمكان بحيث لا يمكنهم في لوازمها ومقتضياتها.

نعوذ بك من النار، وما قرب إليها يا غفّار.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب للكرامة الإلهية والسعادة الأبدية - يسّر الله لك طريق الوصول إليه - أن تشتغل بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها وتكتسب الأخلاق المرضية المقربة إلى الله، المبعدة عن شآمة أصحاب الزيغ والضلال، المنهمكين في بحر الغفلة بأنواع الشهوات واللذات البهيمية والوهمية الفانية، العائقة من الوصول إلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: عليهم نار مطبقة عليهم الأبواب لا يدخل عليهم روح من عالم الروح، ولا يخرج من داخلهم كرب وغم بأنهم كسبوا هذه النار المؤصدة بكفرانهم وطغيانهم اللطيفة في عالم الكسب.

اللذات الروحانية الباقية.

وإياك إياك الاختلاط مع أصحاب الثروة المفتخرين بالمال والجاه، المتصفين بالنخوة الحاصلة منها، فإن صحبتك معهم تزل قدمك عن منهج التوكل، وتميل قلبك عن الرضا والتسليم.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك يا ذا القوة المتين.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشمس

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وسريان شمس الذات على صفائح ذرات المظاهر والمجالي الفانية الإلهية والإحصاء أن انبساط الحق وظهور الوجود إنما هو على مقتضى الجود الإلهي، وحسب اقتضاء رقائق الأسماء والصفات الكاملة المندرجة فيه للظهور والجلاء بمقتضى الحب الذاتي، المنبعث عن التجلي الجمالي على شئون متنوعة وأطوار شتى.

لذلك أقسم سبحانه بكليات الأطوار، وابتدأ بظهور شمس الذات، التي هي ينبوع بحر الوجود، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزَّه عن الظهور والبطون بحسب ذاته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية لإظهار كمالات أسمائه وصفاته ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإخفائها في وحدة ذاته.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 1-10].

﴿وَالشَّمْسِ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية، المتلألئة من سماء عالم الأسماء العماء، وأفق فضاء اللاهوت ﴿وَ﴾ بحق ﴿ضُحَاهَا﴾ [الشمس: 1] [1] المنبسط على

(1) قال روزبهان: أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنوّر بسنانها أسرارهم، وأيضًا أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأورث لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تتابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقرّبين، وأيضًا أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلّى لأرواح الموحدين والصدِّيقين، وليلُ تحيُّر أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضًا أي:

مرآة العدم القابلة لانعكاسها.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقَمَرِ﴾ أي: الوجود الإضافي الكلي، المحيط على مطلق العكوس والأظلال المنعكسة من مرآة العدم، التي هي عبارة عن سراب العالم غيبًا وشهادة ﴿إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس: 2] تبعها ولحقها؛ أي: شمس الذات في الإحاطة والشمول.

﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: نشأة الظهور والبروز المنعكسة من عالم الأسماء والصفات ﴿إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: 3] أي: شمس الذات، وفصلت آثار أسمائها وصفاتها الكامنة فيها على صفحات الكائنات.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: نشأة البطون والخفاء المنعكسة من عالم العماء، والسواد الأظلم الذي اضمحلت دونه نفوس عموم الكثرات، وتلاشت آثار الأسماء والصفات لكمال تشعشعها وبريقها ﴿إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: 4] حيث خفيت شمس الظهور من إفراط النور وكمال تشعشعها في البريق والظهور.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات المزيَّنة بنجوم الآثار والشئون المترفعة عليها ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5] من التجليات الحبية الجمالية والجلالية.

﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: استعدادات القوابل السفلية، القابلة لانعكاس آثار العلويات ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: 6] ونشرها من الآثار المرتبة على الصفات الفعَّالة الإلهية.

﴿وَنَفْسٍ﴾ أي: روح فائضة من عالم الأسماء والصفات على هياكل المسميات وقوابل العلويات والسفليات؛ ليستفيد بتذكر الموطن الأصلي والمنشأ الجبلي ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: 7] أي: عدَّلها وركَّبها ممتزجة من الآثار العلوية والسفلية.

وبعدما سواها وعدلها كذلك ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] على مقتضى ما أودع فيها من الآثار العلوية والسفلية، ثمَّ كلَّفها بما كلفها؛ ليتميز المحق من

بليل قهريات عظمته إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الورى ﷺ: «إنَّه ليغانُ على قلبي»، وسماء قلوب المحبِّين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيِّرات كشوفات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة.

المبطل، والضال من الهادي، والكافر من المؤمن؛ تتميمًا للحكمة المتقنة البالغة الإلهية وإظهارًا للقدرة الغالبة.

ثمّ قال سبحانه جوابًا لهذه المقسمات المذكورة على سبيل الكناية والتنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بما أفلح، وفاز عند الله من الدرجات العلية ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9] أي: طهّر نفسه عن الرذائل السفلية، ومقتضيات اللاهوتية الإمكانية وأمانيها.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر وهلك ﴿مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10] أنقص عن كمالاتها وأضلها؛ حيث حملها على اقتراف المعاصي والآثام المترتبة على سفليات الطبائع والهيولى ورذائل الإمكان المورث لها أنواع الخيبة والخسران، وأصناف الحرمان والخذلان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: 11-15].

لذلك ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المبالغ في إهلاك النفس وتضليلها وتقريرها بمن أُرسل إليها وأُمر لإرشادها، حين انحرفت عن جادة العدالة ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب طغيانها وتقليبها حظوظ السفليات على حظوظ العلويات، وبعدوان القوى الأمارة على جنود المطمئنة، وبانقهار نشآت اللاهوت بغلبة مقتضيات الناسوت.

وذلك أنهم قد بالغوا في العتو والعناد والتكذيب والإفساد، سيما وقت ﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ أي: قام وأقدم مسرعًا ﴿أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: 12] أي: أشقى القبيلة وأرداها وأضلّها عن طريق الحق - وهو: قدار بن سالف - إلى عقر الناقة المعهودة المحفوظة المخصوصة بالوصية الإلهية.

وبعدما صمم عزمه إلى العقر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو صالح ﷺ على مقتضى شفقة النبوة: ذروا ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ واحذروا عقرها، وبالجملة: لا تمسوها بسوء مطلقًا، فيأخذكم عذاب عظيم ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13] التي عيّن الله لها، ولا تذبوها عن الماء.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا قول الرسول، واجتمعوا على عقرها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فخرج الرسول من بينهم؛ خوفًا من حلول عذاب الله وسطوة قهره وجلاله، وبعدما ارتكبوا

المحظور المنهي ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: طبَّق عليهم الصيحة الهائلة، فأهلكهم بها بالمرة ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ الذي صدر عنهم، وهو تكذيب الرسول المرشد لهم من قِبل الحق ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: 14] أي: سوى الدمدمة عليهم، وأعمت بينهم بحيث لا ينجو منهم أحد، وبالجملة: أقدم العاقر اللعين على عقرها، واتفقوا معه.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ هو وهم ﴿عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 15] أي: ما يعقب عقرها ويتبعها من أنواع البلاء والمصيبة والعناء، وأخبرهم بها الرسول فكذّبوه واستهزءوا معه؛ لذلك لحقهم من سيئات أعمالهم.

نعوذ بك من سيئات الأعمال، وتشتت الأحوال، وتفاقم الأهوال.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأبدي والصلاح السرمدي المترتب على العناية الإلهية وفضله أن تصفي نفسك عن مقتضيات الإمكان وظلمات الهيولى والأركان، حتى تأمن عن طغيانها وعدوانها، فلك أن تحليها بالمعارف والحقائق ومحاسن الشيم والأعمال والخلاق الموجبة لفيضان لوامع الكشف والشهود، المخلص عن مطلق القيود لقرافة إطلاق الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الكثرات المتفرعة على الإضافات الطارئة على التعينات العدمية.

وفقنا الله لتخلية النفوس عن مطلق الرذائل، وتحليتها لمحاسن الشيم والخصائل.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الليل

لا يخفى على المنكشفين بنشآت الحق وشئونه الغيبية والشهادية أن تنزلات الحق عن مطلق العماء اللاهوتي نحو فضاء الناسوت على أطوار متفاوتة، وشئون شتى حسب اقتضاء رقائق أسمائه الذاتية المقتضية للظهور والجلاء.

لذلك أقسم سبحانه بنشأتي الغيب والشهادة، وما امتزج منهما في البرزخ الجامع الإنساني المحتوي على نشأتي الغيب والشهادة، المتفرعة عليهما التكاليف الإلهية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي على عموم شئونه المترتبة على أسمائه الغير المحصورة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لجميع مظاهره، حيث يطلعها على ذاته؛ ليتوجه الكل نحوه طوعًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان؛ حيث نبّه عليه سر سريان وحدته الذاتية على صحائف الكثرات المترتبة.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل: 1-11].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: 1] أي: وحق الهوية الغيبية الإلهية المتمكنة في مكمن العماء، المغشي لنقوش الكثرات المترتبة على الأسماء والصفات من شدة بريقها ولمعانها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: 2] أي: وحق الهوية الشهادية الإلهية، الظاهرة في عالم البروز والجلاء، المظهرة لآثار الأسماء والصفات إظهارًا للحكمة البالغة التي هي ترتب الإيمان والعرفان على تلك الآثار.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل: 3] أي: وحق القادر الحكيم الذي خلق وقدّر وصوّر برزخ الإنسان المصوّر على صورة الرحمن، الجامع لعموم مراتب الأكوان؛

حيث ركبّه وأودع فيه من الحصص اللاهوتية الغيبية والناسوتية الشهادية، ثمّ كُلِّف بالتكاليف الشاقة؛ ليترقى من حضيض الناسوت إلى ذروة اللاهوت؛ لذلك استخلفه واصطفاه وانتخبه من عموم مظاهره؛ ليترتب على مرتبة هذه المصلحة العليّة والخصلة السنيّة، وإنما خلقه زوجًا؛ ليدوم في نشأة الشهادة وجود مرتبته التي هي الغاية القصوى لنشأة الشهادة.

ثمّ قال سبحانه جوابًا للقسم، مخاطبًا على أفراد الإنسان؛ تربية لهم وتنبيهًا على مفاسدهم ومصالحهم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ الذي سعيتم به أيها المكلفون في نشأة الاختبار ﴿لَشَتَّى﴾ [الليل: 4] مختلفة متفاوتة حسب تفاوت ما أودع الله فيكم من الحصص المذكورة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ مما ساق له الحق من الرزق الصوري والمعنوي، مقارنًا للخشوع والخضوع وخلوص النية والطوية وأنواع الطاعات والعبادات المأمورة له ﴿وَاتَّقَى﴾ [الليل: 5] عن مطلق المحارم والمنهيات التي وردت الزواجر الإلهية فيها.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 6] أي: صدّق بعموم مقتضيات الأسماء الإلهية وبآثار صفاتها العليا التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي: نُعدُّه ونوفِّقه ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 7] للطريق السهلة الموصلة إلى مقصد التوحيد، والمعرفة المنجية عن غياهب الشكوك وظلمّات الأوهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ولم ينفق على مقتضى ما أمره الحق ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: 8] عن مقتضيات الأسماء ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 9].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونستعده ﴿لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 10] أي: للطريق العَسِرة الوعرة، التي هي طريق الكفر والمعصية المؤدية إلى أودية الشهوات الإمكانية، المستلزمة للدركات النيرانية.

﴿وَ﴾ بعدما نأخذه في النشأة الأخرى بسبب بخله وكفره ﴿مَا يُغْنِي﴾ يكف ويدفع ﴿عَنْهُ مَالُهُ﴾ شيئًا من غضب الله ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11] أي: هوى وهلك في قعر جهنم الإمكان وسعير النيران.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا
الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ

عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل: 12-21].

ثمّ قال سبحانه تعريضًا للمسرفين المفرطين: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: 12] يعني: ما علينا من إصلاحكم إلّا الهداية والإرشاد، فهديناكم ولم تهتدوا.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل: 13] يعني: ما لنا إلّا التبيين والتنبيه بأن الآخرة خير من الأولى، فبينًا طريق المعاش في النشأة الأولى، وطريق التزود والتهيئة للآخرة، فلم تقبلوا منّا، ولم تمتثلوا بما بيّنا، ومع ذلك أكدنا هدايتكم وإرشادكم بالإنذار البليغ.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ [الليل: 14] تتوقد وتتلهب من شدة سورتها.

وبينّا لكم أيضًا أنها ﴿لَا يَصْلاهَا﴾ ولا يدخل فيها ﴿إِلَّا الأَشْقَى﴾ [الليل: 15].

﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالكتب الإلهية وما فيها من الأحكام ﴿وَتَوَلَّى﴾ [الليل: 16] أعرض عن الرسل، وانصرف عن دعوتهم، ومع ذلك لم يقبل منّا.

﴿وَ﴾ كذا بينّا لكم أيها المكلفون أنها ﴿سَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يُبعد عن النار المسعرة في دركات الجحيم ﴿الأَتْقَى﴾ [الليل: 17].

﴿الَّذِي يُؤْتِي﴾ يعطي ويتصدق ﴿مَالَهُ﴾ في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاة الله على فقراء الله كيف ﴿يَتَزَكَّى﴾ [الليل: 18] ويتطهر عن قاذورات الدنيا، ولم يبق في قلبه سوى المولى حتى وصل إلى سدرة المنتهى، ومع وجود هذه الآيات لم يتنبهوا ولم يتفطنوا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: 19] يعني: ما يصح ويليق لأحد أن يتصدق بماله على طمع الجزاء والعوض والمكافأة، بل اللائق بحاله ألّا يعطي ما يعطي على من يعطي.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: 20] يعني: طلبًا للقاء الله في يوم الجزاء لا الثناء الدنيوي ولا للثواب الأخروي، بل رجاء أن يلقى ربه ويطالع وجهه الكريم.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[1] [الليل: 21] عن الله، بالفوز بشرف اللقاء عند

(1) قال علاء الدولة: أي: عن قريب يرضى عنه ربه بإعطائه إياه وعده من المقام المحمود أحداه قبول شفاعة في أمته الخاطئة، وهذه أرجى آية في كتاب الله للأمة الخاطئة فاجتهد إن تكون مستقيمًا في اعتقادك باللطيفة الخفية التي هي فيك مودعة، متيقنًا بما أخبرتك اللطيفة الخفية عن الغيوب

كشف الغطاء.

اللهم ارزقنا لقاءك يوم نلقاك.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لرضاء الله، والراجي مطالعة جمال الله وجلاله أن تحسن الأدب مع الله في عموم أحوالك في النشأة الأولى، وتزكّي نفسك عن مطلق الأماني والآمال الشاغلة عن التوجه نحوه، فعليك التبتل والاجتهاد على وجه الإخلاص والتوفيق من الله يهديك إلى سبيل الرشاد.

وإياك إياك أن تلتفت إلى مزخرفات الدنيا الدنيّة، فإنها تلهيك عن الدرجات العليّة الأخروية، وتغويك إلى الدركات الهوية الجهنمية الإمكانية، فلك أن تطرح كلها حتى تخلص عن غوائلها.

جعلنا الله ممن تَنَفّر عن الدنيا وما فيها.

ولا يحل عندك الغرور بالتشكيك والتكذيب في إيمانك الغيبي؛ لتصل إليك فائدة شفاعة لطيفتك الخفية إن شاء الله تعالى.

سورة الضحى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الضحى

لا يخفى على من دخل تحت قباب العز الإلهي، وفني في هويته أن عموم أحوال العباد وأخلاقهم أطوارهم بعدما انخلعوا عن لوازم ناسوتهم، واتصفوا بخلع اللاهوت وصارت راجعة إلى الله، مستندة إليه، صادرة منه سبحانه، وهم حينئذٍ في كنف حفظه وحضانته، يرقبهم حيث شاء بمقتضى حكمته البالغة.

ولاشك أن أفضل من تخلق بأخلاق الله، وخير من دخل تحت حيطة حضانته سبحانه، وتمكن في سواد أعظم اللاهوت، هو نبينا صلوات الله عليه وسلامه؛ لذلك خاطب معه سبحانه خطاب ملاطفة وتكريم، وسلّاه عمّا زوّر المشركون في شأنه من أنه قد قلاه ربُّه وودَّعه.

وبالغ سبحانه في تسليته حيث أقسم بما أقسم بعد التيمن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على حبيبه ﷺ حتى أخرجه عن مضيق الناسوت، مهاجرًا إلى فضاء اللاهوت ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده؛ حيث أرسل حبيبه ﷺ إليهم رحمة للعالمين ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يرشدهم بمتابعته إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 1-5].

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: 1] أي: وحق شروق الذات الأحدي الصمدي عند ضحى بعثة الحضرة الأحمدية.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 2] أي: وحق الانجلاء التام المنعكس من عالم العماء اللاهوتي، المغشي لمطلق الأضواء والأنوار المتفاوتة المرئية في نشأتي الغيب والشهادة، المقتبسة من الأسماء والصفات، المستتبعة للإضافات المتكثرة في عالم التفضيل.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ وقطع عنك قطع المودِّع ﴿رَبُّكَ﴾ الذي ربَّاك على عينه واصطفاك

لنفسه ﴿وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3] أي: ما أبغضك؛ يعني: لا تحزن من قول المشركين وزعمهم في حقك أنك ودعك ربك وقلاك في نشأتك الأولى، بل رعاك واتصل بك في أخراك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ التي هي نشأة لاهوتك ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ وأليق بحالك ﴿مِنَ﴾ نشأتك ﴿الْأُولَى﴾ [الضحى: 4] التي هي نشأة ناسوتك.

وكيف لا تكون الآخرة خيرًا لك من الدنيا؛ إذ هي باقية ببقاء الله، دائمة بدوامه، وهذه محدثة فانية، بل باطلة زاهية، زائلة بزهوق التعينات وبطلان الأوضاع والإضافات التي هي حاصلة منها.

﴿وَ﴾ لا تحزن أيها النبي المستوي على جادة العدالة اللاهوتية من هذيانات أهل الضلال ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بعد انخلاعك من ملابس ناسوتك ومقتضيات بشريتك من اللذات اللاهوتية التي لا يدرك كنهها إلَّا من اتصف بها، وذاق منها ﴿فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 5] [1] حينئذٍ من ربك، ورضي بك عنك.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 6-11].

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل من الوعد الإلهي ما سمعت تذكر كرم ربك منك فيما مضى، وترقب من كراماته التي ستأتيك، وبالجملة: لا تيأس من روح الله ورحمته، وكيف تيأس أيها النبي المغمور في بحار لطفه وجوده؟! ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ويصادفك ربك مع كونك ﴿يَتِيمًا﴾ بلا رشد ومرشد ﴿فَآوَى﴾ [الضحى: 6] أي: ضمَّك نحوه سبحانه وجذبك عنك إليه، وقرن اسمك باسمه.

(1) قال روزبهان: هذه بشارةٌ لأمته المرحومة، فإنه لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمته الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق يصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء نعوت الحدث في نعوت القدم. قال ابن عطاء: كأنه يقول لنبيه ﷺ: أفترضى بالعطاء عوضًا عن المعطي؟ فيقول: لا فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على همةٍ جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيءٌ من الأكوان، ولا يرضيك شيءٌ منها.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ خاليًا عن الحِكم والأحكام، منهمكًا في لوازم الإمكان ﴿فَهَدَى﴾ [الضحى: 7] أي: هداك وأرشدك إلى الإسلام، وأوصلك إلى زلال التوحيد والعرفان.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا حسب إمكانك ومقتضيات بشريتك الموروثة لك من نشأة ناسوتك ﴿فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8] أي: أغناك بغنائه بعدما أفناك فيه، وشرَّفك بخلع اللاهوت بعدما أخرجك عن ملابس الناسوت.

وبعدما كنت يتيمًا فآواك ربك، ووجدك ضالاً فهداك، ووجدك فقيرًا فأغناك، وبالجملة: كرَّمك واصطفاك وعظَّمك واجتباك ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾ الفاقد للرشد والرشيد ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9] متى يأوي إليك للاسترشاد لا تردعه ولا تزجره، وكلِّم معه حسب استعداده وقابليته إلى حيث توصله وترشده إلى طريق الطلب والإرادة.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ الذي يسأل من مكنونات ضميرك ومن السرائر المودعة فيك من الودائع اللاهوتية ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10] أي: لا تمنعه ولا تخيِّبه، بل أحسن إليه كما أحسن الله إليك حسب استفاضته واستعداده.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهدايته وإرشاده ﴿فَحَدِّثْ﴾[1] [الضحى: 11] يا أكمل الرسل مع المسترشدين المستكملين، فإن حديثك من سرائر الدين وأسرار المعرفة واليقين مع المؤمنين المسترشدين والطالبين، المستوجبين الشكر منك لنعم الله وأداء لحقوق كرمه واستجلاب لمزيد إنعامه وإفضاله.

---

(1) قال السمناني: أي: بنعمة معارف الحقائق اللاهوتية التي ربيناك بصفات الربوبية ثم أنعمنا بها عليك فحدث مع كل أحد من أمم قواك على قدر عقولهم ولأجل هذا قال ﷺ «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وأوتي ﷺ في هذا المقام جوامع الكلام بحيث لو تكلم بكلمة وجيزة أخذ منها الخاص والعام كلهم على قدر استعدادهم، فأيديهم وكانت مندرجة في كلمة الوجيزة معان كثيرة فاجتهد بها السالك أن تكون في هذا المقام مؤدبًا بآداب رسولك مع ربك متخلق بخلق الله مع خلق الله في عالم شهادتك وغيبك ليمكن لك أن تؤدي حق هذا المقام وتتمتع بعده بالمقام المحمود المخصوص بمحمد أحمد للخلائق بأخلاقه الحميدة القاسم بين الخلق رزق خلق الخلائق، وفيه أسرار تتعلق بحد القرآن فادرج أيها الإنسان الغالب عليك النسيان وتوكل على الرحيم الملك المستعان الملك الدنيا في السرور والأحزان لتكون في ملكك وملكوتك مهدي إلى آخر الزمان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملازم لتعديد نعم الحق على نفسك أن تداوم وتواظب على أداء حقوق ما وصل إليك من النعم العظام والكرم الجسام، فلك أن تحدث في عموم أوقاتك وحالاتك عن كرم مولاك، وتشكره على ما أولاك من الآلاء والنعماء في أولاك ووعد لك في أخراك.

وبالجملة: كن من الشاكرين لنِعَم الله، المحدِّثين بحقوق كرمه، ولا تكن من الغافلين في حال من الأحوال، وسبّح بحمد ربك بالغدو والآصال.

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ألم نشرح

لا يخفى على من شرح الله صدره للإسلام، ووسّع قلبه لقبول عموم الأحكام إلى حيث وسّع الحق فيه مع شئونه وتطوراته الغير المتناهية، المترتبة على أسمائه وصفاته أن تفسيح الصدر وتوسيعه إنما هو من علامات العناية الإلهية لخلص عباده؛ إذ مقام الخلة والخلافة إنما يترتب على هذا الشرح والتوسيع، وهو من أعظم الفتوحات الإلهية.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان به، وعاتبه عليه؛ تنبيهًا على جلالة شأنه ورفعة مكانه عند الله، فقال متيمنًا باسمه، مستفهمًا على سبيل التأكيد والتقرير: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي شرح صدور عباده لقبول سرائر المعرفة واليقين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بدفع الأوزار والأثقال المانعة عن القبول بعدما هداهم إلى الطريق المستبين ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يُعليهم ويرفع ذكرهم بعدما أخرجهم عن مقتضيات بشريتهم إلى أعلى عليين.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: 1-8].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1] (1) يا أكمل الرسل من اجتبينا، واصطفينا

---

(1) قال الورتجبي: شرحَ صدره- صلوات الله وسلامه عليه- طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرْحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة

للنيابة والرسالة، ولم نفسح ونوسعْ خلدك لقول الآيات الواردة عليك منّا، والامتثال بالأحكام الموردة من لدنا، مع كونك أميًا، عاريًا، خاليًا عنها وعمّا يترتب عليها؟.

وبعدما شرحنا لك صدرك لشعائر الإسلام ومعالم الدين ومراسم التوحيد اجتبيناك للرسالة والتبليغ إلى عموم الأنام ﴿وَ﴾ بعدما أمرناك بالرسالة ﴿وَضَعْنَا﴾ أي: أزلنا ﴿عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: 2] أي: ثقلك الطارئ عليك من حِمل أعباء الرسالة وأداء التبليغ.

﴿الَّذِي﴾ من غاية شدته وثقله ﴿أَنقَضَ﴾ أي: قصم وكسر ﴿ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: 3] لأنك أمي، ذاهل عن مطلق الأحكام، مأمور بها؛ لذلك ثقل وضاق عليك الأمر.

﴿وَ﴾ بعدما وفّقناك على تبليغ الرسالة، وأيدناك بالآيات الموردة المنزلة في موارد الأحكام ﴿رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4] حيث قرنّا اسمك باسمنا، وخلّفناك عنّا واخترناك لخلافتنا ونيابتنا؛ لذلك أنزلنا في شأنك: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10] إلى غير ذلك من الآيات، وأيّ رفع وكرامة أعلى وأعظم من ذلك؟!

وبعدما كرمناك بأمثال هذه الكرامات العلية لا تيأس من سعة روحنا ورحمتنا وإعانتنا وإغاثتنا، ولا تحزن على أذى قومك واستهزائهم، وتطاول معاداتهم وعنادهم معك ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي قد عرض عليك ولحق بك من قبلهم ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 5] ناشئًا من قبل الحق، مقابلاً واصلاً إليك من حيث لا تحتسب.

ثمّ كرر سبحانه تأكيدًا ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي ألم بك الآن ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 6] منّا مترقبًا كيفما اتفق.

وفي تعريف العسر وإعادته معرفة وتنكير اليسر وإعادته نكرة أيضًا إشعار بقلة طرق العسر وأسبابه، وكثرة طرق اليسر وموجباته.

يعني: لا تيأس من العسر الطارئ عليك أحيانًا معهودة معدودة عن يسر ملازم لك في أكثر الأوقات والأزمان، مصاحب معك في جميع حالاتك.

الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان؛ بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة.

وبعدما أمرناك بتبليغ الرسالة وأرسلناك لنشرها، فلك أن تمتثل بالمأمور على مقتضى الوحي والإلهام ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ عن الدعوة والتبليغ على مقتضى منصب النبوة والرسالة ﴿فَانصَبْ﴾ [الشرح: 7] نفسك وأتعبها بالمجاهدات والرياضات القالعة لعرق لوازم الإمكان عن أصله على مقتضى رتبة الولاية.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره من وسائل المظاهر وأسبابها ﴿فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 8] في خلواتك وصلواتك، في عموم حالاتك ومقاماتك، بلا روية الوسائل في البين، والوسائط في العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب الراغب إلى الله، القاصد للعكوف حول بابه أن تفرغ همك عن مطلق الأماني والآمال وعموم الأشغال المانعة عن الوصول إلى فنائه، وترغب عن الدنيا وما فيها، وتتوجه نحو الحق من طريق الفناء، وتطرح لوازم الحياة المستعارة بالكلية حتى تصل إلى مرتبة الموت الإرادي المستلزم للبقاء الأبدي السرمدي.

جعلنا الله من زمرة أرباب الرغبة إلى المولى وعن الدنيا، بمنّه وجوده.

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التين

لا يخفى على من انكشف له رفعة رتبة الإنسان، ووضح دونه علو شأنه وسمو برهانه أن من انحط عن الرتبة الإنسانية التي هي الخلافة الإلهية وسقط عنها، فقد لحق بأنزل المراتب وأدنى المنازل، كما عبر عنه سبحانه بأسفل السافلين؛ لذلك أقسم سبحانه بمعظمات المظاهر؛ لإثبات لحوق الإنسان بأسفل دركات النيران، بعدما انحط وسقط عن أعلى غرفات الجنان، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع التعظيم والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه يوصله إلى روضات النعيم.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: 1-8].

﴿وَ﴾ حق ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: 1] هما جبلان في الأرض المقدسة، يكثر فيها كلتا الفاكهتين.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2] أي: الجبل الذي ناجى عليه موسى الكليم مع ربه.

﴿وَ﴾ لاسيما بحق ﴿هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: 3] يعني: مكة - شرفها الله - سماها أمينًا؛ لأن من دخله إيمانًا واحتسابًا كان آمنًا من العذاب الأليم.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: جنسه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] وأقوم تعديل؛ إذ لا مظهر أعدل منه وأقوم بحسب الظاهر والباطن؛ لذلك اصطفيناه لخلافتنا من بين خليقتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تعلق إرادتنا لرداءة فعله ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ وأحطناه من تلك المرتبة العلية

والدرجة السنية ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[1] [التين: 5] وهي مقتضيات الإمكان، المستلزم لدركات النيران، وسلاسل أمانيها وأغلال آمالها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المخلصة لهم عن قيود الإمكان، المقربة لهم إلى فضاء الوجوب ﴿فَلَهُمْ﴾ بعدما وصلوا إلى عالم اللاهوت ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 6] أي: نعم لا تنقطع، ولا يمن بها عليهم أصلاً.

وبعدما نبه سبحانه على ما نبه بأبلغ وجه وأوكده، حث عموم الإنسان على الإيمان ورغبهم إلى اليقين والعرفان، فقال على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: أي شيء يحملك على الكفر والطغيان والتكذيب والكفران أيها الإنسان المجبول على فطرة التوحيد والعرفان ﴿بَعْدُ﴾ أي: بعدما ظهر الحق، ولاحت دلائل التصديق وأمارات اليقين ﴿بِالدِّينِ﴾ [التين: 7] القويم، والسبيل المستقيم؟!

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أمثال هذا الرد والخلق بالإرادة والاختيار ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8] على كل ما شاء، وأراد، سواء كان بدءًا أو إعادة، فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب للتقرر والثبوت على جادة التوحيد التي هي أحسن تقويم الإنسان، وأعدل طريقه أن تتأمل في هذه الصورة حق التأمل، وتدخر لنفسك من فوائدها ما هو أهم، فعليك التوبة إلى الله، والإتيان بصوالح الأعمال، والاجتناب

(1) قال السمناني: لم يكن من غير حكمة، ولا يكون بعد هذا الرد رجوعك إليه، ولا ينفي منك لطيفة باقية تتنعم وتتألم بعد خراب البدن، فكل نفس تكون مطمئنة تؤمن وتقول: بلى وأنا من الشاهدين على أنك أحكم الحاكمين، ولا يمكن أن يصدر منك فعل غير حق وعمل غير متقن، خلقتنا لمظهرية صفات لطفك وقهرك، وأودعت فينا لطيفة مستحقة؛ لتكون مرآة لذاتك، فطوبى لمن آمن بحقيتك وعمل عملاً صالحًا على مرآة وجوده بتصقيلها وإقامتها محاذاة الوجه بعد إخراج الحديد من الجبل، وبناء البلد الأمين الذي فيه مسكن المعقلة، وغرس الأشجار المثمرة؛ ليضئ بضياء نور مروج في دهن الزيت ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين:3]، فيطلع في بستانه على ثمرة المعرفة الذاتية ويجتنيها ويأكلها ويصل إلى لطيفة ذوقها، اللهم أذقنا معرفتك الذاتية بمحمد ﷺ.

عن فواسدها.

وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا، وتنغمس بأمانيها، فإنها ترديك وتردك إلى أدنى مراتب الإمكان الجالب لأسفل دركات النيران، وتغويك فيها بأنواع الخيبة والخذلان.

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العلق

لا يخفى على من أيقظه الحق عن منام الغفلة، ووفقه للخروج عن أقطار عالم الإمكان نحو فضاء الوجود أن علامة العناية الإلهية وأمارة كرامته على الموفقين من لدنه، المنجذبين نحوه أن يذكرهم ويلقن عليهم أولاً: تعديد أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ويواظبهم عليها إلى أن نبع ينبوع الحكمة اللدنية المودعة في قلبه، المترشحة من بحر الذات الأحدية، ثمّ يظهر على لسانه، وصار حينئذٍ على ذكر من ربه، متمكنًا في مرتبة اليقين العلمي، ثمّ ترقى منها إلى أن صار علمه عيانًا، ثمّ صار عيانه حقًا وبيانًا.

لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ أولاً بالقراءة والتذكرة بأسمائه بعدما أراد سبحانه تربيته وتكريمه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي دبر أمر الإنسان بأحسن التدبير ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه حيث سواه أحسن التصوير ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه حيث هداه إلى خير منقلب ومصير.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [العلق: 1-8].

﴿اقْرَأْ﴾ يا أكمل الرسل وتذكر بعدما أدركتك العناية، وأحاطت عليك الكرامة الإلهية ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: داوم على تذكر عموم أسماء مربيك ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] كل شيء، وأظهره من كتم العدم حسب أسمائه وصفاته، ورباه بأنواع اللطف والكرم وأباح عليه من جلائل النعم.

سيما ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ وخصه من عموم الأكوان بمزيد الإنعام والإحسان، مع أنه خلقه وقدر وجوده ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2] دماء معلوقة مسترذلة، مكونة من مني

مرذول، مكون من الدم المسفوح، المتكون من إجراء الأغذية.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالقراءة، وتعديد الأسماء وإحصاءها، أمره بالقراءة ثانيًا؛ للتأمل والتدبر في معانيها، والاستكشاف عن فحاويها ومرموزاتها فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قراءة تدبر وتعمق واستكشاف على ما في مطاويها من البدائع والغرائب المودعة فيها، ولا تنظر إلى كونك أميًا لست من أهل الإملاء ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3] الكامل الكرامة والهداية لأرباب العناية.

﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الخط والرقم ﴿بِالْقَلَمِ﴾[1] [العلق: 4] الذي هو بمراحل عن التعلم والتفهم.

لا تستبعد من كمال كرامته وعنايته، تعلمك يا أكمل الرسل؛ إذ هو سبحانه ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ﴾ المصور على صورة الرحمن ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5] من البيان والتبيان، وأنواع طرق الكشف والعيان، فأنت يا أكمل الرسل من أعز أفراد الإنسان شأنًا، وأعلاه شرفًا وبرهانًا، وأرفعه قدرًا ومكانًا.

وبعدما أشار سبحانه إلى مبدأ الإنسان ومادته، وإلى منتهاه وغايته، تعجب سبحانه من حاله، واستبعد ما صدر عنه من الطغيان والكفران والبغي والعدوان، مع كمال عناية الله معه وكرامته إياه، فقال على سبيل الردع والزجر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المستحدث من الأقذار المهانة، المترقي إلى نهاية الكرامة وأعلى المقامة ﴿لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: 6] ويتجاوز عن حده، ويستكبر على ربه، وينسى أصل منشئه؛ لأجل ﴿أَن رَّآهُ﴾ علم نفسه أنه ﴿اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 7] أي: صار غنيًا عن الله، مستغنيًا عن الافتقار إليه، مستكبرًا على عباده، يمشي على وجه الأرض خيلاء بما عنده من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

وكيف يتأتى لك الطغيان والاستكبار أيها المسترذَل المُهان المستحدث من

(1) وهو أول موجود أوجده الله في مرتبة الفاعلية، وهذه إشارة ترد على اللطيفة المتخلقة من ظلمات القالب، ويظهر على السالك بعد هذا الأمر العلم اللدني، فإذا أدى حق هذه المقام في السجود يعطى له العلم المجهول في مقام الاقتراب، وهو مقام يرفع الحجاب فيه بين الأرباب الباطلة المتفرقة ورب الأرباب، يسجدوا له ويؤمنوا به ويقولوا: نحن التراب وأنت رب الأرباب، وفي هذا البيان سر عزيز يتعلق بحد القرآن الذي لا يمكن لقلم البيان التجاوز عنه؛ لأنه مأمور بأن يمد عينا البيان في ميدانه. [عين الحياة].

المهين ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ﴾ الذي أظهرك من كتم العدم، وأحدثك من الأمشاج المرذولة ﴿الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8] أي: الرجوع المعهود في النشأة الأخرى، فسيجزيك بجميع ما صدر عنك بعدما يحاسبك عليه بمقتضى العدالة والإنصاف.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 9-19].

ثمّ نص سبحانه على ذكر بعض الطاغين المستغنين، المستكبرين بما عندهم من الجاه والثروة - وهو: أبو جهل اللعين - فقال: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الباغي الطاغي ﴿الَّذِي يَنْهَى﴾ [العلق: 9] أي: يمنع ويكف ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: 10] وتوجه نحو ربه بجميع أجزائه وجوارحه، وأراد أن يصرفه عنه.

وذلك أن أبا جهل قال: لو رأيت محمدًا ساجدًا لأطأن عنقه، فرآه ساجدًا فجاءه ليطأه، ثمّ نكص واستدبر، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقًا مملوءًا من النار وهولاً، وأجنحة.

ثمّ خاطب سبحانه هذا الطاغي الناهي خطاب تهديد وتقريع: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيها المفسد المتناهي في البغي والعناد ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: 11] والرشاد. ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: 12] وبالاجتناب عن مقتضيات الهوى، لتنهاه عن فعله هذا، وأمره وإرشاده ألبتة.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيضًا أنك نهيته عن الصلاة ﴿إِن كَذَّبَ﴾ على الله ﴿وَتَوَلَّى﴾ [العلق: 13] أي: أعرض عن مقتضيات أوامره ونواهيه.

وبالجملة: نهيته عن الصلاة مطلقًا سواء ﴿كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: 12] مجتنبًا على الهوى، أو مكذبًا على المولى، معرضًا عمّا جرى عليهم من القضاء؛ يعني: ليس سبب نهيك إلّا العصبية والعناد، سواء كان محقًا في فعله أو مبطلاً.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهذا المكابر الناهي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾

ذلك الناهي المباهي المبالغ في العتوّ والعناد ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿يَرَى﴾ [العلق: 14] يعلم ويبصر جميع ما صدر عنه من المجادلة والمراء، فيجازيه على مقتضى علمه وخبرته.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للناهي عمّا عليه من المكابرة والعناد ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الناهي، المبالغ، المباهي عمّا هو فيه من المكابرة والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: 15] أي: لنأخذن بناصيته ولنسجننه مكبًا على وجهه نحو النار المعدة لتعذيب الكفرة، المبالغين في العتو والعناد.

وأي ناصية؟! ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: 16] أي: كاذب خاطئ، وصف الناصية بهما؛ للمبالغة والتأكيد.

وبعدما نسحبه كذلك، ونأخذه على ظلمه ﴿فَلْيَدْعُ﴾ وليناد حينئذٍ ﴿نَادِيَهُ﴾ [العلق: 17] أهل مجلسه وأعوانه من قهرنا مع أنّا أيضًا ﴿سَنَدْعُ﴾ ونأمر حتى ينصروا له وينقذه صارخًا عليهم، مستغيثًا منهم يومئذ ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: 18] أي: الشرطة الموكلين على جهنم؛ ليجروه نحو النار على وجه الهوان والصغار.

ثمّ كرر سبحانه ﴿كَلَّا﴾ تأكيدًا لردعه وتشديدًا عليه، ثمّ نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن إطاعة ذلك الباغي والإصغاء إلى قوله، والمؤانسة معه والالتفات إليه بقوله: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: دُمْ يا أكمل الرسل على صلاتك واثبت عليها، ولا تلتفت إلى هذياناته الباطلة ﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك على وجه الخضوع والخشوع ﴿وَاقْتَرِب﴾ [العلق: 19] إليه وتقرّب نحوه بإطراح لوازم ناسوتك، محرمًا على نفسك حظوظك من دنياك، مسقطًا مقتضيات بشريتك ولواحق مادتك مطلقًا.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد»[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 98-99].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتقرب نحو الحق والوصول إلى فضاء اللاهوت - أعانك الله

(1) ذكره النسفي في «تفسيره» (43/4).

في مطلبك هذا وطلبك - أن تداوم على الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتذلل التام والانكسار المفرط؛ إذ ما يتقرب العبد إلى ربه إلّا بالاستكانة والضراعة، والإفناء عن لوازم نشأة الناسوت، والاتصاف بالموت الإرادي المورث للحياة الأبدية والبقاء السرمدي.

جعلنا الله من المتصفين به بمنِّه وجوده.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القدر

لا يخفى على من انكشف بسرائر إنزال الكتب وإرسال الرسل من الموفَّقين على الإطلاع والوقوف بسر سريان الوحدة الذاتية الإلهية على صفحات الكثرات الفانية في الحصر والإحصاء أن المقادير المحفوظة في لوح القضاء، والتصاوير المضبوطة في حضرة العلم والقلم الأعلى إنما هي في عالم العماء الغيبي المسمَّى: ليلة القدر، وإنزالها منها نحو فضاء الشهادة والجلاء إنما هو أيضًا فيه، ولاشك أن السر من إنزال الكتب الإلهية إنما هو لضبط تلك المقادير والإخبار عنها على الوجه الذي ثبت في حضرة العلم ولوح القضاء.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان بإنزال القرآن في ليلة القدر الغيبي، التي هي خير من ألف شهر من أزمنة نشأة الشهادة، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي قدّر عموم المقادير في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده بإنزال القرآن، المنبِّه لهم طريق المعرفة والإيمان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم؛ يوقظهم عن نوم الغفلة ورقود النسيان.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: 1-5].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا لعموم عبادنا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن المبيّن لهم طريق النجاة من نيران الجهالات ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] [القدر: 1] الغيبي التي لا

(1) قال علاء الدولة: أي: نور الذي يحصل به انشراح الصدر؛ وهو الجمال المخصوص بسيد أهل الكمال المودع في ظل قالبه، الذي بذلك النور ما كان لقالبه ظل قابلة قالبه، كان ظل النور لا ظل الظلمة بخلاف القوالب؛ لأنها ظلال ظلمانية، فلما طلعت شمس الروح أظهر ظلال الظلمة -

إطلاع لأحد عليها إلّا لعلام الغيوب.

لذلك أبهم سبحانه على حبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: أيّ شيء أعلمك من مقتضيات بشريتك ولوازم ناسوتك ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 2] إذ هي خارجة عن مدارك عالم الناسوت.

ثمّ بيّنها سبحانه على مقتضى أفهام البشر ومداركهم، فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3] من أيام عالم الشهادة ولياليها؛ إذ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: سكان سواد الأعظم اللاهوتي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الأمين، المدبِّر لأمور أشباح عالم الناسوت ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة، ونزولهم فيها إنما هو ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ يأمرهم بالنزول فيها، ومع كل منهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4] من الأمور الجارية في عالم الشهادة.

﴿سَلَامٌ﴾ وتسليم من قِبل الحق يسلم لهم سبحانه، ويفوض إليهم أمرهم على مقتضى حكمته المتقنة؛ ليقوم كل منهم به، ويحسن تدبيره على الوجه الذي أمر به، وبالجملة: ﴿هِيَ﴾ أي حالهم وشأنهم هذا وهكذا ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 5] أي: إلى طلوع شمس الذاتية الإلهية، المفنية بأشعتها الذاتية عموم أضواء الأظلال والعكوس مطلقًا.

كأن ليلة القدر التي سُترت في خلال ليالي السنة، أو في ليالي شهر رمضان، أو في ليالي العشر الأخير منها - على ما قيل - هي منتخبة ممثلة من تلك الليلة القدرية، الغيبية العمائية، اللاهوتية؛ لذلك ما عينها الشارع وما عرفها، بل أبهمها وأخفاها.

قيل: في تلك الليلة يقدّر عمومًا أحوال تلك السنة، وجميع ما يجرى فيها من الحوادث الكائنة، كما أن في أصلها ومنشئها التي هي ليلة القدر الغيبي، متى يقدّر عموم المقادير الكائنة أزلاً وأبدًا؛ لذلك من أحياها، فقد فاز بخيري الدارين.

رزقنا الله وجدها والوصول إليها والتحقق دونها.

وهذا سر عزيز يتعلق بحد القرآن، فأنت أيها السالك الطالب اجتهد في طلب ذلك الظل المودع فيه ذلك النور في اللطيفة القالبية المستخلصة عن الأباطيل، المتسكن فيها نور لطيفتك الخفية ليصل في ظلمة ليل قالبك إلى ظل لطيفة المستودع فيها نور القدر، ونشاهد ذلك النور في لطيفتك المستحقة ليكون قالبًا للطيفتك الخفية، وتصير صاحب القدر منشرح الصدر.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم القاصد لإحياء تلك الليلة وإدراكها أن تشمر ذيلك لإحياء عموم الليالي الآتية عليك في أيام حياتك؛ إذ هي مستترة فيها، وبالجملة: لا تغفل عن الله في جميع حالاتك حتى تكون عموم لياليك قدرًا خيرًا من الدنيا وما فيها.

سورة البيّنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البينة

لا يخفى على المستكشفين عن سرائر الآيات الواضحة، والبينات اللائحة، الموضحة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين أن ظهور طريق الحق، وسلوك سبيل الهداية إنما يحصل ببعثة الرسل وإنزال الكتب؛ لأن تبيين الحق ما هو إلّا من قِبل الحق، بل بالحق كما أخبر سبحانه عن حقيقة حال الكفرة في الإيمان والكفر، بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر لطريق الحق بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإيضاح البينات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: 1-4].

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبدة الأوثان ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يكونوا زائلين منفصلين في حين من الأحيان عن الإيمان والاعتقاد بنبوة محمد ﷺ؛ إذ أهل الكتاب آمنوا بنبوته بمقتضى ما وجدوا في كتبهم، والمشركون سمعوا من أسلافهم وصفه ونبوته واعتقدوا بعثته، فآمنوا له، ولم يزالوا على هذا الاعتقاد ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1] على مقتضى سنة الله، فظهرت الحجة الواضحة والبينة الموضحة.

وتلك البينة والبرهان ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ مؤيد من لدنه بالآيات الواضحة والبينات الإلهية ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أسفارًا محفوظة، مصورة، معجزة ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: 2] عن مطلق الرذائل، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل منزّل من حكيم عليم.

﴿فِيهَا﴾ أي: خلالها ومطاويها ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: 3] أي: مكتوبات صادقة حقه من الأوامر والنواهي والحكام المتعلقة لدين الإسلام، صادقة مستقيمة، لا عوج لها ولا انحراف، ناطقة بالحق الصريح.

وبالجملة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ واختلف في الإنكار والاعتقاد، والإيمان والكفر ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4] يعني: ما تفرقت تلك الأمم عما هم عليه من تصديق النبي الموعود إلّا من بعد ما ظهر الرسول الموعود، ولاحت البيّنة الواضحة، الدالة على صدقه في نبوته ودعوته، ألَا وهو القرآن المعجز المبيّن لشعائر الإسلام.

وبالجملة: اختلفوا في نشأته ﷺ وبعد بعثته، فمنهم من آمن له على مقتضى ما وجده في كتابه، ومنهم من كفر وأنكر عليه عنادًا ومكابرةً؛ ولهذا حرّف-أوصافه المذكورة في الكتب السالفة مع أنهم لم يجدوا في دينه وكتابه ما يخالف أحكام كتبهم وأديانهم.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: 5-6].

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقيّة والألوهية ﴿مُخْلِصِينَ﴾ مخصصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ والانقياد بلا اشتراك وإلحاد ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن مطلق الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة لهم في أوقاتها الموعودة المحفوظة ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لأموالهم على وجهها ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي أمروا به في كتبهم هو ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5] والملة المستقيمة التي ظهر عليه محمد ﷺ، بلا تغيير وانحراف فيه واختلاف. وهم بالجملة: ما كفروا وأنكروا نبوته ورسالته ﷺ إلّا عنادًا ومكابرةً، بلا مستند صحيح لا عقلي ولا نقلي.

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ الكافرين المعاندين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنبوة محمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ﴾ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ داخلون ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً، إلّا إلى عذاب فوق العذاب، وأشد منه، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء، المردودون، المطرودون عن ساحة عز القبول ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

[البينة: 6] الخليقة، وأردؤهم، كأنهم مقصورون على الشرارة والرداءة مجسمون منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: 7-8].

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم بوحدة الحق وصدقوا بنبوة محمد ﷺ، وقبلوا دعوته ودينه حسب ما وجدوا في كتبهم، وسمعوا وصفه من أسلافهم بلا تحريف ولا تغيير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله والمرضية عنده سبحانه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7] وأحسن الخليقة.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ الذي استحقوها بإيمانهم وأعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ منتزهات علم وعين وحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المتجددة، المرشحة من بحر الحقيقة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائمين فيها سرمدًا، وبالجملة: ﴿رَّضِيَ اللهُ﴾ المفضل المنعم العليم الحكيم ﴿عَنْهُمْ﴾[1] وعن أعمالهم ونياتهم وأخلاقهم فيها ﴿وَرَضُوا﴾ أيضًا ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بما قسّم الله لهم، وأفاض عليهم بمقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ الأجر الجزيل والرضا

(1) قال الشيخ البقلي: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عاينوه وآثروه على من دونه عشقًا وشوقًا ومعرفة، وهذه الدرجات لمن عَرِف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظمته، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحقّ. قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل، يُظهر أن الرَّسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها، فأنّى ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المنتفخة، والأكمام المقصّرة؟!

وقال: استعمل الرضا جهدك، ولا تَدَع الرضا يستعملك، فتكون محجوبًا بلذّته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته. قال سهل: الخشية سرٌّ، والخشوع ظاهرٌ. وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه؛ لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كره، ويرضوا ما رضي.

الجميل ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 8] وخاف من سخطه وغضبه، فامتثل بأوامره واجتنب عن نواهيه، واتصف بالتقوى عن مطلق محارمه ومحظوراته.

جعلنا الله من زمرتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الراجي لقبول الحق والرضاء أن تصفي سرك عن مطلق الرعونات المنافية للرضا عما جرى عليه القضاء، وتخلي ضميرك عن الميل إلى مطلق البدع والأهواء المبعدة عن التقرب نحو المولى، فلك التسليم والرضا، والتبتل نحو الحق في السراء والضراء، والتوكل عليه في الخصب والرخاء، فإنه لا تحرك في ملكه إلّا ما يشاء.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزلزلة

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخرى، التي هي نشأة انتقال الأعمال وجزائها أن الحكمة الإلهية، الباعثة على إيجاد الموجودات وإظهار المخلوقات، تقتضي أن يكون نشأة الاختبار والابتلاء سابقة على نشأة الجزاء؛ لتظهر سرائر التكاليف الإلهية وفوائد الأوامر والنواهي والأحكام المنزلة من عنده، ويتميز مرتبة الربوبية عن مرتبة العبودية ومكانة الألوهية عن المألوهية.

وبعدما اقتضت الحكمة المتقنة الإلهية بترتب النشأة الأخرى عن الأولى، أشار سبحانه إلَى أمارات النشأة الأخرى وعلاماتها بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عباده حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، حيث وضع التكاليف المثمِّرة لهم خير الجزاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم في النشأة الأخرى، يجزيهم الجزاء الأوفى.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: 1-5].

اذكر يا أكمل الرسل لمن كذب بالنشأة الأخرى، وأنكر يوم العرض والجزاء كيف يفعل ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: هاجت واضطربت بعدما وصل إليها الأمر الإلهي المتضمن للتحريك والتهييج ﴿زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1] الذي قدر الله لها عند النفخة الأولى.

﴿وَ﴾ بعدما هاجت وتحركت ﴿أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] أي: دفائنها ومكنوناتها، وما في جوفها من الأموات.

﴿وَ﴾ بعدما رأى الناس زلزالها وإخراجها ﴿قَالَ الْإِنسَانُ﴾ من كمال حيرته وتعجبه: ﴿مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: 3] أي: ما عرض على الأرض ولحق بها حتى اضطرتها

إلى الحركة والاضطراب مع أنها ساكنة في حد ذاتها جامدة.

وبالجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض بإلهام الله إياها ﴿أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: 4] أي: الأعمال التي عمل عليها بنو آدم.

عن أبي هريرة ﷺ أنه قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل عليّ كذا وكذا يوم كذا، فهذه أخبارها**»[1].

وذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] أي: أمرها سبحانه وأذن لها بالكلام وألهمها، فحينئذٍ تكلمت وتحدثت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۞﴾ [الزلزلة: 6-8].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ ويرجع ويعود ﴿النَّاسُ﴾ عن موقف العرض والحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾[2] متفرقين، متحزبين حسب مراتبهم في الحساب، كل منهم مع شاكلته ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: 6] أي: أجزتهم المعدة لهم في الجنة والنار.

وبالجملة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: مقدار نملة صغيرة ووزنها ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾

---

(1) رواه أحمد (2/374، رقم 8854)، والترمذي (4/619، رقم 2429) وقال: حسن غريب. والحاكم (2/281، رقم 3012) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والنسائي في «الكبرى» (6/ 520، رقم 11693).

(2) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شتّ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

[الزلزلة: 7] أي: يرى جزاءها في الجنة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8] أي: جزاءها في النار.

وهذه الآية أحكم آية وأقسطها، من الآيات الدالة على كمال العدل الإلهي وأشملها حكمًا، لذلك قال ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»[1].

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الحق أن تأتي وتتصف بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها؛ لترى أحسن الجزاء، وتزيد عليها على مقتضى إخلاصك فيها وخشوعك في إتيانها، فلك أن تجعل مضمون هذه الآية نصب عينيك في عموم أحوالك وأعمالك؛ لتكون على ذكر تام وفطنة كاملة، مما يترتب على أعمالك من الجزاء.

جعلنا الله من زمرة المتذكرين الممتثلين بمقتضى هذه الآية.

(1) رواه الترمذي (11/75).

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العاديات

لا يخفى على المستكشفين من نفحات الحق، المستروحين نسمات النفسات الرحمانية من قِبل يمن اللاهوت، بإرسال حضرة الرحموت أن النيل والوصول إلى تلك المنازل البهية والمقامات العلية، إنما هو بعد رفض شواغل الناسوت، ورفع موانع بقعة الإمكان، وقطع آماله المتسقة، وأمانيه المتسلسلة، وذلك لا يتيسر إلّا بجذب الحق وتأييده، واجتهاد العبد وبذل جهده ووسعه.

لذلك أقسم سبحانه بما أقسم من النفوس المتشوقة، وقرن مع القسم ما قرن من كفران الإنسان وخسرانه باشتغاله على ما لا يعنيه من لوازم الحجج الناسوتية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور الإنسان حتى أوصله إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بخلقه على صورته ليليق بخلافته ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يربيه ويهديه إلى حيث يوصله إلى بحر وحدته.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات: 1-5].

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: 1] [1] أقسم سبحانه بالنفوس المقدسة الزكية عن مطلق الرذائل والأنسية، وشبّهها في سرعة العدو والجري بالخيول الجياد العادية، المجاوزة عن مضائق بقعة الإمكان، ومحابس نشأة الناسوت نحو فضاء الوجوب، ومراتب عوالم اللاهوت، شوقًا إليها وتحننًا نحوها؛ لذلك كلمّا قطعت عقبة من

---

(1) قال البقلي: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبّين إذا ضَبحت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحلة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

العقبات الناسوتية تضبح ضبحًا.

والضبح: هو صوت أنفاس الفرس عند العدو، وتلك النفوس تضبح تشوقًا إلى مقعد الوجوب، وتنفسًا عن كروب الإمكان وأحزان الهيولى والأركان.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: 2] أي: النفوس المتحننة للسرعة، المستعجلة نحو الموطن الأصلي بالميل الجبلِّي، سيما بعد الجذب الإلهي الموري لحوافر مراكب الشوق عند عدوها على أحجار الطبائع وجنادل الهيولى والأركان، نار المحبة والمودة من شدة تشوقها وتلذذها إلى النيل والوصول، واستنشاقها من نسائم روائح الحضور والقبول.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: 3] أي: النفوس التي تغير في المبادرة والمسابقة نحو عالم اللاهوت، وتجتهد وتسعى أن تصل إليها قبل كل واحدة من النفوس المبادرة إياها والساعية نحوها.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي: هيجن وحركن في ذلك الوقت الذي وصلن إليه ﴿نَقْعًا﴾ [العاديات: 4] ليكون علامة تدل على وصولهن.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: دخلن بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ [العاديات: 5] سكان عالم اللاهوت؛ أي: المطلقين عن جميع القيود الناسوتية.

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [العاديات: 6-11].

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿لِرَبِّهِ﴾ الذي ربّاه بأنواع الكرم والإحسان ﴿لَكَنُودٌ﴾[1] [العاديات: 6] كفور

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن للإنسان لا يرضى بهذا الفتح لأنه كنود، ويدخل مني الإذن بدخوله في عالم القلب، فالواجب على صاحب الهمم العليّة أن يشكر الله على نعمة الفتح والنصرة في هذا المقام، ثم يسأل منه التوفيق للدخول في عالم القلم وكنوده من علق همته، وعجلته من غاية إشتياقه، وبهاتين الخصلتين اللتين إن ظهرتا تتبدلا بالهمة، والسرعة المحمودة التي أشار إليها الله تعالى حيث قال في كتابه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:133]، صار الإنسان

مبالغ في الكفران والطغيان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان نفسه ﴿عَلَى ذَٰلِكَ﴾ أي: كنوديته وكفوريته ﴿لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: 7] لظهور آثار الكفران والطغيان عليه دائمًا، وبالجملة: هو نفسه شاهد على كفره وكفرانه، وشركه وطغيانه، إلى حيث يلوح أثر عصيانه عليه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ من شدة بغيه وعدوانه وغفلته على الله وإحسانه ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال والجاه والثروة، والسيادة المبعدة له عن كنف مولاه ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] قوي، مبالغ فيه، مباهٍ متناهٍ فيه، حريص في طلبه، متعب نفسه في تحصيله، وحبُّه هذا ما هو إلّا من غاية كفرانه بنعم الله وحرمانه عن مقتضى كرمه وضعف يقينه بالله وموائد إنعامه وإحسانه.

وبالجملة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان الكفور، الكنود، المحب للجاه والمال ﴿إِذَا

أشرف الموجودات، وإن لم يكن هاتان الخصلتان موجودتان في ابن آدم، ويمكن له التجاوز عن مقامه، مثل الملائكة الذين يقولون: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]، وظلمه وجهله وكفرانه أيضًا من الواجبات العالية الهمة في سلوك الطريقة، كما أن الكنود والعجلة من الموجبات أيضًا إذا ظهر صار صفتين حميدتين معينتين لصاحبهما على قطع الطريق والغلبة على العدو، وبعلو الهمة التي هي نتيجة الكنود المطهر من تلويثات الهوى النفسية، وبسرعة السير لغلبة الاشتياق التي هي من خصائص صفة العجلة المزكاة من كدورات القوى القالبية، بحيث يسير في عمره القصير سيرًا باستعداد العجلة، ويصل إلى مطلوبه في سيره، وينتهي سيره في مدة يسيرة إلى ما لا يمكن الوصول لمنتهاه إلا بخمسين ألف سنة لغيره، فذلك الجهل؛ لأنه من جهله تثقل الأمانة قلبه وحملها حيث أبت الكائنات حملها وقبولها، كما يقول تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ [الأحزاب:72] على نفسه، ﴿جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72] بحقيقة ثقل الأمانة، ولولا صفة ظلوميته لما حارب بنفسه وما قاتلها، ولما اجتهد في قلع أشجار خواطرها، وما شد عليها مشربها من ينبوع الهوى، ولولا صفة كفرانه لما التفت إلى تربيته طبيعتها له ورحم عليها، وما حملها على ترك مألوفاتها، وقطع النظر عن مشتهياتها، وما أمرها بالمجاهدة في خلع عاداتها ورفض محبوبتها طباعها، ونفض الأيدي من الدنيا ومتاعها، فكفرانه بنعمة تربيته اللطيفة، وبالنفس التي رباني في حجرها من زمان تعلق الروح بالعلة إلى أن بلغ مبلغ الرجال، وعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وطفق بنفي الباطل ويثبت الحق، وسلك الطريق وعرف المظلوم من المحمود على سبيل التحقيق، سير له قهر النفس وهواها وأضعف الطبيعة وأقواها؛ لأنها أرضعته من الصغر إلى الكبر.

بُعْثِرَ﴾ أي: بُعث ونُشر وحُشر ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: 9] من الموتى.

﴿وَحُصِّلَ﴾ أي: جُمِع وميّز ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: 10] من المكنونات، خيرًا كان أو شرًا.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم وربَّاهم بأنواع الكرم ﴿بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يوم القيامة التي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 11] بصير بعموم ما جرى عليهم في نشأة الاختبار خيرًا كان أو شرًا، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته بلا فوت شيء من ذلك، ومع علمه سبحانه بهم وبما صدر عنهم، يعملون عملاً سيؤاخذون عليه.

نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

خاتمة السورة

عليك أيها الإنسان الكامل المجبول على حكمة المعرفة والإيقان أن تشمِّر ذيلك إلى ما جُبلت لأجله، وتخلِّي خلدك عن مطلق الأشغال العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، فلك أن ترى يوم الجزاء بين يديك ونصب عينيك، وبالجملة: لا تغفل عن الله، فإنه يرقبك في أولاك وأخراك.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة القارعة

لا يخفى على الموقنين المنكشفين بسرائر النشأتين أن النشأة الأولى لاكتساب المعارف والحقائق الكاملة في مطاوي التكاليف الإلهية وسرائر أوامره وأحكامه، والثانية إنما هي للجزاء المترتب على تلك المعارف والحقائق، ولاشك أن من تهاون وتقاصر عمّا لزمه في الأولى فقد ضل وغوى واستحق الويل واللظى، ولحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يجازون بمقتضاها.

وللتهويل على أصحاب الغفلة وتقريعهم، سمى سبحانه يوم القيامة بالقارعة، وأبهمها؛ تفظيعًا وتهويلاً، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتصف بالقهر واللطف حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم المطيعين من عباده في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ على المخلصين منهم في النشأة الأخرى، يوصلهم إلى أقصى درجات النعيم.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: 1-5].

﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1] أي: الساعة التي تقرع الأسماع من هولها وهيبتها، وتدهش العقول من شدتها وصولتها.

ثمّ أبهم سبحانه تهويلاً، فقال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 2] المذكورة، وأية شيء هي؟.

ثمّ أبهمها مرة أخرى على حبيبه ﷺ؛ تأكيدًا على تهويلها وفظاعة شأنها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 3] العجيبة الشأن الفظيعة العظيمة الهائلة المهولة؟.

ثمّ عدّ سبحانه لوازمها وما يترتب عليها؛ لينتقل منها إليها، وإنما أشار سبحانه

بهذه الطريقة أيضًا إلى شدة هولها وفظاعتها؛ ليكون تهويلاً على تهويل، وتأكيدًا على تأكيد.

اذكر يا أكمَل الرسل لمن تذكّر ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ مَن شدة أهوالهم وأفزاعهم ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: 4] أي: كالطير المتهافت على النار من شدة اضطرابه؛ يعني: يكون الناس يومئذ مثل الفراش المتفرق في الجهات من غاية الاضطراب، بحيث لا يتمالكون على نفوسهم، بل يركب بعضهم فوق بعض، ويطأ بعضهم بعضًا من شدة خشيتهم ورهبتهم وازدحامهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ من كمال قهر الله وغضبه ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5] أي: كالصوف الملون المندوف، تطير في جو الهواء يمنة ويسرة.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: 6-11].

وبالجملة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 6][1] أي: رُجحت

(1) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات، إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

مقادير حسناته على مقادير سيئاته ﴿فَهُوَ﴾ يومئذ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ هنيئة مريئة ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: 7] صاحبها عنها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 8] أي: خفت حسناته وثقلت سيئاته ﴿فَأُمُّهُ﴾ أي: مستقره ومأواه، وما يأوي إليه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9] هي من أسماء جهنم.

ثمّ أبهمها سبحانه؛ تهويلاً وتفظيعًا، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ [القارعة: 10] أي: الهاوية.

ثمّ فسرها؛ ليكون أدخل في التهويل، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: 11] أي: ماهية الهاوية وحقيقتها: نار ذات حمى وحرارة، بحيث قد انتهت في الحرارة والسخونة غايتها.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لترجيح الحسنات على السيئات أن ترغب في سرك ونجواك عن مستلذات الدنيا ومشتهياتها، وتركن إلى اللذات الروحانية من الأحوال والمواجيد الأخروية المستلزمة للدرجات العلية والمقامات السنية عند الله.

وإياك إياك الأماني وطول الأمل، فإنها توقعك في فتنة عظيمة وبلية شديدة، لا نجاة لك منها.

خلصنا الله وعموم عباده من غوائل الدنيا وما فيها.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكاثر

لا يخفى على من هداه الله إلى طريق المعرفة والإيمان، وكشف له سبيل الكشف والعيان، وأفاض عليه سبحانه الفضل والإحسان أن الأموال والأولاد ومطلق المزخرفات الدنيوية الفانية، التي هي أسباب التكاثر والتفاخر وعلل الاستكبار والخيلاء في النشأة الأولى من العوائق العائقة عن الوصول إلى روضة الرضا وجنة المأوى.

فلا بدّ لأرباب الإرادة والولاء أن يتزهدوا عنها ولا يلتفتوا إليها، ويتزودوا بزاد التقوى، فنعم الزاد التقوى والرضا بما جرى عليه القضاء.

لذلك خاطب سبحانه في هذه السورة أهل المفاخرة والمباهاة بتكاثر الأموال والأولاد، وأوعدهم بما أوعدهم؛ تسجيلاً على ضلالهم وانحرافهم عن جادة العدالة الإلهية وصراط التوحيد، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته في الإنسان؛ ليربيه على نشأة الإيمان والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان؛ ليتوجه نحوه في عموم الأحيان ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يهديه إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: 1-4].

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1] أي: شغلتكم المفاخرة والمباهاة بكثرة الأموال والأولاد أيها المنهمكون في بحر الغفلة والضلال عن توحيد ربكم وطاعته، وكنتم على هذا طول عمركم.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ﴾ ولحقتم ﴿الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2] وصرتم أمواتًا مثلهم، وما صدر عنكم، وما جُبلتم لأجله طول دهركم.

ثمّ قال سبحانه؛ ردعًا لهم وتهديدًا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3] أن أمركم وشأنكم ما هذا التفاخر والتكاثر، وستعلمون ما يترتب عليها.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 4] أن الأمر ليس هذا، كرره؛ تأكيدًا ومبالغة في التهديد والوعيد، وتهويلاً للوعود.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: 5-8].

ثمَّ سجّل عليهم سبحانه جهلهم وضلالهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ما تتكاثرون وتفتخرون بهذه الزخرفة الفانية أيها الجاهلون المكابرون ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5] أي: لو علمتم يقينًا علميًا، وصدَّقتم تصديقًا قلبيًا أنكم: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 6] لمَّا تكاثرتم وتفاخرتم بما تفاخرتم، وما خطر ببالكم هذه الخواطر الكاذبة، إلَّا أنكم جاهلون غافلون عن رؤيتها، بل منكرون لها؛ لذلك تفتخرون وتتكاثرون بالحطام الدنية الدنيوية، وتستلذون بلذاتها الفانية، وشهواتها الغير الباقية.

ثمَّ كرر سبحانه أمر الرؤية؛ تهويلاً عليهم وتنصيصًا على وعيدهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ أي: الجحيم المعدة لتعذيبكم ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 7] (1) أي: يقينًا عينيًا حتى تعاينوا بها، وترون منازلكم فيها.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها الناس الناسون لعهود الحق ومواثيقه ﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8] الفاني الذي يُشغلكم عن الحق ويلهاكم عن طاعته وعبادته، فحينئذٍ ظهر عليكم خطأ آرائكم وفساد أهوائكم التي كنتم عليها في النشأة الأولى.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

---

(1) قال الورتجبي: و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديم، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟! قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب، وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يُودِعَه الله الأسرار، قال الخرّاز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى. قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتصف باليقين العلي بعموم المعتقدات الأخروية أن تكون على ذكر منها، بحيث يكون علمك بها عينًا قبل حلولها ونزولها، فعليك ألّا تركن إلى الدنيا: مزخرفاتها ونعيمها ولذاتها، وتقنع بالكفاف وتتصف بالعفاف، وتلازم العزلة والخمول والفرار عن أصحاب الفضول، فإن صحبة الأشرار يعوقك عن ملاحظة الأسرار ويمنعك عن مشاهدة الأنوار.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا من فضول الكلام وتوصلنا إلى دار السلام.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة العصر

لا يخفى على من انكشف له وحدة الحق واستقلاله في الوجود وسريانه في جميع الموجودات والمشهودات الظاهرة على صفحات الكائنات أن ما سوى هذه الملاحظات والمشاهدات المتعلقة بكيفية شئون الحق وتطوراته، المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا إنما هو خسران مبين ونقصان عظيم؛ إذ الفطرية الإنسانية إنما جُبلت لأجلها، فمن لم يتصف بها ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

لذلك نبّه سبحانه في هذه السورة على خسران الإنسان وحرمانه عن طريق العرفان ما لم يتصف بالإيمان والأعمال الصالحة، فقال سبحانه مقسمًا بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي خلق الإنسان على صورته؛ ليتخلق بأخلاقه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه حيث أظهره من كتم العدم وربّاه بأنواع اللطف والكرم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يهديه إلى صراط مستقيم موصل إلى توحيده.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3].

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: 1] أقسم سبحانه بالعصر والدهر الذي هو عبارة عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي ودوامه السرمدي.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المجبول على فطرة المعرفة والإيمان حسب حصته اللاهوتية ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾[1] [العصر: 2] عظيم، وخيبة بيّنة؛ بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم

(1) قال علاء الدولة: اسمع بسمع حديد وقلبي شهيد أن الله تعالى خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] بإدراجه جميع المفردات العلوية والسفلية فيه، فلذلك جمع الله تعالى لأمة محمد خواص جميع الساعات في الصلاة الوسطى؛ وهي صلاة العصر، إذا أدى الإنسان حق الطاعة في تلك الساعة صيرت الفوائد المدرجة في جميع الساعات لها، وأشار إلى هذا المعنى حبيب =

بشريته المتعلقة بحصة الناسوت.

﴿إِلَّا﴾ الموقنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وتفطنوا باستقلاله في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الدالة على إخلاصهم ويقينهم ونياتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا نسلوك طريق الحق وتوحيده ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أيضًا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم، من قطع المألوفات الإمكانية، وترك اللذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية.

وفقنا الله على قلعها وقطعها.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد لقطع العلائق الإمكانية أن تتصبر على عموم البلوى العارضة لك في نشأتك الأولى، وتسترجع إلى الله في جميعها، وتسنده إليه سبحانه أولاً وبالذات بلا رؤية الوسائل في البين، وتوطن قلبك مع ربك في جميع حالاتك، وترضى عن الله في عموم ما جرى عليك في مقتضيات قضائه، وبالجملة: كن فانيًا في الله تفز بخير الدارين وفلاح النشأتين.

الله ﷺ قال: «إن الله فرض على أمة موسى ﷺ أن يعملوا يومًا ليأخذوا أجورهم، فعملوا من الصبح إلى الظهر وملوا وتركوا العمل والأجر، فتعين الله تعالى لأمته عيسى ﷺ من الظهر إلى العصر، وعملوا وتركوا العمل والأجر، ثم فرض الله تعالى على أمتي بقية اليوم أن يعملوا ويأخذوا أجر اليوم كله فقبلوا وعملوا، وأخذوا الأجر الكثير بالعمل القليل».

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الهمزة

لا يخفى على الموحدين المستكشفين عن سرائر التوحيد واليقين أن الكمالات الدينية كلها منوطة بالتخلق بأخلاق الله والتأدب بآدابه، فلا بدَّ لأرباب الإرادة والطلب أن يهذِّبوا ظواهرهم أولاً بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المقتبسة من مشكاتي النبوة والولاية، وبواطنهم بالخواطف الغيبية والهواتف اللدنية، الملهمة إليهم حسب القوى القدسية اللاهوتية المتعلقة باسعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية، فمن رغب عنها، ولم يتصف بها، فما له في الآخرة من خلاق.

لذلك حث وحرّض سبحانه في هذه السورة أرباب العناية والتوفيق على كسب الآداب، والتخلق بمحاسن الأخلاق، والاتصاف بأوصاف الكمال بتوبيخ أصحاب الغفلة والضلال المسيئين الأدب مع الله ومع عباده، وبسوء منقلبهم ومآبهم عنده سبحانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بكمالاته في نوع الإنسان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده حيث خلقهم بأخلاقه.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة: 1-3].

﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وهلاك هائل شديد لكل فرد من أفراد الأقوام ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ يمشي بين الناس بالهمز وكسر الأعراض، وصارت له هذه الديدنة القبيحة عادة راسخة مستمرة، وأيضًا لكل ﴿لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] يطعن في أنساب الأنام، وينسبهم إلى أنواع البغي والآثام افتراءً ومراءً.

وما جرّأه وحمله على هذه الخصلة القبيحة والفعلة الوقحة إلا ثروته وماله وجاهه وسيادته، فإنه ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ وأمتعة من الزخارف الدنية الدنيوية التي مالت قلوب أبنائها وأصحابها إليها ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: 2].

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: 3] أي: أدام وأبقى ماله نفسه وجعله مخلدًا في الدنيا، مستمرًا فيها أبدًا، بحيث لا يطرأ عليه زوال وانتقال.

وبالجملة: اغتر بماله وجاهه إلى حيث خيل له الخلود به فيها والدوام عليها بطرًا وغرورًا.

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: 4-9].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن حسبانه واغتراره، وخطأ رأيه وطغيانه؛ يعني: من أين يتأتى ويتيسر له الخلود والدوام فيها؟! والله ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ ويطرحن يوم الجزاء ﴿فِي الحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: 4] أي: النار التي من شأنها أنها تحطم وتكسر وتفني من يطرح فيها.

ثمّ أبهمها تهويلاً، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: 5] المعدة لتعذيبه.

ثمّ فسرها؛ لكونه أدخل في التهويل والتفظيع بقوله: ﴿نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ﴾ [الهمزة: 6-7] وتعلو ﴿عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 7] [1] والأكباد؛ أي: حرقُها وإيلامها غير مختص بظواهر الجلود، بل يسري إلى البواطن أيضًا، كما أن أثر الهمز واللمز اللذين هما سببا التعديل بهذه الحطمة سيشمل ظواهر الناس وبواطنهم.

وبالجملة ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار الموقدة الإلهية ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: 8] أي: مطبقة عليهم، محيطة بهم، محفوفة بحواشيهم وحواليهم، وهم حينئذٍ مشدودون، موثّقون بأيديهم وأرجلهم.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 9] أي: أعمدة وأخشاب طوال مثقوبة، ومن أعناقهم بالسلاسل والأغلال، ألا وهي مصورة من سلاسل الآمال وأغلال الأماني التي هم

---

(1) قال روزبهان: «ناران»: نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبّين والعارفين، وقال جعفر: النيران شيءٌ مختلفٌ، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تتّقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تتّقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا اتّقدت في قلب المؤمن تحرق كل همّةٍ غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.

مقيدون بها في بقعة الإمكان.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الوجِل الخائف عن مقتضيات القهر الإلهي وموجبات غضبه أن تعتدل في عموم أخلاقك وأطوارك، وتعيش بين بني نوعك هينًا لينًا، فرحان بلا مماراة ومخاصمة، تصاحبهم وتداريهم على وجه الوفاق والملاطفة، بلا شوب الشقاق والنفاق.

وبالجملة: ترجِّحهم على نفسك في كل الأمور، وتراعيهم حسب المقدور فإن رعايتك إياهم، وترجيح جانبهم يؤدي إلى مراعاة جانب الحق وترجيحه.

وبالجملة: أحسن إليهم كما أحسن الله لك، فكن من المحسنين، واعبد ربك في كل ذرة حتى يأتيك اليقين.

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفيل

لا يخفى على من انكشف بحيطة الأوصاف الإلهية وشمول أسمائه الحسنى على عموم ذرائر الأكوان أن من جملتها القادرة الغالبة المودعة في أجزاء العالم كلها متى تعلق إرادته سبحانه بإظهار القدرة أظهر من كل ذرة ونملة حسب قدرته الغالبة أفعالاً عجيبة وآثارًا بليغة، تدهش العقول وتقرع الأسماع.

كما أخبر سبحانه في هذه السورة لحبيبه ﷺ؛ تثبيتًا له وتوطينًا، تتميمًا لتربيته، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على كل ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده؛ حيث دبّر أمورهم على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى الدرجة الرفيعة اللاهوتية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: 1-5].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم يقينًا علميًا حاصلاً لك من طريق السمع إلى حيث وصل إلى مرتبة اليقين العيني من كثرة السماع من الثقات، وتكرره ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الذي ربّاك يا أكمل الرسل لرسالته، وأظهر دينك على الأديان كلها، ونصرك على عموم أعدائك بقدرته الغالبة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1] وهو جيش أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قِبل أصحمة النجاشي.

قصد هدم الكعبة عمَّرها الله، فخرج مع جيشه، ومعه فيل كثيرة، لكن فيها فيل عظيم جسيم في غاية الجسامة، مسمى بـ «محمود» كانوا يأمرون له بهدم البنيان،

فيهدمها في الحال، ولهذا سمُّوه بهذا الاسم.

وسبب هذا القصد أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء، فسماها قُليس، فعزم أن يصرف الحاج من مكة إليها، فلمَّا انتشر الخبر، ذهب رجل من كنانة إلى قُليس ذات ليلة، فتغوط فيها ولطخ بها محاربها، فوصل الخبر إلى أبرهة فغار غيرة شديدة، فحلف: والله لأهدمن الكعبة.

فخرج مع جيشه وفيله، حتى وصل إلى حوالي الحرم، وأراد أن يأمر الفيل بهدمها، فبرك ولم يبرح نحوها، فضربوه وشددوا عليه، فلم يفد، فكانوا إذا وجهوه إلى جهة غير جهة البيت هرول وأسرع، وأمَّا نحوها فلم يمش قط، فصاروا متحيرين في شأنه.

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ الذي كادوا به لهدم البيت وانصراف الزوار عنه نحو بيتهم الذي قد بنوا ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: 2] ضياع وهلاك؟!

﴿وَ﴾ كيف لا يكون في الضياع والخسار؛ إذ ﴿أَرْسَلَ﴾ سبحانه بمقتضى قدرته الغالبة ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: 3] [1] أفواجًا كثيرة متفرقة، متفوقة من جنس واحد من الطير، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار.

﴿تَرْمِيهِم﴾ يعني: الطير، جيش أبرهة ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ متخذة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: 4] وهو معرب: سنك وكل.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ من كثرة ما ترميهم بها ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 5] أي: كتبن يأكله الأنعام وتروث به، فتفرقه الرياح؛ أي: صاروا من شدة غضب الله إياهم هباءً منثورًا.

(1) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس الأفاعي، وقيل: كرءوس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رئي فيه الجدري. تفسير التستري (356/2).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك الخائف من بطش الله، المحترز عن مقتضى قهره وجلاله أن تكون في عِموم أحوالك وأطوارك بين الخوف والرجاء عن جلال الله وجماله، بحيث لا يجري عليك نفَس من أنفاسك، وأنت فيه خالٍ عن كلا النقيضين.

وبالجملة: لا تيأس من روح الله، ولا تتكل على كرمه، فاعلم أنه سبحانه يرقبك في حالاتك، ويعلم منك ما لم تعلم من نفسك، فكن من المخلصين ولا تكن من القانطين، فإن ناقدك خبير بصير.

سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة قريش

لا يخفى على من تفطن بسرائر العبودية المستلزمة لأنواع التذلل والخضوع والانكسار التام والخشوع المفرط أن الباعث عليها والدَّاعي إليها إنما هو الإنعام العام والإحسان التام الذي هو القيام على عموم الحوائج اللازمة للهوية الشخصية، المقوِّمة لها، المبقية لماهيتها.

ولاشك أن المتكفل المستقل لحوائج عموم المظاهر والمجالي هو الله الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر على جميع المقدورات بالاستقلال والاختيار، المربي للكل بأنواع اللطف والكرم، وهو المستحق للإطاعة والانقياد استحقاقًا ذاتيًا وصفيًا، وكيف لا؛ إذ لا معبود سواه، ولا إله غيره؟!

لذلك أمر سبحانه حبيبه في هذه السورة بعبوديته وانقياده، فقال بعد التيمن: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المظهر للكل من كتم العدم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على الكل بأنواع الكرم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليهم، بإلزام العبودية والذمم، تعجبوا أيها المعتبرون!

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش: 1-4].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: 1] [1] أي: ائتلافهم وتآلفهم فيما بينهم، واتفاقهم على أن ينصرفوا من حوالي بيت الله حين ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ واتفاقهم على الظعن والارتحال ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: 2] يعني: يرتحلون في كل سنة مرتين: مرة في الشتاء

---

(1) قال القشيري: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف، وهو أَلِفَ إلفاً، والمعنى: جعلهم كعصف مأكولٍ لإيلافِ قريش، أي لِيَأْلَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف، وكانت لهم رحلتان للامتيار: رحلةٌ إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفهم رحلتيهم، تفسير القشيري (8 / 106).

نحو اليمن ومرة في الصيف إلى الشام، والباعث على ترحالهم: فقد الزاد في مكة؛ إذ هي بواد غير ذي زرع، فيشق عليهم الأمر، فيتجروا في كل سنة مرتين.

فكره الله منهم هذا، وأمرهم بالمكوث والإقامة حول بيته، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: 3] وليعتكفوا في حواليه، وليتوكلوا عليه ولا يتجروا؛ إذ هو القادر المقتدر ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم﴾ وأشبعهم ﴿مِّن جُوعٍ﴾ شملهم وأحاط بهم حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4] لحقهم من أعدائهم مرارًا ببركة هذا البيت، فلهم أن يسكنوا في حواليه، متوكلين على ربه، يكفي لهم مؤنة أرزاقهم بحوله وقوته، كما كفى لهم فيما مضى.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه إلى الله، المتوكل على كرمه وإحسانه أن تمتثل بجميع ما أمرك الحق عليه، وتفوض أمورك كلها إليه، وترضى على عموم ما جرى عليك من القضاء، وتعتقد أن الأمر كله لله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الماعون

لا يخفى على من انكشف له سرائر الدين القويم، وحِكم الأحكام الموردة في الشرع المستقيم، ومصالح التكاليف الواردة من العليم الحكيم أن سر العبودية والتدين والانقياد، إنما هو التأدب مع الله، وحسن القيام على أداء حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، ولاشك أن من تقاصر فيها وتهاون عليها، فقد انحرف عن جادة العبودية، واستحق الويل والثبور من الله المنتقم الغيور.

كما أشار إليه سبحانه في هذه السورة مستفهمًا على سبيل التعجب والاستبعاد، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي وضع الدين بين الأنام؛ ليهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال التكاليف والأحكام ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى أعلى المكانة وأرفع المقام.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: 1-7].

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: هل عرفت وأبصرت المعاند الكاذب ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: 1] أي: بيوم الجزاء والحساب الموعود؛ لتنقيد الأعمال والأفعال الجارية في نشأة الاختبار؟.

﴿فَذَلِكَ﴾ المكذب المنكر هو ﴿الَّذِي يَدُعُّ﴾ ويدفع بالعنف المفرط ﴿الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2] الذي جاءه لينفعه من ماله الذي كان عنده؛ لكونه قيمًا ووصيًا له، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل غيره، وما ذلك إلا من غاية بخله وخساسته.

﴿وَ﴾ من شدة بخله وخساسته وإمساكه المفرط ﴿لَا يَحُضُّ﴾ لا يحث أحدًا ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 3] يعني: هو لا يطعم ولا يرضى أيضًا بإطعام الغير

من شدة شحه وإمساكه، هذا أمارة تكذيبه بالدين والجزاء بحسب الظاهر.

أمَّا بحسب الباطن ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [المَّاعون: 4] المكذبين بيوم الجزاء، المنكرين لمعالم الدين المستبين؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1] [المَّاعون: 5] غافلون، لا يحافظون عليها في أوقاتها المحفوظة لها، ولا يواظبون على إقامتها.

بل هم ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [المَّاعون: 6] بها على رءوس الملأ، ويتركونها في خلواتهم؛ لعدم اعتدادهم واعتقادهم بها، وما يترتب عليها من الجزاء مع تهاونهم وتكاسلهم في الصلاة التي هي عماد الدين وأعلى مراسم التوحيد واليقين.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [المَّاعون: 7] أي: الزكاة المهذبة لنفوسهم عن الشح المستهجن والتقتير المستقبح، والفتوات المؤدية إلى عموم الحسنات والخيرات المسقطة للمروءات.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لطريق الحق، الحقيق بالإطاعة والاتِّباع أن تهذب ظاهرك وباطنك عن مطلق الرذائل المنافية للعدالة الإلهية، وتخلي سرك عن الالتفات إلى ما سوى الحق؛ لتكون صلاتك منك ميلاً حقيقيًا إلى الله، ومعراجًا معنويًا موصلاً إلى توحيده.

وإياك إياك المراء والمجادلة مع بني نوعك، والاستكبار عليهم، وإظهار الثروة والسيادة فيما بينهم بالمال والجاه، فإنه يميت قلبك، ويزيد في هواك، ويبعدك عن مولاك، تضرك في أولاك وأخراك.

(1) يعني: ويل للقوى النفسية المقلدة المؤمنة خوفًا من المجاهدة التي [عليها] صاحبها السالك؛ لئلا يقتلها بالمجاهدة ولئلا يأسرها ويغير عليها مالها وأهلها، واستعدادها وهواها يصلوك بالصورة رعياً عن المجاهدة؛ وهم عن حقيقتها ساهون لا يصلون إلا لدفع الضرر عنهم ويجز النفع عن صاحبهم إليهم. [عين الحياة].

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الكوثر

لا يخفى على من وصل إلى بحر الحقيقة، وورد على الحوض المورود والمقام المحمود الذي هو الوجود الإلهي المنبسط بمقتضى الجود الذاتي إلى عموم الموجودات أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى الذي هو التوحيد الذاتي المعبَّر بالحوض الكوثر، الذي هو عبارة عن كثرة الخير والبركة، ما تيسر والتقى جماهير الأنبياء والرسل للحضرة الختمية الخاتمية المحمدية - صلوات الله عليه وسلامه - لذلك خُتم ببعثته أمر الإرسال والتشريع.

ولهذا نبه سبحانه في هذه السورة على عظم شأنه وجلالة قدره ومكانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي على حبيبه ﷺ بعموم كمالاته؛ ليكون مرآة يتراءى منه ﷺ آثار جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم الأنام ببعثته ﷺ حين يهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ للخواص منهم، يرشدهم إلى التوحيد الذاتي الذي هو المنجي عن ظلمات الأوهام.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[الكوثر: 1-3].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ومحض كرامتنا ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل إعطاء وكرامة ﴿الْكَوْثَرَ﴾[1] [الكوثر: 1] الذي هو التحقق بوحدة الذات والانكشاف بها

---

(1) «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنوّه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنهار أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفس سواقيها إلى الأبد.

قال جعفر: نورٌ في قلبك دلَّك عليَّ، وقطَعَك عما سواي. وقال: الشفاعة لأمتك.

وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة. وقال: معرفةُ بربوبيتي، وانفرادٌ بوحدانيتي وقدري ومشيئتي.

وقال الجنيد: أعطيناك نور المعرفة، وانفراد الوحدانية.

والوقوف عليها.

وبعدما أعطيناك ما أعطيناك، وخصَّصناك بالكرامة التي لم نعط أحدًا من الأنبياء والرسل الذين مضوا قبلك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ودم على التوجه نحوه وأخلص فيه، واستقم عليه ﴿وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2] بدنة ناسوتك بعدما وصلت إلى كعب الذات، وفزت بعرفات الأسماء والصفات؛ تقربًا إلى الله، ولا تلتفت إلى من يشينك ويعيبك من الجهلة المكابرين.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ الذي يشينك ويبغضك في شأنك وأمرك هذا ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3] المقطوع العقب والأثر من كل خير، وأثرك يبقى إلى قيام الساعة.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للورود إلى الحوض والكوثر والشرب منها أن تتوجه في عموم أوقاتك وحالاتك إلى الله على وجه التبتل والإخلاص، وتميت بهيمة بدنك بالموت الإرادي، وتهديها في طريق الحق؛ تقربًا إليه سبحانه؛ لتنال خير الدارين وفلاح النشأتين.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الكافرون

لا يخفى على أهل الخبرة والوقوف بأمارات مقصد التوحيد، وعلامات مسلك الفناء في الله والبقاء ببقائه أن الطرق إلى الله متفاوتة، والمعارج نحوه متنوعة مختلفة؛ إذ لكل وجهة هو موليها.

وأكمل الطرق وأشملها وأسلمها هو الذي ركب واستقام عليه الحضرة الختمية الخاتمية؛ لأن طريقه ﷺ مستوعب لعموم الطرق والسبل؛ إذ هو مبني على التوحيد الذاتي المشتمل على توحيد الصفات والأفعال مطلقًا، ولا يهتدي إليه أحد من الخلق إلّا بجذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه، ومن لم يؤيَّد من قِبل الحق، ولم تدركه العناية من لدنه ما اهتدى إليه سبيلاً.

لذلك أمر سبحانه في هذه السورة حبيبه ﷺ حين دعاه الكفرة ليعبد ﷺ سنة إلى ما عبدوا من آلهتهم الباطلة، حتى يعبدوا الله الواحد الأحد، المستحق للعبودية والتذلل سنة أخرى مجازاة لها، مقابلة إياها بأن لا يلتفت إلى قولهم الباطل ورأيهم الزائغ الزائل، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع لما في ضمائر عموم عباده من الهداية والضلال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل يدعوهم إلى سبيل السلامة والرشاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى خير المنقلب والمآب.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مناديًا لمن دعاك إلى عبادة آلهته الباطلة: ﴿يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] الساترون شمس الحق الظاهر في الأنفس والآفاق بغيوم هوياتكم الباطلة.

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا أنقاد وأتوجه، سيما بعدما وفقني الله إلى توحيده، وهداني

نحو شمس ذاته، وشرفني بمطالعة وجهه الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 2] من الآلهة الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة، التي اتخذتموها آلهة من تلقاء أنفسكم أنتم وآباؤكم مع أنه ﴿مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: 40]، بل ما تتبعون أنتم وهم باتخاذهم إلَّا الظن وما تهوى الأنفس من غير ورود الهداية؛ لأنه من قبل الحق.

﴿وَلَا أَنتُمْ﴾ أيضًا ﴿عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: 3] من الحق الوحيد، الفريد، الحقيق بالعبادة والإطاعة، بالاستقلال والانفراد؛ إذ لا إله معه، ولا شيء يماثله حتى يشاركه في أخص أوصافه التي هي الألوهية؛ إذ ليس في وسعكم واستعدادكم الإيمان به والإيقان بوحدته واستقلاله في ملكه وملكوته، ومع ذلك ما وفقكم الحق عليه وأقدركم به.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: 4] إذ لا يليق بالألوهية حتى أعبد له.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[1] [الكافرون: 5] إذ لا يتيسر لكم الإيمان به والاطلاع على وجوده والاتصاف بمعرفته وشهوده، فكيف تعبدون أنتم الله الواحد الأحد، الصمد بلا جذب من جانبه وتوفيق من لدنه؟! وأنا أيضًا لا أعبد لمعبوداتكم الباطلة التي هي بمراحل عن رتبة الألوهية والعبودية.

وبالجملة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه، وطريقكم الذي تتوجهون إليه بعدما لم يوفقكم الحق على الهداية والإيمان ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6] الذي أنا عليه، لا تتركوا دينكم بديني، ولا أنا أيضًا تارك ديني بدينكم، بل لكم دينكم ولي ديني، والتوفيق بيد الله والهداية والضلال.

(1) الإشارة: إذا طلبت العامةُ المريدَ بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يُقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبدُ ما تعبدون من الدنيا وحظوظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من إفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (116/7).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الحنيف، المائل عن كل الأديان والمذاهب المنافية لصرافة شرب التوحيد ألا تجالس مع أهل الغفلة والضلال، المترددين في أودية الجهلات بأنواع الخيالات الباطلة، والأوهام العاطلة المترتبة على هوياتهم العدمية وتعيناتهم الوهمية، ولا تصاحبهم في حال من الأحوال، فإن صحبتك معهم تبعدك عن الحق وتغريك نحو الباطل، فإن النفوس الإنسانية أسرع عدوًا وأشد ميلاً إلى البدع والأهواء الفاسدة والآراء العاطلة الباطلة.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النصر

لا يخفى على من فتح عليه الحق باب العناية، وكشف له سبيل الهداية والكرامة أن كل من دخل في كنف حفظ الحق وجواره، وتوكل عليه، وفوَّض الأمور كلها إليه، فقد أعانه الله ونصره على جميع أعاديه، وأنجح عموم مطالبه ومآربه، وجميع ما قدر له من الكمالات التي أودعها الحق في استعداده الفطري وقابليته الجبلِّية.

ولاشك أن أكمل الناس استعدادًا وأكمله قابليةً، وأفضله كمالاً وشرفًا، هو الحضرة الختمية الخاتمية التي طويت المراتب كلها دون مرتبته ﷺ، ولهذا كمل جميع مكارمه وكمالاته المنتظرة في نشأته الأولى؛ ليكون مقدمةً وعنوانًا على تكميل كمالاتها الأخروية، كما نبه عليه سبحانه في هذه السورة بعد التيمن والتبرك: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المدبر لأمور حبيبه ﷺ على الوجه الأكمل الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه لنصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، حيث فتح له أبواب الفتوحات الغيبية والشهادية، والفيوضات اللدنية الفائضة عليه من عالم اللاهوت.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: 1-3].

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ أي: إذا جاءك يا أكمل الرسل وعد الله الذي وعدك أن ينصرك على جميع أعدائك، ويظهر دينك على الأديان كلها ﴿وَالْفَتْحُ﴾[1] [النصر: 1]

---

(1) قال البقلي: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيّة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام

الذي أخبرك الحق بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1].

﴿وَ﴾ بعدما جاءك الفتح والنصر الموعود آن لك وكمل ظهورك واستيلاؤك على عموم الأعادي، وظهر دينك على سائر الأديان ﴿رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: 2] فوجًا فوجًا، فرقةً فرقةً، بعدما كانوا يدخلون فيه فرادى فرادى.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ شكرًا لما أعطاك جميع ما وعدك، وفتح عليك الآفاق، وأتم ببعثتك وظهورك محاسن الشيم ومكارم الأخلاق ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ واطلب منه العفو والغفران من لدنه؛ هضمًا لنفسك وفرطاتك؛ إذ قلمّا يخلو البشر من الخطر.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3] يغفر من استغفر له، ويقبل توبة من أناب إليه أيضًا، سيما إذا كانت مقرونة بالإخلاص.

وبعدما نزلت هذه السورة، وأمر سبحانه ﷺ بالحمد والاستغفار، تغمم الأصحاب وتحزنوا، وفهموا منها أن أجل رسول الله ﷺ قد قرُب، فودّعه الحق، وأمره بالحمد والاستغفار؛ لذلك سميا هذه السورة سورة التوديع أيضًا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للنجاة الأخروية والراغب إلى اللذات اللدنية الروحانية الموعودة فيها أن تستغفر إلى الله، وتسترجع نحوه في أوقاتك وحالاتك، وتفوض أمورك كلها إليه، وتتخذه وكيلاً، وتجعله حسيبًا وكفيلاً، فلك أن تواظب على الطاعات والعبادات، وتجتنب عن مطلق المحارم والمنكرات، يحفظك الحق عن جميع الملمّات ويوصلك إلى عموم المهمات بفضله ولطفه.

الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلّصه من أعباء النبوّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته.

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المسد

لا يخفى على من انكشف له الغناء الذاتي الإلهي، وظهر عنده أن الدنيا وما فيها ما هي إلّا سراب باطل وظل زائل، لا ثبات لنعيمها، ولا قرار لمقيمها أن الاغترار بها وما يترتب على حطامها وأمتعتها الفانية والأباطيل الزائفة، والغفلة عن الله وعن اللذات الأخروية المعدة عنده سبحانه لأرباب العناية، كما أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض المسرفين المتحجبين عن الله، المستسلمين عن مقتضيات ألوهيته وربوبيته من غاية اغتراره بماله وجاهه وثروته وسيادته بين الأنام، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة الوجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود في اليوم الموعود، لو أخلصوا في الطاعة والتوجه نحو الخلاق الودود.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: 1-5].

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[1] أي: خابت وخسرت، يداه كناية عنه، وما ذلك إلّا أنه من غاية نخوته وغروره، بحيث هلك في نار قطيعة كنفسه الجهنمية التي خيبته خيبة أبدية وخسرانًا سرمديًا حينما ظهر على رسول الله ﷺ بأنواع المكروه، وعارض معه على وجه لا يليق بشأنه ﷺ اتكالاً على ماله وجاهه وثروته وسيادته.

---

(1) قال البقلي: وبّخ الله من لا تصل يدُ همّته إلى وثقى عروة نبوّته والإيمان برسالته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبه صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعته، ذلك الخسران من خذلان الحق إيّاه، فإذا كان محجوبًا عن طريق الرشد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

وذلك لمَّا نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] صعد رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الصفا، فنادى: «**يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش**» حتى اجتمعوا، فقال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تقبل عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلَّا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

فقال أبو لهب على سبيل الاستهزاء: تبًا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»[1] لمجادلته مع رسول الله ﷺ ومرائه معه، وقصد استحقاره واستهانته إياه ﷺ.

﴿وَ﴾ قد ﴿تَبَّ﴾ [المسد: 1] وهلك ذلك اللعين المفرط على الوجه الذي أخبر الله بهلاكه إلى حيث ﴿مَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي يتكل عليه، ويستظهر به شيئًا من غضب الله ﴿وَ﴾ ما نفع له ونصر عليه ﴿مَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2] وجمع من الأموال والأولاد والأتباع.

قيل: مات بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وتُرك ثلاثة أيام حتى أُنتن، ثمَّ استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب، وقد وقع على وجهه، هذا مآل أمره في النشأة الأولى.

وفي النشأة الأخرى ﴿سَيَصْلَى﴾ ويدخل ذلك اللعين ﴿نَارًا﴾ وأي نار، نارًا ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3] واشتعال عال من شدة سورتها وفظاعتها.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ التي تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد نار الفتنة والعداوة بينهم تصير هي ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] بنار جهنم، تحتطب لها من الضريع والزقوم، أو هي «حمالةُ الحطب» فيها على قراءة الرفع؛ يعني: صورت نميمتها التي قد مشيت بها في الدنيا بإيقاد نار الفتن على هذه الصورة، فتلازم عليها.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ وعنقها ﴿حَبْلٌ﴾ سلسلة متخذة ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: 5] مفتول قد فُتل من الحديد، تحمل بها الحطب مع أنها من أشراف قريش، هي وزوجها أيضًا.

(1) ذكره مقاتل في «تفسيره» (246/4).

خاتمة السورة

عليك أيها المعتبر المستبصر - عصمك الله من تباب الدارين وخسارهما وبوارهما - أن تتأمل في مرموزات القرآن من القصص والأحكام والعبر والأمثال، فتأخذ حظك منها مقدار ما يسر الله لك، وأودعه في وسعك وطاقتك.

فاعلم أن كل ما في القرآن إنما نزل للإرشاد والتكميل، فلك أن تأخذ من إشارات هذه السورة حسن المعاشرة وآداب المصاحبة، وحقارة مزخرفات الدنيا وما يترتب عليها من اللذات الوهمية، الساقطة عن درجة الاعتبار، الزائغة الزائلة بلا قرار ومدار.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإخلاص

لا يخفى على من اتصف بالمعرفة الإلهية وانكشف بوحدته واستقلاله سبحانه في الوجود والوجوب الذاتي، واستغنائه سبحانه في ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وتعاليه عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى وصمة الإمكان وسمة الاستكمال والنقصان أن الذات الأحدية منزهة عن مطلق التحديد والتوصيف الذي يصف به الواصفون ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وعراء عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى بعض الإمكان.

لذلك بيَّن سبحانه ذاته في هذه السورة ووصفه الذاتي بمقتضى علمه الحضوري بذاته؛ تنبيهًا وتعليمًا على عباده وإرشادًا لهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي لا يُكتنه ذاته بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقًا ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بتوصيف ذاته إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن سأل عنك بقوله: صف لنا ربك الذي تدعونا إلى الإيمان به وعبادته: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] [الإخلاص: 1] أي: هو الذات المتصف

---

(1) قال البقلي: كان الله جلَّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أُعرف»، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونوَّر قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرّةٍ من حقيقة العرفان بألوهية الرحمن؛ =

بالألوهية الغيبية والشهادية، المتعالية عن كليهما بحسب ذاته المتصفة بالألوهية والربوبية، المستجمعة لجميع شرائط الكمال حسب الأسماء والصفات الكاملة، الكامنة في تلك الذات المتصفة بالأحدية المطلقة المنزهة عن التعدد والكثرة مطلقًا، المستقل في الوجود والحياة والقيومية المستلزمة للديمومية والبقاء الأزلي الأبدي السرمدي، الذي كان لا يكال بقاؤه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير، ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتقادير.

فكيف كان سبحانه محلاً للتقدير؛ إذ هو ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2] أي: السيد السند الذي يقصد نحوه ويرجع إليه عموم ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد الكائنة في نشأتي الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، وهو في ذاته مستغن عن جميعها مطلقًا.

وكيف لا يكون مستغنيًا؛ إذ هو الله الذي ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إذ الإيلاد إنما هو للأخلاف

لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرِّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيهِ غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجْزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوحدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيرة، ونسوا ما بان لهم، وفرّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلمّا رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عِظَم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ. قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتّصفوا بجلاله، واتّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدّعوا الوحدانية، فقطعهم الحق عن سرِّ الأحدية.

وخوف الانعدام والانقضاء، وهو سبحانه بمقتضى قيوميته ووجوب وجوده ودوام بقائه لا يطرأ عليه أمثال هذه النقائص المستلزمة لضبط العاقبة والمآل؛ إذ لا يجر عليه انقضاء وانتقال ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3] لذلك؛ إذ كل ما ظهر وبطن، أزلاً وأبدًا إنما هو منه وبه وله وفيه، وكل ما فُرض من الموجود أزلاً وأبدًا ما هو خارج عن حيطة أظلال أسمائه وعكوس صفاته، فكيف يتصور أن يسبقه شيء هو غيره مع أنه لا غير في الوجود مطلقًا حتى يلده.

﴿وَ﴾ بالجملة: هو سبحانه منفرد في توحده، متوحد في انفراده، ومستقل في استقلاله، بحيث ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4] لا قبله ولا بعده، بل لا إله سواه، ولا موجود غيره.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المنكشف بالتوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن تصرف عنان عزمك وهمتك بعدما كوشفت بتوحيده الذاتي وكمالات أسمائه وصفاته نحو سوابغ آلائه ونعمائه الفائضة منه سبحانه حسب رقائق أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، وتشاهد آثار قدرته الغالبة التي تتحير منه العقول والآراء.

وإياك إياك أن تغفل عن الله طرفة، فإنها تورثك حسرة طويلة؛ إذ كل نفس من النفسات الإلهية التي جرت عليك في أوقات حياتك مشتملة على عجائب صنع الله وبدائع حكمته المتقنة البالغة، بحيث ما مضى مثلها أزلاً ولا سيأتي شبهها أبدًا، فعليك أن تغتنم الفرصة وتتعرض للنفحات الإلهية، ولا يشغلك شيء منها.

جعلنا الله من المتعرضين بنفحات الحق، المستنشقين من نسمات روحه وراحته بمنّه وجوده.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفلق

لا يخفى على من اعتصم بالله ودخل في كنف حفظه وجواره، مفوضًا أموره كلها إليه أنه سبحانه يوقيه من كل ما يضره ويغويه، ويحفظه عن كل ما يرديه ويوديه؛ لذلك أمر حبيبه ﷺ حين قصد إليه أعداؤه بالسوء، وسحروا له حسدًا على ظهوره واستيلائه وانتشار صيته الحسن في الآفاق والأقطار بالاستعاذة والاستلجاء نحوه بكمال الخلوص والوثوق، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب على محافظة خلّص عباده من جميع ما يضرهم ويؤذيهم بعدما رجعوا إليه، وتعوذوا به مخلصين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإنزال الرقى وتلقين الدعاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يبرؤهم ويشفيهم بعدما أخلصوا في التعوذ والالتجاء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: 1-5].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصابتك من أعدائك مصيبة وعرضتك بشؤم أعينهم عارضة؛ إزالة لها ودفعًا لضررها: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ مخلصًا ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] أي: بالذي فلق وشق ظلام الليل بنور الصبح المنير، وفلق ظلمة العدم بإشراق نور الوجود.

﴿مِن شَرِّ﴾ جميع ﴿مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] في عالم الكون والفساد من النفوس الخبيثة.

﴿وَ﴾ كذا ألوذ به سبحانه ﴿مِن شَرِّ﴾ كل ﴿غَاسِقٍ﴾ مظلم محيل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: 3] دخل وانغمس في ظلامه ليحيل ويمكر.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن شَرِّ﴾ النساء السواحر ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النافخات بريق أفواههن ﴿فِي

الْعُقَدِ﴾ [الفلق: 4] التي عقدن على الخيط؛ ليسحرن الناس بها.

﴿وَ﴾ بالجملة: أعوذ برب الفلق ﴿مِن شَرِّ﴾ كل ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1] [الفلق: 5] وقصد أن يحسد، فإنه سبحانه يكفي مؤنة شرورهم عنك بحوله وقوته.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملتجئ إلى الله، المستعد بفضله وحوله وقوته أن تداوم على ذكر الله وقراءة القرآن، وتكرار الأذكار والتسابيح المأثورة من النبي المختار في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما في خلال الليالي والأسحار، وفي آناء الليل وأطراف النهار، لعل الله يرقيك عن فتنة ما ذرأ وبرأ في الليل والنهار، ويكفي عنك مؤنة شرور من عاداك بالسحر وغيره بحوله وقوته.

(1) قال علاء الدولة: أي: من شر قوة حسدية نفسه حسدت على القوة القلبية عند انبعاثها وقت طلوع الفلق، وهذه الاستعاذة واجبة على اللطيفة عند سلوكها ووصولها إلى أفق القلب في عالم النفس، وأيضًا واجبة على اللطيفة القلبية السالكية الواصلة إلى أفق السر في عالم القلب، وأيضًا واجبة على اللطيفة القالبية السائرة الواصلة إلى الروح في عالم السر، وأيضًا واجبة على اللطيفة السرية السائرة الواصلة إلى أفق الخفى في الروح، وأيضًا واجبة على اللطيفة الخفية بتجلي اللطيفة على لطيفة أنانيتها، فأما استعاذة اللطيفة الخفية المنسوبة إلى محمد ﷺ يقول في هذا المقام: «اللهم إني أعوذ بك منك، اللهم أعذني من شري وشر ما يقوم بي، وأخرجني مني، وخذني عني» على متابعة من قال من كمال معرفته، فأما أنا فلا أقول إلا: اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الناس

لا يخفى على من انكشف له سرائر التوحيد واليقين، وانتفح عليه معالم أسرار الدين القويم والصراط المستقيم أن من تمسك بحبل التوفيق الإلهي واستمسك به، لا بدَّ وأن يحفظ نفسه دائمًا من فتنة شياطين القوى الأمّارة، التي توسوس دائمًا في صدور الأنام بأنواع الوسوسة، وتوقعهم في أصناف الفتن والمضائق الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة المتعلقة بنشأة الناسوت حتى تزيغ قلوبهم، وتضلهم عن الطريق المستبين.

لذلك لقن سبحانه ﷺ؛ تتميمًا لتربيته وتنبيهًا على من تبعه من المؤمنين، وإرشادًا لهم فقال لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المدبر لمصالح عباده بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم لحفظهم عما يتعدى بهم عن كنف حفظه ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، ينبههم على ما يضرهم ويغويهم؛ ليتمكنوا على الدين القويم، ويترسخوا على الصراط المستقيم.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥﴾ [الناس: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما مكنك الحق في مقعد التوحيد، وهداك الوصول إلى ينبوع بحر الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية ملتجئًا إلى الله، مستمسكًا بعروة عصمته: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1] الذي أظهرهم من كتم العدم ورباهم بأنواع اللطف والكرم، لكونه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: 2].

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: 3] إذ ظهور الكل منه ورجوعه إليه.

﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ﴾[1] الموسوس، المثير للفتن في قلوب الناس ﴿الخَنَّاسِ﴾

---

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي الورتجبي الشيرازي: بيّن أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقدِر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والمشاهدة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غراة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيذ به من وسوسة شياطين الإنس والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوساوس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوساوس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجيد والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه؛ حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشريتك وأوصافها، ويكون نورًا بنوره، مقدّسًا بقدسه عن كل خاطرٍ وعارضٍ، فإنْ عرفت حقيقة ما ذكرتك فصرت إمامًا للمتّقدين، وسراجًا للمقتبسين.

قال عمرو المكّي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلّها غير طبعي، فإنّ النفس لا توسوس بهما، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علمٍ، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإنْ لم تعطه أرضًا وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فسُئل ما الأرض والماء؟ فقال: الشبع أرضه، والنوم ماؤه. وقال يحيى: إنما هو جسمٌ وروحٌ وقلبٌ وصدرٌ وشغافٌ وفؤادٌ، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، و«الروح» بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبّة.

قال الله تعالى: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، و«التقلّب»: بحر العمل. وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع. وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحالٍ. وقال عبد العزيز المكّي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق. صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبّين والمريدين والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد، طالبه بوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فانية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال،

[الناس: 4] الدفّاع، الرجّاع للناس، فإنه منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام إذا جاء أحدهما طرد الآخر، مثله كمثل الواهمة تساعد في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة رجع وارتدع، مثلاً إذا قيل: الميت جماد والجماد لا يخاف منه أقرت، وإذا قيل: فالميت لا يخاف منه فرت ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 50-51].

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: 5] إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وجعلوا إنجاح قضية أهوائهم من هممهم.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 6] بيان للوسواس، أو للذي، أو متعلق بيوسوس؛ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجِنَّة والناس بأن يلقي إليهم أنهما يضران وينفعان بالتأثير والاستقلال، فيرجون منهما المطالب والآمال، فيقعون في تيه الحسرة

مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخلّلها قتام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدانية، لا بأس بأن طوى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإنّ الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكا عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفيّه صلوات الله وسلامه عليه،فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلّم به»، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريحُ الإيمان». وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة ينتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فاكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فاكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فاكسره برؤية المنة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فاكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فاكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمحمدة من الناس»: فاكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فاكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فاكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

وهاوية الضلال.

أعاذنا الله وعموم عباده من شر كلا الفريقين بفضله وجوده.

خاتمة السورة

إياك إياك أيها الطالب للخلاص، الراغب في الإخلاص أن تتبع الهوى وتنكب على الشهوات، فإن الإنسان إن اتبع الهوى وطاعة قضية القوى صار القلب عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرماه ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، صار القلب مستقر الملائكة ومهبطه.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا ومقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً واسعًا، فيوسوس بالشر وما يجري إلى سوء المعاقبة، ويطرحه في الهاوية، ومتى أعرض عن الشهوات وجاهدها إلى حيث ينبغي، وأقبل على الطاعات كما ينبغي، يلهمه الملك بالخيرات، ويعينه في أسباب النجاة، ويرشده إلى الفوز بالجنات، فإن الخواطر مبدأ الأفعال؛ إذ الخواطر تحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم والنية، والنية تحرك الأعضاء وترسخ العقائد، فإن كانت من الخواطر المحمودة الإلهامية يفضي إلى الصلاح والنعمة، وإن كانت من الوساوس الشيطانية يسري إلى الفساد والنقمة.

أعاذنا الله تعالى من مهادنة النفس ومساعدة الهوى، وأعاننا على مجاهدة الشهوات ومعاندة فرط القوى بحرمة سيد السادات، وصفوة الكائنات، صلوات الله التامات وتسليماتهم الزاكيات عليه وعلى آله وأزواجه الطاهرات وذرياته السادات، وخلفائه الراشدين، وأصحابه أجمعين.

عجـــل بالنـــصر وبالفـــرج   يـــا رب بهـــم وبـــآلهم

والحمد لله أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا. والحمد لله رب العالمين

تم الجزاء الرابع على يد أفقر الورى إلى ربه، اللطيف الساتر، الرشيدي السيد عبد القادر ابن السيد مصطفى ابن السيد عبد الرحمن الرشيدي، الحنفي مذهبًا، القادري طريقة، غفر الله له ولوالديه، ولمن أحسن إليه، وللمسلمين أجمعين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، أمّا بعد....

فقد بدأت بكتابة هذا التفسير الشريف الميمون الحاوي لجميع المسائل والفنون المضيء

بجواهر أهل المعارف الكاملين المقترف من بحر النور الربّاني، والهيكل الصمداني، إمام
العارفين وفذلكة طروس الدفتر النوراني، تاج الدين القطب، القطب الكامل
سيدنا عبد القادر الكيلاني، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وبركات
معاني سره العرفاني على يد خلاصة العلماء الصوفية وجوهرة الفضلاء الشامية
ذي الوجه الأنور من جامع الورد في الشام نور الشيخ الإمام
والحبر الهمام، كردي الأصل أبو بكر قدس الله، رزحه وزاد في أعلا الجنات فتوحه كان
سببًا في نسخة مولانا، وولي نعمتنا رءوس الأمراء ونخبة الوزراء أفندينا محمود
باشا بلغه الله من الخير والعز ما شاء نجل المرحوم والمغمود برحمة الله تعالى
الحاج نجيب باشا وكان ملتزمًا أمره لتتميمه ومقابلته وتنقيحه من بابه
الكرم الجود مفتوح وميدان منهل عزه للفضل فتُوح لازال محروسًا
بعناية من نور تجليه الأعظم على الخلق يلوح إمامنا ورئيس الرؤساء
في شامنا السيد صالح...بني زاده أعطاه الله تعالى من... والفضل
ما أراده إنه على ما يشاء قدير ولذنوب المذنبين خبير وأنا أحقر
الورى وأذل الفقرا كاتبه الخليل إبراهيم نجل المرحوم السيد
...غفر الله له ولنا وستر عيوبي وعيوبه ورحم الله
بحرمة المؤلف المسلمين والمسلمات الأحياء
منهم والأموات وقد وافق تمام كتابتي بهذا
التفسير الشريف يوم الثلاثاء الرابع
من شهر شعبان المعظم لسنة خمسة
وسبعون ومائتي وألف من هجرة
... من له العز والشرف
وصلى الله وسلم
على من لا نبي
بعده

فهرس بأهم المصادر والمراجع

1- تبصير الرحمن في تفسير القرآن للشيخ المهايمي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

2- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب.ط. دار الغد العربي بالعباسية – مصر.

3- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.

4- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.

5- البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة.ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.

6- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.

7- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

8- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى ويليه عين الجياة للسمناني، ط دار الكتب العلمية.

9- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

10- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

11- تفسير القرطبي، ط دار الكتب المصرية.

12- تفسير القشيري، ط دار الكتب العلمية.

13- حقائق القرآن لأبي عبد الرحمن السلمي، ط طهران.

14- نظم الدرر للبقاعي، ط دار الكتب العلمية.

15- تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي، ط دار الكتب العلمية.

16- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.

17- مرآة الحقائق لإسماعيل حقي، ط دار الآفاق العربية مصر (بتحقيقنا).

18- تفسير التستري، ط دار الكتب العلمية.

19- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر.ط الدار السلفية. الهند.

20- إحياء علوم الدين ومعه المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.

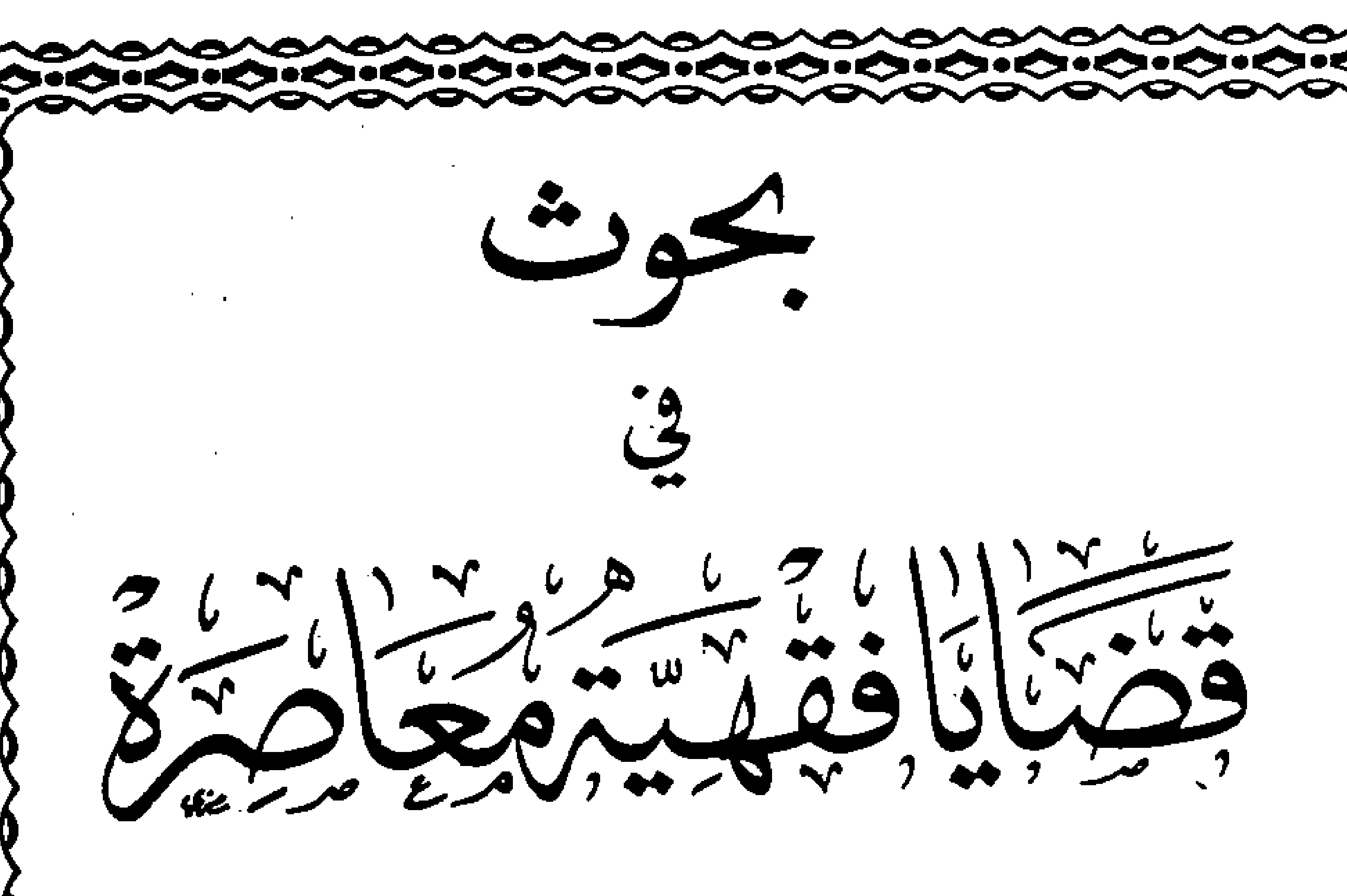
21- لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.

22- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر.ط. دار صادر في أربعة مجلدات.

23- الكمالات الإلهية فى الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلي.ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.

24- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.

فهرس المحتويات

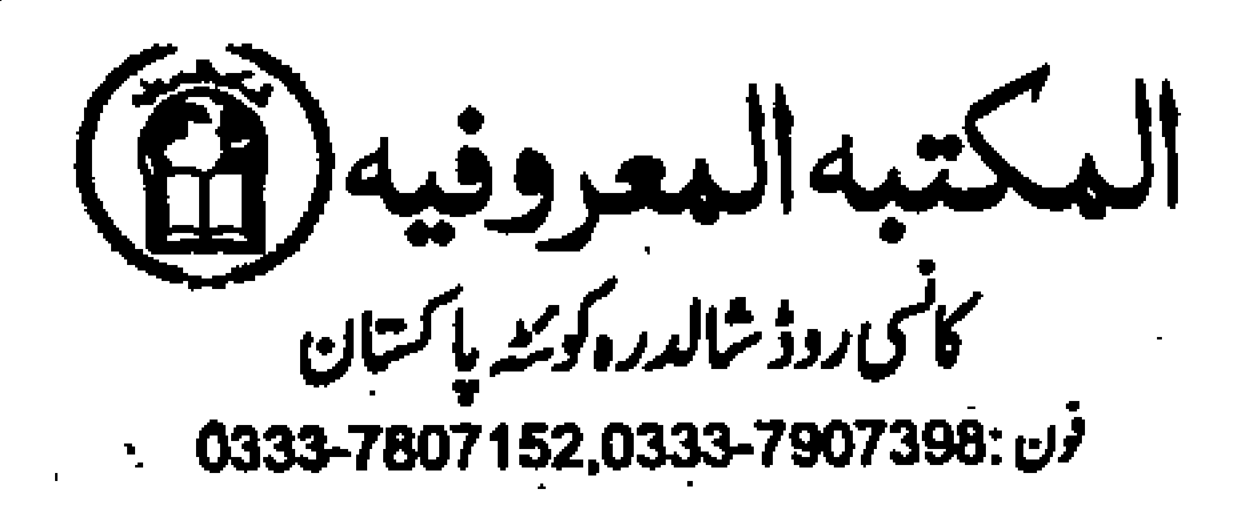


تأليف

محمد تقي العثماني

قاضي التمييز الشرعي بالمحكمة العليا بباكستان
ونائب رئيس دار العلوم بكراتشي
ونائب رئيس مجمع الفقه الإسلامي بجدة

الناشر



فون: 0333-7807152,0333-7907398



الإتقان في علوم القرآن

تأليف

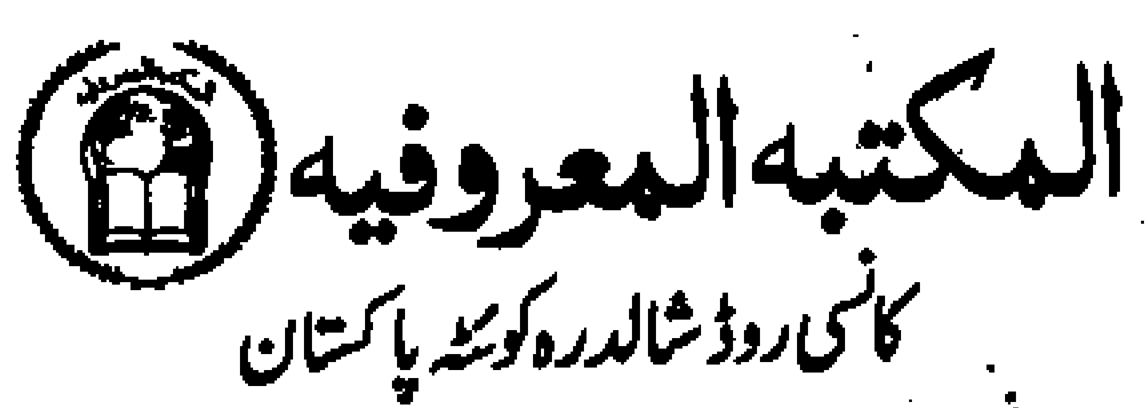
العلامة جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

(٨٤٩ - ٩١١ هـ)

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

فواز أحمد زمرلي

الناشر



كانسی روڈ شالدرہ کوئٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

١٥٦٥/

الفقه الميسر

على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان

العبادات

للشيخ شفيق الرحمن الندوي

قدم له

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

صححه وعلق عليه

السيد عبد الماجد الغوري

الناشر

المكتبه المعروفيه

كانسى روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

